

عَقِيدَةُ الْمُؤْمِنِ

أَوَّلُ كِتَابِ تَرْجُمَاتِهِ

الناشر
المكتبة التوفيقية
إمام البابا لاغراندينا

اهداءات ٢٠٠٢

أد/ محمد طه الحاجري

الاسكندرية

عَقِيْلَةُ الْمُؤْمِنِيْنَ

عَقِيدَةُ الْمُؤْمِنِينَ

كتاب يبحث العقيدة الإسلامية على ضوء الكتاب
والسنة ويحاكي صفاتها بأسلوب علمي مبسّط
واضح على أساس من البرقعة الصارقة التي
تقرن على الزلزلة النطقية والنقلية السريعة

تأليف

أبو محمد جابر الجبلي

الناشر

المكتبة التوفيقية
امام الباب الأخضر سيدنا الحسين



المقدمة

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين ، شرف آدم أبا البشر بخلقه بيديه ، ونفخ فيه من روحه . وكرم ذريته فصورهم في الأرحام في أجمل صورة وخلقهم في أحسن تقويم . ورزقهم من الطيبات ، وفضلهم على كثير من المخلوقات ، وزودهم بالعقل ليعرفوه وأمدهم بالنعم ليشكروه .

أنزل الكتب ، واصطفى من الملائكة رسلا ، ومن الناس ، لابلغ عباده شرائعه من الدين ، ليعبدوه ويوحّدوه ، فتكمل بذلك آدميتهم ، وتشرف به إنسانيتهم ويتأهلوا لكرامة الدار الآخرة ، والسعادة الدائمة فيها ، حيث كتب لهم ذلك وقدره تقديرا . ف سبحانه من رب رحيم ، وإله عظيم ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

والصلاة والسلام التّامان ، الأكملان ، الدائمان ، المتلازمان على محمد حبيب الله ، وخاتم رسله وأنبيائه ، صفوة الخلق وخيرتهم ، وإمام الأنبياء وسيدهم ، صاحب لواء الحمد ، والمقام المحمود ، والحوض المورود ، وسيد كل مولود . وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين ، وآل بيته الطيبين الطاهرين ، وصحابته البررة الراشدين . ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد : فإنّه نظراً لأهمية العقيدة الإسلامية في حياة الفرد

المسلم وضرورة خلّوها من الشك ، وسلامتها من شوائب الشرك ، ونقائنها من كدورات^(١) الخرافات .

ونظراً إلى الهزّات العنيفة القوية التي تتعرض لها العقيدة الإسلامية في هذه الأيام من جراء طغيان المادة من جهة ، ومن طفرة العلوم الكونية المادية من جهة أخرى .

نظراً إلى هذا وذلك فقد رأيت أنّ الحاجة جدّ ماسة إلى وضع كتاب مناسب في عقيدة المؤمن على ضوء كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، على أن يكون سهل العبارة ، قريب الإشارة . حججه قوية ، وأدلته قطعية ، مضاء بضياء الأدلة السمعية الدينية الشرعية ، مناراً بأنوار الحجج العقلية النظرية القياسية .

كما رأيت أنني أقترّب من شاطئ نهاية حياتي ، وأنقدم بسرعة نحو باب مماتي ، ورجوت ربي أن لا يأتيني أجلي إلا بعد أن تقضى لباناتي^(٢) في وضع الكتاب المطلوب ، وتركه بعدي صدقة جارية ، وحسنة سارية ، يصلني من بركتها ما يزيد في نعيمي إن كنت من المنعمين ، أو ما يخفف عني عذابي إن كنت من المعذبين .

واستعنت بالله تعالى على وضع الكتاب المرغوب ، وأخذت في الجمع والتأليف ، وفي التحرير والتجوير ، ولم يمض طویل زمن حتى تم وضع كتاب في عقيدة المؤمن على ضوء الكتاب والسنة وجاء كما أملت سهل العبارة ، قريب الإشارة ، حججه قوية ، وأدلته قطعية .

غير أن كثرة الأعمال ، وانشغال البال قد حالت - مع الأسف - دون التنقيح وإن لم تحل دون التصحيح ، فمعدرة إلى الأخوة القارئین

(١) الكدورات جمع : كدورة . وهي الكدر الذي هو صد الصفاء . .

(٢) اللبنة بالضم : الحاجة .

إن رأوا تقديم ما حققه التأخير ، أو تأخير ما حققه التقديم . أو زيادة كلمة في جملة ، أو نقصها من أخرى : فأخل ذلك بجمال التركيب ، أو حسن الترتيب فأفقد الكلام طلاه ، والأسلوب حلاه .

هذا والكتاب لو لم أكن جامعاً ، ومؤلفه لقلت فيه ما يرغب في اقتنائه وبعث النفس على شرائه .

وهذا أراه غير مانعي من أن أقول فيه كلمة تقويم ، لا تعظيم ولا تفخيم ، تحدد معالمه ، وتظهر محاسنه ، وتبين ما فيه من خصائص ، وما له من مميزات . وهل في ذكر ذلك من بأس إذا كان يحمل الأخوة المؤمنين على قراءة الكتاب ، واعتقاد ما فيه من الحق والصواب ؟ لا سيما وأني ما كتبت إلا لهم وما جمعت وألفته إلا لعلمي بحاجتهم الأكيدة إليه ، وافتقارهم الشديد إلى مثله ، إذ هم يعيشون في زمن أصبح من الصعب فيه قراءة كتب الأولين ، والاستفادة منها ، وذلك لعوامل كثيرة من أهمها ما يلي : -

أولاً : ضعف الملكة العلمية التي يتأتى بها للقارئ أن يفهم ما يقرأه ، ويستفيد منه ما هو في حاجة إليه من تصحيح معتقد ، أو فهم حكم ، أو تحقيق مطلب .

ثانياً : قلة العلماء الدارسين لكتب الأولين ، المحققين لها ، العالمين بما فيها ، الذين يرجع إليهم الطالب اليوم فيما خفى عنه منها ، أو أشكل عليه فيها .

ثالثاً : انعدام الهمم العوالي (إلا ما شاء الله) ، تلك الهمم التي كانت تحمل أصحابها على الصبر في الطلب ، وعلى المثابرة في الدرس حتى يلين الصلب ، ويسهل الصعب . فتكشف مخدّرات المعاني ، وتتجلى شمس العلوم والمعارف .

رابعاً : ما طبع به العصرُ اليوم أهله من حُب العجلة والعاجلة ،
والرغبة عن الأجلة^(١) والأجلة والعلم من شروط اكتسابه ، والحصول
عليه : الصبر والأناة والرغبة فيما عند الله .

هذه بعض العوامل التي جعلت الحاجة إلى مثل هذا الكتاب
الذي نقدّم له حاجة ماسة ، والعمل في تأليفه وإخراجه من الأعمال
الصالحة النافعة^(٢) .

والآن فالإلى كلمة تقويم^(٣) الكتاب حيث أقول :

إنّ هذا الكتاب الذي سمّيته « عقيدة المؤمن » هو بحق - حاوٍ
لعقيدة المؤمن ، مشتمل على أصولها ، جامع لفروعها ، لم يترك من
أصول العقيدة ما يخلّ بها ، ولم يغفل من فروعها ما يضعفها أو
يوهنها ، فقد اشتمل على الإيمان بالله تعالى ، وأدله ومراتب المؤمنين
فيه ، وعلى توحيد الله تعالى ، وأقسامه ، وعلى الشرك وأنواعه
ومظاهره ، وعلى بيان الوسيلة والتوسل ، والشفاة والاستشفاع ، وعلى
أولياء الرحمن وكراماتهم ، وأولياء الشيطان ومهاناتهم ، وعلى الإيمان
بالملائكة وأدلة وجودهم العقلية والسمعية ، وعلى بيان مراتبهم وأعمالهم
وأحوالهم وهادة خلقهم ، وعلى ذكر الجن ومادة خلقهم ، وعلى ذكر
أحوالهم وأعمالهم ، ومآلهم ، وعلى ذكر الشياطين وما جبلوا عليه ، وما
يحفظ الإنسان منهم ، وينجيه من كيدهم .

وعلى الإيمان بالكتب الإلهية المنزلة ، ومن نزلت عليهم وأدلة
ثبوتها ، وبيان عددها ، وناسخها ، ومنسوخها ، وعلى الإيمان بالرسول

(١) الأجلة : المتأخرة قال صاحب القاموس المحيط : أجل كفرح فهو أجل وأجبل تأخر .
والعاجلة الدنيا ، والأجلة الآخرة .

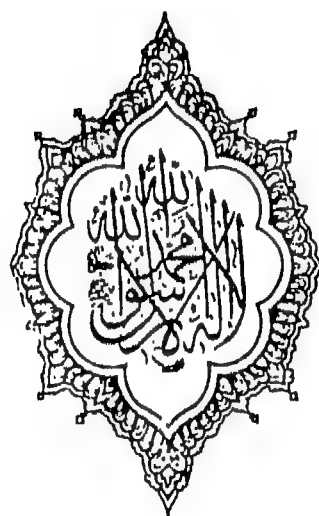
(٢) أي المتعدي نفعها إلى غير عاملها .

(٣) أي بيان قيمة الكتاب المعنوية ، ومن اللحن الشائع قولهم : تقييم كذا بمعنى تقويمه .

عليهم الصلاة والسلام ، وبيان عددهم وأسمائهم ، وأسماء أمهم ، وبيان ديارهم وأزمنتهم ، وعلى أعاضهم وهم أولو العزم ، وعلى أدلة الوحي وثبوته بالأدلة العقلية والسمعية ، وحاجة الناس إلى الوحي الإلهي ، وعدم استغنائهم عنه بحال من الأحوال .

وعلى المعاد ، والبعث ، والجزاء وإمكان ذلك ، ووجوب الإيمان به ، وعلى كيفية البعث وأحوال الناس فيه ، وما يجري عليهم ، ويطرأ لهم من وزن أعمالهم وعبورهم على الصراط ، ونجاة الناجين ، وهلاك الهالكين ، وعلى ذكر دار السلام وما فيها من نعيم مقيم ، وعلى ذكر دار البوار وما فيها من جحيم وحميم ، وعلى الإيمان بالقدر وأدلة وجوب الإيمان به العقلية القياسية ، والدينية الشرعية ، وعلى ذكر الجبر والاختيار ، والإرادة والمشيئة . والهداية والإضلال ، والحسنة والسيئة .

وعلى خاتمة في بيان ثمره هذه العقيدة ، وفائدتها المقصودة منها ، والمتوخاة فيها . ومن خصائص هذا الكتاب احتواؤه على كل أجزاء العقيدة الإسلامية ، وبحثها بالتفصيل ، ومن مميزاته جمعه في إثبات مسائله بين الدليلين العقلي والسمعي ، وكتابته بروح العصر . والله أسأل أن ينفع به من يقرأه ويدرسه ، وأن لا يحرمني أجر ما بذلت فيه من جهد هو من فضل ربي عليّ وإكرامه لي . والحمد لله رب العالمين .



حاجة الإنسان إلى العقيدة وضرورتها له

ما هو الإنسان ؟

الإنسان هو هذا الكائن الحي المتصّبُ القامة ، الباديّ البَشرة ، ذو العقل والتفكير والأخلاق الفاضلة ، والعواطف الجياشة ، والإحساسات الصادقة ، والمنطق السليم ، والكلام الفصيح المبين . ابتداءً الله تعالى خلقه من طين ، ثم جعل ذريته من سلالة من ماء مهين ، إذ خلق آدم من طين يديه ، ونفخ فيه من روحه ، وخلق منه أنثاء حواء ، وعلمه الأسماء ، وأسجد له ملائكة السماء ، فسجدوا كلهم أجمعون إلا أبلّيس أبى . ونهاه عن الأكل من الشجرة فنسى ، فأكل منها ، فعصى وغوى ، وتلقى كلمات منه تعالى ، فقالها فتاب عليه وهّده ، وأهبطه إلى الأرض خليفة فيها بعد أن هيأها له ، وسخر له كلّ ما فيها .

هذا هو الإنسانُ في معتقدينا ، وهو - أي معتقدنا هذا في الإنسان - مستقى من وحي السماء لا مجال فيه للقياس ولا للنظر والاستدلال ، إذ مثله لا يُعلم بغير الوحي أبداً .

وهذه حقوقه عندنا : حرمةُ دمه ، وماله ، وعرضه ، واحترام مشاعره وعواطفه وأخلاقه ، والاعترافُ بحرياته الشخصية ما لم يخلّ بكرامته ، ومصالح الهيئة الاجتماعية التي هو أحد أفرادها ، وجزء من أجزائها .

وأدلة عقيدتنا هذه في الإنسان هي أخبار خالقه عنه ، وعن كيفية خلقه وتنشئته ، والواصلة إلينا من طريق يحيل العقل البشريّ تكذيبها وإنكارها وهي

أقواله تعالى ، في كتابه الكريم : القرآن العظيم ، إذ قال تعالى في خلق آدم ،

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾^(١)

وقال عنه أيضاً :

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(٢)

وقال عنه أيضاً :

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾^(٣)

وقال في خلق ذريته :

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾^(٤)

وقال في خلق الإنسان الذي هو ابن آدم :

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾^(٥)

وقال في خلقه أيضاً :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي

(١) سورة الحجر (٢٦) .

(٢) سورة ص الآيتان (٧١ ، ٧٢)

(٣) سورة السجدة الآية (٧)

(٤) سورة السجدة الآية (٨) . .

(٥) سورة الإنسان الآية (٢) .

فَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً خَلَقْنَا أَلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا
الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ
أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾

. وقال : في خلق المرأة الأولى حواء :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا
زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (١)

وقال عنها أيضاً :

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ (٢)

وقال في تعليمه - آدم - الأسماء والبيان :

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ
هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣)

وقال :

﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (٤)

وقال في خلقه - آدم - بيديه وتسويته له ، وإسجاده ملائكته له :

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ

(١) سورة المؤمنون الآيات (١٢ - ١٤) .

(٢) سورة النساء الآية (١) .

(٣) سورة الأعراف الآية (١٨٩) .

(٤) سورة البقرة الآية (٣١) .

(٥) سورة الرحمن الآية (١ - ٤) .

مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ ﴿٧٦﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ .
إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ يَبْنَإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ
أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ
أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٩﴾ ^(١)

وقال في نهيه - آدم - عن الأكل من الشجرة التي أكل منها بتغريير من
الشیطان فعصى وغوى :

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنِى وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ
قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَنْتَهِمْ
إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ
لَكَ أَلَا تَجُوعُ فِيهَا وَلَا تَعْرِى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١١٩﴾
فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَنْتَهِمْ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ
لَا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا
مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ
وَهَدَى ﴿١٢١﴾ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴿١٢٢﴾ ^(٢)

وقال تعالى :

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ^(٣)

(١) سورة ص الآيات (٧١ - ٧٦) .

(٢) سورة طه الآية (١١٥ - ١٢٣) .

(٣) سورة البقرة الآية (٣٧) ..

وقال في بيان هذه الكلمات من سورة الأعراف :

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١)

وأقوال رسوله ﷺ التي تلقاها وحياً من ربه سبحانه وتعالى فقد روى مسلم في صحيحه عنه ﷺ قوله : خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَ الْجَانُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ^(٢) ، يعني ﷺ وخلق آدم من طين . كما بين ذلك في القرآن الكريم ، وقال ﷺ في رواية البخاري ومسلم يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُونَ : أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَنْشَقُّ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ ؟ ! فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُونَ : أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ . إلخ^(٣) والشاهد منه في قوله ﷺ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ . فلولم يكن خلقه خلقاً مباشراً ، وإنما كان كخلق سائر الناس لما كان لذكر اليد والخلق أي ميزة ، أو فضيلة على خلقي غيره من بني آدم . وقال ﷺ في رواية البخاري ومسلم وأحمد واللفظ له : إِحْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى فَقَالَ مُوسَى : يَا آدَمُ أَنْتَ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ أَغْوَيْتَ النَّاسَ وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ . قَالَ : فَقَالَ آدَمُ ، وَأَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلَامِهِ تَلُومُنِي عَلَى عَمَلٍ أَعْمَلُهُ قَدَرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِأَرْبَعِينَ سَنَةً ! قَالَ : قَالَ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى ،^(٤) .

وقال ﷺ في رواية أحمد وأبي داود والترمذي وصححها « إِنْ اللَّهَ خَلَقَ

(١) سورة الأعراف الآية (٢٣) .

(٢) متن مسلم (٢٢٦/٨) .

(٣) اللؤلؤ والمرجاد (٥٠/٤٩/١) .

(٤) اللؤلؤ والمرجان (٢١١/٣) مسلم (٤٩/٨) . وكذا أبو داود في (٥٢٨/٢) والفتح الرباني

(١٢٧/١) والفاظهم متقاربة .

آدم من قَبْضَةٍ قَبْضُهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدَرِ الْأَرْضِ ، فَبَجَاءَ مِنْهُمْ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزَنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، وَالْخَيْثُ وَالطَّيْبُ وَبَيْنَ ذَلِكَ^(١) .

وقال ﷺ في رواية البخاري : « خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ وَطَوِيلِهِ سِتُونَ ذِرَاعاً ، ثُمَّ قَالَ : اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلَئِكَ النَّفَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَاسْتَمَعَ مَا يُحْيُونَكَ ، فَإِنَّهَا تَحْيِيكَ وَتَحْيِي ذُرِّيَّتَكَ ، فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ . فَقَالُوا : عَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ ، فزادوه وَرَحْمَةُ اللَّهِ ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ ، فَلَمْ يَزَلْ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الْآنَ »^(٢) .

وقال ﷺ : في رواية مسلم : « خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ »^(٣) .

وبعد : فهذه الأقوال الإلهية ، والأحاديث النبوية كلها قاضية بخُلُقِ آدَمَ عليه السلام خُلُقًا مُبَاشِرًا . خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى بَيِّدَةً ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ ، وَعَلَّمَهُ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، وَجَعَلَ طَوْلَهُ سِتِينَ ذِرَاعاً ، وَأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ ، ثُمَّ أَخْرَجَهُ مِنْهَا لَمَّا أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ فَعَصَى وَغَوَى ، وَأَهْبَطَهُ إِلَى الْأَرْضِ هُوَ وَزَوْجُهُ حَوَاءُ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ مِنْهُ بِالْأَمْرِ الْإِلَهِيِّ ، وَأَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ .

ومن آدَمَ وَحَوَاءَ وَبَطْرِيْقِ التَّنَاسُلِ وَالْخُلُقِ التَّدْرِيجِيِّ خَلَقَ اللَّهُ ذُرِّيَّتَهُ فِي كَمَالِهِمْ وَجَمَالِهِمْ فَصَحَاءَ عُقْلَاءَ سَادَةٍ فِي الْأَرْضِ ، قَدْ سَخَّرَ اللَّهُ لَهُمْ كُلَّ مَا

(١) أبو داود (٥٢٥/٢) والترمذي في تفسير سورة البقرة . وأحمد في (٥/ ٣٣٨) .

(٢) بخاري (٦٢/٨) . وعلى صورته أي على صورة آدم التي خلقه بها كما في آخر الحديث .

(٣) مسلم (٦/٣) .

فيها لِيَتَفَعَّلُوا به في حَيَاتِهِم الدنْيَا ، وَيَعْتَ فِيهِم الرُّسُلُ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ تَكْمِيلًا لِأَدْمِيتِهِمْ وَإِسْعَادًا لَهُمْ فِي حَيَاتِهِمْ ، وَإِعْدَادًا لَهُمْ بِوَاسِطَةِ تَرْكِيزِ نَفْسِهِمْ ، وَتَطْهِيرِ أَرْوَاحِهِم لِلسَّعَادَةِ الْآخِرِيَّةِ فِي الْمَلَكُوتِ الْأَعْلَى بَعْدَ مَوْتِهِمْ وَأَنْقِضَاءِ أَجَالِهِمْ .

هَذَا هُوَ الْإِنْسَانُ الْمَكْرَمُ فِي مُعْتَقَدِ الْمُؤْمِنِينَ أَجْمَعِينَ . وَأَمَّا الْإِنْسَانُ فِي مُعْتَقَدِ الْمَلْحَدِينَ الْكَافِرِينَ فَهُوَ مُتَحَوِّلٌ عَنْ خَلْقِيَّةٍ هَبْطَتْ مِنْ بَعْضِ الْكَوَاكِبِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ نَمَتْ فِيهَا فَكَانَتْ حَيَوَانًا رَدِيئًا فِي أَسْطِ شَكْلِ ، ثُمَّ تَغَيَّرَتْ الْأَرْضُ بِفَعْلِ بَعْضِ الْمُؤَثِّرَاتِ الطَّبِيعِيَّةِ ، فَاضْطَرَّ هَذَا الْحَيَوَانُ الْمَخْلُوقُ لِتَغْيِيرِ شَكْلِهِ مَعِيشَتِهِ ، فَتَبَعَ ذَلِكَ تَغْيِيرَ فِي صِفَاتِهِ ، ثُمَّ اسْتَحَالَ مَعَ طَوْلِ الزَّمَنِ وَكَثْرَةِ الْمُؤَثِّرَاتِ^(١) السَّخْتَلَفَةِ إِلَى أَحْوَالٍ فَارِقٍ فِيهَا جِنْسُهُ الْأَوَّلُ ، ثُمَّ ارْتَقَى إِلَى قَرْدٍ عَلَى مَبْدَأِ النَّشْوءِ وَالْإِرْتِقَاءِ الَّذِي فَتَنُوا بِهِ ثُمَّ مَرَّتْ عَلَيْهِ مَلَائِينَ السَّنِينَ فَارْتَقَى إِلَى حَيَوَانٍ آخَرَ هُوَ بَيْنَ الْقَرْدِ وَالْإِنْسَانِ بِوَاسِطَةٍ بَيْنَهُمَا ، ثُمَّ انْقَرَضَ هَذَا الْحَيَوَانُ الْوَاسِطَةُ بِدَلِيلِ عَدَمِ الْعُثُورِ عَلَيْهِ فِي آثَارِ الْأَحْيَاءِ . وَلَعَلَّ انْقِرَاضَهُ كَانَ عَلَى مَبْدَأِ الْإِنْتِخَابِ الطَّبِيعِيِّ ، وَالْبَقَاءُ لِلْأَصْلَحِ كَمَا يَقُولُونَ ، وَمِنْ ذَلِكَ الْحَيَوَانِ الْوَاسِطَةُ الْمَفْقُودَةُ ارْتَقَى الْإِنْسَانُ إِلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ الْآنَ !! .

وَبِنَا مُعْتَقَدَهُمْ هَذَا فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ ، وَأَنَّهُ مُتَحَوِّلٌ مِنَ الْقَرْدِ عَلَى أَسَاسِ مَجْمُوعَةِ نَظَرِيَّاتٍ هِيَ الْإِنْتِخَابُ الطَّبِيعِيُّ ، وَالْبَقَاءُ لِلْأَصْلَحِ ، وَالنَّشْوءُ وَالْإِرْتِقَاءُ ، وَالْمُطَابَقَةُ ، وَعَامِلُ الْوَرَاثَةِ . وَهِيَ فِي الْجُمْلَةِ نَظَرِيَّاتٌ صَحِيحَةٌ مَعْلُومَةٌ بِالْحَسَنِ ، وَهِيَ سَنَنْ اللَّهَ تَعَالَى فِي الْخَلْقِ وَالتَّكْوِينِ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ - فَالْإِنْسَانُ ابْنُ آدَمَ يَوْجَدُ أَوَّلًا خَلْقِيَّةً فِي نَظْفَةِ الرَّجُلِ وَمَاءِ الْمَرْأَةِ ، ثُمَّ يَكُونُ حَيَوَانًا مَنُوتًا ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى ، ثُمَّ يَتَلَاقَحُ كَمَا هِيَ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي

(١) لَا عَرَانَةَ فِي هَذَا التَّصَوُّرِ الْمَصْحُوكِ الْمَرَرِيِّ . لِأَنَّهُ الْبَدِيلُ لَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِخَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْإِنْسَانِ ، إِذَا أَنَّهُمْ لَوْ آمَنُوا بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ خَلْقًا مُسْتَقِيمًا كَمَا ذَكَرَ تَعَالَى ، لَأَمَنُوا بِاللَّهِ وَعُدُّوهُ ، وَهُمْ لَا يَرِيدُونَ ذَلِكَ ، فَلِذَا هُمْ مُصْطَرُّونَ إِلَى هَذَا الْإِفْتِرَاءِ وَالْهَرَاءِ وَالتَّلْفِيقِ أَعْمَاهُمْ اللَّهُ وَلَعْمَهُمْ

اللقاح ، ثم يتدرج خلقه من حال إلى حال إلى أن يتم خلقه فيصير بشراً سوياً
كما جاء ذلك في قوله تعالى :

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا
الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْماً فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ
خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾^(١)

وكما صح به قول الرسول ﷺ : « وَإِنْ أَحَدُكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ
أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ
يَأْتِي إِلَيْهِ الْمَلِكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ ، ثُمَّ يُؤْمَرُ بِكُتْبِ أَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : رِزْقُهُ
وَأَجَلُهُ وَعَمَلُهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ »^(٢) ، وقد سئل رسول الله ﷺ بم يكون الشبه
في الولد ؟ فقال فإذا سَبَقَ ماء الرجلِ ماء المرأة نَزَعَ الولدُ لَهَا ، وإذا سَبَقَ ماءُ
المرأة نَزَعَتْ الولدُ » رواه البخاري^(٣) . وهو إشارة إلى عامل الوراثة . وعجمة
التمر تلقى في الأرض نواة لا حياة فيها ، ثم تنفلق عن غصن أخضر . ثم
يتدرج خلقها حتى تصبح نخلةً باسقةً لها طلع تضيد رزقاً للعباد ، وبالجملية
فمن الله تعالى في الخلق التدريجي في الإنسان والحيوان والنبات ثابتة لا
تنكر ، وسببته تعالى في انتقال صفات الأصل إلى فرعه ثابتة كذلك ، وسببته
تعالى في البقاء للأصلح ظاهرة في كثير من الكائنات ، ولكن هذه السنن هي

(١) سورة (المؤمنون) الآيتان (١٣ ، ١٤) .

(٢) أخرجه الشيخان من حديث ابن مسعود مطولاً (راجع اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان
٢٠٧/٣ - ٢٠٨) طبعة عيسى الحلبي وشركاه .

(٣) (في ١٠/٥ ، ١٠/٤) متن مسلم بلفظ (إذا علا ماء الرجل شبه الولد أخواله . وإذا
علا ماء الرجل . ماءها شبه أعمامه) (١٧٣/١) منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر
والتوزيع بيروت .

من خلق الله وتقديره ، وهي خاضعة لارادته ومشيبته ، ولذا يخرقها بالمعجزات التي يعطيها لأنبيائه تدليلاً على صدق ما ادعوه من أنهم أنبياءه ورسله ، فخلق عيسى عليه السلام كان على خلاف سنة الخلق المعروف في سائر بني آدم كما قال تعالى :

﴿إِنَّ مِثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١)

وتكلم عيسى في المهد في أسبوع ولادته كان على خلاف سنة الله تعالى في نطق الإنسان الذي لا يتم إلا بعد قطع الطفل مرحلة من حياته . وسلامة إبراهيم من إحراق النار لما يلقي فيها من أجسام قابلة للاحتراق ، وأسئلة إبطال الله تعالى لسته في خلقه متى شاء ، ذلك كثيرة . والمقصود من هذا أن ما يسميه الملاحدة بالقوانين الطبيعية ويتخذون منه دليلاً على كفرهم بالله تعالى ، ما هو في الواقع إلا سنن الله تعالى التي أودعها في الكون . يوجد بها ويخلق ما يشاء إيجاده وخلقها ، وهي خاضعة له تعالى متى شاء أمضاها ، ثابتة لا تتغير ، ولا تتبدل كما قال الله تعالى :

﴿فَلَن يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن يَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾^(٢)

ومتى شاء أوقفها وأبطلها لحكمة منه اقتضت ذلك وهو العزيز الحكيم .

يبد أن خلق آدم وحواء عليهما السلام كان بالخلق المباشر ، ولم يكن أبداً كما تخيل الملاحدة ، وتصوروا ، لأخبار الله تعالى وأخبار رسله التي يستحيل فيها الكذب ، هذا وقد ناقش العلماء المؤمنون هذه النظرية الدارونية

(١) سورة آل عمران الآية (٥٩) .

(٢) سورة فاطر الآية (٤٣) .

التي أصبحت مذهب الملاحدة ومعتقدهم ، وأبطلوها نهائياً بنفس المقاييس والنظريات الطبيعية التي أثبتتها الداروينيون بها .

وهذه بعض الاعتراضات التي عورضت بها النظرية الدارونية وأبطلتها :

١ - إذا كانت نظرية النشوء والارتقاء مطردة في كل شيء فعن أي شيء ترقى الأنعام التي هي الإبل والبقر والغنم؟^(١) ، وعن أي شيء ترقى البهائم ذات القوائم الأربع : الخيل والبغال والحمير ، والأسد والنمر والفيل والذئب والكلب .

٢ - ومضت القرون الطويلة على هذه الحيوانات ولم تنرق إلى ما هو أكمل منها إذ الكمال لا حد له ، فبقي الفرس فرساً ، والكلب كلباً ، والأسد أسداً ، والذئب ذئباً . والإنسان إنساناً متتهماً كل منها إلى ما هو عليه الآن ، ومنذ قرون طويلة؟؟؟ .

٣ - لم بقي القرد الأول ، وانقرض الحيوان الواسطة الذي ترقى من القرد ؟ فلو كانت نظرية البقاء للأصلح ، والانتخاب الطبيعي مطردة لانقرض القرد الأول وبقي الحيوان الواسطة الذي ترقى عن الأول ، لأنه أكمل منه وأصلح والبقاء للأصلح؟؟

فَلِمَ هنا كان البقاء لغير الأصلح ؟ وَلِمَ أساء الانتخاب الطبيعي هنا فانتخب الناقص فأبقاه ولم يتخرب الكامل فأرداه ؟ .

٤ - إن مذهبكم المادي قائم على أساس نكران القياس والنظر والحدس . فلم تؤمنوا بغير المرئي المحسوس ، فلم خالفتموه هنا ، وقلتم

(١) يقول الله تعالى من سورة الزمر « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج الآية (٦) فلننظر كيف عبر تعالى عن خلق الأنعام بلفظ الإنزال ولم يعبر بلفظ الإخراج كما قال في الثمار « وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم » من سورة الفرة الآية (٢٢) .

بالنظر والقياس والاستدلال ، لأنكم ما شهدتم الخلية الأولى التي زعمتم أنها نزلت من بعض الكواكب . كما أنكم لم تشاهدوا المؤثرات الطبيعية التي زعمتم أنها اقتضت من الحيوان الأول أن يغير أسلوب معيشته حتى ترقى تبعاً لذلك ، كما أنكم لم تشاهدوا الحيوان الواسطة وقتلتم بمجرد النظر والقياس ، وبذلك نقضتم مذهبكم المادي ، وخرجتم عنه ، فثبت عجزكم ، وبطل معتقدكم في النظرية الدارونية التي قال عنها أحد العلماء المؤمنين : « أنها نظرية أبوها الكفر وأمها القذارة .. »^(١) .

وأخيراً فقد اعترف كبار أصحاب النظرية الدارونية بعجزهم وقالوا : بالحرف الواحد : إن نظرية النشوء والارتقاء ليست ثابتة علمياً ، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان أبداً ، وإنما آمانها ، لأنها البديل الوحيد عن الإيمان بالله ! . وبهذا افتضحت اللعبة ، واكتشفت الجريمة : والحمد لله .

(مقارنة)

ولنختتم الحديث عن الإنسان بالمقارنة التالية ، ليتجلى الفرق بين الإنسان عند المؤمنين ، والإنسان عند الملاحدة الدارونيين : فنقول :

الإنسان عند المؤمنين :

خلق في السماء خلقاً مباشراً مستقلاً ، خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وعلمه الأسماء كلها ، وأسجد له ملائكة السماء ، خلقه في أحسن تقويم ، وخصه بالتكريم بين العالمين :

حرم دمه وماله وعرضه إلا بحق . أرسل إليه الرسل ، وأنزل عليه الكتب ، فهاهنا بذلك للكمال ، وأعد له سعادة الحال والمآل . أخبر عن خلقه ، وتكوينه ، وكرامته ، ومآله ، وخالفه وأنبيائه الذين أرسلوا إليه .

(١) قصة الإيمان (١٩٣) من فصل بين دارون والحبر .

الإنسان عند الملحدين :

خلق بواسطة النشوء والارتقاء في أقبح صورة ، ثم تدرج في ملايين السنين إلى أن أصبح قرداً ، ثم ترقى إلى حيوان أرقى من القرد في ملايين أخرى من السنين ، ثم صار إنساناً بعد ملايين السنين .

أخبر عن خلقه ونشوءه وتكوينه كبار الملاحدة ، وشرار الناس ، وأكثرهم فساداً وفجوراً ، مآله الهلاك والدمار ، فلا خلود له ولا بقاء .

والآن يا معشر العقلاء فأي الإنسانين أحق بالتكريم ، وأي الإنسانين يجب أن يعترف به الناس أجمعون ، إنسان المؤمنين أم إنسان الملاحدة (الداروينيين) ؟!

إنه من المسخ في العقول والشذوذ في الفهوم ، والانحراف في الفطر القول بنظرية (الداروينيين) في الإنسان ، إنها نظرية فاسدة خبيثة أبوها الكفر وأمها القذارة^(١) .

(١) نفس المرجع في ص(٢١) .

العقيدة

ما هي العقيدة ؟

العقيدة هي : مجموعة من قضايا الحقّ البدئية المسلّمة بالعقل ، والسمع ، والفطرة ، يَعتقدُ عليها الإنسان قلبه ، ويُثبّي عليها صدره جازماً بصحتها ، قاطعاً بوجودها وثبوتها ، لا يرى خلافها أنه يصح أو يكون أبداً .

وذلك كاعتقاد الإنسان بوجود خائفه ، وعلمه به ، وقدرته عليه ، ولقائه به ، بعد موته ونهاية حياته ، ومجازاته إياه على كسبه الاختياري وعليه غير الاضطراري . وكاعتقاده بوجوب طاعته فيما بلغه من أوامره ونواهي من طريق كتبه ورسله طاعة تزكو بها نفسه ، وتتهذّب بها مشاعره ، وتكمل بها أخلاقه ، وتنظم بها علاقته بين الخلق والحياة .

وكاعتقاده بغنى ربّه تعالى عنه ، وافتقاره هو إليه ، وفي كلّ شأنه حتى في أنفاسه التي يرددها ، فبالله تعالى حياته ، وعليه وحده توكله واعتماده ، إذ هو محبط رجائه إذا طمع ، ومآمن خوفه إذا خاف ، يحبه يُحبّ ، ويبغضه يُبغض .

هو مولاه الذي لا مولى له غيره ، ومعبوده الذي لا معبودَ له سواه ، لا يرى ربوبيةً غيره ، ولا يعتقد ألوهيةً سواه .

حاجة الإنسان إلى العقيدة

دعوى استغناء الإنسان عن العقيدة دعوى باطلة ، يكذبها الواقع ويطلها تاريخ البشرية الطويل ، إذ واقع البشرية شاهد على أن الإنسان حينما كان ، وفي أي ظرف وجد ؛ وعلى اختلاف أحواله ، وتباين ظروفه لا يخلو من عقيدة أبداً ، وسواء كانت تلك العقيدة حقاً أو باطلاً ، صحيحة أو فاسدة حتى أولئك الذين يدعون اليوم أن العلم قد أغنى عن العقيدة وعن الدين ، وأن الإنسان في عصر الذرة ، وغزو الفضاء لم يصبح في حاجة إلى الإيمان بالله تعالى ، وبالعوا في الكفر والإنكار حتى قالوا : إن الإله لم يخلق الإنسان وإنما الإنسان هو الذي خلق الإله^(١) ، وهم يريدون بذلك أن الإنسان في الظروف الصعبة التي كان يعيشها ، والمخاوف تنتابه من كل ما حوله من مظاهر الكون ، إذ هو يخاف المرض ، ويخاف الفقر ، ويخاف الرعد والبرق ، والفيضان والسيول ، والعواصف والزلازل ، وحتى الحيوانات ، اضطر لأجل ذلك إلى الإيمان بقوة غيبية ذات قدرة لا تعجز ، وسلطان لا يُغلب ولا يقهر ، سماها إلهاً يفزع إليه عند الشدائد ، ويتقرب إليه بالعبادات ليدفع عنه الشرور ، ويقيه من المهالك ، لهذا قالوا : إن الإنسان هو الذي خلق الإله ، وليس الإله هو الذي خلق الإنسان ، وهو قول مضحك ، وجعل فاضح ، وكفر صريح ، وكذب ممقوت ، ومغالطة مكشوفة ، وسخف عقول لا حد له !!!!

(١) هذه العبارة القذرة من قاموس الشيوعية الماركسية عدوة الإنسان .

وتحرير هذه القضية الفاسدة : هو أنهم إن كانوا يعنون بالإله الذي خلقه هو إله الوثنيين الذين اتخذوا أصناما آلهة ، نحثوها بأيديهم ، وعبدوها بأهوائهم . فنعم . هذه الآلهة خلقها الإنسان ؟ وليست هي التي خلقت الإنسان وأما إن كانوا يعنون بالإله الذي خلق الإنسان الله الذي خلق السموات والأرض وما فيها ، وما بينهما ، وخلق الإنسان ، وكرمه فأنزل عليه كتبه ، وبعث إليه رسله ، وعرفه بنفسه ، وبشرائعه التي بها يتم كماله ، وتحقق سعادته ، فقولهم مغالطة ، وجهل ، وسخف ، وكذب ، إذ الإنسان لم يخلق حتى نفسه فضلا عن أن يخلق غيره فكيف بالله خالق كل شيء وربّه ومليكه . سبحانه الله وتعالى عما يصفون .

إن ادعاءهم استغناء الإنسان اليوم عن الإيمان بالله تعالى ، لأنه عرف الطبّية ، واكتشف أسرار الكون ، فما أصبح يخاف المرض ، ولا الفقر ، ولا الفيضانات ، ولا الزلازل ، والجوائح ، ولا العاهات ، ادعاء باطل لا وزن له ولا قيمة أبداً^(١) ، إذ الإنسان ما زال يخاف من كل هذه ، وجميع وسائله التي يملكها ليدفع بها عن نفسه لم تؤمنه بعد ، ولم تؤمنه أبداً ، وكيف ؟ والآلام التي يعانها الإنسان اليوم جسمانياً وروحياً تزداد يوماً بعد يوم ، وفي كل أنحاء الوجود البشري ، فوباء الكوليرا ، وأمراض السرطان ، والبرص ، والصرع ، وغيرها ما زالت تفتك بالآلاف من الناس ، وفي كل سنة ، والمجاعات تهدد مناطق شاسعة من العالم ، والفيضانات تجرف كل سنة القرى العديدة ، وتقتل وتشرد الآلاف من الناس ، والزلازل من الحين إلى الحين يدمّر المدن والقرى ، ويودي بحياة الآلاف من البشر ، ولم يستطع الإنسان الكافر بالله ، والذي يدعي أنه خلق الإله ، لم يستطع أن ينجو من هذه الويلات فضلاً عن أن يضع لها حداً ، أو يوقف وجودها . بل ازدادت مصائب الإنسان ومحنته ، وعظم الخطب واشتد عليه ، لما كفر بربه ، ودينه ، فأصبح في تمزّق شخصي ، وهبوط نفسي ، وسقوط خلقي كاد يفقد معها

(١) ادعاء باطل خير إن الموجودة في أول الكلام وما بينهما اعتراض فليتبّه له

ضم حياته ولذة وجوده ، لقد غاض ماء الحياء من وجهه فأصبح صفيقاً ، عريداً ، فاحشاً ، متفحشاً ، وغار معين الكرامة الأدمية فيه فصار لا غير له ولا شهامة ولا كرامة ، ولا مروءة . أُلِف الكذب ، والغدر ، والخيانة ، وتعود الجريمة ومرد على النفاق ، والتضليل ، والخداع^(١) فساءت المجتمعات البشرية وهبطت فيها الحياة إلى أبعد حدود الهبوط والسقوط ، حتى صاح العقلاء منددين بالكفر والإلحاد ، مطالبين بالرجعة إلى الدين والإيمان ، بل حتى كبار الملاحدة قد نكسوا على رؤوسهم ، وقالوا في وضوح : لا غنى عن الدين ، وطالبوا علماء النفس والاجتماع بأن يضعوا لهم ديناً . ولكن بدون الإيمان بالله ، وذلك لأن الله يأمر بالعدل ، والاحسان ، وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء ، والمنكر ، والبغى^(٢) ، وهم لا يريدون عدلاً ، ولا معروفاً ، ولا إحساناً ، كما لا يريدون أن يتخلوا عن الظلم ، ولا عن الفحش ، والمنكر . ولذا فهم يريدون ديناً صناعياً يهذب نفس الإنسان ، ويكمل أخلاقه ، وبدون ذكر الله فيه ، ولا ذكر أمره تعالى أو نهيه : وهيئات ، هيئات أن ينفع دين صناعي في تقويم الأخلاق ، وإصلاح النفوس ، وتهذيب المشاعر ، وتطهير الأرواح ، إن القوم مغرورون ، مخدوعون ، جهال ، ضالون ، مضللون ، لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم .

والقصد من إيراد هذا الذي ذكرناه هو تقرير حقيقة علمية ثابتة بكل القوانين العقلية ، والشرعية ، وهي أن الإنسان دائماً في حاجة إلى الإيمان ، والتدين ، والعقيدة ، وأن الدين ضرورة من ضرورات حياته ، وحاجة من حاجات نفسه ، فلا غنى له عن الإيمان بربه ، وعن عبادته بحال من الأحوال ومن هنا لم تخلُ أمة وجدت على وجه الأرض ومنذ عهد الإنسان بالحياة من عقيدة ودين^(٣) ، ومصداق ذلك قوله تعالى :

(١) مرد : أي أقام عليه ولم يتب منه ، ولج فيه وأبى غيره .

(٢) هذا مقتبس من الآية (٩٠) في سورة النحل .

(٣) قال بازمالك المؤرخ الأغريقي مقرأ الحقيقة التي قررناها وذكرها القرآن الكريم ، قال : قد =

﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾^(١)

والمراد من النذير نبي ، أو رسول ، أو عالم وارث لعلم النبوة ينذر تلك الأمة عاقبة الكفر بالله ويكتبه ، ورسله ، وشرائعه ، ويحذرها من نتائج الشرك بربها ، والمعصية له ، ولسله وما يتبع ذلك من انحراف السلوك بالظلم ، والشر والفساد .

= وجدت في التاريخ مدن بلا حصون ولا قصور وبلا سدود ولا قناطر ولكن لم توجد مدن بلا معابد . .
(١) سورة فاطر الآية (٢٤) .

وجه ضرورة الدين للانسان

الإنسان منذ أن وُجد على هذه الأرض بهبوط أبيه الأول آدم ، وأمه حواء عليهما السلام من الجنة دار السلام ، وهو في حاجة ماسة وملحة أيضاً إلى قوانين ضابطة تعدّل من غرائزه ، وتنظم سلوكه ، وتحدّد اتجاهاته ، ونبيّته للكمال الذي خلق مستعدّاً له في كلتا حياتيه : الأولى هذه التي يقضيها قصيرة على هذه الأرض ، والثانية التي تتم له في عالم غير هذا العالم الأرضي الهابط ، وإنما في عالم الطهر والصفاء ، في الملكوت الأعلى كما أخبر بذلك ربه بواسطة كتبه التي أنزلها ، وأنبيائه الذين أرسلهم .

غير أنّ تلك القوانين المطلوبة لتعديل غرائزه ، وتنظيم سلوكه ، وتحديد اتجاهاته في الحياة لا توجد وهيئات هيئات أن توجد في تشريع غير رباني ، أو سماوي لا دخل لأهل الأرض في وضعه وشرعه ، إذ لا يُعرّف الإنسان بعواطفه وأشواقه ، ولواعج نفسه ، وبأفكاره ، وآماله ، ومتطلعاته ، ولا يقوى على توفيته مطلوبه من ذلك كله إلا الله خالقه . فهو - إذاً - وحده الذي يحق له أن يضع له من القوانين ، والشرائع ، والأديان ما يكمله به ويعده للكمال والسعادة الأبدية الخالدة .

ولذا كان الدين ضرورياً للانسان بوضعه الخاص يأكل ويشرب ، ويتوقّى الحرّ والبرد ، وعليه أن يعمل لإعداد ذلك لنفسه فيوجد بالسنن التي وضعها ربّه طعامه وشرابه ، ولباسه ، ودواءه . وسكنه ومركوبه . وهذه حال تدعو إلى تعاون أفراده لتوفير ما به تقوم حياتهم . وتستمرّ إلى نهاية أجلها المسمّى .

والإنسان بقطرته يَشْعُرُ بضعفه . وحاجته إلى ربه في إعانته وتوقيفه ورعايته وحفظه ، ولذا فهو يطلب التعرف إلى ربه . والتعرّف إليه بما يحب من أنواع القرب وضروب الطاعات والعبادات .

والإنسان بمواهبه ، وأفكاره ، ومشاعره ، وأحاسيسه ، يطلب دائماً المزيد من السمو والرفعة في ذلك . حتى لا يريد أن يقف عند حدٍّ أبداً ، فهو إذاً في أحواله الثلاثة التي ذكرنا مفتقراً إلى تشريع ديني ، إلهي يلائم فطرته ، وينظم له علاقته فيما بينه وبين أفراد الذين لا يستغني عن التعاون معهم لتوفير أسباب حياته ، وبقائها صالحة في هذا الوجود من مطعم ، ومشرب ، وملبس ، ومسكن ، ومركب ، ويمدّه بعلوم ومعارف عن ربه ولقائه ، وعن كيفية عبادته ودعائه ، وذكره والتقرب إليه بفعل طاعته ، وإتيان محابه ، وترك مكارهه ، واجتناب مساخطه ، كما يمدّه بفيض علمي كامل عن الحياة والكون يعرف به حقيقة الوجود ، وعلة الكون والحياة ، وأسباب السمو والكمال ، والهبوط والنقصان التي تطرأ له في حياته الأولى والآخرة .

ويناءً على كل ما تقدم فضرورة الإنسان إلى دين إلهي صحيح أشد من ضرورته إلى العناصر الأولية لحفظ حياته من ماء ، وغذاء ، وهواء ، ولا ينكر هذه الحقيقة ، أو يجادل فيها إلا معاند ، مكابر ، لا يؤبه لعناده ، ولا يلتفت إلى جداله ! .

كما أن دعوى العقل في إمكانه الاستقلال بهداية الإنسان إلى ما يصلحه وسعده ، دعوى باطلة ساقطة لا وزن لها ولا واقع ، وذلك لأننا رأينا الكثير من الأمم والشعوب لما فقدت هداية الوحي الإلهي لم تغن عنها هداية العقول شيئاً ، فضلت وهلكت ، ومما قاله القرآن في هذا الموضوع قوله تعالى من سورة الأحقاف .

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَابْصَرًا وَأَفْعِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا

يَجْعَلُونَ بِغَايَةِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١﴾

وذلك لأنَّ العقول لا تهدي إلى معرفة كل ما ينفع الإنسان في حياته ليأخذ به . ولا إلى معرفة كل ما يضر الإنسان في حياته كليهما ليتجنبه . وينجو مما يضره إلا في ضوء الشرع الإلهي . ونور وحيه . لأنَّ العقول لا تعدو كونها آلة إدراك كحاسة العين التي هي آلة إبصار . والعين قطعاً لا تبصر . ومهما كانت سليمة وقوية إلا في الضوء والنور . ولا يمكنها أن ترى وتبصر في الظلام أبداً . وفي أي حال من الأحوال . العقل مثل العين سواء بسواء . كما أن العين لا تبصر إلا في الضوء والنور ، فإنَّ العقل لا يدرك إلا على ضوء الشرع الإلهي . ونور وحيه تعالى إلى أنبيائه ورسله . ومن رأى غير هذا فإنه يغالط نفسه . ويكابّر في شيء من الخطأ . والضلال المكابرة فيه . لكونه من المحسوس المشاهد .

كما أن دعوى الاكتفاء بالعلم عن الوحي الإلهي الذي تمثله الشرائع الإلهية الصحيحة ، السليمة من التحريف ، والزيادة ، والنقص ، والتبديل كالدين الإسلامي مثلاً دعوى باطلة قطعاً ومن وجهين أيضاً :

الأول : - أنَّ ما عند الناس من بعض العلوم ، والمعارف في الفنون والأخلاق . والآداب إنما هو بدون شك مأخوذ من الوحي الإلهي إما بالنص اللفظي . أو بالاستنباط . وإنما نسب إلى بعض الأشخاص مغالطة وتضليل لا غير .

والثاني : - أن العلم المادي مقصور على نفع الإنسان في الجانب المادي منه ، وهو الجسم ومتطلباته . وأما الجانب الروحي وهو الأهم قطعاً فإنَّ العلم المادي لم يخدمه في شيء . ولم يقدم له أي نفع البتة . لأنه لم يكن روحياً . مجانساً للروح فيقدم له ما هو في حاجة إليه .

(١) الآية (٢٦)

إن العلوم الإنسانية الخالية من الوحي الإلهي لم تعد الكشف عن بعض
الظواهر الكونية المادية فقط

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾^(١)
فكيف إذاً تستطيع أن تقدم أي خدمة للروح . وهي لم تكسر حجاب المادة
بعد . ولم تعرف أي سر عن حقائق الكون وعِلله .

وقد اعترف علماءها بالمجزء الكامل عن معرفة العلل والأسرار لأية
ظاهرة من ظواهر هذا الكون فقالوا : أسألونا بكيف . لا بماذا ؟ يعنون قولوا
لنا : كيف وقع الشيء الفلاني ؟ فإننا نجيبكم . أما لماذا وقع فإننا لا نعرف
الإجابة عنه . ولا نملكها أبداً . وذلك لحرامتهم من علوم الوحي الإلهي .

وشيء آخر أليست العلوم المادية قد بلغت الذروة في الكمال بعد أن
قطعت شوطاً بعيداً في التطور والشمول في كل المجالات . ومع هذا الكمال
فإن البشرية في شقاء دائم . ولم تخط يوماً خطوة إلا إلى شقاء آخر أكبر
والواقع يشهد . وكفى به شهيداً . ولذا فإنه لا مناص من الاعتراف بالحقيقة ،
والتسليم بها . وهي أن الدين الحق ضروري للإنسان . لا غنى له عنه بحال
من الأحوال . وأن كمال الإنسان . وسعادته متوقفان عليه توقف المعلول على
علته . والمسبب على سببه .

وليعلم أخيراً أن الدين الذي نعني ضرورته للإنسان لتوقف سعادته
وكماله عليه في الدنيا والآخرة إنما هو الدين الحق الصحيح . الدين الذي
شرعه الله ، وصحت نسبته إليه تعالى . أما الأديان الباطلة المقترة كالبودية ،
والمجوسية ، والمحرقة المبدلة كاليهودية ، والنصرانية فإنها وإن سُميت أدياناً
فإنها خالية من الوحي الإلهي الذي يمثل فيها شرعاً إلهياً متكاملًا يقدم للإنسان
كل ما يحتاج إليه لإصلاح جسمه ، وروحه ، وإسعادهما في الدنيا ،

(١) سورة الروم الآية (٧)

والآخرة . والدليل الواضح لذلك أن أوروبا المتدنية بالنصرانية لم تتقدم حضارياً إلا بعد التمرد . والكفر بالدين الذي كانت تعيش عليه زمناً طويلاً وهو يكبلها ويقيدها . حتى قام رجال منها ، وحاربوه . وخرجوا عن قيوده ، وكفروا بشرائعه . وبذلك تم لهم الانعتاق من الضلال . والانطلاق من الباطل .

وإن بحثت البشرية الراشدة العاقلة عن دين إلهي صحيح سيم فإنها واجدته قطعاً ويدون شك في الإسلام دين البشرية العام . الذي تضمنه كتابه القرآن الكريم . الذي لم ينقص منه حرف منذ أن نزل . ولم يزد فيه آخر . ولم تحرف فيه كلمة عن موضعها منه . ولم تخرج عبارة عن مدلولها قط . بالرغم من مرور ألف وأربعمائة سنة عليه تقريبا .

إن الدين الإسلامي هو الدين الكفيل بإنقاذ البشرية اليوم . والمخرج بها من محنتها . محنة المادية العاتية . التي سلبتها أو كادت كل معاني الأدمية الكريمة . والانسانية الفاضلة حتى صيرت الإنسان آلة لا فهم لها ولا ذوق ، ولا تقدير لها ولا احترام ...

فإلى الإسلام يا عقلاء الناس . فإنه الدواء لدائكم ، والهداية لكم من ضلالتكم . فاقبلوا عليه عقيدة ، وحكماً . ونظاماً فإنه ينجيكم ويسعدكم .

جربوا فإن التجربة أكبر برهان !!

الإيمان بالله رب العالمين

إن المسلك السهل والنسليم في آن واحد للبحث عن الإيمان بالله تعالى أي عن وجوده تعالى ، والتصديق به عز وجل رباً وإلهاً ، هو مسلك احترام العقل البشري ، وقبول أحكامه التي يصدرها على الأشياء نفيّاً أو إثباتاً ، وجوداً أو عدماً ، ومن ذلك حكمه الواضح الصريح بوجود الباري عز وجل ، وبوجوب معرفته وطاعته ، والتقرب إليه ، والأخذ بهديته ، والسير في طريق أوليائه من صالح عبادته .

ولنستمع إليه - العقل - وهو يُورد أدلته ، ويقدم شواهد ، ويُظهر بيانه ، ليصدر بعد ذلك حكمه النهائي في قضية الإيمان بالله تعالى ، وأسمائه وصفاته ، ووجوب طاعته وعبادته ، والأخذ بهديته وحيه ، واتباع شرعه : إنه يقول بمنطقة السليم : إن السماء التي تظلنا ، ونشاهدها بحواسنا ، ونراها بأب أعيننا ، ولا نستطيع عدّها لكثرتها ، ولا حدّها لبعدها وعلوها . هذه السماء يقول - العقل - إنها موجودة فعلاً ، ولا سبيل إنني إنكارها بحال من الأحوال ، فمن أوجدها ؟؟ .

ويقول : هذه الأرض التي نعيش عليها وهي موجودة فعلاً ، ولا معنى لإنكارها أبداً ، فمن أوجدها ؟؟ .

ويقول : هذه الكائنات الحية على تباينها ، واختلاف أنواعها من أرقاها وهو الإنسان ، إلى أدناها كالنحلة ، والنملة ، والعنكبوت ، وهي موجودة فعلاً ، ولها غرائزها ، ومراكزها الخاصة ، وأنظمة حياتها ، وطرق معاشها ، وحفظ أنواعها إلى آجالها ، ولا مجال لإنكار ذلك بحال ، فمن أوجدها ؟

ومن وهبها حياتها ؟ ومن خلق لها أرزاقها وهداها إلى طلبها ، والحصول عليها ، والانتفاع بها في حفظ نوعها واستمرار وجودها ؟ إن العقل يقول : ابحثوا عن الموجد ، عن الخالق ، عن الرزاق ، عن المدبر ، عن المنظم ، عن المسخر ، عن خالق الكون ، عن واهب الحياة لكل ذي حياة . وعن سالب الحياة من كل من وهبت له ، ومتع بها مدة حياته الموقوتة ، وفترة عمره المحدود .

ابحثوا ، واطلبوا ، واستقصوا في البحث والطلب ، واعلموا أنه لا يوجد شيء موجود أوجد نفسه بنفسه ، ولا كائن كون نفسه بنفسه في هذه العوالم الموجودة ، والكائنات المشاهدة المحسوسة أبداً .

ابحثوا عن خالق ، رازق ، مدبر ، ذي إرادة ، وحكمة ، وعلم ، وقدرة ، يخلق ، ويرزق ، بعلم وقدرة ، ويدع ، وينظم ، ويدبر بإرادة وحكمة . ابحثوا عنه ، ولا تستهينوا بالعقل أو تزدروه ، وأنتم تعلمون أن أحدكم إذا فقدته أصبح مجنوناً ، مختل التفكير والتقدير ، مسلوب الإرادة والتدبير ، يهرف بما لا يعرف ، ويرمي إلى ما لا يهدف ، فتقولوا : إن الموجودات أوجدت نفسها بنفسها ، أو تقولوا إنها وجدت بدون موجد فإن ذلك مزربكم ، مخل بكرامتكم ، خارج بكم عن دائرة العقلاء من بني الناس اجمعين ، لأن العقول كلها مطبقة مجمعة على أن الشيء لا يوجد نفسه ، كما أنه لا يوجد بغير موجد ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ أَنْخُلِقُونَ ﴾^(١) إنكم تقولون أن جميع الكائنات التي تخضع للحس والمشاهدة مادة ، والمادة ميتة قطعاً ، والميت لا يخلق الحي ، وكيف يهب الحياة من هو ميت ؟ .

وزيادة في التثبيت من هذه الحقيقة وهي أن الشيء يستحيل أن يخلق نفسه وأن كل موجود لا بد له من موجد نقول : إنه لما لم نجد للكائنات موجداً

(١) سورة الطور الآية (٣٥) .

لها من نفسها اضطررنا إلى الإيمان بوجود إله قوي ، قادر ، ذي إرادة ، وعلم ، وحكمة وهو الله الذي أخبرنا بواسطة كُتبه التي أنزلها ، وأنبيائه الذين أرسلهم أنه رب كل شيء ، وخالق كل شيء ، وأنه هو بديع السموات والأرض ، ومدير الأمر فيهما ، له وحده الخلق والأمر ، وهو على كل شيء قدير ، وزيادة في الثبوت والتقرير نهبط إلى عالمنا الأرضي هذا ، وننظر إلى الأشياء الموجودة فيه وهي لا تعد كثرة ، هل نجد بينها من يخلق نفسه بنفسه ، أو يخلق غيره .

فها هي ذي النباتات على كثرتها ، واختلاف أجناسها ، وتنوع أفرادها لا تخرج عن سنة وجودها التي سنت لها ، واطردت فيها ، وهي وجود تربة صالحة ، وماء كاف لسقيها ، ومناخ طيب صالح للحياة والنماء فيه مع تقدم وجود البذرة الحية بالقوة المكفورة - المغطاة - بالتربة الملائمة لإنباتها، إن النباتات بهذا هي مفتقرة إلى عناصر شتى - وهي البذرة ، والتربة ، والهواء ، والماء ، لم تكن لتوجد لها النباتات لنفسها ، فكيف يصح إذاً أن يقال : إنها خلقت نفسها بنفسها ، اللهم إنه لا يقول بهذا إلا مجنون أو مغرور يجاهد ويعاند ! .

وها هي ذي الحيوانات على اختلافها . وكثرة أفرادها من أرقاها وحيوداً وحياء إلى أهبطها حياة ووحوداً لا يوجد بينها حيوان واحد يخلق نفسه بنفسه . وإنما جميعها وكل واحد منها يخلق تبعاً لسنة الخلق فيه ، والمطرودة في كل أفرادها ، وهي بالنسبة إلى الإنسان الذي هو أرقاها وأفضلها ، وجود نقطة من أبوين ذكر وأنثى ، واستقرارها في الرحم المععدة لها ، وتطور تلك النقطة من حال إلى حال إلى أن يتم الخلق ، ويخرج الإنسان طفلاً صغيراً ، ثم ينمو حسب النمو فيه إلى أن يبلغ أشده فيتكهل ويهرم ويموت ، وهو في كل ذلك الخلق والتطور والنماء والكمال والقصاص والموت والفناء لا يملك من أمره شيئاً .

فهل يُعقل أن يقال أن الإنسان خلق نفسه بنفسه . وإذا بطل هذا في

الإنسان فهل يصح فيما دونه من سائر الحيوان ؟ اللهم لا ، وإذا فهل يعقل أن يتم الخلق والإيجاد بدون ما خالق ولا مُوجد ؟ اللهم لا ، حتى ولو كان المخلوق نحلة ، أو الموجود فنجان قهوة ، وهل يوجد عاقل في دنيا الناس يرى موجوداً عظيماً كعمارة ضخمة ، أو دون ذلك كزغيف خبز ، ثم ينكر أن يكون له مُوجد أوجده ، ويعتذر عن إنكاره وجوده بأنه لم ير مُجده ولم يشاهده . اللهم لا ، وإذا فكيف يعقل الكفر بوجود الله خالق كل شيء لمجرد أنه لم يُر فقط ، مع أن هناك نفس الإنسان التي بين جنبيه قد آمن كل إنسان بوجودها ولم يرها إنسان قط ، وهناك العقل البشري لم ينكره أو يكفر به أحد قط مع أنه لم يُر قط . وآمن بكل من النفس والعقل لوجود آثارهما الدالة عليهما وكم من موجودات آمن الناس بمجدها ولم يروها قط . وذلك لدلالة وجودها على مُجدها . إذ العقل يحيل وجود أي شيء بدون مُوجد . كما قال تعالى .

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ أَنْخِلِقُونَ ﴾^(١)

والأعجب من هذا أن الملاحظة بمجرد معرفتهم لسنن الله تعالى في خلق بعض المخلوقات ، وإيجاد بعض الموجودات طاروا فرحاً بذلك . واتخذوا منه دليلاً على عدم وجود الخالق سبحانه وتعالى . فقالوا : قد عرفنا كيف تنشأ السحب وتكون الأمطار . وكيف يخرج الكتكوت « الفروج » من البيضة . فلا حاجة إذاً إلى الإيمان بوجود الله تعالى . وهو سخف عجيب . وحمق متناه وإلا فمتى كانت معرفة سنن الله تعالى في خلق الأشياء وإيجادها دليلاً على عدم وجود الله ؟ بل هي بالعكس دالة على وجود الله ، وعلمه ، وقدرته لو كانوا يعقلون !!

إن مثلهم في هذا الكفران والنكران كمثل من قدم له طبق فيه تمر حلوا فأكل حتى شبع . ثم سأل عن صابونه . فتبيل له إنه الله . فأمن به لوجوده أثر

(١) سورة انطور الآية (٣٥) .

وجوده وهو صسعه . ثم قدر له أن زار بستان النخل ووقف على كيفية غرس النخل وتربيته . وتأبير طلعه . فعاد فأنكر أن يكون التمر من صنع الله تعالى . لأنه رأى كيف ينشأ النخل . وكيف تتم تربيته وإصلاحه حتى يثمر ثمراً حلواً . وتناسى أن الذي صنع التمر هو الله الذي أوجد البذرة . والتراب . والماء والهواء . وأوجد الفلاح . أوجد له قدرة . ووهبه علماً حتى فلاح الأرض . وغرس البذرة . وسقاها . ورباها . وأبرها لما اطلعت . ورعاها حتى أصبحت ثمراً حلواً .

فهذا مثل ، كبري الخالق عز وجل من الملاحظة الذين أنكروا وجود الله لمجرد معرفتهم لبعض ظواهر الكون ، وإذا قيل لهم لقد عرفتم قوانين الكون ، وسنته فمن وضع تلك القوانين ، ومن سن تلك السنن في الكون ، والتي بواسطتها يتم خلق الأشياء وإيجادها ؟؟ قالوا : فراراً من الإيمان بالله عز وجل حتى لا يعبدوه ، قالوا : الطبيعة ؛ بلو أن الطبيعة نطقت وقالت لهم : اعبدوني لكفروا بها ، وأنكروها ، كما كفروا بالله ، وأنكروا وجوده ، وهو يناديهم في كتابه :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١)

ومما يدل على أن الملاحظة ما كفروا بالله إلا فراراً من عبادته ، والتزام شرائعه ، أن الإيمان بالله تعالى خالقاً للكون ، مدبراً له ليس بأصعب ولا أبعد في الاستحالة من الإيمان بالطبيعة الميتة ، العياء ، الصماء خالقاً مبدعاً ، كما قال أحد علماء الكون : لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه لكان يتمنع بأوصاف الخالق ، وفي هذه الحال سنضطر أن نؤمن بأن الكون هو الإله ، وينتهي الأمر إلى التسليم بوجود إله ، ولكنه إله عجيب ، لأنه غيبي ومادي في آن واحد . ثم قال : « إنني أفضل أن أؤمن بذلك الإله الذي خلق العالم

(١) سورة البقرة الآية (٢١) .

المادي. وهوليس بجزء من هذا الكون ، بل هو حاكمه ، ومديره ، ومديره بذلا من أن أتبنى مثل تلك الخزعلات . يعني قول الملاحدة أن الطبيعة ، والضرورة ، والصدفة هي التي أوجدت الكون ، وهبت الحياة ؛ ووضعت السنن والقوانين ؛ وهو أمر عجب ، وجهل مركب ، وفساد عقول لا حد له -ولنتناقش الآن كلمات : الطبيعة ، والضرورة ، والصدفة التي ينسب إليها الملاحدة خلق العالم وإدارته ، وتديره . فنقول :

ما هي الطبيعة ؟ .

إن الطبيعة هي : المادة ، وعناصر تكوينها من البرودة ، والحرارة ، والرطوبة ، واليبوسة ، والمواد المركبة منها ، وهي الذرات المكونة من النوى المشتمل كل نواة منه على بروتون ، ونيوترون ، وإلكترون .

هل هذه العناصر من النوى ، والذرة ، والخصائص المشتملة عليها المادة أوجدت نفسها ، فكونت ما يسمى بالطبيعة ؟ اللهم ، لا ، إذ هو مما تحيله العقول ، ولا تقبله أبداً . إن معنى هذا الهراء : أن الطبيعة أوجدت نفسها أولاً ، ثم أوجدت غيرها من الموجودات ! إن المادة المركبة من عناصرها ، والمودع فيها خواصها ، وطباعها مفتقرة إلى من يوجد عناصرها ، ويودع فيها خواصها ، وحينئذ فهي حادثة مخلوقة . فكيف يصح أن تكون إلهاً ، خالقاً ، ينسب إليها الخلق ، والتكوين والإبداع والتنظيم ؟ .

سبحانك اللهم هذا ضلال في العقول مبين .

إن العقول السليمة قد حكمت بحدوث المادة المركبة من عناصر عدة . إذ كل مركب حادث ، وكل حادث مفتقر إلى محدث أحدثه قطعاً . كما قضى بذلك قانون العلية المسلم به من جميع العقلاء .

إن وجود مادة . وحركة لها وهي طاقتها معلول فلا بد له إذا من علة اقتضت وجوده ، وهو الإله الأزلي ، الذي ليس بمادة . إذ لو كان غير أزلي لكان محدثاً ، ولو كان محدثاً لكان مادة ، والمادة ميتة فكيف تخلق الأحياء ؟ ومن بديهيات العقول أن فاقد الشيء لا يعطيه . وسواء كان نفساً كالحياة أو

خسيساً كالموت والعدم . وبما يقضي على هذه الفرية الدجلية ،
التلصصية ، التي اغتربها أهل الغفلة عن ذكر الله تعالى ، وتلاوة كتابه حتى
أصبحت شبهة عقلية تضطرب لها قلوبهم ، وهي نسبة الخلق والإيجاد إلى
المادة : أن يقال : إن الإبداع الموجود في الكون كله علويه وسفليه ، من
الذرة الى المجرة شاهد حق ، وقاضي عدل باستحالة صدوره عن الطبيعة
العمياء الميتة ، أو عن الصدفة البعيدة عن كل حكمة ، الخالية من كل
إرادة ، وعلم وتدبير .

ما هي الصدفة ؟

إنهم يعنون بالصدفة أن الأشياء تم تكوينها على ما هي عليه من
الجمال ، والإبداع والنظام بطريق الموافقة لا بطريق القصد ، والإرادة ،
والتدبير بحيث لم يكن هناك قصد ، ولا إرادة ، ولا تدبير .

وهي قضية القول بها مخجل ، والنظر فيها لهو وباطل .

وخلاصة هذه الأضحوكة والأعجوبة معاً : أنه بمرور الزمن الطويل
الذي لا يتكلمون فيه إلا بالأرقام الهائلة كمئات الملايين تضليلاً وتدجيلاً ،
فيقولون مثلاً : عناصر الذرة تلاءمت وتناسبت بمرور ملايين السنين ، والحياة
وجدت خلية على الأرض و بمرور ملايين السنين كانت الحياة على هذه
الصورة من الجمال والكهل ، وليس وراء ذلك إرادة هادفة ، ولا تدبير ، وإنما
هي صدف وموافقات تم بواسطتها الكون والحياة ، وقد أقاموا نظريتهم هذه
على أساس من الافتراضات الوهمية ، والقياسات الفاسدة التي لا يقبلون
مثلها لوقالها غيرهم ، لأنهم يدعون أنهم لا يؤمنون بغير المحسوس المشاهد
غير أنهم هنا خرجوا عن مبدئهم وقالوا بالفرض والقياس تأييداً لترهاتهم ،
وأباطيلهم ، وضلال عقولهم في القول بالصدفة ، وأنها علة الحياة ، وأداة
التكوين والإيجاد ، كل ذلك هروبا من الايمان بالله عز وجل ، الذي لم
ينكروه ، وينكفروا به إلا تخلصا من الطاعة والنظام .

هذا وقد ذكر العلماء لإبطال فرية الصدفة في الخلق والابداع امثلة عديدة قضا بها على هذه النظرية الميتة ، العمياء ، القائمة على اساس الوهم ، والخيال الاشعوري منها : قولهم إن مثل من يقول : الابداع الموجود وجد بطريق الصدفة لا غير ، وليس تم من إرادة لأحد ، وانما هي الصدفة والتلقائية فقط كمثل من يقول : إن داراً للطباعة بها صندوق من الحروف يكفي لتصنيف كتاب ، فأصاب الدار هزة من زلزال عنيف ، فساقطت تلك الحروف على بعضها ، فكتب بالصدفة كتاباً ذا أبواب . وفصول علمية مختلفة ، وفي مواضع شتى ، كمثل من يقول : إن رجلاً أعمى غرزت له إبرة في لوحة ، وأعطى ألف إبرة . وقيل له ارم هذه الإبرة واحدة بعد الثانية لتدخل الأولى في ثقب الإبرة المفروزة في اللوحة ، وتدخل الثانية في عين الإبرة الأولى ، والثالثة في عين الثانية ، وهكذا بطريق الصدفة حتى تدخل كل الإبرة في بعضها بعضاً ، والرجل كما علمنا أعشى لا يبصر شيئاً ، فهل عاقل يصدق بصحة هذين العسليتين ؟ اللهم لا ، لأن هذا من قبيل المستحيل الذي لا تقبله العقول ولا تقره ، وإذا فكيف يصدق أن الكون كله بنا فيه من إبداع وتنظيم في كل ذرة من ذراته ، ثم بشرى الصدفة والتلقائية .

اللهم إن مخلوقاً يصدق بهذه الترهات لمحبون قطعاً لا تصح نسبتهم الى العقلاء ولا يذكر في عنادهم أبداً . وكالصدفة عند الملاحظة الضرورة .

ما هي الضرورة ؟

إن الضرورة معناها : أن التنوعات الموجودة حصلت بطريق الضرورة . فحاجة الرافعة إلى تناول غذائها من أشجار عالية هي التي جعلت عنقها يطول ، وحاجة السمكة الملحة إلى السبح في الماء هي التي اوجدت زعانفها التي تساعد على السباحة إلى غير ذلك من الهراء والتعسف المعجيب ، والمنطق السقيم . وما قالوا بهذه الترهات والأناسل إلا إيماناً في الهروب من مواجهة الحقيقة وهي الإيمان بالله المصانع الحكيم ، الذي لا إله

إلا هو ولا رب سواه ، وإلا فما يسمونه بالضرورة إنما هو العناية الإلهية بمخلوقاته ، أو لم يروها في ذات الولد وكيف تدر اللبن لمولودها بمجرد أن تضعه ، وفي ولدها الذي كان في بطنها يتغذى بواسطة الأنبوب المتصل بسرته ، ولما انفصل عنها وخرج من بطنها وحملت له الغذاء في ضرعها ، وهدى الله ذلك المولود الى معرفة امتصاص حلقة الثدي ليتغذى باللبن إلى أن يصبح قادراً على التغذي بالحبوب والفواكه ، والخضر . أو لم يروا إلى ذكور الحيوانات كيف تأتي إنثاه مدفوعة إلى ذلك بما أودع الله فيها من غريزة إتيان الجنس لتجبل الأنثى ذات اللبن ، فتوفر للإنسان لحماً ، ولبناً ، وجبناً ، وسمناً هو في حاجة الى مثلها لاستكمال غذائه الذي هو عنصر نمائه وحياته إلى أجله . أو لم يروا إلى ذبابة لقاح التين كيف تخرج من حبتها بعد نضجها لتدخل في التينة فتلقحها ، ثم تخرج منها لتدخل في أخرى فتلقحها ، كل ذلك ليتوفر للإنسان فاكهة من ألد الفواكه ، وأكثرها نفعاً له . أو لم يروا إلى الرياح كيف تثير السحاب وهو الضباب الناتج عن تبخر الرطوبات في الأرض ، ومياه الأنهار ، والبحار ، وكيف يسقط الله تعالى ذلك السحاب في السماء على نسب ومقادير خاصة فيتكثف في طبقات الجو ، ويصبح يحمل كميات من الماء عذبة صافية ثم بمطر حيث بأذن الله تعالى ، فتجابه الأرض بعد موتها . فتخرج للإنسان غذاءه من الحبوب ، والفواكه ، والخضر . فليقولوا لنا : أين الضرورة في إيجاد اللبن في الفروع ؟ وأين الضرورة في لقاح الحيوان ؟ وأين الضرورة في تلقيح ذباب التين لانتشاء حتى يكون التين ؟ وأين الضرورة في عملية التبخير والتكثف ، وإثارة الرياح للسحب ، ونزول المطر بالمقادير والكميات المحدودة ، والأوقات المحدودة ، وفي إنبات الأرض وخروج الثمرات المختلفة ، أين وجه الضرورة في ذلك ؟؟ .

إنه لا ضرورة ، وإنما هي عناية الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . ونختتم هذا الجزء من البحث بالحجة العقلية التالية : إن النباتات ، والحيوان ، والإنسان هذه الثلاثة سلم الماديون بحدوثها ، وبأن الإنسان

أحدثها عهداً بالحياة فيقال لهم : من أحدثها ؟ والجواب لا يخلو من افتراض ثلاثة حلول :

الأول : أن نقول : إن الله هو الذي أحدثها والثاني : أن تكون حدثت بواسطة ذرات المادة ، وأجزائها ، وعناصرها عن إرادة ، وقصد ، وعناية ، بمعنى أن العناصر المادية فكرت ودبرت واتفقت على صنع المخلوقات على ما هي عليه من صور وأشكال . والثالث : أن تكون وجدت من طريق الصدفة بمعنى أن الذرات تلاقت ، وتجمعت على نسب وأوضاع مخصوصة بطريق الصدفة ، فتكونت هذه المخلوقات بما فيها الحيوان والإنسان .

فأي الفروض أولى بالصحة والقبول ؟ أما الثاني فالملاحظة يردونه ، ولا يقولون به ، لأنه ينسب للمادة قصداً وإرادة ، وهم لا يقولون بالقصد والإرادة أبداً . وأما الثالث فهو محال عقلاً لبطلان قانون الصدفة وفساده كما عُلِمَ ، وتقدم فلم يبق إلا الافتراض الأول وهو أن الله تعالى هو الذي خلقها بطريق السُنن المطردة ، التي وضعها لخلق كل المخلوقات ، وإيجاد هذا العالم وبذلك وجب الكفر بآلهة الملاحظة الثلاثة التي هي الطبيعة ، والصدفة ، والضرورة ، ووجب الإيمان بالله الخالق ، المدبر ، الحكيم ، العليم .

والآن ولما ثبت بالبراهين العقلية وجود الله تعالى ، ووجب الإيمان به رباً وإلهاً فإنه ينبغي التعرف إليه سبحانه وتعالى .

معرفة الله جل جلاله ومراتب المؤمنين فيها

إن للمعرفة بالله تعالى مراتب يترقى فيها المؤمنون به عز وجل حتى يبلغوا الكمال في معرفة ربهم سبحانه وتعالى ، وبقدر معرفتهم له جل وعز تكون تقواهم له ، وخشيتهم منه ، ومحبتهم ، وطاعتهم له ، وتقربهم إليه ، وتوسلهم

فالمرتبة الأولى : من مراتب المعرفة بالله عز وجل هي مرتبة علماء الكونيات الذين يحصلون على إيمانهم بالله ، ومعرفتهم له بواسطة النظر والاستدلال بالخلق في الكونيات ، والإبداع فيها ، فيؤمنون بخالق ذي قُدرة وإرادة ، وعلم ، ويعرفونه بتلك الصفات من القدرة ، والإرادة ، والعلم ، والحكمة ، والتدبير . غير أنهم يجهلون في أسمائه تعالى وصفاته ما به تعظم محبتهم له ، وخشيتهم منه ، وطلبُ التقرب إليه ، والمنزلة عنده ، وذلك لعدم إيمانهم بكتابه ورسوله^(١) ، إذ به تتم المعرفة الحقّة لله سبحانه وتعالى .

وهؤلاء قد ينفعهم إيمانهم في الحياة الدّنيا بقدر ما أثمر لهم من تعظيم الله تعالى ، ومحبة فيه ، وقد ينفعهم في الآخرة بتخفيف العذاب عنهم .

المرتبة الثانية : من مراتب معرفة الله عز وجل هي مرتبة أهل

(١) المراد من الكتاب هنا القرآن الكريم . ومن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

الإيمان التقليدي الحاصل لهم عن طريق الشعور الفطري ، واستفاضة الأخبار بوجود الله تعالى وشيئها ، ومرتبة هؤلاء في معرفتهم بالله تعالى أضعف مراتب المعرفة ، وصاحبها أقل المؤمنين تقوى لله عز وجل ، ومحبة له ، وخشية منه ، وأولئك كعوام المؤمنين من أتباع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

والمرتبة الثالثة : هي معرفة المؤمنين من أهل الشرائع الإلهية ، وهي مرتبة عالية في معرفة الله تعالى والإيمان به حيث عرف أهلها الله تعالى بطريق أخباره عز وجل ، وأخبار العارفين به . والمبلغين عنه ، كما عرفوه عز وجل بواسطة الشواهد والبراهين التي أقامها سبحانه وتعالى لمعرفته . وبواسطة الأدلة والأعلام التي نصبها لذلك ، فهؤلاء المؤمنون أكثر الناس محبة لله ، وطاعة له ، وخشية منه ، وهم المعنيون بقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾^(١)

والمرتبة الرابعة : هي مرتبة معرفة الأنبياء والمرسلين بالله تعالى وهي مرتبة أعلى من سابقتها وأتم وأكمل من كل مراتب المعرفة بالله عز وجل والإيمان به وحبه وخشيته وطاعته ، والاستقامة على منهجه . وتحقيقاً للعبودية ، وأداءً لحقوق الربوبية والألوهية ؛ لأن أهلها جمعوا بين صفاء الفطرة ، وسلامتها من التلوث بالأنام قبل نبوتهم ، ورسالتهم ، وبعد اصطفتائهم للرسالات ؛ وتشريفهم بحملها وإبلاغها لمن أرسلوا إليهم ، وبين المعرفة المكتسبة بالنظر والاستدلال بالبراهين العقلية . وبين العلم اليقيني . لتلقيهم عن الله تعالى وخيئة ولما أظهره على أيديهم من عظيم المعجزات . وخوارق العادات . ولما خصهم به من معارف به . وبأسمائه وصفاته ما كانوا به أكمل المؤمنين إيماناً .

(١) سورة فاطر الآية (٢٨)

وأقوامهم يقيناً . وأكثرهم له تعالى محبةً وطاعة . وأشدُّهم له تقوى وخشية . كما قال إمامهم وخاتمهم محمد ﷺ وهو يخاطب أكمل الناس إيماناً بالله ومعرفةً له بعد الأنبياء والمرسلين وهم صحابته رضوان الله عليهم « فوالله إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية »^(١).

الطريقة الأولى الى معرفة الله سبحانه وتعالى الهداية العقلية

إن العقل السليم إذا أصدر حكماً على شيء ما من الأشياء المحسوسة ، أو المعقولة فإن حكمه لا يتقضى أبداً بخلاف حكم غيره مما طريقه الحواس ، أو العادات ، أو الاستقراء فإنه كثيراً ما يتقضى ، فالعين المبصرة قد تصدر حكماً ما على «رئي من المراثيات بأنه ثابت ، أو متحرك فتخطيء في الحكم . والأذن السامعة قد تصدر حكماً على مسموع بأنه صوت إنسان ، أو حيوان ، فيتبين خلاف ما حكمت به وكذا الذوق . أو الشم فقد يحكم الذوق بأن طعم كذا من المأكولات حلو أو مر . ويتبين الأمر بخلاف ذلك . ويحكم الشم بأن رائحة كذا طيبة أو كريهة . ويظهر خطأ الحكم .

وأما حكم العادات القائم على التجارب فإن الخطأ فيه أكثر . وأكثر منه خطأ حكم الاستقراء والتبع . لأن الإنسان مهما أوتي من قوة لا يستطيع أن يحيط علماً بالأشياء كلها . فلذا كان الخطأ أكثر في أحكام الذين يبنون أحكامهم على التجارب والملاحظات . والقياسات والافتراضات أما أحكام العقل فإنها متى ثبتت سلامة العقل وصحته لا تنتقض أبداً . وسواء كانت واجبة . أو جائزة أو مستحيلة . ومن أمثلة ذلك حكم العقل في الواجب : أن كل معلول لا بد له من علة .

(١) رواه البخاري ومسلم - اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (١١١/٣) .

وحكمه في الجائز : أن يسكن المتحرك . أو يحرك الساكن متى وجدت علة الحركة او السكون . وحكمه في المستحيل : أن القائم ليس بقاعد .

وهذه العصمة لحكم العقل السليم من الخطأ تتناول أحكامه الضرورية والنظرية على حدّ سواء . ومن أحكام العقل الضرورية : ان الواحد نصف الاثنين ، وأن الرجل غير المرأة ، وأن المملوء من الأوعية غير الفارغ إذ هذه الأحكام تدرك بغير تأمل ، ولا نظر أو استدلال .

ومن أحكام العقل النظرية : أن الثلاثة ثمن الأربعة والعشرين ، وان الواحد نصف سدس الإثني عشر ، وأن العالم حادث ، وأن المعلول لا بد له من علة ، إذ هذه الأحكام العقلية لا تدرك إلا بالنظر والتأمل ، ومع هذا فإن الخطأ لا يتطرق إليها ابداً .

من هنا كانت الهداية العقلية احد طريقي الإيمان بالله ، ومعرفته سبحانه وتعالى .

فلنذكر هنا جملة من أحكام العقل وقوانينه القاضية بوجود الله تعالى ، والهادية الى معرفته عز وجل . ومن ذلك :

١ - قانون العلة :

لقد ركز في فطرة كل إنسان عاقل أن كل متغيّر من جسم أو حال أو صفة لا بد له من سبب تغير به ، ولا يخرج شيء عن هذا القانون بحال من الأحوال ، اذ كل من يرى آنية موضوعاً ، أو آلة مصنوعة يحكم على الفور بعقله أن للآنية واضعها في مكانها الذي هي موضوعة فيه ، وأن للآلة صانعاً صنعها حتماً ، ويجعل من المحال أن تكون الآنية قد وُضعت في مكانها بلا واضع وضعها فيه ، وأن الآلة قد صنعت بلا صانع صنعها .

ويؤمن الإنسان بهذا إيماناً راسخاً : ولا يستطيع أحد أن يقنعه بخلافه أبداً ، وذلك لأن العقل حكم بأن كل آلة لها من صانع ، وأن كل مُتَغَيِّر من الأشياء من صفة إلى صفة ، أو من مكان إلى مكان لا بد له من علة تغير بسببها . وهذا القانون أو الحكم العقلي يسري على العالم كله بجميع أجزائه ، من المادة والحركة والتنوعات - أي أنواع المخلوقات - في وجوده وتغيره ، فلا بد لوجوده من علة ، ولا بد لتغيره من سبب أثر فيه فهو يتغير من حال إلى حال لأجله . ولا بد أن تكون العلة التي اقتضت وجوده وتغيره علة كافية ، وإلا لما تم لها هذا الإيجاد والتغير .

وبالنظر إلى مظاهر الإبداع ، والقصد ، والتنظيم ، والتنسيق ، والإحكام في الخلق والإيجاد ، والتدبير في التصريف أثناء التغير والتبديل فإن العلة التي اقتضت وجود العالم وسائر المخلوقات فيه لا بد وأن تكون ذات قدرة ، وإرادة ، وعلم وحكمة ، إذ لا بد من الكفاية فيها ، وإلا لما تم هذا الخلق ، والابداع ، والتنظيم ، والاتقان ، والتدبير الحكيم ، ومحال أن تكون العلة الكافية هي الطبيعية لعدم القصد لها ، والإرادة ، والعلم ، والحكمة ، كما لا تكون (الصدفة) لاستحالة ذلك مع وجود الإبداع المدهش للعقل ، والتنظيم المجبر له ، والموافقات يستحيل بها تجمع المادة ، وتوافقها حتى يتم الخلق ، والابداع ، والتنظيم . كما لا تكون ولن تكون الضرورة ، إذ نظرية الضرورة سخر منها كل ذي عقل صحيح ، ومجها كل صاحب ذوق سليم .

ولم يبق أن تكون تلك العلة الكافية التي اقتضت وجود العالم وتنوعاته الا الله سبحانه وتعالى .

وهكذا اصدر العقل السليم حكمه الصحيح الذي لا ينقض أبداً بوجود الله ذي الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، فآمن به

المؤمنون ، وعرفوه بواسطة هذا الحكم العقليّ السليم الصحيح ،
والذي لا ينقض أبداً .

٢ - قانون الوجوب :

إن قانون الوجوب هو أحد طرق الاستدلال العقليّ على وجود الله
تعالى ووجوب الإيمان به ، والتعرف إليه ، ووجوب طاعته والتقرب
إليه ، وحقيقة هذا القانون هو أن يقال : إنّ الموجودات من هذه
الحوادث التي يحويها العالم العلويّ والسفليّ من كلّ الموجودات من
جماد ، ونبات ، وحيوان ، وإنسان ، إما أن يكون وجودها واجباً ، أو
مستحيلاً ، أو جائزاً ، ولا يخلو أمرها من واحد من هذه الثلاثة بحال
من الأحوال ، لقضاء العقل الصحيح بهذا ، وتسليم جميع العقلاء به ،
وحقيقة الواجب : أنه ما أوجب عدم تصور وقوعه تناقضاً عقلياً لا يقبل -
وحقيقة المستحيل - وهو نقيض الواجب - أنه ما أوجب تصور وقوعه
تناقضاً عقلياً لا يصح .

وحقيقة الجائز - يقال له انمكن أيضاً - أنه ما لا يوجب تصور
وقوعه تناقضاً عقلياً لا يصح أو لا يقبل . وبناء على هذا فهل وجود
الكائنات واجب أو مستحيل أو جائز؟؟ .

والجواب : أنّ وجود الكائنات ليس بواجب ، إذ تصور عدم
وقوعها لا يوجب تناقضاً عقلياً ، كما أنه ليس مستحيلاً ، إذ تصور
وقوعها لا يوجب تناقضاً عقلياً ، وكيف وهي موجودة فعلاً ؟ إذا فإذا لم
يكن وجود الكائنات واجباً ، ولا مستحيلاً تعين أن يكون جائزاً ، إذ
الأحكام ثلاثة فقط ، وإذا تعين أن يكون وجود الممكنات جائزاً لا غير
فإننا نقول ما دامت الكائنات جائزة الوجود ممكنة فقط ، وقد وجدت
فعلاً ، فما الذي اقتضى وجودها ورجحها على عدمه ؟ والجواب أن
نقول : إنه لا بد من علة اقتضت الوجود ، إذ تصور وجود معلول بدون
علة مستحيل ، لإيجابه تناقضاً عقلياً لا يقبل . وإذا فما هي هذه العلة

التي اقتضت وجود الكائنات ؟ وكون هذه العلة التي اقتضت وجود الكائنات هي الطبيعة باطل ، لأن الترجيح لا يكون إلا عن قصد وإرادة ، والطبيعة لا إرادة لها ولا قصد كما يعترف بذلك القائلون بها وكونها الصدفة باطل ، ما تقدم من استحالة ذلك لوجود الإبداع ، والتناسق ، والتآلف ، والوزن الدقيق ، ولأن الموافقات لا تتم إلا بعقل جبار ، وإرادة عظيمة ، وتدبير وحكمة ، وكونها الضرورة باطل بل من أبطل الباطل لأن الضرورة ليست إلا وهماً من أوهام الخيال ولا قائل بها البتة ، وقد بينا أنها عناية الله تعالى بمخلوقاته ، تلك العناية الإلهية التي أعطت كل مخلوق خلقه ، وهدته إلى ما يكمل به وجوده وتحفظ به حياته إلى أجله الذي حُدِّدَ له . إذاً فإنه لم يبق من علة لوجود الكائنات اقتضت وجودها ، ورَجَحَتْه على خلافه إلا أن يكون الله جلَّ جلاله ، هو الذي اقتضى وجودها ورَجَحَها ، فكان الكون على ما هو عليه من إبداع وتنظيم . ومظاهر القدرة ، والعلم ، والتدبير ، والإحكام ، والإتقان كلها دالة على علم الله ، وقدرته ، وكمال تدبيره ، وعظيم حكمته .

بهذا عُرِفَ الله جلَّ جلاله ، وآمن به المؤمنون ، وأحبوه ، وعبدوه ، وتقربوا إليه .

٣ - قانون الحدوث :

لقد ثبت اليوم وبدون شك حدوث سائر الكائنات الحية ، ومن أقربها عهداً بالحدوث الإنسان ، كما قرر هذا علماء الكون وطبقات الأرض . وبهذا ثبت حدوث العالم بأسره قطعاً وبقيناً ، لأن الشيء الواحد لا يكون قديماً وحديثاً في آن واحد ، كما لا يكون بعضه قديماً ، والبعض الآخر حديثاً ، إذ القول بهذا يوجب تناقضاً عقلياً لا يصح ، ولا يقبل في قضايا العقول السليمة .

وإذا سلمنا بحدوث العالم كله ، وهو مُسَلَّمٌ ، حتى من الطبيعيين

أنفسهم فإنه لا انفكاك حيثئذ من التسليم بوجود علة كافية لإحداثه إذ وجود معلول وهو الحدث بدون علة يوجب تناقضاً عقلياً لا يصح لإطباق العقول السليمة على رفضه ، وعدم قبوله .

هذا وما في العالم الحديث من إبداع ، ونظام ، وتدبير يوجب عقلاً أن تكون العلة التي ترتب عليها حدوث العالم علة كافية ، ذات قدرة وعلم ، وإرادة وقصد ، وحكمة وتدبير ، كما يوجب أن تكون العلة واجبة الوجود لذاتها بحيث لا يتصور افتقارها إلى علة أخرى لئلا يلزم الدور ، والتسلسل وهما محالان في حكم العقول .

وأخيراً فالعلة الكافية التي وجب عقلاً أن تكون ، ووجب أن تكون واجبة الوجود هي الله الخالق ، المدبر ، الحكيم ، ذو الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، رب العالمين ، وإله الأولين والآخرين .

وبهذا القانون الخاص - قانون الحدث - ثبت وجود الله تعالى عقلاً ، ووجب الإيمان به رباً وإلهاً ، وعينت عبادته بفعل ما يحب ، وترك ما يكره ، طلباً لرضاه ، والسعادة في جواره الكريم يوم لقائه بعد فناء هذا العالم الحادث ، وانقضائه .

٤ - قانون النظام :

إن التأمل في الكون كله علويه وسفليه يكشف عن حقيقة كبرى ، لا مجال لإنكارها ، أو تجاهلها والإغضاء عنها ، أو الغض من شأنها ، ألا وهي هذا النظام الدقيق ، العجيب الذي رُبطت به أجزاء الكون كله من الذرة إلى المجرة ، هذا النظام المدهش ، المنير للعقول ، الذي يُحيل العقل البشري السليم أن يكون ناجماً عن صدفة وتلقائية ، أو عن تفاعلات كيميائية أو يكون نتيجة للحركة المستمرة للمادة منذ ملايين السنين كما يزعم الخياليون ، والمغرورون ، المخدوعون ؛ إنه لمن أمحل المحال ، وأبطل الباطل أن يصدر هذا النظام الشامل للخلق كله

عن غير ذي إرادة ، وقصد ، وعلم ، وحكمة ، وتدبير ، إن نظرةً إلى السماء ، إلى خلقها ، وتكوينها ، إلى الإحكام والإتقان فيها ، إلى أبعادها ، إلى سعتها ، إلى عدد نجومها ، ومواقعها ، إلى الأفلاك الدائرة فيها . إلى ضوء شمسها ، ونور قمرها . هذه النظرة الفاحصة الشاملة ترى الإنسان العاقل من مظاهر القدرة ، والعلم ، والإرادة ، والقصد ، والتصميم ما يجزم معه ببطان هراء الماديين وترهات الملحدين ؛ ويسلم بوجود إله عظيم متصف بصفات الربوبية ، ونعوت الألوهية .

وأي نظرة فاحصة دقيقة إلى الأرض ، إلى خلقها وتكوينها ، إلى محيطاتها . وأنهارها ، إلى جبالها ووهادها . إلى مرتفعاتها وسهولها ، إلى النباتات والأشجار ، إلى التنوع في الحيوانات ، وإلى الاختلاف في أجناس البشر لوناً ولساناً ، تقف الناظر عند حقيقة لا يستطيع إنكارها . ولا إخفاءها وجحودها وهي أن وراء هذا الخلق والإبداع خالقاً ، مبدعاً ، عليمًا ، حكيمًا ، وهو الله الذي لا إله إلا هو ، ولا رب سواه . قال الله تعالى في هذا المعنى من سورة ق :

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهُا مِنْ قُرُوءٍ ۖ﴾ (٦) ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَالْقِيْنَ فِيهَا رَوَّسِيْ وَأَنْبَتْنَا فِيْهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَیْعٍ ۖ﴾ (٧) ﴿تَبْصِرَةٌ وَذِكْرٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ (٨)

إن نظرة عابرة فقط إلى النور ، والحلّك ، وهذا الهواء المشترك ، إلى اتلاف الهواء ، إلى عناصر الماء ، إلى النوعية ، والزوجية في كل شيء فيها ، وعليها ، تكفي في إقناع ذي العقل بوجود إله ذي قصد وإرادة ، وحكمة وتدبير ، وقدرة لا تحد ، وعلم لا يحيط به أحد ، ألا

(١) الآيات (٦ - ٨) .

وهو الله العزيز الحكيم . الله الذي أوجبت العقول السليمة وجوده ، ودلت كل ذرة في الكون على علمه ، وقدرته ، وتدبيره ، وحكمته .

٥ - قانون العناية بالإنسان :

قبل عرض قانون العناية الذي هو أحد القوانين العقلية الموجبة للإيمان بالله تعالى ، والمعرفة به سبحانه وتعالى ، نذكر قاعدة عامة في الكون كله ، قد تخفى على غير المتأملين في الكون ، والدارسين له ، وهي أنه لا مجال في الكون للباطل . ولا محل فيه للعبث بحال من الأحوال . بل الكون كله قائم على أساس العدل والحق ، والنظام والإحكام . ولا يوجد جزء واحد من أجزائه خلوًا من فائدة مقصودة منه ، أو حكمة متوخاة فيه . وهذه الحقيقة الكونية تظهر بوضوح لكل من تأمل الكون ، ونظر في حقائقه . وقد قرّر هذه الحقيقة وأكدها كتاب الله القرآن الكريم في قوله :

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿٢٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١)

وفي قوله ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(٢)

ومثل هذه الحقيقة الكونية في وضوحها ، وثبوتها قانون العناية الذي نعرضه الآن رهاناً عقلياً على وجود الله تعالى ، وطريقاً من طرق معرفته عز وجل . وقانون العناية هذا يتألف من حقيقتين : الأولى : خلو الكون كله من أية ظاهرة للعبث ، والباطل فيه .

والثانية : أنّ الكون كله ، وبجميع أجزائه مُسَخَّر لخدمة نوع

(١) سورة الدخان الآيات (٣٨ ، ٣٩) .

(٢) سورة ص الآية (٢٧) .

واحد من بين سائر أنواعه ، فمن أعظم كائن فيه ، إلى أصغر كائن وأحقره ، الكل يخدمُ ذلك النَّوعَ ، وهي حقيقة مدهشة للغاية ، أن يكون هذا الكون الفخم الهائل بكل ما فيه من أجرامه السماوية ، ومخلوقاته الأرضية ، الجميع مسخر تسخيراً خاصاً لخدمة نوع واحد من بين سائر المخلوقات التي حواها الكون ، وانتظمها هذا الوجود المادي القائم على أساس الحق والعدل ، والخالي من جنس اللعب والغش كما سبق بيانه .

وهذا النوع المسخرُ له الكون كله هو الإنسان وحده ، والمثل الذي يوضح هذه الحقيقة التي تبدو غريبة بادية ذي بدء عجيبة هو : أن يأمر أحد الملوك العظماء ببناء قصر فخم ، كبير ، فيني على أحسن طراز ، ويجمل بأحسن أنواع التجميل ، ويزود بكل أسباب الراحة ، والإرتفاق ، بحيث يصبح آية في باب القصور الملكية في دنيا الناس متعة وجمالاً ، ثم ينزل به ضيفاً كريماً عليه ، ويقول له : لقد بنينا لك هذا القصر لتعيش طوال حياتك متمتعاً بكل ما فيه من خيرات ونعيم فالملك هو الله ، والقصر هو الكون ، والضيف هو الإنسان ، وهذه الحقيقة قد قررها القرآن أيضاً وأكدها كالحقيقة الأولى وذلك في قوله تعالى :

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣١﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣٢﴾﴾^(١)

ولنتعرض الآن بعض مظاهر العناية بالإنسان في الكون :

(١) سورة الجاثية الآيتان (١٣٢ ، ١٣١) .

١ - في السماء :

إن في السماء الدنيا كواكب كثيرةً ونجوماً عديدة ، وفيها الشمس وفيها القمر ، والأرض أكثر تعلقاً بهما من غيرهما من سائر الأجرام السماوية . فبالنجوم المشرقة ، والكواكب المنيرة ازدانت السماء الدنيا التي هي سقف لهذه الدار التي يسكنها الإنسان ويعمرها ، وبالقمر المنير ذي المنازل والتقدير استنار غالب ليل الإنسان ، وبه يعرف عدد السنين والحساب ، وبالشمس المضيئة أشرق النهارُ على الإنسان ، وبها عرف ليله ، وميز نهاره ، ومنها استمدت أرضه دفئها ، وحرارتها ، وطاقها المودعة فيها ، ولولا الشمس لتجمدت الأرض ، ولما كانت صالحة للحياة . وفي السماء تتجمع السحب وتتراكم ، ومنها تنزل الأمطار مياهاً عذبة بها حياة الإنسان وسعاده . وفي السماء في علوها وارتفاعها ، وكثرة أجرامها ، ومجرّاتها ، وكواكبها ، ونجومها ، وشموسها ، وأقمارها آيات عظام تهدي الإنسان إلى معرفة ربه وتبين له قدرته عليه ، وتريه سوابغ نعمه به .

٢ - في الأرض :

إن في الأرض البحار ، والأنهار ، والمعادن ، والجبال ، والسهول . والتلال فيها الأحياء المائية ، والحيوانات البرية ، ذات المنافع العديدة ، والفوائد الجمة الكثيرة ، وبها الأشجار المظللة والمثمرة ، وبها الزروع ، والنباتات التي هي أرزاق ، وأقوات ، وكلها مسخرة للإنسان معطاة له ، لم يكن فيها شيء لغيره ، ولا يخرج منها شيء عن منفعته ، وفائدته بحال من الأحوال .

ويعد هذا الذي أجملناه في تقرير كون الوجود كله من أرض وسماء قد وضع مسخراً لخدمة الإنسان ، وذلك دليل على وجود خالق للكون والإنسان معاً ، وهو الله تعالى الذي خلق الكون أولاً ، ثم خلق الإنسان وسخر له كل ما خلق في الكون عناية به ، وكرامة له ، نذكر

ظاهرة كونية واحدة من ظواهر العناية بالإنسان لتزيد بها قانون العناية تأكيداً . وتوضيحاً وهي ظاهرة اللقاح في النبات والحيوان . وهي ظاهرة مسلّمة من كل العقلاء . فالنباتات كلها فيها الذكر ، وفيها الأنثى ، ويجري اللقاح بينها حسب سنّة ثابتة وقانون مرسوم لا يخالف ، وذلك ليتوفر للإنسان غذاؤه من الحبوب ، والفواكه ، والخضر التي هي العنصر الهام في غذائه الذي هو قوام حياته . وظاهرة اللقاح في الحيوان أبين وأوضح ، فالتيس مثلاً يطلب أنثاه مندفعاً إليها ، ويجري وراءها ، له صوت عجيب ، حتى إذا أتم لقاحها ، وفرغ منها اعتزلها اعتزالاً كلياً إلى أن تضع حملها ، وترضعه ، ويكاد يستغني عنها ، يعاودها التيس مرة أخرى ، ويجد من غريزته المودعة فيه دافعاً قوياً نحوها لا يملك التخلي عنه ، ولا السيطرة عليه حتى يتم مهمته التي هيء لها .

ولتساءل لم يتم هذا ؟ ولصالح من ؟ إنه يتم من أجل الإنسان . ولصالح الإنسان فقط ، إذ بهذا يتوفر له قسط آخر مهم من غذائه الذي هو اللبن والجبن ، واللحم ، كما يتوفر له كساؤه ، وفراشه ، وغطاؤه .

واخيراً هذه العناية بالإنسان المتجلية في الظواهر الكونية كلها إن لم تدل على وجود خالق للكون ذي إرادة ، واختيار ، وعلم ، وقدرة ، وقصد ، وحكمة ، خلق الإنسان وسخر له الكون كله كما هو مشاهد محسوس ، فإنه لم يبق شيء يدل على آخر في الحياة أبداً فلا الرماد يدل على النار ، ولا النوى تدل على التمر ، ولا الكلام يدل على الإنسان ، ولا الحركة تدل على الحياة ، وحيثذ فعلى العقل العفاء وعلى الدنيا السلام .

الطريقة الثانية الى معرفة الله سبحانه وتعالى الهداية الدينية

قد سبق أن ذكرنا أن طريقة الهداية الدينية تجمع بين الاستدلاليين : القياس العقلي ، والديني الشرعي ، فهي أعظم طريقتي الهداية إلى معرفة الله تعالى والايمان به عز وجل ، وهي التي تبعث المهتدي بها إلى العمل ، المزكي للنفس ، والمهيء له لسعادة الدارين ، بخلاف الهداية العقلية وحدها وهي الطريقة الأولى من طريقتي الهداية فإنها وإن أنقذت صاحبها من التمزق الشخصي ، والقلق النفسي ، والحيرة الفكرية ، فإنها لا تزكي نفسه ، ولا تقوم أخلاقه ، ولا تهيئه لسعادة الدنيا والآخرة ، كما أنها لا تخرجه من دائرة الكفر الموجب للعذاب الأخروي ، والخلود فيه .

وهذا عرض سريع لطريق الهداية الدينية المفضية بمن أخذ بها إلى معرفة الله تعالى معرفة سليمة تبعث على الاستقامة ، وتعد للسعادة والآمال ، في الحال والمآل . وقبل الشروع في الكلام نذكر أن هناك حقيقتين ثابتتين ينبغي أن تكونا منطلق التعرف إلى الله تعالى ، والتعريف به سبحانه وتعالى هما :

الأولى : أنه لا يعرف الله كنهه سبحانه وتعالى ، ولا يعرف بالله مثل الله جل جلاله . وعظم سلطانه .

والثانية : أن مصدر معرفة الله تعالى ، هو كتابه ، ورسوله . فقد تعرف الله تعالى إلى عباده في كتابه بما لا مزيد عليه . كما أن الرسول ﷺ لم يأل جهداً في التعريف بربه عز وجل ، بالحديث عنه ، وبذكر أسمائه وصفاته حتى عرف المؤمنون ربهم معرفة أثمرت لهم محبته وطاعته ، ويحسن أن ننبه هنا إلى أن للتعريف بالله عز وجل في الكتاب طرقاً مختلفة ، وأساليب متنوعة . منها : أن يخاطب عباده كافة

مؤمنهم وكافرهم . ويتعرف إليهم فيأمرهم وينهاهم .

ومنها أن يتعرف إلى أنبيائه ورسله عليهم السلام فيناديهم ،
ويخاطبهم ، ويوحى إليهم .

ومنها : أن يتعرف إلى عباده المؤمنين به ورسله ، فيخاطبهم
بأمرهم وينهاهم ، يعدمهم ويشرهم ، ينذرهم ويحذرهم . ومنها إرساله
تعالى الرسل ، وإنزاله عليهم الكتب . وتأيدهم بالمعجزات والخوارق
التي يعجز عنها البشر عادة ، ولا يقدرُونَ على مثلها ، لكونها لا تخضع
للسنن الكونية . وهذا تفصيل ذلك :

أولاً : خطابه عز وجل لكافة عباده في قوله من سورة البقرة :

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ آعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴾ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ (١)

فقد اشتملت هاتان الآيتان على نداء الله تعالى للعباد ، وأمرهم
بعبادته ، ونهاهم عن الشرك به وبعبادته . كما اشتملتا على التعريف به
تعالى رباً ، خالقاً ، مدبراً ، رازقاً . خلق البشرية كلها ، وجعل لها
الأرض فراشاً ، والسماء بناءً ، وأنزل من السماء ماء فأخرج لها به من
الثمرات رزقها ، وما به قوامُ حياتها . كما اشتملت الآيتان على دليلين
عقليين :

الأول : دليل الحدث .

(١) الآيتان (٢١ ، ٢٢) .

الثاني : دليل العناية . وقد سبق بيان كل منهما في بحث الهداية العقلية فليرجع إليهما .

وفي قوله سبحانه من سورة النساء :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾^(١)

ففي هذا النداء الإلهي يأمر الله تعالى البشرية كلها بتقواه وهي عدم الخروج عن طاعته بترك أمره ، أو بفعل نهيه ، ويذكرهم بأنه ربهم أي خالقهم ، ورازقهم ، ومدبر أمرهم ، كما ذكرهم بأصل نشأتهم . فاشتمل هذا النداء الكريم على التعريف بالله تعالى بوصفه الخالق ، كما اشتمل على دليل عقلي وهو دليل الحدوث .

وفي قوله تعالى من سورة الأعراف :

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۚ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)

ففي هذا الإخبار الإلهي تعريف بالله سبحانه وتعالى بوصفه الرب الذي خلق الكون كله ، علوه وسفليه ، وهو يدبر أمره من فوق عرشه . وكما انفرد بالخلق والتدبير انفرد بالأمر والعبادة والتشريع .

كما في هذا الخبر القرآني دليل عقلي على إثبات وجود الله تعالى وهو دليل العلة الكافية . إذ الخلق والتدبير مشاهدان في الكون لكل ذي عينين فلا بدّ إذاً من خالق . مدبر للكون . ونفّيه مستحيل لما يوجب

(١) الآية (١) .

(٢) الآية (٥٤) .

من التناقض العقلي .

وفي قوله عز وجل من سورة فاطر :

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ
مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ﴾^(١)

ففي هذا النداء تعرف الله تعالى إلى الناس بأنه ولي نعمتهم . نعمة الخلق والرزق ، وطلب منهم أن يذكروا ذلك ليشكروه بعبادته وحده . لكونه لا يستحق العبادة سواه ، وعجبهم من انصرافهم عنه ، وهو ربهم الذي لا رب لهم غيره .

فاشتمل هذا النداء الكريم على دليلين عقليين هما دليل الحدوث ، ودليل العناية .

وفي قوله تعالى من سورة الحجرات :

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ
لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٢)

فاشتمل هذا النداء الإلهي على التعريف به تعالى بوصفه الخالق ، والمدير ذا العلم ، والخبرة التامة ، فمن مظاهر تدبيره للناس أن جعل حياتهم اجتماعية . ليتم التعاون بينهم على تحقيق سعادتهم ، ولو شاء لجعلهم يعيشون على نمط حياة البهائم والحيوانات ، فلا أسرة ولا قبيلة ، ولا شعب ، وحيث لا مناص من أن يعيشوا عيش الحيوانات ، فلا مدنية ، ولا حضارة ، بل لا إنسانية ولا كرامة آدمية . كما اشتملت الآية على دليل الحدوث ، والعناية أيضاً .

(١) الآية (٣) .

(٢) الآية (١٣) .

وفي قول من سورة لقمان عليه السلام :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالَّتِي فِي الْأَرْضِ رَوَى أَنْ تُعْبَدَ يُكْرَهُ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ ﴿١١﴾ ﴾

ففي هذا الخبر الإلهي تعريف بالله تعالى بصفات الكمال التي انفرد بها دون غيره . وهي خلق السموات خلقاً محكماً بما أودع فيها "من قانون الجاذبية فتماسكت أجرامها ، ولم تحتاج إلى ما يدعمها من وسائل الدعم التي عرفها الناس كالأعمدة ونحوها والقاذرة تعالى الجبال في الأرض لحفظ توازنها حتى لا تضطرب بأهلها ولا تميل بهم فيهلكوا . ونشره تعالى آلاف الدواب المختلفة نوعاً ، وشكلاً ، وخاصة . وفوائد ، نشره في الأرض التي هي كالمائدة الكبرى للإنسان ، وكالفندق العظيم للإقامة والسكن . وإنزاله عز وجل المطر من طبقات الجو السامية . وإنباته النباتات المختلفة التي هي أصل غذاء تلك الدواب التي بثها في الأرض . كما اشتمل آخر الخبر المذكور على تحذير صريح لأولئك الذين يؤلهون غيره تعالى من مخلوقاته بأن يسيروا إلى شيء ما قد خلقتهم الباطلة المزعومة . كما اشتمل الخبر أيضاً على الأدلة العقلية التالية : دليل الحدوث ، ودليل العناية ، ودليل النظام ، ودليل الوجوب .

وفي قوله تعالى من سورة الزمر :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى إِلَّا

(١) الأيتان (١٠ ، ١١) .

هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا
وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَزْوَاجًا يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا
مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾

ففي هاتين الآيتين من كتابه تعالى يتعرف سبحانه وتعالى إلى
عباده من خلال صفاته العليا ، وهي كونه الخالق ، القوي القادر ،
المدير ، العزيز ، الغفار ، كما يتعرف إليهم بنعمه عليهم في خلقهم ،
وجعل الأرض مناسبة لحياتهم فيها باختلاف الليل والنهار عليها ،
وبوجود الشمس والقمر مسخرين فوقها ، القمر ينيرها . وبه تعرف
شهورها وأعوامها . والشمس تضيئها ، وتدنتها ، وتجعل الحياة صالحة
فيها .

وبإنزال الأنعام ، ذات اللحم ، والألبان ، والأصواف ،
والأشعار ، والأوبار ، حيث يشربون ألبانها ، ويركبون ظهورها ، ويأكلون
لحومها ، ومن أصوافها ، وأوبارها ، وأشعارها يلبسون ويتأثثون .

بتلك الصفات العلى ، وهذه النعم العظمى يتعرف الله جل جلاله
إلى الناس ويخبرهم بأنه هو ربهم ، والهمم ، لا رب لهم غيره ، ولا
إله لهم سواه ، ويعجبهم^(٢) من أنصرافيهم عنه ، وإقبالهم على سواه .
وقد اشتملت هاتان الآيتان على كل القوانين العقلية ، من دليل
الوجوب ، والحدوث ، والنظام ، والعناية ، والعنة ، وبأي تأمل في
الآيتين يظهر ذلك جلياً .

(١) الآيتان (٥ ، ٦) .

(٢) يحملهم على التعجب .

وفي قوله تعالى من سورة البقرة

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ (١)

ففي هاتين الآيتين من كتابه تعالى يعجب تعالى عباده من كفرهم به وجحودهم له ، مذكراً لهم بحال العدم السابقة لخلقهم ، وبحياتهم ، وموتهم ثم بعثهم بعد فناءهم ، ورجوعهم إليه ليحكم بينهم ، ويعزيهم برحمته وعدله ، ويتعرف إليهم بدليل عنايته بهم ، ويقدرته عليهم ، ويعلمهم بهم . كما اشتملت الآيتان على أدلة : الحدوث ، والعلة ، والعناية .

ثانياً : خطابه تعالى لخواص عباده من أنبيائه ورسله ، وتعرفه إليهم بندايتهم ، ووجه إليهم ؛ وإنزال ملائكته عليهم . ومن ذلك نداؤه لآدم أبي البشر عليه السلام ، وخطابه إياه في قوله تعالى من سورة البقرة :

﴿ يٰٓأَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢)

وقوله من سورة طه :

﴿ وَلَقَدْ عٰهَدْنَا إِلَىٰٓءَادَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عِزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يٰٓأَدَمُ إِنَّ هٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ

(١) الآيتان (٢٨ ، ٢٩) .

(٢) الآية (٣٥) .

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١﴾

فقد نادى آدم في الآية الأولى ، وأمره أن يسكن الجنة هو وزوجه ، وأباح لهما كل ما فيها من الأطعمة ، ونهاهما عن الأكل من شجرة واحدة ، وحذرهما من ذلك .

وفي الآية الثانية أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس امتنع ، فخطب الرب تعالى آدم معلماً إياه بعداوة إبليس له ولزوجه ، ومحذراً لهما من الخروج من الجنة إن هما أطاعا إبليس ، وأكلا من الشجرة التي حرم عليهما .

ومن ذلك خطابه لنوح ، ووحيه إليه ، ونداؤه إياه في قوله تعالى : من سورة هود :

﴿ وَأَوْحِيَ إِلَيْكَ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٢)

وفي قوله تعالى :

﴿ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴾ (٣)

وفي قوله تعالى :

﴿ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّنْ مَّعَكَ ﴾ (٤)

(١) الآيات (١١٥ ، ١١٩) .

(٢) الآية (٣٦) .

(٣) الآية (٢٧) .

(٤) الآية (٤٨) .

ومن ذلك خطابه لإبراهيم عليه السلام . وعهده إليه وإلى ولده
إسماعيل ببناء البيت العتيق ، وتطهيره للطائفين والعاكفين ، ونداؤه
إياه ، ووجهه إليه ، في قوله من سورة البقرة :

﴿وَإِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(١)
وفي قوله :

﴿وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ
وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^(٢)

وفي قوله :

﴿وَنَلَدَيْنَاهُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَنَبَّأْنَاهُ أَن يُبَرِّأَهُمْ ۖ قَالَ قَدْ صَدَّقْتُ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣)

وتوله عز وجل :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾^(٤)

ومن ذلك ندائه تعالى لموسى عليه السلام ، وإعلامه بأنه ربه ،
الذي لا إله إلا هو ، وأمره إياه بعبادته ، وبإقام الصلاة لذكره ، وسؤاله
إياه عما في يمينه ، وإجابة موسى له ؛ وأمره تعالى له بإلقاء العصا في
حديث ممثع حميل ثم لموسى مع ربه جل وعلا بجانب الطور ، وذلك
في قوله تعالى من سورة طه :

(١) الآية ١٢٤ من سورة البقرة أيضاً .

(٢) الآية (١٢٥) من سورة البقرة .

(٣) الصفات الأيتان (١٠٤ ، ١٠٥) .

(٤) سورة النساء الآية (١٦٣) .

﴿يَمُوسَىٰ ١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى
وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٢﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٣﴾

وفي قوله تعالى :

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمُوسَىٰ ١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا
عَلَٰی غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقَهَا يَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا
فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ
وَاصْنَمِ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيَظًا مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ ءَايَةٍ أُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾
لِنُرِيكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ﴿٢١﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٢﴾
قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٣﴾ وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٤﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ
مِنْ لِسَانِي ﴿٢٥﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٦﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٧﴾
هَارُونَ أَخِي ﴿٢٨﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٢٩﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٠﴾ كَيْ
نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣١﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٢﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٣﴾ قَالَ قَدْ
أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَىٰ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٥﴾ إِذْ
أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٦﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَآقْذِفِيهِ فِي
الْبَيْمِ فَلْيُلْقِهِ الِّيمُ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَالْقَبْتُ عَلَيْكَ حَبَّةً
مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٧﴾ إِذْ تَمْشِي أُخُنُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ

(١) الآيات (١١ - ١٤) .

﴿مَنْ يَكْفُلْهُ، فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ
نَفْسًا فَفَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ
ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوَسَّىٰ ﴿٤٠﴾ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾: أَذْهَبَ أَنْتَ
وَأُخُوكَ بِعَايَتِي وَلَا تَنبَأُ فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾
فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِّسَانًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ
أَنْ يَفْطُرَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَأَنْخَافَا إِنِنِیَّ مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ
فَأَتَيْنَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ
قَدْ جِئْنَاكَ بِعَايَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مِنْ أَتْبَعِ الْهُدَىٰ ﴿٤٦﴾﴾^(١)

ومن ذلك نداؤه لداود عليه السلام ، وإخباره إياه باستخلافه له ؛
وأمره إياه بالعدل والحكم بالحق ، ونبيه إياه عن اتباع الهوى في قوله
سبحانه وتعالى :

﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ
وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٢١﴾﴾

ومن ذلك استجابته لأيوب لما دعاه لكشف ضره ، فكشفه عنه ،
وأعطاه ما فقدته من أهل ومال ، وأرشده إلى استعمال الماء غسلًا وشرباً
لشفائه من مرضه ، وأفتاه في يمينه حتى لا يحث فيها ، وذلك في قوله
تعالى من سورة ص :

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصُوبٍ وَعَذَابٍ

(٢) سورة ص الآية (٢٦) .

(١) الأيات (١٧ - ٤٧) .

أَرْكَضَ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ
وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ يَدَكَ
ضَغْنًا فَاصْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

ومن ذلك نداؤه تعالى لذكرى عليه السلام ، وتبشيرُهُ إياه يحيى
لما سأله الولد ، وإعطاؤه الآية على ذلك في قوله تعالى من سورة مريم
﴿يَنْزِكْرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (٤٥)

وقوله تعالى :

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ (٤٦)

ومن ذلك نداؤه لعيسى بن مريم عليهما السلام ، وخطابُهُ إياه ،
وتذكيره بنعيمه عليه وعلى والدته ، وتأنيده بروح القدس ، وإخباره بأنه
متوفيه ورافعه إليه ، في قوله عز وجل من سورة المائدة :
﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أُتِدَّتْكَ رُوحُ
الْقُدُسِ﴾ (٤٧)

وفي قوله من سورة آل عمران :

﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ مَطَهْرِكَ مِنَ الذَّنْبِ كَفَرُوا وَجَاعِلُ
الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (٤٨)

(١) الآيات (٤١ - ٤٤) .

(٢) الآية (٧) .

(٣) سورة مريم الآية (١٠) .

(٥) الآية (٥٥) .

(٤) الآية (١١٠) .

ومن ذلك نداؤه لمحمد ﷺ ، وخطابه إياه ، وإرساله ، وأمره ، ونهيه ، وإرشاده له ، وتعليمه في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، كتابه الذي أنزله عليه ، وجعل هداية أمته فيه ، كقوله تعالى من سورة المائدة :

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾^(١)

وقوله تعالى من سورة الأحزاب :

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(٢) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا^(٣)

وقوله عز من قائل :

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّبِعْ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنْ أَلَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٤) وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنْ أَلَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا^(٥) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا^(٦)

وقوله من سورة العجاثية :

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٧) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴿

(١) الآية (٦٧) .

(٢) الأيتان (٤٥ ، ٤٦) .

(٣) الآيات (١ - ٣) .

(٤) الأيتان (١٨ ، ١٩) .

ثالثاً : ندأؤه تعالى لعباده المؤمنين ، وأمره إياهم ، ونهيه لهم ، وإخبارهم .

وذلك في قوله من سورة آل عمران :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠١﴾
وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴿١٠٢﴾﴾

وفي قوله من سورة الحج :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴿١٠٨﴾﴾

وفي قوله من سورة الزخرف :

﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿١٠٩﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿١١٠﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿١١١﴾﴾

رابعاً : اصطفاؤه للرسل وإرسالهم إلى الناس يبلغون عنه شرائعه وأحكامه ، ويشيرون أوليائه برحمته ، وينذرون أعداءه من بقمته .

ومن ذلك إرساله نوحاً عليه السلام في قوله تعالى من سورة

نوح :

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ إِنِّي لَكُم نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ

(١) الآيتان (١٠٢ ، ١٠٣) .

(٢) الآيتان (٧٧ ، ٧٨) .

(٣) الآيات (٦٨ - ٧٠) .

وَأَطِيعُوا ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُم مِّنَ أَجْلِ مِّسْمَىٰ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝^(١)

ومن ذلك إرساله هوداً ، وصالحاً عليهما السلام إلى كل من عادٍ ، وثمود ، كما في قوله تعالى من سورة هود :
﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝ يَتَّقُونَ ۝ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ^(٢) إِنَّا أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝^(٣)

وقوله :

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ۖ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝^(٤)

ومن ذلك إرساله إبراهيم ، ولوطاً ، وشعياً ، وموسى ، وعيسى عليهم السلام ، كما جاء ذلك في قوله تعالى من سورة الحديد :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُمْ مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝^(٥)

(١) الآيات (١ - ٤) .

(٢) أي على إبلاغهم ، وتعليمهم توحيد الله تعالى بعبادته وحده دون غيره .

(٣) الآيتين (٥٠ ، ٥١) .

(٤) الآية (٦١) من سورة هود .

(٥) الآية (٢٦) .

وفي قوله من سورة الصافات :

﴿وَإِنْ لَوْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٦﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٧﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٨﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ لَتَمُوتُنَّ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ ﴿١٤٠﴾ وَبِالْبَلَاءِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٤١﴾﴾^(١) ^(٢) ^(٣)

وفي قوله من سورة الأعراف :

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَرُمُ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَافْزُقُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤١﴾﴾^(٤)

وفي قوله :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٥٠﴾﴾^(٥)

كما أرسله الى بني إسرائيل قومه إذ جاء ذلك في قوله تعالى من سورة
الصف :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَبْقَرُمُ لِمَ تُؤْذُونِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ

(١) أي وقت الصباح وهو النهار .

(٢) أي ما حل بهم من الهلاك فتعجبوا به .

(٣) الآيات (١٣٣ - ١٣٨) .

(٤) الآية (٨٥) .

(٥) الآيات (٩٦ - ٩٨) من سورة هود .

إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ
وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا
لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ
فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ^(١)

ومن ذلك إرساله محمداً ﷺ وهو خاتم النبيين صلوات الله وسلامه
عليهم أجمعين ، في قوله تعالى من سورة الأعراف :

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ ^(٢)

وقوله من سورة الأحزاب :

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ^(٣) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ
بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤﴾ وَيَسِّرِ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا اللَّهُ فَضْلًا كَبِيرًا
وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى
بِاللَّهِ وَكِيلًا ^(٥)

إن هؤلاء الرسل جميعاً وغيرهم كثير ، قد أوحى الله تعالى إليهم
وعرفهم بنفسه فعرفوه ، وأرسلهم إلى أممهم فبلغوهم رسالاته باسمه ،
ودعوا إليه بإذنه ، واستنصروه فنصرهم ، وسألوه العظام من المعجزات
فأعطاهم . فهل بعد هذا يطالب عاقل بالدليل على وجود الله تعالى ،
ووجوب الإيمان به . وبمعرفته . وعبادته ، والتقرب إليه ؟ ! اللهم لا .
اللهم لا .

خامساً : ما أنزله تعالى من كتب بطريق الوحي المباشر حيث

(١) الأيتان (٥ - ٦) .

(٢) الآية (١٥٨) .

(٣) الآيات (٤٥ - ٤٨) .

أنزل صحف إبراهيم ، وتوراة موسى ، وزبور داود ، وإنجيل عيسى ، وفرقان محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين .

فهذه الكتب قد تلقاها المرسلون وحياً وأوحاها الله تعالى إليهم ، وتلقاها أتباع أولئك الرسل عن رسلهم ، ولم يشك أحد منهم في أنها وحي الله ، وكتبه أنزلها على رسله ، وفيها أمره ونهيه ، وإخباره ، ووعدته ، ووعيدته ، وشرائعه ، وأحكام دينه ، وإن كان قد طرأ على بعضها فساد بالتحريف ، والزيادة ، والنقص فإن القرآن الكريم كتاب محمد ﷺ (١) وهو أحدثها نزولاً ، لم يزل غصاً طرياً كما نزل ، لم ينقص منه حرف ، ولم يزد فيه آخر ، وهو آية صدق نبوة صاحبه الأُمِّي الذي لم يقرأ ، ولم يكتب ، ولم يجلس بين يدي أستاذ قط . وقد اشتمل كتابه - ﷺ - القرآن - على علوم ومعارف بهرت العقول ، وأخذت بالمشاعر والقلوب ، فما من علم من العلوم الإلهية ، والإنسانية إلا وذكر فيه طرف منه وأشير إلى دققة من دقائقه ، أو جليلة من جلالته . سبق (٢) الزمان بإشاراته إلى شتى العلوم ، والمخترعات العصرية ، وذكر الذرة (٣) ، ونظام الزوجية (٤) في كل أجزاء الكون وذراته كما أشار إلى اتساع الكون (٥) وكروية الأرض (٦) ، وذكر مبادئ الصحة (٧) ، ووضع قواعد العدل في الحكم (٨) ، وأسس الآداب الرفيعة ، والأخلاق

(١) فإن قيل هل تصح إضافة الكتاب إلى محمد ﷺ ؟ قلنا : نعم ، لإضافة كتاب موسى إليه في قوله تعالى (ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة) سورة الأحقاف الآية ١٢ .

(٢) الضمير المستتر يعود على القرآن .

(٣) في قوله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » سورة الزلزلة الآية ٧ .

(٤) في قوله تعالى « ومن كل شيء خلقنا زوجين » سورة الداريات الآية ٤٩ .

(٥) في قوله تعالى « والسماء ببنائها بأيدٍ وإنا لموسعون » الآية ٤٧ .

(٦) في قوله تعالى « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » سورة الزمر الآية ٥ .

(٧) في قوله تعالى « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » سورة الأعراف الآية ٣١ .

(٨) في مثل قوله عز وجل « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن

تحكموا بالعدل » سورة النساء الآية ٥٨ .

البشرية الفاضلة ، الشيء الذي لم تعهده البشرية في كتاب غيره^(١)

فهذا الكتاب العظيم حوى من العلوم الإلهية ، والكونية ، والقانونية التشريعية في كل مجالات الحياة ، لم يدع أحد من الخلق أنه قوله وكلامه ، أو تركيبه وتأليفه ، وكل ما في الأمر أنه نزل على بشر هو أكمل البشر طهراً وصفاء ، وصدقاً وأمانة ، وعدلاً ورحمة .

فما مصدر هذا الكتاب ، ومن أنزله ؟ فهل يحسن السكوت عن الجواب ؟ أو يحسن الكذب والمغالطة فنقول : فاض به وجدان محمد الأمي كما يقول المضللون !! أو ماذا عسى الإنسان العاقل أن يقول ؟ إنه لا جواب صحيح غير الاعتراف بأنه تنزيل الله ، وكتاب الله ، ووحى الله ، ولازم ذلك أن الله منزله موجود ، وأنه عليم قدير ، وعزيز حكيم . وأن من نزل عليه هو نبي الله ورسوله وأن كل ما جاء في هذا الكتاب حق ، وصدق ، وعدل . وأن الهداية البشرية متوقفة لا محالة عليه ، وأن السعادة الإنسانية منوطه بالإيمان به ، والأخذ بما فيه .

سادساً : ما آتى الله عز وجل رسله من معجزات خارقة لسنن الكون ، وقوانين الحياة تدليلاً على صدق نبوتهم ، وثبوت رسالتهم ، ومن ذلك معجزة إبراهيم أبي الأنبياء ، وإمام الموحدين بلا منازع حيث ، به خصوم الحق والتوحيد من المشركين والجاحدين ، ألقوه في نار جهنم تخلصاً منه ، ونقمة عليه ، فخرج منها بحمد الله تعالى ولم ترق النار سوى كتافه الذي شُدت به يداه ، وقيدت به رجلاه ، فكانت حجة خارقة لقانون الأجسام القابلة للاحتراق إذا أُلقيت في النار ، أو لمت فيها^(٢) .

ذلك بمثل قوله عز وجل من قائل « إن الله يأمر بالعدل ، والإحسان ، وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر ، والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » سورة النحل الآية ٩٠ . ثبت هذا بالقرآن كلام الله ، إذ يقول تعالى في حكاية دعوة إبراهيم عليه السلام قومه « قالوا =

ومن ذلك معجزات موسى عليه السلام التي لا ينكرها إلا مكابر
«سوفسطائي»، لا قيمة له بين عقلاء البشر، فإن انفلاق البحر لمرور
أمة بكاملها عليه، واجتيازه لم يكن إلا إحدى الخوارق التي يطأطئ
لها الإنسان رأسه إجلالاً وإعجاباً^(١)، وإن تفجر اثنتي عشرة عيناً،
تشرب من كل عين منها قبيلة بكامل أفرادها لخارقة لا يملك العقلاء
عندها إلا التسليم بها^(٢).

ومثلهما العصا التي يلقها موسى باسم الله فتقلب حية تسعى،
وتهتز كأنها جان، وتلقف كل الباطل أمامها^(٣).

ومن ذلك معجزات عيسى عليه السلام، كإبرائه الأكمه،
والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله تعالى، وكتكلمه في المهد في أيام
ولادته الأولى^(٤).

ومن ذلك ما أوتي محمد رسول الله ﷺ من معجزات كالعروج به
إلى الملكوت الأعلى^(٥)، وودّ عين قتادة بعد أن سقطت متدلّية على

حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم . . . سورة
الأنبياء الآيتان ٦٨ ، ٦٩ .

(١) جاء هذا في قول رب العالمين «إذ أوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل
فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين» سورة الشعراء
الآيات ٦٣ - ٦٥ .

(٢) قال تعالى (وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة
عيناً) سورة البقرة الآية ٦٠ .

(٣) قال تعالى (فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين) سورة الأعراف ١٠٧ .

(٤) قال الله عز وجل « إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح
القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً ، وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ، وإذ
تخلق من الطين كهية الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص
بإذني ، وإذ تخرج الموتى بإذني . . . سورة المائدة الآية ١١٠ .

(٥) ثبت الإسراء والمعراج في الصحيحين وغيرهما من كتب السنة بالتواتر مع ذكره في سورة الإسراء
بالقرآن . راجع اللؤلؤ والمرجان (١/ ٣٥ - ٣٩) والبخاري (١/ ٩٢ - ٩٤) في مواضع أخرى =

وجتته^(١) ونطق جذع النخلة ، وحنينه إليه^(٢) ، وسلام الحصى^(٣) ،
والشجر عليه^(٤) ، وفيضان الماء من بين أصابعه في صحراء قاحلة لا
ماء بها حيث سقى ، وشرب وتطهر جيش بأكمله عدد أفرادها ألف
وأربعمائة فرد^(٥) ، وكل هذه المعجزات له ، وغيرها قد شاهدها عشرات
المئات من الناس ، من هم أكمل الناس صدقاً ومعرفة ، وصلاحاً ،
بحيث تواطؤهم على الكذب يعد مستحيلاً عقلاً .

فهذه المعجزات وكل واحدة خارقة لنظام السنن الكونية . فهل
تدل على غير وجود الله رباً وإلهاً ذا صفات متناهية في الكمال ؟؟؟ .

اللهم إنها لا تدل إلا عليك ، ولا تعرف إلا بك يا رب
العالمين ، وإله الأولين والآخرين . سبحانك أن تخفيك السنة
الجاحدين .

والآن فليقل المنصفون : بمن يجب أن يؤمن العقلاء : أبالـه
يخلق ويرزق ، ويدبر ، يحيي ويميت ، ويضر وينفع ، ينزل الكتب ،
ويرسل الرسل ، ويضع الشرائع والقوانين ، ويهدي ويضل ، ويسعد
ويشقي ، ويوالي ويعادي ، ويحب ويبغض ، ويعطي المعجزات ويهب
الكرامات ، له تسعة وتسعون اسماً وصفة كلها أسماء حسنى وصفات
عليها ، يكلم ويعلم ، ويسمع ويجيب ، يرفع ويضع ، يعز ويذل ، يأمر
بالعدل والإحسان ، وينهى عن الظلم والعدوان ؟؟؟ .

= تبلغ تسعة مواضع ، وكذا مسلم في (١/٩٩ - ١٠٧) وفي موضع آخر .

(١) ورد هذا في سيرة ابن هشام في الحديث عن غزوة أحد ٣/٣٣ .

(٢) نطق علق النخلة ثبت عند الترمذي في كتاب المناقب . باب رقم ٩ وحديث رقم ٢٦٣٢ . أما
حنين الجذع فقد جاء في صحيح البخاري ١١/٢ .

(٣) راجع الترمذي . كتاب المناقب . باب ٨ . حديث ٣٦٣٠ .

(٤) ذكره مسلم في ٨/٥٨ ، ٥٩ .

(٥) راجع البخاري ١٤٨/٧ .

أم بطبيعة مية عمياء صماء بكماء لا إرادة لها ولا اختيار ، لا
تسمع دعاء ، ولا تجيب نداء ، لا تحب ولا تكره ، لا تضر ولا تنفع ،
لا تعلم ولا تكلم ، لا تنزل كلاً ولا تبعث برسول ، ولا تشرع ولا تقنن ، لا تهدي
ولا تفضل ، لا اسم لها ولا صفة سوى الحدوث والموت ، والصمم والبكم
والعمى !!! .

ألا فليقولوا لنا !! ، أما نحن فقد آمنا بالله الذي خلق السموات
والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء . خلق آدم من تراب ونفخ
فيه من روحه ، وخلق ذريته من ماء مهين ، خلق كل شيء وملكه ،
خلق بقدرته ودبر بحكمته ، أنزل الكتب وأرسل الرسل ، يُدعى
فيجيب ، ويسأل فيعطي ويستنصر فينصر ، يهدي من يشاء برحمته ،
ويضل من يشاء بعدله . فبمعرفة ومحبة تنلج الصدور ، وتمتلئ
النفوس بالسعادة ، والحبور . لا أنس بغير ذكره ، ولا سعادة بغير
طاعته ، الحياة بدون الإيمان به موت ، والوجود بغير عبادته عدم ،
رضاء أمل الأملين ، وغاية العاملين . لا نرضى بغيره بدلاً ، ولا نبغي
عن طاعته جِولاً ، فمعرفة ومحبة جنة القلوب ، لانصب فيها ولا
لغوب .

اللهم كما وهبتنا الإيمان بك . وهديتنا إلى معرفتك ، فسخرنا
لطاعتك ، وامن علينا بمحبتك ، وأكرمنا بولايتك ، وألبسنا ثوب
عافيتك ، واخلع علينا حلل رضوانك . آمين . . .

أسماء الله تعالى وصفاته

المؤمنون بالله تعالى ليسوا على درجة واحدة في معرفة أسماء الله تعالى وصفاته ، إذ منهم من لم يعرف الله تعالى إلا لكونه خالقاً ، مدبراً ، حكيماً ، ذا إرادة واختيار ، إليه متبهي الكمال ، والجلال ، والجمال ، وذلك لأنهم آمنوا بالله تعالى ، وعرفوه بواسطة النظر والاستدلال ، والقياس العقلي ، وهي الهداية العقلية مجردة عن هداية الدين الشرعية .

ومنهم من عرف الله تعالى بصفات الخلق ، والإرادة ، والتدبير ، والحكمة ، وبانتهاء الكمال ، والجلال ، والجمال إليه تعالى ، وعرفه بجميع أسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وأهل هذه المعرفة هم أهل الهديتين العقلية النظرية ، والدينية الشرعية ، لأن من أسمائه تعالى ما لا يعلم إلا عن طريق الوحي الإلهي فقط . فالله أعلم بأسمائه وصفاته من خلقه ، وأنبياء الله - ورسله أعلم بذلك من غيرهم ممن لم يهتدوا بهداية الوحي الإلهي من سائر الناس .

وحذراً من الكذب على الله تعالى ، وخوفاً من تكذيبه تعالى ، ولا سيما وقد توعد الله تعالى مكذبيه والكاذبين عليه في قوله من سورة الزمر : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۖ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۚ ۝١١ ﴾

(١) الآية - ٣٢ .

فإن المؤمنين بالوحي الإلهي ، العارفين بأسماء الله تعالى وصفاته يلتزمون حيال أسمائه عز وجل وصفاته بعبادتين لا يجيزون الخروج عنهما بحال من الأحوال ، لما يؤذي إليه الخروج عنهما من تكذيب الله تعالى أو الكذب عليه . والعياذ بالله تعالى من ذلك كله .

المبدأ الأول : أن لا يُسموا الله تعالى باسم لم يسم به تعالى نفسه في كتابه أو على لسان رسله عليهم السلام ، فهم إذا دعوه دعوه بأسمائه الحسنى حيث انتدبهم لذلك في كتابه بقوله من سورة الأعراف :

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١)

وإذا نعتوه وعرفوا به نعتوه بصفاته ، وعرفوه بأفعاله وآياته الدالة عليه جل جلاله ، وعظم سلطانه .

والثاني : أن لا يشبهوا الله تعالى في ذاته ، ولا صفاته ، ولا أفعاله بذوات المخلوقين ، ولا بصفات المحدثين ولا بأفعالهم ، لاستحالة وجود شبه الله تعنى عقلاً وشرعاً . أما الشرع فقد أخبر تعالى في غير موضع من كتابه بنفي الشبه له والكفؤ فقال تعالى :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٢)

وقال عز وجل

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝

(١) الآية ١٨٠

(٢) سورة الشورى الآية ١١

(٣) سورة الإخلاص بكاملها

وأما العقل فإن خالق المادة لا يكون مادة ، وما لم يكن مادة فكيف تشبهه المادة ، وهل يُشبه ما ليس بمادة بما هو مادة ؟ فلذا قضى العقل باستحالة أن يشبه الخالق بمخلوقاته .

ومن هنا فالمؤمنون يصفون ربهم بكل ما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ ولا يتخرجون من ذلك أبداً .

فيقولون : إن الله يسمع وبصير ، ويحب ويبغض ، وخلق بيديه ، واستوى على عرشه ، ويجيء لفصل القضاء ، وينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا ، وكلم موسى ، وذلك لأمر أحدها : أنه ما دام تعالى قد وصف نفسه بهذه الصفات ، ووصفه بها رسوله ﷺ وهو أعلم الناس به تعالى لم يبق إذاً من معنى للتحرج في وصفه تعالى بذلك ، إذ لو لم يكن ذلك جائزاً ومشروعاً لنهاى عنه تعالى في كتابه ، وحرّمه على لسان رسوله ﷺ ، كما حرم تكذيبه والكذب عليه ، ووصفه بما هو براء منه من سائر الأوصاف والنقائص المنافية للكمالات الإلهية كأن يكون له صاحبة أو ولد ، أو شريك في الملك ، أو ولي من الدّل .

وثانيهما :

أنهم عندما يصفون ربهم بصفاته التي وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ ، هم يعلمون يقيناً أن هذه الصفات محال أن يكون شيء منها يشبه صفات المخلوقين للفرق الكبير ، والبون الواسع بين الخالق والمخلوق ، فإذا وصف الله تعالى نفسه بأن له يداً ، ووصفه المؤمن بها فليس معنى ذلك أن يد الله تشبه يد الإنسان ، وأن المؤمن يخطر على باله أن شهماً ما بين يد الخالق ويد المخلوق ، لا ، والله ، لأن الفرق بين يد الله تعالى الخالق ، ويد الإنسان المخلوق كما بين ذات الله الخالق ، وذات الإنسان المخلوق ، وإذاً فلا مشابهة بين يد الخالق ويد المخلوق البتة ، ولذا فالمؤمنون لا يؤولون صفات الله تعالى ، ولا يحرفونها ، أو يعطلونها خوفاً من التشبيه ، لأنهم يعلمون أن الشبهة بين

صفات الخالق وصفات المخلوق مُحال عقلاً وشرعاً ولا واقع له في الخارج أبداً ، ولذا هم يعدون من الكذب والباطل أن يشبه المرء الخالق عز وجل بالمخلوقين ، أو يشبه صفاته تعالى بصفاتهم ، وذلك كأن يقول : يد الله كيد الإنسان ، أو عين الله مثل عين الإنسان ، أو استواء الله على عرشه كاستواء الإنسان على عرشه مثلاً ؛ ، إذ هذا كله ومثله باطل لا واقع له في الخارج أبداً ، وهو كذب بحت ، واقتراء مُحض وذلك لقضاء العقول باستحالة وجود شبه ما بين الخالق والمخلوق في الذات ، والصفات والأفعال .

وثالثها :

أن العقول السليمة لا تحيل إطلاق لفظ صفة لذات من الذوات ، وبإطلاق ذلك اللفظ لتلك الصفة على ذات أخرى مع انعدام الشبه تماماً بين الصفتين ، وبين الذاتين الموصوفتين بهما ، وذلك كلفظ الرأس فإنه يطلق على المال والإنسان فيقال رأس المال ، ويقال رأس الإنسان ، ولا شبه بينهما البتة ، وذلك لانعدام الشبه بين الذاتين الموصوفتين بهما ، وهذا لفظ العين يطلق إطلاقاً فيقال عين الشمس ، وعين الماء ، وعين الحيوان ولا شبه بين تلك الذوات التي أطلق عليها لفظ العين المشترك بينهما إلا في مجرد الاسم فقط .

وأخيراً فهداية المؤمنين في هذه العقيدة عقلية ودينية ، فالعقلية هي استحالة إدراك كنه ذات الله تعالى ، وكنه صفاته ، لأن ذات الرب تعالى ليست مادة فتدرك ، وصفاته من ذاته ، ومتى استحال إدراك كنه الذات استحال كذلك إدراك كنه الصفات . والدينية الشرعية هي إخباره تعالى بأنه ليس كمثله شيء ، وأنه لم يكن له كفواً أحد ، وأن الخلق لا يحيطون به علماً ، مع وصفه تعالى لنفسه بصفات شتى ذاتية : كالسمع والبصر ، واليد ، والعين ، والرضا ، والغضب ، والحب ، والسخط ، وفعلية : كالمجيء ، والنزول ، والخلق باليد ، والاستواء على

العرش ، وما إلى ذلك مما ورد من الصفات في الكتاب الكريم والسنة الشريفة معاً .

خلاصة :

وخلاصة هذا البحث في باب الأسماء والصفات الإلهية هي أن المؤمنين المهتدين يؤمنون بأسماء الله تعالى وصفاته ، إذ بهما تمت معرفتهم له تبارك وتعالى ، ويدعون الله تعالى بأسمائه ، ويصفونه بصفاته غير مشبهين صفاته بصفات المخلوقين ، ولا مؤولين لها ولا معطلين ، مع اعتقادهم الراسخ بأن الله ليس كمثله شيء ، وبالعجز الكامل في إدراك كنه ذاته تعالى أو كنه صفاته الذاتية والفعلية على حد سواء .

وبذلك سلموا من تكذيب ربهم ، ومن الكذب عليه ، ونجوا تبعاً لذلك من العذاب المتوعد به من كذب الله تعالى أو كذب عليه في قوله تعالى

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾^(١)

براءة واعتذار !!

اللهم إني أبرأ إليك من كفر كل من كفر بك ، ومن إلحاد كل من ألحد في أسمائك أو صفاتك ، ومن شرك كل من أشرك بك في ربوبيتك أو ألوهيتك .

وأعذر إليك من كل استدلال استدلت به عليك ، ومن كل قياس عقلي وضعته تدليلاً على وجودك ، وأنت موجد كل موجود ، ومن كل برهان أتيت به على إثباتك ، وإثبات جلالك وكمالك . ومن كل دليل

(١) سورة الزمر الآية ٣٢ .

مادي سقته لأثبت به وجودك ، لأنك يا ربي أنت الدليل على وجودك ،
والبرهان على جلالك وكمالك ، فكيف يصح طلب الدليل للدليل ،
والإتيان بالبرهان على البرهان ؟؟ . .

قالوا اثبتنا ببرهان فقلت لهم أنى يقوم على البرهان برهان
اللهم إنا كل عبادك المؤمنين بك قد عرفناك بك ، ولم نعرفك
بغيرك إنك أنت الذي تعرفت إلينا بنعمك وآلائك علينا ، وبنور الإيمان
الذي جعلت في قلوبنا فعرفناك ربنا ، ورب كل العالمين ، وإلهنا ،
وإله الأولين والآخرين .

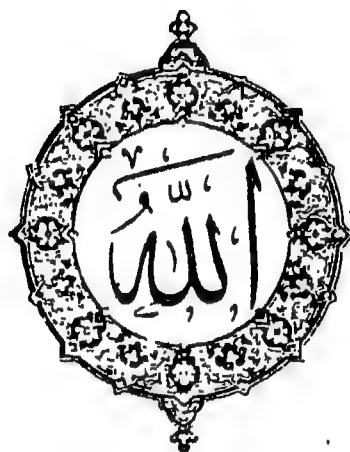
اللهم إنا لم نعرفك وأنت تعلم - بقياس ، ولا تطلب منا لك
والتماس ، وإنما عرفناك بما فطرت نفوسنا عليه من الإيمان بك ،
والافتقار إليك ، والتوكل والاعتماد عليك . فطرنا بوجودك ناطقة ،
وأحوالنا المتبدلة المتغيرة بكمالك شاهدة ! هيهات هيهات يا ربنا أن
تعرف بالقياس^(١) ، وأنت رب الناس ، وملك الناس ، وإله الناس ، أو
أن تثبت بالدليل وأنت خالق المستدل والدليل .

اللهم إن شفعني عندك ووسيلتي إليك في العفو عني ما قد علمته
مني من شعور^(٢) بالحياء والخجل وأنا أدلل عليك وأبرهن على
وجودك ، وأنت الظاهر الذي لا تخفى ، والموجود الذي به قام كل الوجود !

(١) ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه تعالى في كتاب توحيد الربوبية من فتاواه : أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قيل له بعد أن عرف ربك ؟ فقال : من طلب دينه بالقياس لم يزل دهره في التباس ، خارجاً عن المنهاج . طاعناً في الاعوجاج ، عرفته بما عرف به نفسه ، ووصفته بما وصف به نفسه .

وذكر أيضاً أن شيخاً عارفاً قيل له في ذلك فقال : عرفت الأشياء بربي . ولم أعرف ربي بالأشياء - مجموع فتاوى ابن تيمية (١٨ / ٢) .

(٢) حقاً لقد كنت أشعر بشعور غريب لم أستطع أن أعبر عنه إلا بأنه ضرب من الحياء والخجل ، وما في معناهما ، وذلك أثناء كتابتي للبحوث المتعلقة بوجود الله تعالى والإيمان به في هذه الرسالة ، لا سيما عند الاستدلال والنظر ، والقياسات العقلية ، إذ كان يهاجمني شعور باطني فطري بأن الله تعالى لا ينكر وجوده ، ولا يقوى على إنكار وجوده أحد ، وكيف نرضى بالحياء ، أن نقبلها خالية من الله والإيمان به ؟ وكيف ؟؟ !!



التَّوْحِيدُ

التَّوْحِيدُ

ما هو التوحيد ؟

التوحيد : مصدر وحد الشيء ، يوحدّه توحيداً إذا أفردّه ، ونفى عنه التعدد . والتوحيد في عرف الشرع نفي الكُفء. والمثل عن ذات الله تعالى وصفاته ، وأفعاله ، ونفي الشريك في ربوبيته ، وعبادته عز وجل . قال تعالى في نفي الكُفء :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٤) ﴾^(١)

وقال في نفي الشريك في الربوبية :

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ ۝ ﴾^(٢)

وقال :

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ الْمَتَّعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يَدْرِ الْأُمُورَ فَيَقُولُونَ اللَّهُ ۝ ﴾^(٣)

(١) سورة الإخلاص بكاملها .

(٢) سورة الرعد الآية ١٦ .

(٣) سورة يونس الآية ٣١ .

وقال في نفي الشريك في العبادة :

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١)

وقال :

قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ^(٢)

ومن هنا كان التوحيد ثلاثة أقسام : توحيد في الذات ، والأسماء ، والصفات ، وتوحيد في الربوبية ، وهي اختصاصه تعالى ، وتفرده بالخلق ، والرزق ، والتدبير لسائر الخلق والملكوت ، وتوحيد في الألوهية ، أي في العبادة وهو اختصاصه تعالى بسائر العبادات ، وتفرده بها دون سائر مخلوقاته ، سواء من كمل منهم وشرف كالملائكة ، والأنبياء ، والصالحين . أو كان دون ذلك من سائر الناس والمخلوقات .

وقد تقدم قريباً بحث توحيد الذات ، والأسماء ، والصفات ، وسيفرد كل من توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ببحث خاص ، تبين فيه حقيقته ، وما ينبغي للمؤمن أن يعلمه منه ، ويعتقده فيه .

(١) سورة محمد الآية ١٩ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٦٢ .

توحيد الربوبية

ما هو توحيد الربوبية ؟

لا بد للإجابة عن هذا السؤال إجابة كافية تحدد المعنى المسئول عنه ، وتظهره بوضوح ، لا بد من معرفة مدلول كلمة (الرب) التي منها اشتق لفظ الربوبية ، إن لفظ الرب يطلق على عدة معان ، منها السيد ، والملك ، والمربي ، والمصلح ، والمعبود بحق سبحانه وتعالى ، إذ لفظ الرب يطلق عليه إطلاقاً حقيقياً. ويطلق على غيره إطلاقاً مجازياً ، إضافياً لا غير .

ومن هذه المعاني الكثيرة للفظ الرب اشتق اسم الربوبية التي تعني الخلق ، والرزق ، والملك ، والسيادة ، وللتربية ، والإصلاح ، والتدبير . ولكون الله تعالى هو الرب الحق للعالمين ، اختص بالربوبية دون سواه ، ووجب توحيده فيها ، وامتنع عنه الشريك فيها ، بحيث لا تصلح الربوبية لغيره من سائر خلقه ولا تصح .

ومن هنا أصبح توحيد الربوبية معناه نفي الشريك عنه تعالى في صفات الربوبية الحقة ، والتي هي الخلق ، والرزق ، والملك ، والتدبير الذي من لوازمه الإمامة والإحياء ، والعطاء والمنع ، والضرر والنفع ، والإعزاز والإذلال . ولا يخل بتوحيد الربوبية ، أو يضره أن يقال : فلان رب الدابة ، أو فلان سيد قومه ، أو فلان يملك كذا ، أو فلان يربي ، أو يصلح ، أو يحكم ، إذ هذا الإطلاق لا يعني أكثر من

أن الله تعالى رب كل شيء ، ومليكه ، وهبهم من فضله ما أصبحوا منه يتمتعون بهذا القدر من الملك أو السيادة ، أو التربية والإصلاح ، وهي نسب إضافية لا غير ، إذ الواقع المشاهد لا يثبت للإنسان ملكاً حقيقياً ، ولا سيادة من كل وجه ، ولا تربية زائفة عن الإرشاد والتوجيه ، ولا إصلاح ولا حكم بغير إنفاذ شرائع الله تعالى في عباده ، وإصلاحهم بها .

فطرية الاقرار بالربوبية :

وعقلاء الناس في كل زمان ومكان يتحاشون دائماً أن ينسبوا شيئاً من صفات الربوبية لغير الله تعالى ، الرب الحق الذي لا رب غيره ، ولا إله سواه ، وذلك لما يعلم الإنسان العاقل ذو الفطرة السليمة من عدم صلاحية المخلوقين للاتصاف بصفات الربوبية ، وعجزهم عنها ، لأن المخلوق لا يخلق ، والمملوك لا يملك .

ويكفي شاهداً على هذه الحقيقة اعتراف مشركي العرب حين نزول القرآن وهم يُدعون إلى عبادة الله تعالى وحده ، اعترافهم بعدم صلاحية آلهتهم لشيء من صفات الربوبية وحقائقها ، مع شدة تعصبهم لتلك الآلهة ، وتقديسهم لها ، وتعظيمهم ، فإنهم كانوا لا يترددون في الاعتراف بعدم صلاحية الإنسان فضلاً عن غيره من التماثيل والأصنام ، للاتصاف بصفات الربوبية ، فلم يكونوا ينتحلونها لأفرادهم ، ولا لآلهتهم ، ولا يدعونها لهم بحال ، وذلك لما وقر في نفوسهم بحكم الفطرة البشرية من عجز المخلوقين عن الخلق . والرزق ، والتدبير ، والملك .

وقد سجل القرآن الكريم عجزهم واعترافهم في غير آية منه ،

ومن ذلك قوله تعالى من سورة يونس

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ

وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ
فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴿١﴾

وقوله سبحانه من سورة الزخرف :

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ
الْعَلِيمُ﴾ (٢)

وقوله من سورة المؤمنون :

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّعْيِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٣) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴿٣﴾

وقوله :

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٤)

الالحاد الشيوعي :

ويضاف إلى تلك الحقيقة حقيقة أخرى وهي أنه لم يعرف الإلحاد
بإنكار الخالق عز وجل بين أجناس البشر قاطبة إلا في القرنين الثامن
عشر ، والتاسع عشر الميلاديين ، وبخاصة عندما ظهر المذهب الشيوعي
الماركسي اللينيني المدمر والذي نكبت به أوروبا وأنحاء كثيرة من
العالم ، فإنه وإن كان هناك كفر بالله تعالى ، وشرك به بين الأمم
والشعوب البشرية ، غير أن الشعور الفطري قائم في كل نفس
بالاعتراف بوجود سلطان غيبي هو سلطان الله تعالى ، والناس يتوسلون

(١) الآية ٣١ .

(٢) الآية ٩ .

(٣) الأيتان ٨٧ ، ٨٧ .

(٤) سورة الزخرف الآية ٨٧ .

إليه بشتى الوسائل استجلاباً للخير منه ، ودفعاً للبشر بواسطته . إن كل الآلهة التي أوجدها الإنسان باطلا ، وقدم لها مختلف العبادات ، وتقرب إليها بشتى القرب ، الأصل فيها الشعور الفطري بوجود الله ، الخالق ، المدبر للمخلق ، والكُون معاً .

عوامل الألحاد في العالم :

إن العوامل التي ساعدت على انتشار الإلحاد في العالم ، ومكنت للمذهب الشيوعي الإلحادي المدمر في أوروبا وغيرها قد تكون كثيرة غير أن أهمها عندي وفي نظري خمسة لا غير وهي :

١ - ظلم الكنيسة النصرانية : وتحالفها مع الملوك. النصرارى على استعباد الشعوب النصرانية ، واستذلالهم ، واستغلالهم باسم السلطة الروحية الدينية .

٢ - فساد الديانة النصرانية ، وبطلانها ، ومنافاتها للعقول ، وتصادمها مع حاجات الإنسان الفطرية ، الأمر الذي يسهل على الناس من أتباعها التكر لها ، والكفر بها بمجرد وجود من استطاع أن يفلت من زمامها ، ويتقدها ، ويبين خطاها .

٣ - طفرة العلوم الكونية ، والصناعية والآلية ، طفرة أدهشت العقول وحيرتها ، الأمر الذي جعل الناس على تصديق كل نظرية تأتي باسم العلم ونظرياته ، وإن كانت النظرية فرية ظاهرة معلوم كذبها ، ومعروف كاذبها ، وذلك لأن المرء إذا ضعف أمام أية قوة مادية أو روحية يفقد كل قواه العقلية والبدنية ، ويصبح قابلاً لكل ما تمليه عليه ، مستجيباً لكل ما تدعوه إليه ، مصداقاً لكل ما تقوله وتخبر به .

٤ - ميل الإنسان بطبعه إلى الشهوات والملاذ ، ونفوره من القيود ، والأنظمة التي تحدد من ميوله ، وتوجه غرائزه ، لا سيما إذا وجد مُشجعاً على ذلك ، مؤيداً له في نزعة التحررية ، الإباحية ،

التحليلية من كل القيود الأخلاقية ، والالتزامات الدينية الشرعية .

٥ - غيبة الحكم الإسلامي ، وخفوت نور الإسلام ، وتقلص ظل سلطانه الروحي ، وانحسار مئذنه الخيري الذي كان يعطي البشرية في شتى أنحاء العالم طاقات كبيرة من القيم الروحية ، والأخلاق البشرية الفاضلة الكريمة ، إذ الفترة التي ظهر فيها المذهب المادي الشيوعي كان الإسلام قد ران على عقائده رين الخرافات والضلالات ، وحل بدياره الدمار ، ونأسواق علومه ومعارفه الكساد والبوار ، نتيجة لكيد أعدائه له ، وغفلة بنييه عنه ، فوجد لذلك المذهب الإلحادي الجو خالياً للتضليل ، والمغالطة ، والفساد ، فحكم على الأديان كلها بالبطلان ، ونسب كل ضعف في الناس إليها ، وكفر بها وحاربها ، ووجه نقده إليها بلا هوادة .

أما والله لو وجد الإسلام حاضراً ما غاب ، فوجد اختراعاته ، وتفوقه في كل مجالات الحياة العلمية من كونية ، وتقنية ، وتشريعية ، وروحية ، ووجد عدله في شعوبه ، ورحمتهم في الناس أجمعين ، ووجد سعادته تغمر أهلهم ، وتتعداهم إلى خصومهم وأعدائهم ، لما أمكن المذهب الإلحادي أن يقول ، فضلاً عن أن يجول أو يصول ، ولكن الأمر كما قال القائل :

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد
هذه خمسة عوامل ، كل واحد منها ساعد على نشر المذهب الإلحادي المدمر الذي يجتاح العالم اليوم ، وقد يحول البشرية إلى حيوانية من أخط ما تكون الحيوانية إن لم يعارض بسرعة ، ويوقف عند حده .

وإني لا أرى أن مذهباً في العالم ، أو قوة ستعارضه ، وتوقفه عند حده فضلاً عن أن تبدله ، وتقضي عليه . اللهم إلا أن يكون الإسلام ،

والإسلام وحده ، إذا ما رزق دولة عظيمة ، تؤمن به في صدق ، وتطبقه بحزم وعزم وتعطيه الحكم والقيادة ، فإن هذه الدولة سوف تحل عقدة الإلحاد المستعصية وتري الناس زيف النظريات الإلحادية ، وادعاءاتها الباطلة ضد دين الله الحق .

أوروبا هي الضحية الأولى

وبما أن أوروبا هي التي جرت هذه المحنة على العالم الإنساني فإنها ستكون قطعاً هي الضحية الأولى للإلحاد الشيوعي ، وقد كانت فعلاً - وحتى لا نكون قد تجنينا عليها في هذا فإننا نقول : إنه بعد أن ظهر الإسلام ، وعرفت أوروبا في الجملة صلاحيته لهداية البشر ، وإعدادهم للحياة الفاضلة ، وسعادة الدنيا والآخرة ، بدّل أن تعتقه ديناً ، وتحتضنه مبادئ خير ، وسعادة ، وإسعاد ، قاومته ووقفت في طريق تقدّمه وانتشاره ، ومن العجيب أنها حاربت باسم الدين المسيحي والنصرانية كأنها لم تدرك أن الإسلام هو دين الله الحق الذي أرسل به نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم إلى البشرية كافة . وأما المسيحية فلم تكن سوى دين اقليمي محلي فقط ، لأن عيسى عليه السلام لم يكن رسولاً إلى غير بني إسرائيل أبداً . فقد قال هو بنفسه : « لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة »^(١) . وقال عنه القرآن الكريم :

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّورَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾^(٢)

أما محمداً صلى الله عليه وسلم فهو رسول الله إلى الناس كلهم أجمعين بدليل قوله هو صلى الله عليه وسلم : « وَكَانَ النَّبِيُّ يُعْتَرَى إِلَى

(١) إنجيل « متى » الإصحاح (١٥) فقرة (٢٤) .

(٢) سورة الصف الآية (٦) .

قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً ﴿^(١)﴾ . وَقَوْلَ الرَّبِّ تَعَالَى لَهُ :

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ ^(٢)

وقوله :

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴿^(٣)﴾ .

وقوله : .

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ^(٤)

والأغرب من هذا أن اليهود الذين حاربوا السيّد المسيح وألجأوا حواريه إلى رؤوس الحال ، والذهاب في كل منأى بعيد فراراً بدينهم ، هم الذين وضعوا الديانة النصرانية الباطلة ، التي حاربت أوروبا الإسلام من أجلها . إن اليهود يبدو أنهم لما رأوا مبادئ السيّد المسيح تنتشر في شرق أوروبا طاردوها ، فسمح من تسمح منهم خديعة وغشاً حتى تمكن من العبث بالدين المسيحي وتحويله إلى دين وثني يبرأ منه المسيح الذي قال في مهده .

﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ ^(٥) وَقَالَ وَهُوَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ :

﴿يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ^(٦)

(١) رواه البخاري ومسلم مضملاً ، التلويح والمرحان (١٠٤/١) .

(٢) سورة الأعراف الآية (١٥٨)

(٣) سورة سبأ الآية (٢٨) .

(٤) سورة الفرقان الآية (١)

(٥) سورة مريم الآية (٣٠)

(٦) سورة المائدة الآية (٧٢) .

وليس أدل على ذلك من أن الإنجيل الواحد قد حول إلى عدة أناجيل^(١) .

أقول إنه بعد أن تجلى لأوروبا صلاحية الإسلام ، وأنه رحمة الله العامة للناس أجمعين أبيضهم وأسودهم ، ولم يكن دين العرب وحدهم ، ولا دين الآسيويين دون الأفارقة ، أو الأوروبيين ، بل هو دين البشرية كلها حيث كانت ووجدت .

أقول بعد أن ظهرت لأوروبا صلاحية الإسلام لهداية الناس أجمعين ، بدل أن تقبل عليه ، وتحتضنه وتسعد به ، وتسعد الناس عليه أخذت تحاربه ، وتحارب المؤمنين به ، والمتبعين لمنهجه ، فشنت حروباً صليبية لا هوادة فيها ، وأخرى استعمارية لا رحمة فيها ، وقضت بها على الخلافة الإسلامية بعد أن استعملت أسلوب اليهود في المكر ، والدس والخديعة لإفساد العقيدة الإسلامية ، فتعاونت سراً وعلانية مع الزنادقة والباطنية ، والمتصوفة والطريقين ، ومع سائر الفرق الإسلامية المنحرفة ، الضالة ، ممن يحسبون على الإسلام وهم أشد أعدائه فتكاً به ، وإفساداً له ، وقضاءً عليه .

وأخيراً وبعد أن قررت أوروبا التخلي عن مستعمراتها الإسلامية لعدم الجدوى لها في بقائها فيها صنعت على عينها ، ويدها رجالاً من مستعمراتها ملء إهاب أحدهم عداوة للإسلام ، حنقاً عليه ، وتقززاً منه ، واستخفافاً به ، وبمبادئه وشرائعه ، وسلمتهم السلطة المحلية ، وخرجت من الباب لتعود من النافذة ، وتجلس على عرش قلوب أولئك الصنائع لتسخرهم . غنلاء لها ، يواصلون نيابة عنها حربهم للإسلام وأهله ، وكذلك كانوا وفعلوا حتى لم يبق من الإسلام إلا الاسم ، ومن

(١) بلغت الأنجيل بعد تحريفها خمس وثلاثين إنجيلاً ، ثم اختير منها خمسة أناجيل ، وهي المتداولة الآن عند فرق النصارى في أنحاء العالم .

كتابه إلا الرسم . وبناء على الحكمة القائلة :

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾^(١)

فإن أوروبا ستذوق في يوم من الأيام أقسى محنة ، وستجرع أعظم غصة ، نتيجة جريمتها على الإسلام دين الله الذي هو دينها ، ولا دين لها على الحق سواء ، وما ظلمها الله فيما سيصيحها به ، ولتكن كانت هي الظالمة .

(١) هذه آية من سورة فاطر ورقمها (٤٣) .

شرك الربوبية ومظاهره في الأمة الإسلامية

قد يبدو غريباً جداً - بعد أن قدمنا أن مشركي العرب أيام البعثة المحمدية لم يكونوا يشركون في ربوبية الله تعالى أحداً من خلقه - اعترافنا بوجود مظاهر لشرك الربوبية في الأمة الإسلامية اليوم ، غير أن هذا الاستغراب سيزول بمجرد وقوف المرء على مظاهر الشرك واضحة جليلة في شتى مجالات حياة كثير من المسلمين .

وهنا بيان مقتضب لتلك المظاهر الشركية في بعض أفراد الأمة الإسلامية نذكرها تحذيراً منها ، وتعليماً بأن عقيدة المؤمنين الحقّة خلو من كل مظاهر الشرك ، وآثاره ، لابتائها على هدى الكتاب والسنة ، كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

١ - اعتقاد كثير من عوام المسلمين وأشباههم أن هناك في الكون أقطاباً ، وأبدالاً من الأولياء والصالحين لهم قدر من التصرف معين في حياة الناس ، فهم يولون ويعزلون ، ويعطون ويمنعون ، ويضرون وينفعون ، كما شاع بين عوام المسلمين أن لهؤلاء الأقطاب والأبدال ديواناً يطلق عليه ديوان الصالحين ، منه تصدر القرارات والمراسيم بربح فلان ونجاحه ، وخيبة فلان وخسرانه .

ومن هنا تعلق قلوب كثير من الناس بالصالحين ، وهتفت بهم الألسنة ، واستغثت بهم ، ودعوا عند الشدائد ، ونودوا للخلاص من المحن ، وهو مظهر واضح للشرك في الربوبية ، لما فيه من اعتقاد

التصرف والتدبير في الكون لغير الله تعالى ، أو له ولغيره معه سبحانه وتعالى .

٢ - اعتقاد كثير من المتسبين إلى العلم أن لأرواح الأولياء والصالحين تصرفاً بعد موتهم ، وشاع هذا الاعتقاد الكاذب الباطل ، ورسخ في نفوس كثير من المسلمين حتى أصبحت الأضرحة والمشاهد والقبور ملاذاً لكل خائف ، ومستشفى لكل مريض . فمن أصابه كرب ، أو نزل به ضيم ، أو حلت به نكبة ، فزع إلى تلك الأضرحة ، والمشاهد ، والقبور ، وأناخ بساحتها ، وتعلق بأهداب أصحابها ، راجياً منها تفريج كربيه ، وقضاء حاجته !

فكم من مريض نقل إلى تلك الأضرحة ، وذهب به إليها ، وكم من ذي عاهة ، أو صاحب حاجة قد أمها ، وقصدها ، ونزل بساحتها ، وكله رجاء وطمع في أصحابها . حتى شاع بين العوام قول : « إذا تعسرت الأمور ، عليكم بأصحاب القبور » فيأتونهم للاستعانة بهم ، والدعاء عندهم . ومثل هذا لا يشك عاقل من المؤمنين في أنه شرك ظاهر ، لما فيه من اعتقاد أن لأرواح الأولياء والصالحين تصرفاً بالعباء والمنع ، والضر والنفع .

وهذا من خصائص الربوبية ، إذ هو من التدبير للخلق الذي اختص به الرب تبارك وتعالى .

٣ - الرهبة من الجن والخوف منهم ، والاستغاثة بهم ، وتقديم القرابين لهم ، كالتي تذبح على حافات الآبار عند حفرها ، وعلى أعتاب المنازل عند إتمام بنائها ، وإرادة السكن بها ، وكالتي تذبح عند انتشار الأوبئة ، والأمراض المعدية . كل هذا موجود بين جهال المسلمين وهو شرك ظاهر في ربوبية الله تعالى ، إذ الحامل عليه اعتقاد أن الجن لهم تصرفات خارجة عن إرادة الله تعالى وتدبيره .

وهذا مما ألقاه الشيطان في قلوب أوليائه من الإنس فعملوا به ،
وأشاعوه ، ونشروه حتى أصبح عقيدة في نفوس الجاهل من المسلمين .
وهو إشراك لشياطين الجن في ربوبية الله تعالى ، وإيمان بهم
والعياذ بالله تعالى .

٤ - تقديس المشايخ من رجال التصوف والطرقين ،
والمشعوذين ، وطاعتهم في غير طاعة الله تعالى ، وطاعة رسوله بل فيما
هو مكروه لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وقبول ما يشرعون لهم من
البدع ، وما يسنون لهم من سنن الباطل ، واتباعهم في ترك سنن
الهدى ، ومعاداتها ، ومعادة أهلها ، والداعين إليها ، والاستجابة
المطلقة لهم بحيث يمكنونهم من نفوسهم فيسلطوا عليها ، ومن
أرواحهم فيهيمنوا عليها ، فاعتقدوا فيهم أنهم يعلمون سرهم ونجواهم
وأنهم يكشفونهم في كل أحوالهم ، ويطلعون منهم على كل مخبات
نفوسهم ، فذلوا لهم ، وهانوا . وضعفوا أمامهم ، واستكانوا لهم حتى
مكنهم من أنفسهم ، وأموالهم ، وأعراضهم .

فهل هذا الخضوع ، والذل ، والطاعة المطلقة ، والتسليم التام
لهم ، لا يُعد شركاً في ربوبية الله تعالى ، وهل أولئك الرجال الذين
استعبدهم لا يعدون أرباباً وآلهة لهم ؟؟

٥ - الخنوع للحكام غير المسلمين ، والخضوع التام لهم ،
وطاعتهم بدون إكراه منهم لهم ، حيث حكموهم بالباطل ، وساسوهم
بقرآين الكفر والكافرين ، فأحلوا لهم الحرام ، وحرموا عليهم الحلال
فأطاعوهم في كل ذلك ، ولم ينكروا عليهم ، ولم يرفضوا لهم .

إن الاتصاف بهذا الذي ذكرنا ، والقيام عليه ، والرضا به ،
والاقتناع بصحته شرك ظاهر في ربوبية الله تعالى ، لأن الطاعة في

معصية الله تعالى بدون إكراه عليها كفر بصاحبها ، ويشهد لهذا ويصححه حديث عدي بن حاتم الطائي الذي كان قد تنصر في الجاهلية ، ثم أسلم ، وسمع الرسول صلى الله عليه وسلم يقرأ قول الله تعالى في شأن أهل الكتاب :

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

فَأَنكَرَ عَدِيُّ أَنْ يَكُونُوا عَبْدُوهُمْ ، فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ : -
« أَلَيْسُوا يُجِلُّونَ لَكُمْ الْحَرَامَ فَتُجِلُّونَهُ ؟ وَيَحْرِمُونَ عَلَيْكُمْ الْحَلَالَ فَتُخَرِّمُونَهُ ؟ فَقَالَ : بَلَى . قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « فَبَلَّغْ عِبَادَتَهُمْ » (١)

وأخيراً فتلك بعض مظاهر شرك الربوبية في الأمة الإسلامية اليوم وإن تساءلنا عن أسبابها فإننا لا نجدُ بُدًّا من القول بأنها كانت نتيجة جهل الأمة بكتاب ربها وسنة نبيها ، وذلك لبعدها عن دراستهما ، والعمل بهما زمناً غير قصير ، مع ما دسه عليها خصومُ إسلامها الحائقين عليها والناقمين منها ، مما أفسد عقيدتها ، وبعُدَ بها كل البعد عن مركز القوة وهو العلم والإيمان .

(١) رواه أحمد والترمذي وحسنه - والآية المذكورة في الحديث من سورة التوبة برقم (٣١) .

توحيد الألوهية

إن توحيد الألوهية - العبادة - جزء هام من عقيدة المؤمن ، إذ هو ثمرة توحيد الربوبية ، والأسماء ، والصفات ، وَجَنَاهُ الطَّيِّبُ ، وبدونه يفقد توحيد الربوبية ، والأسماء ، والصفات معناه ، وتنعدم فائدته .

إن توحيد الربوبية يدور على المعرفة بالله وربوبيته ، ونفي الشريك له في ذلك ، كما أنَّ توحيد الأسماء والصفات يدور على إثبات أسماء الله تعالى وصفاته ، ونفي الشريك في الأسماء ، وعدم التمثيل ، والتأويل ، والتعطيل في الصفات .

وأما توحيد الألوهية فهو أفراد الله تعالى بالعبادة المستلزم لعبادة الله تعالى بكل ما شرع أن يُعبدَ به من أعمال القلوب والجوارح ، وأن لا يشرك معه غيره في شيء منها ، مع عدم الاعتراف بعبادة غيره تعالى . وهو أيضاً - توحيد الألوهية - تعلق القلب بالرب تعالى خوفاً ورجاءاً ، ورهبة وطمعاً ، كما هو إسلام الوجه لله تعالى ، ووقف الحياة كلها عليه ، فلا شيء للعبد هو لغير الله تعالى ، بدليل قول الله تعالى من سورة الأنعام :

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١٦٣) ﴿١﴾

(١) الأيتان (١٦٢ ، ١٦٣) .

بهذا أمر رسول الله ﷺ أن يقول ويجاهر به ، ويمثله أمر إبراهيم عليه السلام ، إذ قال :

﴿يَنْقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾

إن لهذا التوحيد ، توحيد الألوهية شأنًا وخطرًا ، ونبىء عن ذلك أن كافة الرسل الذين بعث الله تعالى بهم إلى الأمم والشعوب كان كل واحد منهم يبدأ دعوته حينما ينوؤها بقوله :

﴿يَنْقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ (٢)

وهو مضمون كلمة لا إله إلا الله التي جاء بها خاتم النبيين والرسل محمد ﷺ ، ودعا إلى قولها واعتقادها ، ولم يطالب بغيرها طيلة عشر من السنين ، ومن أجلها عُوذِي ، وأُوذِي ، وحُورِب ، كما عودي ، وأُوذِي ، وحورب ، كل من دعا إليها من جميع الرسل وأتباعهم ، وذلك لأن قولها واعتقادها يستلزم الكفر الكامل بكل ما عبد الناس من آلهة دون الله سبحانه وتعالى ، وعرفوها بعد فقدهم لهداية الله تعالى بموت الأنبياء ، وانقراض أهل العلم العارفين بالله تعالى وشرائعهم فيهم ، يُضاف إلى ذلك أن كلمة التوحيد : لا إله إلا الله تقتضي بل وتوجب المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات ، فلم يبق بين الناس من يتميز عنهم ميزة يستعلي بها عليهم فيترفع ويتكبر ، أو يستعبد الناس أو يتحكم فيهم ، أو يحكمهم بغير شرع ربهم ، كما جاء مضمون ذلك في كتاب رسول الله ، إلى هرقل ملك الروم .

(١) سورة الأنعام الآيات (٧٨ ، ٧٩) .

(٢) سورة الأعراف الآيات (٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥) وسورة هود الآيات (٥٠ ، ٦١ ،

(٨٤) .

ونصه بعد البسملة والديباجة « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : أن لا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله »^(١).

ومن هنا كانت الخصومات تبلغ أشدها بين الرسل وأممهم ، لما تدل عليه عبادة الله تعالى وحده من الكفر بكل معبود سوى الله تعالى ، وترك عبادته ، والبراءة منه . كما قال تعالى في كتابه من سورة المجادلة :

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾^(٢)

وكما أخبر تعالى عن خليفه إبراهيم والمؤمنين معه وهو يدعونا إلى الاقتداء بهم في الوقوف ضد الشرك والمشركين حيث يقول تعالى :

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ وَأَنْتُمْ مَنَاكِرٌ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾^(٣)

إن مدلول كلمة لا إله إلا الله : الإيمان بالله وحده بأن يُعبد ولا يُشرك به شيء من خلقه . والكفر بكل طاغوت صارفٍ عن عبادة الله تعالى ، وطاعته وطاعة رسوله ﷺ كما قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(٤)

(١) أخرجه البخاري (٩٧/١ ، ٥٤/٤ - ٥٧) .

(٢) الآية ٢٢ .

(٣) سورة النحل الآية ٣٦ .

(٤) سورة الممتحنة الآية ٤ .

والطاغوت هو كل ما عُبد من دون الله ، أو صرف عن عبادة الله تعالى من معبود رضي لنفسه بأن يُعبد مع الله تعالى ، أو متبوع ، أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله ﷺ .

هذا ولكي نوفي توحيد الألوهية ما يستحق من البيان والتوضيح لخطورة شأنه فإنه لا بد من شيء من التفصيل والتطويل . فنقول إن توحيد الألوهية أو العبادة له طرفان وواسطة :

فالطرف الأول : مخلوق ضعيف محتاج لا يبرح دهره باحثاً عما يقوي ضعفه ، ويجلب له ما ينفعه ، ويدفع عنه ما يضره ، وهذا المخلوق الضعيف المحتاج هو الإنسان .

والطرف الثاني : هو رب قوي غني ، سميع عليم ، عزيز حكيم ، وهو الله المعبود بحق سبحانه وتعالى .

والواسطة : هي أقوال وأعمال واعتقادات يحبها الله تعالى ويرضاها ، وهي العبادة التي يقوم بها العبد طاعة لله تعالى وتقرباً إليه . وبناءً على أن توحيد العبادة هو أفراد الله تعالى بالعبادة التي هي عميق ما أحب الله تعالى أن يُعبد به من أعمال القلوب والجوارح ، كما سبق بيانه وعلى ضوء هذا التعريف يتقرر ما يلي : -

(١) الإنسان بحكم الضعف المتأصل فيه ، وافتقاره لللازم له ، لا يخرج عن وصف العبودية بحال من الأحوال ، ولذا فإنه لم ير في جميع أطواره التاريخية ، وعصوره البشرية إلا عابداً لا ينفك عن العبادة ، إما لله تعالى متى عرفه ، وآمن به رباً وإلهاً ، أو لغيره من شتى الكائنات التي يتصور فيها القدرة الكافية على جلب الخير له ، ودفع الشر عنه ، عندما يجهل ربه ، ولا يؤمن به إلهاً ومعبوداً ، لعامل اقتضى ذلك منه .

(٢) لا يصح عقلاً ولا شرعاً أن يُعبد غير الله تعالى ، ولا تنبغي العبادة إلا له سبحانه وتعالى ، وذلك لأنه لا يوجد في الكون قوي

غني ، سميع عليم ، عزيز حكيم ، قوته وغناه ، وسمعه وعلمه ، وعزته وحكمته ذاتية له ليست مستمدة له من ذات أخرى إلا الله سبحانه وتعالى ، ونوضح هذا المعنى فنقول ؛ إن الإنسان وهو سيد هذه المخلوقات ، وأشرفها وأفضلها على الإطلاق جميع كمالاته الخلقية والخلقية ، أو الجسمانية والروحية ليست ذاتية له ، بل هي موهوبة له من خالقه ذي الجلال والكمال المطلق لا إله إلا هو ، ولا رب سواه ، ودليل كون الإنسان كل كمالاته موهوبة له ، وليست ذاتية له ، أنه يخلق يوم يخلق فاقداً لها ، ثم توهب له ، ولبعض أفراده دون بعض ، ومن وهب منهم ذلك قد يُسلبه أحياناً ، فقد يُرى الإنسان عاقلاً ، ثم يصير أحمق ، وقد يكون قادراً ثم يعجز ، ويكون غنياً ، ثم يفقر ، فدل ذلك على أن كمال الإنسان ليس ذاتياً له ، وإنما هو موهوب له ، فهو لذلك لا ييرح عبداً ضعيفاً مفتقراً إلى واهبه كماله ، وهو الله سبحانه وتعالى . أما الرب تبارك وتعالى فإن كماله ذاتي له . وبهذا يتقرر أن العبادة لا تصح إلا لله ، ولا تنبغي لأحد سواه .

(٣) إن العبادة لا تكون قربة لله تعالى . ووسيلة إليه ينتفع بها العبد فاعلمها إلا إذا توفر لها : العلم بها ، ومعرفة كيفية أدائها ، وإفراد الله تعالى بها فلذا لا تتصور في الذهن عبادة نافعة إلا من ذي علم وإيمان : فالعلم يخلص للمرء بالإيمان بكتاب الله تعالى ، وبقرائه ومعرفة ما جاء فيه ، ومعرفة كيفية أداء العبادة يتم بالإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وبمعرفة سنته ، واتباعه فيها ، وإفراد الله تعالى بالعبادة يثبت للعبد بمعرفة الشرك وتجنبه ، ولهذا يتحتم أن نختم هذا البحث المتعلق بتوحيد الألوهية بفصل ضافٍ نبين فيه الشرك في العبادة ، ومظاهره اليوم في الأمة الإسلامية ، ليكون القارئ المؤمن على بصيرة في عقيدته ، وتلك هي الغاية التي توخيناها في وضع هذه الرسالة « عقيدة المؤمن » والله ولي الأمر والتوفيق .

الشرك في الألوهية ومظاهره في الأمة الإسلامية

تعريف :

' الشرك لغة : الاسم من شركه في كذا يشركه شركا وشركة ، كأشركه فكذا يشركه فيه إذا جعل له نصيباً قليلاً أو كثيراً في ذات ، أو معنى ، ومثله شاركه في كذا يشاركه فيه : كان شريكاً له فيه بقدر كبير أو صغير في ذات . أو وصف ، وهو - الشرك - شرعاً : ضد التوحيد كالكفر ضد الإيمان .

والشرك في ربوبية الله تعالى أو أسمائه وصفاته كفر ، وفي عبادته تعالى إن كان الفاعل له عالماً به مصراً عليه كفر كذلك ، إذ الشرك في ربوبية الله تعالى وأسمائه وصفاته تكذيب لله تعالى ، وكذب عليه عز وجل ، وفي عباداته تعالى تأليه لغيره سبحانه وتعالى ، وتأليه غير الله تعالى كفر ، وتكذيب لله تعالى في قوله :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ^(١) ﴾

وفي قوله :

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ^(٢) ﴾

وتكذيب الله تعالى كفر بلا شك .

(١) سورة آل عمران الآية (١٨) .

(٢) سورة محمد الآية (١) .

ويختلف الشرك مع الكفر في أن من الشرك ما لا يكون كفراً ،
وذلك كالشرك الأصغر ، والشرك الخفي ، لخبر الرسول صلى الله عليه
وسلم في ذلك وسماعه من بعض أصحابه ، ولم يعثر فاعله كافراً ،
ولم يحكم برده : من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَخَوْفَ مَا
أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ . قَالُوا : وَمَا الشِّرْكَ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ
اللَّهِ ؟ قَالَ : الرِّيَاءُ »^(١) وقوله لِمَنْ قَالَ لَهُ : مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَشَتَّ :
« أَجْعَلْتَنِي لِلَّهِ نَدَاءً ؟ . قُلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ »^(٢) ، والند : الشريك ،
وقوله لأصحابه لما قالوا : قُومُوا بِمَا نَسْتَعِثُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وسلم مِنْ هَذَا الْمَنَاقِقِ : « إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي ، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ
بِاللَّهِ »^(٣) . وقوله صلى الله عليه وسلم « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ
أَشْرَكَ »^(٤) . وقوله صلى الله عليه وسلم : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا
الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ ، فَقِيلَ لَهُ : وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى
مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ قُولُوا : اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ
نُشْرِكَ بِكَ شَيْئاً نَعْلَمُهُ ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُهُ »^(٥)

ولم يحكم صلى الله عليه وسلم في كل هذا برده فاعله ، ولا

(١) رواه أحمد بإسناد جيد ، وتمام الحديث « يقول الله تعالى إذا جزى الناس بأعمالهم اذهبوا إلى
الذين كنتم تراقبون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء ؟ . » المسند (٤٢٨/٥)
٤٢٩/ .

(٢) رواه أحمد بلفظ « أجعلني والله عدلاً . . . » (١/ ٢١٤ ؛ ٢٢٤ ؛ ٢٨٣ ؛ ٣٤٧) وانظر
الفتح الرباني (٣٨/١) . وروى ما يدل على معناه في الدرر في البراري وابن ماجه وكذا أحمد
(٥٧٢/٥ ؛ ٣٢٣) والفتح الرباني (١/ ٢٧ ؛ ٢٨) .

(٣) رواه أحمد (٣١٧/٥) والطبراني بسند لا بأس به ، وروى مسلم هذا اللفظ « من عمل عملاً
أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » وهذا الحديث قدسي (٢٢٣/٨) .

(٤) رواه الترمذي (نور ٩) وحسنه ؛ والنحاحم

(٥) رواه أحمد (٤٠٣/٤) وكذا الطبراني .

بتكفيره . ومن أجل هذا قيدنا الكفر في شرك العباداة بكون فاعله عالماً به أنه شرك ، وأصر عليه عناداً ومكابرة ، وإثارةً للمنافع الدنيوية من مال ، أو جاه ، أو سلطان . ولكي يتضح الموضوع أكثر يحسن أن نذكر هنا جملاً من الكلام على ذات الله وصفاته ، وأفعاله ، وعبادته مبينين كيف يكون التوحيد ، وكيف يكون "الشرك" والكفر فيها .

(أ) الذات المقدسة :

إن الكلام على ذات الرب تبارك وتعالى معناه تقرير جريمة التفكير فيها ، ومحاولة إدراك كنهها ، ومعرفة حقيقتها لما ثبت شرعاً من النهي عن ذلك ، ولاستحالة إدراك ذات الله تعالى عقلاً ، لأن الله تبارك وتعالى ليس كمثله شيء ، ولم يكن له كفواً أحد ، ولا تدركه الأبصار . ولا تكتفه كنهه العقول . إن مدى ما تصل إليه العقول ، وتدركه من الأشياء هو ما كان من جنس المادة المحيطة بها . والرب تبارك وتعالى ليس منها ، - لأن المادة شيء معلوم التكوين والله ليس كمثله شيء ، والمادة المعروفة لدى الإنسان ، هو الخالق لها سبحانه وتعالى ، والخالق لا يكون جزءاً من مخلوقه ، كما لا يكون شبيهاً له بحال من الأحوال . ولهذا كانت عقيدة المؤمن في ذات الله تعالى أنها ذات مقدسة لا تشبه الذوات ، وأنها موصوفة بصفات عليا لا تشبه الصفات ، وأن الله تعالى سمى نفسه بأسماء حسنى ، ووصف نفسه بصفات عليا ، وأمرنا أن نناديه بأسمائه ، وندعوه ، ونتوسل إليه بها وبصفاته العليا فقال تعالى :

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(١)

فنحن نناديه ، وندعوه بها ، ونتوسل إليه بصفاته العليا ، فيسمعا ، ويستجيب لنا .

(١) سورة الأعراف الآية (١٨٠)

هذه عقيدة المؤمن في ذات الله تعالى فمن شبه ذات الله تعالى بذات المخلوقين ، أو ادعى إدراك كنهها ، ومعرفة حقيقتها ، أو تكلم فيها بما لا علم له من كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فقد كفر وأشرك .

(ب) صفات الله تعالى وأسماءه :

إن الله تبارك وتعالى وصف نفسه في كتابه ، وعلى لسان رسوله بصفات عليا ، وتعبد المؤمنون بالإيمان بها ، ويوصفه بها . توسلاً إليه وتقرباً ، وسمى نفسه تعالى بأسماء حسنى فوجب الإيمان بذلك وقبوله ، وإطلاقه عليه تعالى على ما هو مراده منه ، فمن نفى عنه ما وصف به نفسه ، وسماها به من أسماء فقد كفر ، ومن شبه تلك الأسماء والصفات بأسماء وصفات المحدثين فقد كفر وأشرك ، إذ هو يتردد في ذلك بين تكذيب الله تعالى ، والكذب عليه و كليهما كفر شنيع وظلم عظيم . !

ومن أول تلك الصفات الإلهية العليا راثماً^(١) تنزيهه تعالى ، فقد أخطأ ، وجهل ، وتكلف ما لم يكلف به ، وفعل ما لم يؤمر به . ذلك كتأويل يد الله بقدرته فراراً من وصف الله تعالى بلفظ اليد ، وتأويل مجيئه تعالى لفصل القضاء بمجيء أمره ، أو ملك من ملائكته فراراً من وصف الله تعالى بالتحول والانتقال الذي تبادر إلى أذهان المؤمنين . وتأويل استوائه تعالى على العرش بالاستيلاء فراراً من وصف الله تعالى بالاستواء على عرشه . وتأويل صفة العلو بالقهر فراراً من وصف الجهة والتحيز ، إلى غير ذلك من التأويل الذي عُرِف به أكثر علماء الخلف ، ولم يعرف به أحد من علماء السلف .

(١) راثماً أي طالباً .

وبيان ذلك :

أولاً : أن المؤول لم يرض الله تعالى ما رضى له أعرف الناس به وهو رسوله صلى الله عليه وسلم .

ثانياً : أن هذا التأويل لو أراد الله تعالى لنفسه لأمر به في كتابه ، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ولكان حيثذ التأويل لصفات الله تعالى واجباً دينياً يحرم إهماله ، ويأثم تاركه . غير أنه لما لم يأذن الله تعالى به كان فعله خطأ وتكلفاً مذموماً محرماً ، لما فيه من معنى الاستدراك على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم .

ثالثاً . أن المؤول لصفات الله تعالى فراراً من التشبيه . وخوفاً منه قد جهل حقيقة عظيمة هي استحالة وجود أي شبه بين صفات الله تعالى وصفات عباده ، إذ لا شبه بين صفات الخالق ، وصفات المخلوق أبداً ، لما أخبر تعالى من أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وأنه أحد ، ولا كفؤ له ، ولهذا لو قال أحد : يد الله كيد زيد أو عمرو ، ومجيء الرب تعالى كمجيء خالد أو بكر ، واستواء الله على العرش كاستواء الملك فلان أو فلان لكان مشبهاً للخالق بالمخلوق ، وهو في ذلك كاذب ، إذ الواقع يختلف عما قال تماماً ، ومكذب لأنه كذب الله تعالى في قوله :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١)

ومشرك كافر ، لتشريك بعض عباد الله في بعض صفات الله تعالى .

رابعاً : أن هذا المؤول لصفات الله تعالى فراراً من التشبيه ، وخوفاً منه قد خفي عليه الفرق العظيم بين صفات الخالق حل وعلا ، وبين صفات المخلوقين العاجزين الضعفاء ، إنه لو علم أن الفرق بين

(١) سورة الشورى الآية (١١) .

صفات الخالق ، وبين صفات المخلوق كالفرق بين ذات الخالق وذات المخلوق ، لما توهم تشبيهاً أبداً ، ولما لجأ إلى التأويل فلهذا لنا أن نقول : إن المؤول لصفات الله تعالى خوفاً من الوقوع في التشبيه ، قد فهم أنه يوجد شبه ما بين صفات الخالق عز وجل وصفات المخلوق فلهذا هرب منه فأول صفات الخالق ، حتى لا تشبه صفات المخلوق أما غير المؤول فإنه لم يسمح لخاطره أن يقدر أي شبه بين صفات الخالق وصفات المخلوق ، لاستحالة وجود أي شبه بها واقعاً فأطلق صفات الخالق عليه . كما أطلقها على نفسه ، وأطلق صفات المخلوق عليه . كما أطلقت عليه شرعاً . وعادة ، وعرفاً ، وبذلك سلم من الخطأ ، والتكلف ، والجهل ، وبالتالي من الشرك والكفر .

(جـ) عباداته تعالى :

قبل بيان عبادات الله تعالى ، وكيف يوحد الله تعالى فيها نذكر أن الله تعالى لم يخلق الثقلين الإنس والجن في هذا العالم الأرضي إلا لعبادته بذكره ، وشكره ، وحسن عبادته ، دل على هذا قوله عز وجل في كتابه ،

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾^(١)

ولبيان أنواع العبادات ، وكيف يُعبد بها أنزل الكتب ، وبعث الرسل فكانت بذلك عبادات الله توفيقية لا تعلم إلا من طريق الوحي : الكتاب والسنة ، وكان من عبد الله تعالى بغير ما شرع لعباده أن يعبدوه به غير عابد لله وإنما هو عابد لهواه ، أو للشيطان الذي أغواه ، ومن عبد الله بما شرع لعباده أن يعبدوه به لكنه أشرك فيه غيره من مخلوقاته

(١) سيرة الذاريات الآيات (٥٦ - ٥٨) .

فقد أشرك وكفر ، والسؤال الآن هو : ما هي العبادات التي شرعها الله تعالى لعباده ليعبدوه بها ، ولا يشركوا معه غيره فيها ؟

والجواب أنها موجودة في الكتاب والسنة ، مودعة فيهما ، فمنهما تطلب وبهما تعرف ، وها نحن نذكر جملة كافية من أنواع العبادات مبينين وجه كل من التوحيد والشرك فيها توضيحاً لعقيدة المؤمن ، واستكمالاً للبحث فيها مبتدئين بالعبادات التي هي من أعمال القلوب ، منتهين بالعبادات التي هي من أعمال الجوارح .

(أ) - أعمال القلوب :

إن المراد من أعمال القلوب هو العبادات التي يقوم بها قلب العبد ، وذلك كالإيمان ، والمحبة ، والخوف والخشية ، والرجاء ، والرغبة ، والإنابة ، والتوكل ، وهذا بيانها مفصلاً :

(١) الإيمان وهو تصديق القلب بوجود الله تعالى ، وربوبيته لكل شيء ، وألوهيته للأولين والآخرين مع التصديق بكل ما أمر الله تعالى بالإيمان به ، واعتقاده من الملائكة ، والكتب ، والرسل ، والمعاد ، والجزاء ، والنعيم ، والشقاء ، والقدر والقضاء ، لأمر الله تعالى بذلك في قوله :

﴿ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَلْكِتَبِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَأَلْكِتَبِ
الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾^(١)

وبناء على هذا فإن عبداً يعترف بربوبية لغير الله تعالى ، أو بألوهية لسواه عز وجل فقد كفر وأشرك .

(١) سورة النساء الآية (١٣٦) .

(٢) المحبة وهي حبُّ الله تعالى. وحب كل من يحب من عباده ،
وما يحب من عقائد عباده ، وأقوالهم وأعمالهم ، وذلك لقول الله
تعالى :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾^(١)

وقوله :

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢)

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، « اللّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ ، وَحُبَّ مَنْ
يُشْعِنِي حُبَّهُ عِنْدَكَ ، اللّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أَحَبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً فِيمَا تُحِبُّ ،
وَمَا رَزَوْتْ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ »^(٣) وعليه فمن
أحب الله تعالى ، وأحب من يحب من عباده ، وما يحب من
اعتقاداتهم ، وأقوالهم وأفعالهم ، ولم يشرك في هذا الحب أحداً فقد
وحد الله تعالى في هذه العبادة ، ومن أحب غير الله تعالى حياً لم يأذن
فيه الله تعالى ، ولم يشرعه لعباده بل نهى عنه ، أو حرمه كحب ما يُعبد
من دون الله تعالى ، وحبّ الرؤساء ، وحب الدنيا حياً يجعل المحب
على طاعة الم محبوب في معصية الله تعالى ، ومعصية رسوله صلى الله
عليه وسلم ، وعلى تعظيمه ، وإجلاله ، وإكباره ، والذلّة له
والخضوع ، والخنوع ، فمن أحب بهذا الحب غير الله تعالى فقد أشرك
في عبادة الله تعالى التي هي حب الله والحب لأجل الله تعالى .

(٢) سورة البقرة الآية (١٦٥) .

(٣) سورة آل عمران الآية (٣١) .

(٤) رواه الترمذي بسند حسن ، في كتاب الدعوات (٧٣) .

(٣) الخشية والخوف^(١)

إن خشية الله تعالى ، والخوف منه عز وجل مما تعبد الله به عباده المؤمنين ، فقد أمر بخصيته ، ونهى عن خشية غيره في قوله تعالى :

﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾^(٢)

كما أمر بالخوف منه ونهى عن خوف غيره في قوله :

﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾^(٣)

وأخبر عن جزاء من يخشونه بالغيب في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾^(٤)

فالخشية والخوف كلاهما عبادة قلبية يجب أن يُفرد بهما الله عز وجل ، وتختص به ، فمن خاف غير الله تعالى ، أو خشيه معظماً له ، مستكيناً ، يذل له ويطيعه في معصية الله تعالى ، وهو غير مكره له على تلك الطاعة فقد أشرك بالله في هذه العبادة .

(٤) الرجاء والرغبة :

الرجاء هو الأمل في الخير ، وترقّب حصوله ، وانتظاره ممن يملكه ويقدر على تحقيقه لمن أمله فيه ورجاه منه ، والرغبة : حب الخير وإرادته ، والطمع في تحصيله ممن يملكه ، ويقدر على إعطائه وهبته ، فهي مثل الرجاء ، وكلاهما مما تعبد الله تعالى به المؤمنين حيث قال تعالى في كتابه العزيز من سورة الكهف :

(١) الفرق بين الخشية والخوف ان الخشية تكون مع تعظيم المخشى منه ، والخوف يكون بدون تعظيم المخوف منه .

(٢) سورة المائدة الآية (٤٤) .

(٣) سورة آل عمران الآية (١٧٥)

(٤) سورة الملك الآية (١٢) .

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(١)

وقال تعالى :

﴿كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾^(٢)

وقال :

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾^(٣)

وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالرغبة إليه تعالى في قوله :

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾^(٤)

ولما كان الخير كله بيد الله ، وليس بيد أحد سواه ، وكان الله وحده القادر على إعطائه من يشاء من عباده ، وذلك لقوله تعالى :

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٥)

كان رجاء الخير ورغبته من غير الله تعالى ضلالاً وباطلاً ، وكان فاعله مشركاً في هذه العبادة القلبية غير ربه عز وجل .

٥ - الإنابة :

الإنابة وهي الإقبال على الله تعالى ، والتوبة إليه والإنابة عبادة أمر الله تعالى بها في قوله :

﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾^(٦)

(١) الآية (١١٠) .

(٢) سورة الأحزاب الآية (٢١) .

(٣) سورة الأنبياء الآية (٩٠) .

(٤) سورة الشرح الأيتان (٧ ، ٨) .

(٥) سورة الزمر الآية (٥٤) .

(٦) سورة آل عمران الآية (٢٦) .

وأخبر أنه يهدي إليه من ينيب ، وأمر باتباع سبيل من أناب إليه ، جاء ذلك كله في كتابه القرآن الكريم .

ولما لم يكن في الخلق كله من يعطي ، أو يمنع ، أو يضر ، أو ينفع إلا بإذن الله ، ولا من يُسعد أو يشقي إلا الله سبحانه وتعالى كان من غير المعقول ولا المقبول أن ينيب المرء إلى غير الله تعالى رغبة أو رهبة ، خوفاً أو طمعاً ، وكانت الإنابة إلى غير الله عز وجل باطلاً وشركاً ، وكان من أناب إلى غير الله تعالى تائباً إليه - أي إلى ذلك الغير - راجياً الخير منه ، خائفاً من سخطه أو عقابه فقد أشرك .

٦ - التوكل :

التوكل وهو الاستسلام لله تعالى ، وتفويض الأمر إليه ، اعتماداً ووثوقاً به ، أمر الله تعالى به في غير آية من كتابه ، وجعله آية الإيمان وعلامته فقال تعالى :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾^(١)

وقال :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾^(٢)

وواعد بالكفاية للمتوكلين عليه في قوله :

﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾^(٣)

وخص التوكل به فقال :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾^(٤)

(١) سورة الأحزاب الآية (٤٨) .

(٢) سورة المائدة الآية (٢٣) .

(٣) سورة الطلاق الآية (٣) .

(٤) سورة إبراهيم الآية (١٢) .

فالتوكل إذا عبادة قلبية وهو يسكون القلب إلى كفاية الله تعالى ،
وتفويض الأمور إلى الله تعالى لكفايته ، والاعتماد عليه تعالى لعلمه
وقدرته .

ولما كان لا كافي إلا الله ، ولا قادر على كل شيء سواه ، ولا
عالم بكل شيء غيره كان التوكل على غير الله تعالى باطلاً وشركاً ،
وكان المتوكل على غير الله تعالى سكوتاً ، ووثوقاً ، واعتماداً مشركاً

(ب) أعمال الجوارح :

إن ما تقوم به الجوارح من العبادات والطاعات كثير جداً ، فلذا
نكتفي بذكر طرف منه فقط ، تذكيراً وتعليماً ، وبخاصة ما وقع فيه
الشرك بين المسلمين ومن ذلك .

١ - الدعاء :

الدعاء هو سؤال الرغائب ، وطلب الحاجات في جلب نفع ، أو
دفع ضرر ممن يملك ويقدر . والدعاء من أعظم مظاهر العبادة ، وأوضح
صورة من صورها حتى قيل فيه . الدُّعَاءُ مُيْخُ الْعِبَادَةِ . والدُّعَاءُ هُوَ
الْعِبَادَةُ^(١) ، ومن هنا كانت العبادة بدونها ليست شيئاً ، أو لا تستقيم ولا
تتم إلا به ، وهو كذلك ، إذ في الدعاء الذل للمدعو ، والافتقار إليه ،
والاستكانة له ، وتعظيمه ، واستشعار غناؤه ، وإحاطة علمه بالداعي ،
وقدرته على إعطائه ما سأل فيه مع تمجيده ، والتوسل إليه بأسمائه
وصفاته ، إلى غير ذلك من مظاهر العبودية التي لا توجد واضحة بهذه
الصورة إلا في الدعاء ، وحال السجود ، ولذا كان الدعاء في السجود
مُستجاباً ، لاجتماع مظهرين عظيمين من مظاهر العبادة فيه .

(١) حديث حسن رواه الترمذي في تفسير سورة البقرة (١٦ ، ٤٠) وأبو داود في (١ / ٣٤١) وهو
صحيح وكذا لفظ الدعاء مع العبادة ، رواه الترمذي وسنده ضعيف .

ولما كان تحقيق الرغائب ، وقضاء الحاجات أمراً يتوقف حصوله على أن يكون المدعو لذلك ، المسؤول فيه مالِكاً لجميع الرغائب وكل الحاجات قادراً على تحقيق الرغبة ، وقضاء الحاجة ، عالماً بحال السائل الداعي الراغب ، يسمع كلامه ، ويرى مكانه ، ولما لم تكن هذه الصفات لتتوفر لأحد سوى الله عز وجل بطل أن يدعى غير الله تعالى عقلاً وشرعاً ، قال تعالى من سورة الجن ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾^(١)

وبهذا كان دعاء غير الله ، وسواء كان المدعو نبياً أو ولياً - شركاً محرماً ، وكان من يدعو غير الله تعالى من عباده مشركاً كافراً ظالماً جاهلاً ، أو معانداً مكابراً .

٢ - الاستغاثة :

الاستغاثة هي طلب الغوث والغياث ، وهو ما يغاث به المضطر ، ويعان به من طعام ، أو شراب ، أو نصر وتأييد ، أو خلاص من شدة ، وإنقاذ من محنة .

وهي أي الاستغاثة من جنس الدعاء ، فمن لا يدعى لفقره وعدم قدرته وجهله بحال الداعي ، وعدم سماع دعائه ، وعدم معرفة مكانه وحاله ، لا يستغاث به كذلك .

ومن هنا كان من استغاث بمن لا يقدر على إغاثة ممن لا يسمع كلامه ، ولا يرى مكانه ، ولا يعرف حاله من حي غائب بعيد ، لا يرى المستغيث ، ولا يسمع استغاثته ، أو ميت انقطع عمله من الدنيا ، سواء كان نبياً من الأنبياء أو صالحاً من الصالحين ، فقد أشرك بعبادة الاستغاثة غير ربه تعالى ، وكان بذلك مشركاً كافراً ، وليعلم المؤمن هنا

(١) الآية (١٨) سورة الجن .

أن سؤال الحي من الناس واستغاثته - أي طلب الغوث منه - إذا كان قادراً على العطاء والغوث ، وكان قريباً من الداعي المستغيث يسمع كلامه ويرى مكانه ، قد أذن الله فيه ، وأباحه لعباده ، ولم يجعله عبادة تخصه ، يحرم إشراك غيره فيها . وهذا معلوم من الدين بالضرورة .

٣ - الاستعانة :

الاستعانة هي طلب العون ، والمعونة على قضاء حاجة ، أو خروج من محنة ، وهي من نوع الدعاء والاستغاثة ، فلا تطلب من عاجز لا يقدر على الإعانة ، ولا من ميت لا يسمع المستعين به ، ولا يرى مكانه ، ولا يعرف عن حاجته وحاله ، ولا من غائب بعيد حال البعد دون سماع الدعاء ، ورؤية الداعي ، وإعانتته على ما هو في حاجة إلى المعونة فيه ، وقد أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الاستعانة به دون من سواه في قوله :

﴿إِنَّا لَنَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١)

وَأَوْصَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَبْدَ اللَّهِ بِرِ عِبَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنْ يَسْتَعِينَ بِاللَّهِ دُونَ سِوَاهِ فِي قَوْلِهِ :

« إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ »^(٢)

ومن هنا كان طلب المعونة ممن لا يقدر عليها من الأحياء لعجزهم ، أو غيبتهم كطلبها من الأموات لموتهم ، وانقطاعهم عن الحياة ، كان ضلالاً وباطلاً ، وكان فاعله مشركاً بالله تعالى في هذه العبادة من عبادات الله التي لا تنبغي لأحد سواه .

(١) سورة الفاتحة الآية (٥) .

(٢) رواه الترمذي وصححه في كتاب القيامة (٥٩) .

٤ - النذر :

النذر وهو التزام العبد ما لم يلزمه من الطاعات ، وبعبارة أوضح هو التعهد بالقيام بشيء من العبادات تقرباً إلى الله تعالى ، أو بشرط أن يقضي الله تعالى له حاجة تعسرت عليه يريد قضاءها ، كأن يقول في تعهده اللهم إن شفيت مريضتي ، أو رددت علي غائبي ؛ أو قضيت حاجتي في كذا ... لك علي أن أتصدق بكذا ... أو أصوم أو أصلي كذا وكذا ، .. والنذر مما تعبد الله تعالى به عبادة المؤمنين ، قال تعالى مثنياً عليهم بالوفاء به ،

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾^(١)

وقال مرغباً فيه

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا﴾^(٢)

وخير النذر ما كان بغير شرط ، لكراهة النبي صلى الله عليه وسلم النذر المشروط في قوله : « النذر لا يأتي بخير ، وإنما يستخرج به من مال البخل »^(٣) وبناء على هذا فإن من نذر لغير الله تعالى وسواء نذر لحي أو ميت فقد أشرك^(٤) لأن النذر عبادة ظاهرة إذ هو توجه القلب إلى المنذور له رغبة فيما عنده من الخير وهو استشعار قدرته وغناه ؛ وإظهار الناذر عجزه وضعفه وافتقاره إلى من نذر إليه .

وهذا ويم الله لا يليق إلا بالله تعالى ، وبما أولئك الذين يندرون إلى الأولياء والصالحين من أموات المسلمين وأحيائهم فقد وقعوا

(١) سورة الإنسان الآية (٧) .

(٢) سورة البقرة الآية (٢٧٠)

(٣) متفق عليه بمعناه اللؤلؤ والمرجان (٢ / ١٦٨) .

(٤) لا بدخل في هذا النذر المحرم وعد المؤمن لأخيه إن رزقه الله كذا فإنه يعطيه كذا أو يقرضه كذا .

في ملكة وهم لا يشعرون ، وأشركوا بعبادة ربهم غيره وهم لا يعلمون .

ذبح القربان :

ذبح القربان وهو ما يُتقرب به إلى الله تعالى من الذبائح كالهدي في الحج وضحايا يوم عيد الأضحى ، وشاة العقيقة يوم سابع المولود . وذبائح وليمة العرس ، وما يذبح صدقة على الفقراء والمساكين ، كل هذا قد شرعه الله تعالى في كتابه ، وعلى لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان لهذا الذبح تقرباً وعبادة لا تنبغي إلا لله تعالى ، ومن ذبح لغير الله تعالى مُعظماً له ، خائفاً منه راجياً ما عنده فقد عبده بهذه العبادة وأشركه في عبادة ربه عز وجل .

وهنا يحسن التنبيه والتذكير بما يفعله أهل الجهالات من المسلمين اليوم من ذبائح على الأضرحة والقبور في أيام الموالد والمواسم تعظيماً لمن يذبحون لهم ، وتقديساً ، ورغبة في شفاعتهم ، وطمعاً فيهم ، وتوسلاً بجاههم .

ومثل هذه الذبائح على القبور والمشاهد ذبائح الزار ، والنشرة ، وعلى حافات الآبار . وعتبات المنازل خوفاً من الجن . إن هذه الذبائح كلها شرك وكفر والعياذ بالله تعالى من ذلك .

٦ - الركوع والسجود :

إن عبادة الركوع والسجود ظاهرة يزاولها المسلمون كل يوم في حياتهم إذ هما ركنتا الصلاة اللذان لا تصح الصلاة بدونهما ، وقد تعبد الله تعالى بهما سائر عباده المؤمنين فقال تعالى ﴿بَنَاتُهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١)

(١) سورة الحج الآية (٧٧) .

وأمر مريم بنت عمران به في إخباره عنها بقوله :

﴿يَمْرَيْمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾^(١)

وأمر رسوله بالسجود طلباً للقرب منه فقال :

﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾^(٢)

ومن هنا كان الركوع وهو الانحناء ، والسجود وهو وضع الوجه على الأرض عبادة لا تنبغي لأحد مهما كان شأنه إلا الله تعالى ، ومن ركع لأحد أو سجد له معظماً إياه ، أو طامعاً فيه ، أو خائفاً منه ، وليس بمكره على ذلك فقد أشرك بربه ، وعبد مع الله غيره ، وكان فعله شركاً أكبر ، لا يغفره الله إلا أن يتوب منه قبل موته ، لقول الله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(٣)

٧ - الطواف بالبيت العتيق وتقبيل الحجر الأسود :

إن الطواف عبادة شرعها الله تعالى لعباده ، وأمرهم بها في قوله :

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾^(٤)

وعليه فمن طاف ببيت غير بيت الله من قبر ؛ أو ضريح أو مشهد أو غير ذلك معظماً لما يطوف متقرباً إليه أو به إلى غيره حتى ولو كان إلى الله تعالى ، فقد ابتدع وأشرك ، وطوافه ذلك شرك أكبر ، وبدعة ضلالة من أشنع البدع وأقبحها ، لما فيها من التشريع ، وهو حق الله تعالى وحده

(١) سورة آل عمران الآية (٤٣) .

(٢) سورة العلق الآية (١٩) .

(٣) سورة النساء الآية (١١٦) .

(٤) سورة الحج الآية (٢٩) .

دون سواه ، وإن تقبيل الركن اليماني من البيت العتيق عبادة شرعها الله تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولم يشرع لهذه الأمة تقبيل حجر آخر ، ولا ركن ولا جدار ، ولا قبر ولا ضريح ولا تابوت ، وعليه فمن قِيلَ عتبة ، أو جداراً ، أو باباً ، أو حلقة في باب ، أو قبراً أو مشهداً قائماً من المشاهد - ابتدع ، وإن فعل ذلك تعظيماً لما قبله وتقديساً راجياً منه النفع ، دافعاً به الضرر فقد أشرك .

٨ - مآثر انواع العبادات :

إن كل ما شرع الله لعباده من انطاعات والقربات ليعبدوه بها تقرباً إليه تعالى ، وتزلفاً من صلاة ، وصيام ، وحج ، واعتبار ، وصدقات ، وزكوات ، واعتكاف . وجهاد ، ورياض ، وفعل خير من بر وصلة ، وذكر ، ودعاء ، وأمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، وتعليم علم وتعلمه . . . كل هذه العبادات وغيرها مما شرعه الله تعالى في كتابه ، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ففعله لغير الله تعالى ، وابتغاء مرضاة به غير مرضاة الله شرك في عبادة الله تعالى يتنافى مع عقيدة المؤمن القائمة على أساس التوحيد الدالة عليه كلمة الإخلاص : لا إله إلا الله .

٩ - ترك طاعة الله للفرقة أو الرعية :

لقد أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله بقوله من سورة القتال :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْغُوا
أَعْمَالَكُمْ﴾^(١)

فطاعة الله ، وطاعة رسوله في الأمر والنهي عبادة تعبد الله تعالى بها المؤمنون من عباده ، فمن ترك طاعتها غير مكره من أجل أحد من خلق الله كائناً من كان رغبة فيما عنده ، أو رهبة مما لديه فقد أشرك ،

(١) الآية (٣٣) . سورة محمد .

وتركه لطاعة الله تعالى ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وهو غير
مكره رغبة أو رهبة فيمن أطاعه شرك ، إذ الطاعة في المعروف فقط ،
ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

١٠ - تعظيم الله تعالى بالحلف به عز وجل

إن تعظيم الله عز وجل بتكبيره ، والحلف به وإجلاله تبارك وتعالى
عبادة تعبد الله بها المؤمنين من عباده ، فلذا لا يجوز الحلف بغيره
تعالى ، ومن حلف بغير الله تعالى ، فقد أشرك ، لما صح عن النبي
صلى الله عليه وسلم من النهي عن الحلف بغير الله تعالى ، وجعل
ذلك من الشرك ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « أَلَا إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاهُمْ
أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ ، وَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمِتْ »^(١) ،
وقال : « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ » وفي لفظ « فَقَدْ كَفَرَ »^(٢) ،
وقال « مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلْفِهِ وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى ، فَلْيَقُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا
اللَّهُ »^(٣)

هذا ولما كان الكثير من الشرك الذي وقع فيه بعض المسلمين
اليوم إنما وقع باسم التوسل والاستشفاع والتبرك ، وتحت شعارها فإننا
نختم هذا الجزء من هذا البحث في عقيدة المؤمن ببيان كل من
الوسيلة والتوسل ، والشفاعاة والتشفع ، والبركة والتبرك تبياناً للحق ،
وهداية إليه .

(١) متفق عليه (١٧٠/٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان .

(٢) رواه الترمذي وقال : هذا حديث حسن رواه أحمد وأحمد والحاكم .

(٣) متفق عليه (١٧٠ / ٢) اللؤلؤ والمرجان ومسلم (٨١/٥) .

الوسيلة

تعريف :

ما هي الوسيلة ؟

الوسيلة : لغة اسمُ فعله وسل إليه بكذا يسل وسيلة فهو واسل
تقرب ورغب ، ومثله توسل إليه بكذا توسلاً ، وتوسلاً إذا عمل عملاً
تقرب به إليه فالمتوسل والواسل بمعنى واحد ، قال أبو طالب في
لاميته :

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم بلى كل ذي دين إلى الله واسل
وتجمع الوسيلة على وسائل ، كما في قول لبيد :

ولما رأيت القوم لا ود فيهمو وقد قطعوا كل العرى والوسائل
ويطلق لفظ الوسيلة على المتزلة عند الملك ، وعلى الدرجة
والقربة ، وأطلقت كذلك على أعلى درجة في الجنة ، وهي التي قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثُمَّ سَلَّوْا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا
مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ
فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ »^(١) .

وأما الوسيلة في الشرع فهي العمل يقدمه المؤمن بين يدي رغبته

(١) رواه مسلم (٤/١) تصوير المكتب التجاري بيروت .

ليتوسل به إليها^(١) ، فيفوز بمرغوبه ، ويحصل على مطلوبه .

والوسيلة التي هي التقرب إلى الله تعالى بعمل صالح طلباً للقرب منه تعالى والحظوة لديه والدرجة عنده سبحانه وتعالى . أو لقضاء حاجة بحصول نفع ، أو دفع ضرر ، هذه الوسيلة الشرعية مبناها ثلاثة أمور .

الأول : المتوسِّل إليه وهو الله ذو الفضل والإنعام .

والثاني : الواسل أو المتوسِّل وهو العبد الضعيف ، المحتاج ، الطالب القرب من الرب تعالى ، أو الراغب في قضاء حاجة له . من جلب خير ، أو دفع شر .

والثالث : المتوسِّل به وهو العمل الصالح المتقرب به إلى الله تعالى وهو الوسيلة ، ولكي تكون الوسيلة مجدية نافعة يحصل بها القرب ، أو تُقضى بها الحاجة لا بد من مراعاة ما يلي ك شروط أساسية لا بد من توفرها للواسل الذي يريد أن يتفع بوسيلته : -

(١) أن يكون العبد الواسل إلى الله تعالى المتوسل إليه مؤمناً صالحاً .

(٢) أن يكون العمل المتوسِّل به مما شرع الله تعالى لعباده أن يتقربوا به إليه سبحانه .

(٣) أن يكون العمل المشروع قربة موافقاً في أدائه لما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يؤديه ، فلا يُزاد فيه ، ولا ينقص منه ، ولا يفعل في غير زمانه الذي شرع له ، ولا في غير مكانه الذي عين له وحُدِّد .

فلهذا لا يكون عمل غير المؤمن قربة ولا وسيلة أبداً ، كما لا

(١) الضمير في إليها عائد إلى الرغبة .

تكون البدعة قربة إلى الله تعالى ، ولا وسيلة إليه بحال من الأحوال .
والوسيلة بهذا المعنى مشروعة مندوب إليها في كل زمان ومكان . قال
تعالى في سورة المائدة :

﴿بَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي
سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١)

وقال عز وجل في سورة الإسراء :

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ
رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾^(٢)

ففي الآية الأولى أمر وترغيب للمؤمنين في طلب القرب من الله تعالى
بفعل الطاعات الزائدة عن الفرائض والواجبات ، لأن تقوى الله تعالى
تتحقق بفعل المأمور ، وترك المنهى ، وبها تتحقق النجاة من العذاب
إن شاء الله تعالى ، وطلب الوسيلة وهي القرب من الله تعالى والحظوة
لديه سبحانه وتعالى يكون بفعل نوافل العبادات من صلاة ، وصيام ،
وصدقة ، وحج ، وعمرة ، وجهاد ، وبغيرها من سائر النوافل ،
والقرب ، والطاعات ، وفي الآية الثانية أخبار عن نفر من العرب كانوا
يعبدون نقرأ من الجن فأسلم نفر من الجن وعبدوا ربهم وتقربوا إليه
بصالح الأعمال ، والنفر من العرب لم يشعروا بإسلام أولئك النفر من
الجن وبقوا يعبدونهم ، فأخبر تعالى عن حالهم في هذه الآية الكريمة
منها إلى خطأهم ، وضلالهم محذراً منه .

(١) الآية (٣٥) .

(٢) الآية (٥٧) .

الوسيلة جائزة وممنوعة

والوسيلة منها ما هو جائز ، ومنها ما هو ممنوع ، فالجائز منها هو كل وسيلة أذن فيها الشارع ندباً أو إباحة ، والممنوع منها ما لم يأذن فيه الشارع كراهة أو تحريماً ، ولا فرق بين ذلك بين التوسل إلى الأمور الدنيوية ، أو الأمور الأخروية فلا بد من إذن من الشارع في جواز الوسيلة ، وإلا حرمت ، ومن أمثلة ذلك في الأمور الدنيوية :

(١) شخص يريد أن يحصل على ثروة مالية فبحث عن وسيلة تحقق له مراده فرأى قتل أخيه الغني الذي لا وارث له إلا هو ، فهل هذه الوسيلة يجوز استعمالها ، للحصول على المال المطلوب ؟ والجواب قطعاً : لا ، لأنها وسيلة محرمة .

(٢) رجل خطب امرأة في نفسها فأتت الزواج منه فرأى أن الوسيلة أن يذهب إلى ساحر ، أو دجال يكتب له حرزاً ليحببه إليها حتى تتزوجه . فهل هذه الوسيلة جائزة ؟ والجواب ، لا : بل هي محرمة شرعاً .

(٣) امرؤ سرق له مال ولم يعرف سارقه ، فقبل له : إن فلاناً عَرافاً اذهب إليه فسيكشف لك عن السارق بواسطة رثي من الجن ، فهل يجوز أن يذهب إليه ليكشف له عن السرقة بواسطة الجن ؟ والجواب ، لا ، لأن هذه الوسيلة محرمة .

(٤) رجل مرض له أخوه فعالجه فلم يبرأ ، فقيل له : اذهب إلى

الضريح الفلاني واستشف بصاحبه ، وناده واستغث به فإن أخاك ييراً من مرضه . فهل يجوز أن يذهب بمرضه إلى هذا الضريح ، ويستشف به ويستغث ؟ والجواب لا ، لأن هذا العمل شرك بالله .

(٥) مريض وُصف له شرب كأس من الخمر سبع ليال أو أكثر أو أقل ليلاً من مرضه ، فهل يجوز استعمال هذه الوسيلة لشفائه ؟ والجواب : لا .

(٦) حكومة مسلمة قيل لها : إن هناك كلاباً بوليسية تكشف عن الجرائم بصورة عجيبة ، فهل يجوز أن تستعمل هذه الكلاب في كشف الجرائم ؟ والجواب : لا ، لأن هذه الوسيلة محرمة ، إذ البينة لا تثبت إلا بشهادة عدلين من المسلمين ، أو بالاعتراف من الجاني ، فكيف تقبل شهادة كلب ؟!

(٧) امرأة أرادت أن تزوج ، فقيل لها : اذهبي إلى فلانة الشوافة فاستخيريها في شأن زواجك بفلان فإن أذنت لك فتزوجيه وإلا فلا ، لأنها تعرف بواسطة رثي لها من الجن ، فهل يجوز لها أن تذهب إلى فلانة كوسيلة للكشف عن عيب ؟ والجواب : لا ، إذ الوسيلة هذه محرمة شرعاً ، وهكذا ما أذن فيه الشارع فقط ، فتجوز وسيلة التجارة ، والفلاحة ، والصناعة ، والحماله للحصول على المال ، ولكن لا يجوز الربا ، والغش ، والسرقه ، والتلصص لجلب المال .

يجوز التداوي من الأمراض بالأدوية ، ولا يجوز التداوي بالسموم ، والنجاسات ، والمجرمات ، يجوز البحث عن المجرمين ، والسارقين ، واستعمال الوسائل الجائزة لاكتشاف السرقات ، ولكن لا يجوز استعمال الكلاب البوليسية ، ولا استحدام الكهانة ، ولا العرافة ، ولا التنجيم بواسطة الكهان والعرافين ، والمنجمين .

وفي الأمور الإلهية :

إن المراد من التوسل في الأمور الإلهية هو التوسل إلى الله تعالى في أحد أمرين :

أولهما : وهو أشرفهما وهو القرب من الله تعالى ، والمحظوة لديه ، والمنزلة العالية عنده .

وثانيهما : قضاء الحاجات بجلب نفع ، أو دفع ضرر ، وبعبارة أوضح : هو التوسل إلى الله تعالى للحصول على مرغوب في الدنيا أو الآخرة ، والنجاة من مرهوب في الدنيا أو الآخرة .

والتوسل إليه تعالى لا يكون إلا بما شرعه عبادة وقربة يعبد بها عباده المؤمنون ، ويتقربون به إليه ، فكل توسل إليه تعالى بغير ما شرعه من العبادات والقربات هو توسل باطل ضار غير نافع ، ومن هنا تعين أن نذكر جملة صالحة من أنواع الوسائل الشرعية ، المباحة ، النافعة للواصلين ، كما نقفى عليها^(١) بذكر جملة أخرى من الوسائل المحرمة الباطلة تعليمياً وتحذيراً . وبذلك نكون قد وفينا هذا الجزء من العقيدة بحثاً وتحقيقاً . وقبل الشروع ننبه إلى أن الطاعات التي شرعها الله تعالى لعباده قرباً يتقربون بها إليه ، ووسائل يتوسلون بها كثيرة ، وهي : كل الإيمان والعمل الصالح ، وأعظمها وسيلة الإيمان بالله ورسوله ، ثم أداء الفرائض التي افترضها الله تعالى على عباده ، ودون ذلك نوافل العبادات ، وترك المحرمات والمكروهات ، وذلك لقوله تعالى في الحديث القسي الذي أخرجه البخاري :

« وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُجِبَهُ ... » الحديث ،^(٢)

(١) نقفى عليها أي نتبها .

(٢) متن البخاري - (٨ / ١٣١) - كتاب الرقاق باب التواضع مطبعة محمد علي صيغ وأولاده

الوسائل المشروعة

(١) الإيمان :

من الوسائل المشروعة الإيمان بالله تعالى ، وبكل ما أمر الله بالإيمان به من الملائكة ، والكتب ، والرسل ، واليوم الآخر ، والقضاء والقدر .

والإيمان من أفضل الأعمال ، وأشرف الوسائل التي يتوسل بها إلى الله تعالى للحصول على مرغوب ، أو النجاة من مزهوب ، فقد رضي الله تعالى وسيلة إليه ، وأثنى على المتوسلين به في قوله من سورة آل عمران :

﴿رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(١)

وفي قوله من آل عمران أيضاً :

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾^(٢)

وفي الحديث أن رجلاً توسل في دعائه بالإيمان فقال : اللهم إني أسألك بأنني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت ، الأحد ، الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، والرسول صلى الله عليه وسلم يسمع فقال :

« والذي نفسي بيده لقد سأل الله بإسمه الأعظم ! الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئِلَ به أعطى »^(٣)

(٢) الآية (١٩٣) .

(١) الآية (١٨) .

(٣) رواه الترمذي وحسنه ، وأبو داود وإسناده صحيح ، ورواه أحمد في المسند وابن ماجه ، وابن حبان والحاكم جامع الأصول في أحاديث الرسول - مطبعة الملاح - تعليق عبد القادر الأرناؤوط - (١٧٠ / ٤) .

ومن هنا كان لأي مؤمن أو مؤمنة أن يتوسل إلى الله تعالى بإيمانه في أي حاجة من حوائج الدنيا والآخرة أرادها فيقول : اللهم إني أسألك بإيماني بك ، وبرسولك ، أو بآني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت ، وأن محمداً عبدك ورسولك ، أن تغفر لي ، وترحمني ، أو تقضي حاجتي في كذا . . . ويسمي حاجته .

٢ - الصلاة :

إن الصلاة فرضها ونفلها من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله تعالى : لقوله صلى الله عليه وسلم في رواية الصحيح وقد سئل عن أحب الأعمال إلى الله تعالى فقال : « الصلاة على وقتها » فأي مؤمن أو مؤمنة يرغب في المنزلة عند الله تعالى والحظوة لديه عز وجل فليحافظ على الصلوات الخمس وليؤدها في أوقاتها يظفر بمرغوبه بإذن الله تعالى ، وأي مؤمن أو مؤمنة تعرض له حاجة ، ويرغب في قضائها ، والحصول عليها فليتوضأ وليصل ركعتين ويسأل الله تعالى حاجته فإنها تقضى بإذن الله كما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم الرجل الضرير بأن يتوضأ ويصلي ركعتين ، ويسأل الله تعالى ، ففعل ودعا له الرسول صلى الله عليه وسلم فرد الله عليه بصره^(١) .

٣ - الصيام :

إن طالبَ القرب من الله تعالى ، والراغب في الحظوة لدى مولاه ، والمتوسل إليه بالإيمان ، وصالح الأعمال يُرشد إلى الصيام فإنه خير وسيلة إلى ذلك ، فقد روى النسائي في سننه : « أن أبا أمامة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا رسول الله دلني على عمل أدخل به الجنة ؟ قال : قال : عليك بالصوم فإنه لا مثل له » . وروى البخاري ومسلم واللفظ له أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(١) رواه الترمذي (٩ / ١١٧ ، ١١٨) وأحمد (٤ / ١٣٨) وابن ماجه (إمالة / ١٨٩) .

« مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا بَاعَدَ اللَّهُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا »^(١) وصح أيضاً : « أَنْ خُلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ »^(٢)

هذا ورد في التوسل بالصيام للحصول على القُرب من الله تعالى . وأما التوسل به لقضاء الحاجات ، واستجابة الدعوات فقد روى الترمذي بسند حسن وأحمد كذلك عن أبي هريرة : « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ : الصَّائِمُ حَتَّى يُفِطِرَ ، وَالْإِمَامُ الْعَادِلُ ، وَالْمَظْلُومُ » وورد بسند ضعيف « للصائم دعوة لا ترد » ويشهد له الحديث السابق عليه .

٤ - الصدقة :

إن الصدقة بطيب المال ، وطيب النفس لنعم الوسيلة لطلب القرب من الله تعالى ، والزلفى إليه ، ولنعم الوسيلة للحصول على المرغوب الدنيوي والأخروي ، وللنجاة من المرهوب في الدنيا والآخرة . وها هي ذي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم تشهد بذلك وتؤكدده . قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّحِيح : « اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِ تَمْرَةٍ » ، وَقَالَ : « الصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ » . وَقَالَ : « صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تُقِي مُصَارِعَ السُّوءِ ، وَصَدَقَةُ الْبَرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ ، وَصِلَةُ الرَّجِمِ تُزِيدُ فِي الْعُمُرِ » .

(١) اللؤلؤ والمرجان (٢٠/٢) . والبخاري (٣١/٤ ، ٣٢) ، ومسلم (١٥٩/٣) .

(٢) متفق عليه . اللؤلؤ والمرجان (١٩ / ٢) . ولفظ البخاري (والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك) (٣٠ / ٣ ، ٣٢) ومسلم (١٥٧/٣ ، ١٥٨) . والخلوف : نضج الخاء المعجمة ، واللام : تغير رائحة الفم لخلو المعدة من الطعام .

٥ - الحج :

إن الحج إلى بيت الله تعالى لمن أعظم القرب ، وأشرف الوسائل ، ويكفي في التدليل على ذلك أن نعلم أن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة وأن من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، كما صح ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم في رواية الشيخين .

٦ - الاعتمار :

والاعتمار : هو زيارة بيت الله تعالى للطواف به ، والسعي بين الصفا والمروة وسيلة للقرب من الله تعالى واستجابة الدعاء ، وتكفير الذنوب لقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الصحيح : « تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ فَإِنَّهُمَا يَنْتِيانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْتِني الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ ، وَالذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ » .

٧ - الجهاد والرباط :

إن الجهاد في سبيل الله ، والرباط لمن أعظم الوسائل وأشرفها ، وأجل الأعمال وأفضلها ، ولنعم الوسيلة هما لنفوز بالقرب من الله تعالى وللحظوة لديه سبحانه وتعالى . يَقُولُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِوَايَةِ الصَّحِيحِينَ : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ »^(١) ويقول : « مَقَامُ الرَّجُلِ فِي الصَّفِّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ الرَّجُلِ سِتِينَ سَنَةً »^(٢) ويقول « الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالْحَاجُّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ ،

(١) البخاري (١٥٣ / ٩) ومسلم (٣٧ / ٦٦) .

(٢) رواه الدارمي (الجهاد / ٧) وأحمد (٤٤٦ / ٢) ، والحاكم وقال صحيح على شرط البخاري (٦٨ / ٢) .

وَالْمُعْتَمِرُ وَقَدْ دَعَا اللَّهَ دَعَاَهُمْ فَأَجَابُوهُ «إِنْ دَعَاَهُمْ أَجَابَهُمْ ، وَإِنْ اسْتَغْفَرُوهُ غَفَرَ لَهُمْ»^(١) ويقول : «رَبَّاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَمَوْضِعُ سُوْطٍ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا ، وَالرَّوْحَةُ يَرْوَحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوِ الْغَدَاةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»^(٢).

ويقول : «حُرْمَتِ النَّارِ عَلَى عَيْنٍ دَمَعَتْ أَوْ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَحُرْمَتِ النَّارِ عَلَى عَيْنٍ سَهَرَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٣).

٨ - تلاوة القرآن الكريم

إن تلاوة القرآن الكريم لمن أشرف الوسائل ، وخير ما يطلب به القرب من الله تعالى ، إذ قراءة الحرف منه بعشر حسنة ، لحديث الترمذي عن ابن مسعود ، كما أن مجالس قراءته ، ومدارسته تنزل عليها السكينة ، وتحضنها الملائكة ، وتغشاها الرحمة لحديث الصحيح ، وتعلمه وتعليمه للناس يكسبه خيرية يفوق بها سواه من سائر المؤمنين لقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الصحيح :

«خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»^(٤) كما يجعله في معية الكرام البررة من عباد الله ، ولحديث مسلم : «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ»^(٥) كما يقال له إذا دخل الجنة «إِقْرَأْ وَارْقُ ، وَرَتَّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ

(١) رواه النسائي (١٤/٦ ، ١٥) وغيره ، ولم يعل بأية علة فادحة فيه ، ورواه ابن ماجه والزيادة التي بين القوسين له (مناسك / ٥) .

(٢) رواه البخاري (٤٣/٤) .

(٣) رواه أحمد (١٣٥/٤) وأصله في الصحيحين (٢٥٧/٢) من اللؤلؤ والمرجان وأخرج النسائي الجزء الأخير منه (١٣/٦) .

(٤) البخاري (٢٣٦/٦) . (٥) مسلم (١٩٥/٢) .

في الدنيا ، فإن منزلتكَ عند آخر آية تقرأها ، كما روى ذلك الترمذي بسند صحيح^(١) .

الذكر والتسبيح :

إن ذكر الله تعالى وتسبيحه بالكلمات الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل كلمات : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، ومثل قول : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، ومثل قول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لمن أعظم القرب ، وأفضل الوسائل لقول الرسول صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين . يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى « أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأْ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأْ خَيْرِ مَنَّهُمْ »^(٢) . وَلَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لِلرَّجُلِ الَّذِي قَالَ لَهُ . « إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبُّهُ بِهِ قَالَ « لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى »^(٣) . وَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « مَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ عَمَلًا أَنْجَى مِنْ الْعَذَابِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى »^(٤) وقوله « مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ ، وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ اللَّهَ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ »^(٥)

١٠ - الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

إن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من أعظم الوسائل وأشرفها لرفع الدرجات ، وقضاء الحاجات لقول الرسول صلى الله عليه وسلم في

(١) الترمذي (٤٢/١١ ، ١٣) وأحمد (٤٠/٣) .

(٢) اللؤلؤ والمرجان (٢١٩/٣) .

(٣) رواه الحاكم وصححه ورواه الترمذي (الدعوات ٤١) وأحمد (٤/١٨٨ / ١٩٠) -

(٤) رواه الطبراني بإسناد صحيح ، وكذا ابن ماجه (ادب / ٥٣) وأحمد (٥ / ٢٣٩) وغيرهم .

(٥) رواه البخاري (١٠٧/٨) .

الصحيح : « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا » .
 وقوله للذي قَالَ لَهُ : « أَتَجْعَلُ لَكَ صَلَاتِي كُلَّهَا » : إِذَا تَكْفِي هَمَّكَ ،
 وَيَغْفِرُ لَكَ ذَنْبَكَ ،^(١)

وقوله في حديث أحمد والحاكم الصحيح عن عبد الرحمن بن عوف
 والذي جاء فيه « أن رسول الله صلى عليه وسلم خرج فاتبعته حتى دخل نخلاً
 فسجد فأطال السجود حتى خفت عليه ، أو خفت أن يكون الله قد توفاه أو
 قبضه ، قال فجئت أنظر ، فرفع رأسه ، فقال : مالك يا عبد الرحمن ؟ قال :
 فذكرت ذلك له . فقال : « إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِي : أَلَا أَبْشُرُكَ ؟ إِنَّ
 اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَلَّمْتُ
 عَلَيْهِ ، فَسَجَدْتُ لِلَّهِ شُكْرًا » .

١١ - الاستغفار :

إن الاستغفار وهو طلب المغفرة من الله عز وجل بلفظ : استغفر الله ،
 أو اللهم اغفر لي ، من الوسائل المشروعة ذات الفضل العظيم ، لثناء الله
 تعالى على أهلها بقوله

﴿وَالْمُتَّغِفِرِينَ بِالْأَتْحَارِ﴾^(٢)

وقوله

﴿وَبِالْأَتْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^(٣)

وقوله :

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
 لِذُنُوبِهِمْ﴾^(٤)

(٢) سورة آل عمران الآية (١٧) .

(١) رواه أحمد والترمذي (قبلة / ٢٣) وصححه

(٤) سورة آل عمران (١٣٥) .

(٣) سورة الذاريات الآية (١٨) .

ولقول الرسول صلى الله عليه وسلم « مَنْ قَالَ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ فَرَّ مِنَ الرَّخِيفِ »^(١). ولقوله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ لَزِمَ الْإِسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا ، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ »^(٢).

الدعاء :

إن الدعاء وسؤال الله عز وجل لمن خير ما يتوسل به المتوسلون لقضاء حوائجهم ، وتفريج كربهم ، وكيف لا يكون كذلك ، والله تعالى يقول :

﴿ أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾^(٣)

ويقول :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾^(٤) والرسول صلى الله عليه وسلم يقول . الدعاء هُوَ الْعِبَادَةُ وَيَقْرَأُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ذَاخِرِينَ ﴾^(٥).

ويقول : « مَا عَلَى الْأَرْضِ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللَّهَ بِدَعْوَةٍ إِلَّا أَتَاهُ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّاها ، أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا ، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةٍ رَجِمَ »^(٦). وقال : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَنْصَبُ وَجْهَهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي مَسْأَلَةٍ إِلَّا أَعْطَاهَا إِيَّاهُ : إِمَّا أَنْ يُعْجِلَهَا لَهُ ، وَإِمَّا أَنْ يُدْخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ » . وفي لفظ « إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ

(١) رواه أبو داود وإسناده جيد .

(٢) رواه أبو داود وهو صحيح الإسناد (٣٤٨/١) وأحمد (١٤٨/١) (١/ ٣٤٨) والترمذي (دعوات / ١١٧) .

(٣) سورة غافر الآية (٦٠) .

(٤) سورة البقرة الآية (١٨٦)

(٥) تقدم تخريجه .

(٦) رواه الترمذي وصححه (دعوات / ١١٥) .

إِخْدَى ثَلَاثَ . إِمَّا أَنْ يُعْجَلَ لَهُ دَعْوَتُهُ ، وَإِمَّا أَنْ يُدْخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ يَثْلُهَا . قَالُوا . إِذَا تَكَثَّرَ ! قَالَ اللَّهُ أَكْثَرُ ،^(١) وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنْ اللَّهُ حَيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِ إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ .^(٢)

١٢ - دعاء المؤمنين .

إن من بين الوسائل المشروعة . التي تُرفع بها الدرجات ، وتقضى بها الحاجات دعاء المؤمن لأخيه المؤمن ، فقد كان أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم يأتونه يطلبون منه أن يدعو الله تعالى لهم ، فيدعوا ، فيستجيب الله تعالى له فيهم ، فتقضى حاجاتهم ، فكم من مرة توسلوا رضى الله عنهم بدعاء نبيهم في طلب الغيث ، فيستجيب الله تعالى ويسقون ، وهذا ثابت في الصحيح لا شك فيه . وقد تقدم خبر الضرير ، وأنه توسل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم ، قَالَ : « أَدْعُ اللَّهَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يَرُدَّ عَلَيَّ بَصْرِي فِدَعَا لَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بَصْرَهُ ، وَعَادَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ مَسَّهُ ضُرٌّ »^(٣) ، كما صح أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر بن الخطاب وهو يريد العمرة « لَا تَسْتَأْ يَا أَخِي مِنْ دُعَائِكَ » وفي لفظ « أَشْرِكُنَا يَا أَخِي فِي دُعَائِكَ »^(٤) وتوسل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته بدعاء العباس رضي الله عنه لهم في صلاة استسقاء فاستجاب الله تعالى له ، وسقاهم بعد قحط شديد^(٥) .

(١) رواه أحمد بإسناد لا بأس به (٣-١٨) .

(٢) أبو داود (١-٣٤٢) والترمذي (دعوات-١٠٤) وحسنه ، والحاكم وصححه على شرط الشيخين (١-٤٩٧) وأحمد (٥-٤٣٨) وابن ماجه (دعاء ١٣) .

(٣) رواه الترمذي (٩/١١٨) وأحمد (٤/١٣٨) وابن ماجه (إقامة/١٨٩) :

(٤) رواه أبو داود (١/٣٣٤) والترمذي (دعوات ١٠٩) :

(٥) رواه البخاري من حديث أنس (١/٣٢ ، ٣٣) .

وما زال المسلمون إلى اليوم يتوسلون بدعاء بعضهم بعضاً ، فيقول المؤمن لأخيه ادع الله لي يا فلان ، لما علموا من مشروعية ذلك وجوازه ، وكيف وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ دَعَا لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَ الْمُوَكَّلُ بِهِ آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلِهِ » رواه مسلم (١).

١٣ - أسماء الله تعالى الحسنى :

إن التوسل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا لمن خير الوسائل وأجداها ، وأنفعها للعبد ، فإن امرأ مسلماً يدعو الله تعالى بأسمائه وصفاته لا يخيب في دعائه ، ولا يُحرم الاستجابة من ربه إلا أن يدعو بإثم أو قطيعة ، ومما ورد به التوسل من أسماء الله تعالى وصفاته ما يلي ذكره :

١ - لفظ يا ذا الجلال والإكرام ، لحديث الترمذي الحسن الإسناد عن مُعَاذٍ وهو قوله صلى الله عليه وسلم وَقَدْ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ : يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ : « قَدْ اسْتَجِيبَ لَكَ قَسْلٌ » .

٢ - يا أرحم الراحمين ، لما روى الحاكم عن أبي أمامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِنْ لِلَّهِ مَلَكًا مُوَكَّلًا بِمَنْ يَقُولُ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، فَقَدْ قَالَهَا ثَلَاثًا قَالَ الْمَلَكُ إِنَّ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ قَدْ أَقْبَلَ عَلَيْكَ قَسْلٌ » .

٣ - اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت ، يا حنان يا منان ، بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام ، لحديث أنس عند أحمد وغيره بسند صحيح : « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مَرَّ بِأَبِي عِيَّاشٍ وَهُوَ يُصَلِّي وَيَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدُ . . . إلخ فَقَالَ : لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ ، (٢) » .

٤ - يا رب ، يا رب ، يا رب ، لحديث عائشة : « إِذَا قَالَ الْعَبْدُ يَا .

(٢) أحمد (١٥٨/٣) .

(١) مسلم (٨ / ٨٦) .

رَبِّ ، يَا رَبِّ يَا رَبِّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَيْتَكَ عَبْدِي سَلُّ تَعَطَّ ﴾ (١) .

هـ - لا إله إلا أنت سبحانه إني كنت من الظالمين . لحديث سعد بن أبي وقاص عند النسائي والترمذي وسنده لا بأس به : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَاهُ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ : لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ » (٢)

هذا وأسماء الله تعالى وهي تسعة وتسعون اسماً كلها يدعى بها الرب تبارك وتعالى ، وتُوسل بها إليه ، فيستجيب للداعين ، ويعطي السائلين ، وهو البر الرحيم ، الجواد الكريم . وما ذكرناه مجرد مثال حضرنا من قرب فتناولناه ، وإلا فإن أسماء الله تعالى ، وصفاته كلها يدعى بها ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (٣)

١٣ - فعل الخيرات مطلقاً .

إنه ما من خير أو بر يفعله المؤمن إيماناً واحتساباً إلا كان له وسيلة إلى ربه فليسأل به مولاه عز وجل فإنه يعطيه ولا يخيبه أبداً . وشاهد هذا ما جاء في البخاري ومسلم من حديث النفر الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار في جبل فسقطت صخرة على فم الغار فسدته عليهم ، فقد توسل اثنان منهم ببر فعلوه لوجه الله ، وتوسل الثالث بترك إثم تركه خوفاً من الله ، فاستجاب الله لهم ، وكشف ما بهم ، وخرجوا سالمين من الغار (٤) .

كما أن رجلاً من بني إسرائيل أخط غصن شوك من طريق المؤمنين خشية أن يصيب أحداً منهم ، فشكر الله تعالى له ذلك العمل القليل ، فغفر

(١) ابن أبي الدنيا ، وسكت عنه المنذري ولم يذكر له علة ، الترغيب والترهيب (٢ - ٤٨٨) .
(٢) الترمذي (دعوات / ٨١) وأحمد (١٧٠ / ١) . (٣) سورة الأعراف الآية (١٨٠) .
(٤) راجع اللؤلؤ والمرجان (١٣٦ / ٣) والبخاري (٩٩ / ٣ ، ١٠٠) ومسلم (٨ / ٨٩ ، ٩٠) .

له ، وأدخله الجنة^(١) . كما أن امرأة بغياً من بني إسرائيل سقت كلباً عطشان يأكل الثرى من شدة العطش سقته لوجه الله تعالى فشكر الله تعالى لها ذلك ، وأدخلها الجنة ، وهذا ثابت في الصحيحين لا مجال لإنكاره^(٢) .

١٤ - ترك المحرمات .

إن من بين الوسائل النافعة للمشروعة للحصول على القرب ، والفوز برضاء الرب ، ولاستجابة الدعوات ، وقضاء الحاجات ، ترك المحرمات ، إنه ما من مؤمن يترك كبيرة من كبائر الإثم خوفاً من الله تعالى وحياء منه إلا كان له ذلك وسيلة ، له أن يتوسل به إلى ربه . كما فعل أحد الثلاثة الذين سدت الصخرة عليهم باب الغار حتى كادوا يهلكون ، فقد توسل إلى الله تعالى بقوله : « اللَّهُمَّ كَأَنَّتْ لِي بِنْتُ عَمِّ ، كَأَنَّتْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِيهَا فَأَمْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمْتُ بِهَا سَنَةً مِنَ السِّنِينَ فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا مِائَةَ وَعِشْرِينَ دِينَاراً عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِيهَا فَقَعَلْتُ ، حَتَّى إِذَا قَدِرْتُ عَلَيْهَا ، قَالَتْ : لَا أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَقْضِيَ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ ، فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الْوُفُوعِ عَلَيْهَا ، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ ... الخ^(٣) .

وهكذا فإنه لكل مؤمن أن يتوسل إلى الله تعالى عند الشدائد ، وتعسر لأمر بما ترك من معاصي الله تعالى خوفاً من الله وحياء منه ، وطاعة له ، بعد أن يكون قد هم بها وأرادها ، فإنه يستجاب له ، ويفرج كربه ، أو تقضى حاجته بإذن الله تعالى .

(١) الحديث ثابت في الصحيحين راجع للؤلؤ والمرجان (٣١ / ٢٠١) والبخاري (١٥٧ / ١) ؛ (١٥٨) ومسلم (٣٤ / ٨) .

(٢) راجع للؤلؤ والمرجان (٧٥ / ٣) والبخاري (٢١١ / ٤) ومسلم (٤٤ / ٧) ، (٤٥) .

(٣) متفق عليه؛ اللؤلؤ والمرجان (٢٣٦ / ٣) والبخاري (٩٩ / ١١٠٤) ومسلم (٨٩ / ٨٠) ، (٩٠) .

الوسائل المحرمة

وبعد ذكرنا لتلك الطائفة النافعة من الوسائل المشروعة ، نذكر هنا جملة من الوسائل الباطلة الممنوعة . والتي شغلت الكثير من المسلمين عن الوسائل النافعة ، وصرفتهم عنها فحرموا من التوسل المشروع ، بسبب انشغالهم بالممنوع ، فخابوا في سعيهم وخسروا .

نذكر هذا نصحاً للمسلمين ، وتبليغاً لرسالة الإسلام ، وتعريفاً بها بين المسلمين وغير المسلمين .

ومن تلك التوسلات الباطلة الممنوعة :

١ - دعاء الأولياء والصالحين :

إن دعاء الصالحين والاستغاثة بهم ، والتوسل بجاههم لم يكن في دين الله تعالى قرينة ولا عملاً صالحاً فيتوسل به أبداً ، وإنما كان شركاً في عبادة الله محرمًا ، يخرج فاعله من الدين ، ويوجب له الخلود في جهنم .

إن كل ما يفعله جهلة المسلمين اليوم من دعاء الصالحين كقولهم : يا سيدي فلاناً ، ومولاي فلاناً خذ بيدي ، وكن لي كذا ، وادع الله لي بكذا ، أو أنا في حماك ، وأنا بك وبالله ، وأنا دنخلك إلى غير ذلك من كلمات الشرك والباطل هو من الضلال ، والجهل ، والإسلام بريء منه ، إذ لم يشرعه ولم يأذن فيه بل حرمه ، ومنعه ، وتوعد عليه بمثل قول الله تعالى :

﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ (١)

٢ - النذور للأولياء والصالحين :

إن ما ينتره جهلة المسلمين من نذور للأولياء والصالحين من أموات المسلمين ليس وسيلة مشروعة لله للتقرب بها إلى الله تعالى ، ولا لِقضاء الحاجات واستجابة الدعوات ، وإنما هو شرك مُحرم ، وقع فيه من وقع من أمة الإسلام لبعدهم عن دراسة كتاب الله ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن قول أحدهم : يا سيدي فلاناً إن رزقني الله كذا ، أجعل لك كذا . أو يا سيدي فلاناً إن تحقق لي كذا ، أو تحصلت على كذا أجعل لك كذا ، أو أقدم لك كذا .. كل هذا نذر لغير الله تعالى ، وعبادة صُرفت لغيره تعالى فصاحبها آت أخطر باب من أبواب الشرك ، والإسلام بريء من عمله ، إذ ليس من عقائد المسلمين الإقبال على غير الله تعالى ، ودعاؤه ، وعِدته بالذبح له ، أو بناء قبة عليه ، أو بإيقاد الشموع على ضريحه ، أو وضع ستائر على تابوته ، إن حصل للنادر ما نذر لأجله . بل هذا يتنافى مع كلمة التوحيد والغرض الذي يقولها المسلم من أجله ، وهو نفي العبادة عن كل أحد وإثباتها لله تعالى وحده لا شريك له .

٣ - الذبائح على أرواح الأولياء :

إن ما عرفه جهلة المسلمين اليوم ، وتعارفوا عليه من الذبائح على أضرحة الأولياء ، وعلى المشاهد ، والقباب في المواسم التي تقام باسم أولئك الصالحين من الوقت إلى الوقت ، ومن سوق البقر ، والغنم لتذبح هناك حول أضرحة الصالحين ، كل هذا ضلال وباطل ، وليس

(١) سورة المائدة الآية (٧٢) .

مما شرع الله تعالى لعباده التوسل به إليه أبداً ، وإنما هو عمل من أعماله للجهلية الأولى ، وشرك في عبادة الله تعالى ، وتنديد ، حرمهما الله تعالى بقوله :

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾^(١)

ويقوله :

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٢)

٤ - العكوف حول قبور الصالحين :

ليس من التوسل المشروع نقل المرضى إلى أضرحة الأولياء ، ولا العكوف حول تلك الأضرحة والقبور ، ولا المبيت هناك ، ولا إقامة الحفلات والحضرات . كما ليس من التوسل المشروع في شيء الاستشفاع بأصحاب تلك الأضرحة والقبور ، ولا نداءاتهم ، وطلب الدعاء منهم ، ولا الاستغاثة بهم . وإنما هذا وما شابهه مما يُقام عند الأضرحة والقبور شرك محرم ، وعمل فاسد لا يأتيه إلا من سفه نفسه ، وجهل أكبر أصل . من أصول الدين الإسلامي وهو توحيد الله تعالى بعبادته وحده دون سواه . وإن المصير على هذا الباطل والمقر عليه كليهما أشرك بالله تعالى ، وكفر بعد إيمانه ، والعياذ بالله تعالى .

٥ - سؤال الله بجاه فلان :

ليس من التوسل إلى الله تعالى طلبا للقرب ، ولا لقضاء الحاجات سؤال الله تعالى بجاه أحد من خلقه . كقول أحدهم : اللهم إني أسألك بجاه نبيك فلان ، أو عبدك فلان ، إذ هذا التوسل لم يعرفه دين الإسلام ، فلم يرد في كتابه ولا في سنة نبيه صلى الله عليه

(١) سورة النساء الآية (٣٦) .

(٢) سورة البقرة الآية (٢٢) .

وسلم ، والذي عرفه الإسلام ، وأمر به ، ودعا إليه هو سؤال الله تعالى بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وذلك كقول المسلم : يا الله ، يا أرحم الراحمين ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم . امثالاً لقول الله تعالى ، وطاعة له في قوله :

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(١)

أما سؤاله تعالى بجاء فلان فإنه سؤال مبتدع لم يعرفه سلف هذه الأمة ، ولا صدرها الصالح . وما كان من جنس البدع والأمور المحدثه فإنه لا يكون وسيلة تعطى بها الرغائب ، وتقضى بها الحاجات .

٦ - سؤال الله تعالى بحق فلان :

كما ليس من التوسل المشروع بل هو من الممنوع : سؤال الله تعالى بحق فلان ، أو فلان ، إذ هذا التوسل لم يرد في الكتاب الذي قال تعالى فيه

﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٢)

ولم يرد في سنة النبي صلى الله عليه وسلم الصحيحة التي قال أبو هريرة فيها « عَلِمْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الْخَرَاءَةِ »^(٣) فهو إذاً من التوسلات المحدثه الباطلة التي نهى عنها سلف هذه الأمة ، وكرهوها للمسلمين فقد نقل عن أبي حنيفة أو أحد تلامذته رحمهم الله تعالى الإنكار الشديد على من سأل الله تعالى بحق فلان ، إذ لا حق لأحد على الله تعالى فيسأل به ، وإنما الله ذو فضل فيسأل من فضله كما قال تعالى :

(١) سورة الأعراف الآية (١٨٠) .

(٢) سورة الأنعام الآية (٣٨) .

(٣) روى مسلم رحمه الله عن سلمان قال : « قيل له : علمكم نبيكم صلى الله عليه وسلم كل شيء

حتى الخراءة قال فقال : أجل .. » (١/١٥٤) .

﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾^(١)

إنه بدل أن يسأل المسلم ربه بسؤال يدعي منهى عنه لا يعطى به فليسأله بسؤال شرعي مأذون فيه ؛ يستجاب له به ، ويعطى مسأله ، وهو أن يقول : « اللهم إني أسألك بإيماني بك أو بنبيك ، أو بكتابك أو بمحبتتي لك أو لفلان نبيك أو عبدك أن تقضي حاجتي ، أو تفرج كربتي ، أو تخلصني من محنتي ... » أو يقول « اللهم أسألك وأتوجه إليك بمحبتتي ، واتباعي لنبيك نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أن تكشف ضرتي . أو تقضي حاجتي أو تعطيني كذا أو كذا » فإن هذا من التوسل المشروع الذي يعطى به الداعي ويستجاب له إذا توسل به ، وكان أهلاً للإجابة بإيمانه وإسلامه . وهو مغن للمؤمن عن التوسل بما لم يشرع في كتاب ولا سنة .

(١) سورة النساء الآية (٣٢) .

(تنبيه هام)

يحسن بنا هنا أن ننبه إلى ثلاث شبه قد تعرض للمسلم عند الكلام على التوسل والوسيلة وهي :

١ - حديث الضرير ، ونصه كما رواه الترمذي وأحمد وغيرهما بسند لا بأس به :

« أَنَّ رَجُلًا ضَرِيرُ الْبَصَرِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : اذْعُ اللَّهُ أَنْ يُعَافِيَنِي . قَالَ : إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ لَكَ ، وَإِنْ شِئْتَ صَبَرْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ ، فَقَالَ أَدْعُهُ . فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ فَيُحْسِنَ الْوُضُوءَ فَيُصَلِّيَ رَكَعَتَيْنِ وَيَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ، يَا مُحِبُّدُ إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ فَتَقْضِ لِي . اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ . قَالَ فَقَعَلَ الرَّجُلُ قَبْرًا^(١) ، ووجه الشبهة في الحديث : أن يقول المرء : مادام الضرير قد علمه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول اللهم إني أسألك ، وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة . الخ فلم لا أفعل أنا مثله لقضاء حوائجي ؟

والجواب . أن نقول إن هذا التوسل مركب من عدة أمور ولا يتم إلا بها ، وبعض هذه الأمور قد تعذر الحصول عليه بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ألا وهو دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لأحدنا

(١) أحمد (١٣٨/٤) وغيره .

اليوم ، وشفاعته لنا عند الله تعالى في قضاء حاجتنا ، وذلك لوفاته صلى الله عليه وسلم ، والتحاقه بالرفيق الأعلى . فلو قام أحدنا اليوم يقول : يا رسول الله ادع الله لي أن يقضي حاجتي . لكان قوله باطلاً وضلالاً . ولا معنى له ، إذ الرسول صلى الله عليه وسلم لا يسمعه ولا يراه . ولا يدعو الله تعالى له أبداً ، ولو قال أحدنا اليوم : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك ... إلخ لكان كاذباً في قوله ، لأنه لم يقدم بين يدي دعائه الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو له ، حتى يقول لله تعالى اللهم إني أتوجه إليك بنبيك اللهم شفعه فيّ ، إنما يقول هذا من قام الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الله تعالى له كما دعا للمضير .

ومن هناك لم يبق هذا التوسل بتلك الكيفية جائزاً ولا نافعاً لفقد أعظم أركانه وأهم عناصره وهو دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم للمتوسل . وعلى فرض أن مؤمناً قام فتوسل به ، وبراً من مرضه ، أو قُضيت له حاجته ، فإن ذلك لا يدل على جوازه ومشروعيته ، إذ حاجته قد قضيت بقضاء وقدر . كما قد يحصل لبعض الناس أن يدعو ميتاً ، ويتشفع به فتقضى حاجته ، ويقول سيدي فلان قضى حاجتي ، والحقيقة أن وسيلته شرك محرم ، وما قضى له من حاجة إنما وافق فيه القدر فقط ، لا أن السيد دعا له وأن الله تعالى قد استجاب له .

هذا ولا بأس أن يفعل المسلم ما يمكنه فعله من هذه الوسيلة ويتوسل به إلى الله تعالى وهو أن يتوضأ فيحسن الوضوء ، ويصلي ركعتين ، ويقول اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بإيماني وحبِّي لنبيك نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم أن تقضي حاجتي ، ويسمي حاجته . فإنه يرجى أن يستجيب الله تعالى له ، ويقضي حاجته .

ومن باب التحدث بنعمة الله تعالى أقول ! إنه صادف يوم تبيض هذه الرسالة ووصلني فيها إلى هذا الموضوع من مواضعها : أن كنت

بالدار البيضاء من المغرب وفي آخر رمضان ورغبت في عمرة فيه ،
وحاولت أن أحجز مقعداً بالطائرة فقليل لي إنه غير ممكن . وإذا تأخرت
عن هذه الرحلة ينتهي رمضان ولم أعتزم فيه كما كنت أعتزم وآمل ،
فتوضأت وصليت ركعتين وقلت اللهم إني أسألك وأتوجه إليك يا إيمانني
بنبيك نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وحبي له ، أن تيسر
لي أمر سفري على الطائرة الفلانية يوم كذا لأعتزم عمرة مبرورة في
رمضان هذا .

وعدت إلى مكتب الشركة فوالله ما رمت مكاني حتى قضيت
حاجتي ، وتم حجزي والحمد لله رب العالمين ، ونفعني الله تعالى
بهذه الوسيلة المشروعة .

٢ - حديث استسقاء عمر بن العباس رضي الله عنهما ، ونصه كما
في البخاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى
بالعباس بن عبد المطلب فقال : اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا
فَتَسْقِينَا ، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمْرِ نَبِينَا فَاسْقِنَا ، قَالَ : فَيُسْقَوْنَ ،^(١)

ووجه الشبهة في هذا الحديث . أن يقال : مادام عمر رضي الله
عنه قد قال « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنينا فتسقيننا » وهو إقرار من عمر
بأنهم كانوا يتوسلون بالنبي صلى الله عليه وسلم .

فلم لا نتوسل نحن اليوم بالنبي صلى الله عليه وسلم .

والجواب عن هذه الشبهة : أن نقول إن توسلهم رضوان الله
عليهم بالنبي صلى الله عليه وسلم كان بطلبهم منه أن يدعو الله تعالى
لهم بالغيث فيدعو فيستجيب الله دعوته ويسقيهم كما قد حصل مراراً .
لا أنهم كانوا يتوسلون إلى الله تعالى بذات النبي ، أو بجاهه صلى الله

(١) البخاري (٢ / ٣٢ ، ٣٣) .

عليه وسلم فيقولون : اللهم إنا نتوسل إليك بنبيك ، أو بجاه نبيك ، والنبى غائب عنهم ولم يدع الله تعالى لهم ، إذ لو كان الأمر هكذا لما توسل عمر بالعباس رضي الله عنهما . وإنما كان يقول : اللهم إنا نتوسل إليك بنبيك ، أو بجاه نبيك فاسقنا ، لم يقل عمر هذا لأنه يعلم أن التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم كان بدعائه عليه الصلاة والسلام لهم ، ولما توفي صلى الله عليه وسلم لم يبق ليدعو لهم ، توسلوا بالعباس ليدعو الله تعالى لهم فكان يدعو ، ويستجيب الله له فيسقون .

ومن هنا كان من الجائز المشروع أن يقدم المسلمون مؤمناً صالحاً يدعو لهم عند الحاجات ، ولكن من غير الجائز أن يقدموا ميتاً أو غائباً لربهم ويقولوا : اللهم إنا نتوسل إليك بفلان أو بجاه فلان . لأن هذا كذب وباطل ، مادام الذي قدموه وسيلة لربهم غائباً أو ميتاً ، لأن الغائب أو الميت لا يعرف عن حالهم ، ولا يسمع طلبهم منه الدعاء ، ولا هو يدعو لهم ، وإذا لم يدع لهم فبم تكون الاستجابة؟؟؟

٣- ما ورد من لفظ : «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ»^(١) .

ووجه الشبهة أن يقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إني أسألك بحق السائلين عليك» فلم لا نتوسل نحن بمثل ذلك ، ونقول اللهم إنا نسألك بحق فلان أو فلان؟؟

والجواب : أن نقول : إن الحديث الذي ورد فيه هذا اللفظ حديث ضعيف ، والضعيف لا تؤخذ منه الأحكام فضلاً عن مسألة تتعلق بالعقيدة كهذه . مع أن هذا اللفظ لو صح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ما دل على سؤال الله تعالى بحق فلان أو فلان ، لأن معنى

(١) رواه أحمد (٣/ ٢١) وابن ماجه (مسجد / ١٤) .

بحق السائلين عليك : اللهم استجب لي كما تستجيب للداعين ، لأنك قلت ادعوني استجب لكم ، وذلك لأنه مادام تعالى قد أمر عباده بدعائه ، وواعدهم بالاستجابة فقال عز وجل من سورة المؤمن ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١)

أصبح لكل داع حق أن يطلب ربه بما وعده به لينجزه له ، فمن هنا لما دعا الرسول صلى الله عليه وسلم عند خروجه من بيته للصلاة قال مستنجزاً ربه وعده .

« اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا » . فهو قد سأل ربه بصفة من صفاته تعالى الفعلية وهي الإجابة للداعين والمثوبة للعاملين بطاعته ، الماشين إلى بيوته لأداء عبادته .

قلنا هذا من باب التنزل والفرض ، وإلا فما دام الحديث ضعيفاً فإنه لا يلتفت إليه ، ولا إلى من يحتج به ، شأنه شأن حديث قول آدم في الجنة لما اقترف الخطيئة : يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي ... الخ .

وحديث فاطمة بنت أسد أم علي رضي الله عنهما ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال بعد أن اضطجع في قبرها . « الله الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ، ولقنها حجتها ، ووسع مدخلها بحق نبيك ، والأنبياء الذين قبلي فإنك أرحم الراحمين » . فإن هذه الأحاديث قد حكى أهل الحديث بضعفها وبطلانها فلا يلتفت إليها ، ولا يعول عليها أو يحتج بها . وفيما صح عن نبينا صلى الله عليه وسلم من التوسلات المشروعة كفاية . فلنأخذ ما صفا ، ولنترك ما كدر .

(١) الآية (٦٠)

الاستشفاع

وإن مما اشتبه أمره على كثير من المسلمين حتى وقع من وقع منهم في أمور عظيمة من الباطل : معنى الاستشفاع والتشفع والشفاعة . فترى أحدهم يدعو غير الله تعالى ، ويستغيث بغيره عز وجل ، ولا يحسب هذا دعاء لغير الله ، ولا يعدّه شركاً في عبادته سبحانه وتعالى . وإذا قيل له في ذلك ، وأنكر عليه قال : هذا ليس بدعاء لغير الله ولا شرك في عبادته ، وإنما هو استشفاع وتشفع فقط .

ومن هنا رأينا بحث هذه المسألة ، وبيان الحق فيها تعليماً وتحذيراً .

معنى الاستشفاع :

الاستشفاع والتشفع والشفاعة هذه الكلمات الثلاث مذكولها واحد ، ومعناها لا يختلف وهو : أن يطلب إنسان من آخر التوسط له عند ذي مُلك أو سلطان ليقضي له حاجته في إعطائه ما هو في حاجة إليه ، أو في التجاوز عنه في ذنب قارفه ، أو جريمة ارتكبها ، والكلمات الثلاث مشتقة من لفظ الشفع الذي هو خلاف الوتر - الفرد - وبيان ذلك أن صاحب الحاجة كان واحداً فضم إليه الواسطة . وهو من استشفع به ، وطلب شفاعته فكان معه شفعاً أي اثنين بعد أن كان فرداً . من هذا المعنى أخذت كلمات الاستشفاع والتشفع والشفاعة .

حكم الاستشفاع

لا بأس باستشفاع أحد بآخر عند ذي منصب أو مال ، أو سلطان
ليشفع له عنده برفع حاجته إليه حيث عجز هو عن رفعها إليه ، لخموله
أو قصوره وذلك لقول الله تعالى من سورة النساء
﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً
سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا^(١) وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا^(٢)﴾ (٣)

ويؤجر الشافع على شفاعته ، ولو لم تقض حاجة من شفّع له ،
وذلك لقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي موسى :
«إِشْفَعُوا تُؤْجَرُوا ، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ^(٤) مَا شَاءَ» (٥)

وجواز الاستشفاع مشروط بأن يكون في حق ضاع ، أو حق
يخشى ضياعه ، أو في شيء مباح ينتفع به . أما أن يكون في إثم
بإسقاط حق من الحقوق ، أو تعطيل حد من الحدود فلا ، وذلك لقول
تعالى :

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ^(٦)﴾ (٧)

ولقول الرسول ﷺ : «إِذَا بَلَغَ الْحُدُ السُّلْطَانُ فَلَعَنَ اللَّهُ الشَّافِعَ
وَالْمَشْفَعَ» (٨) .

(١) الكفل هنا الوزر المترتب على الشفاعة السيئة .

(٢) حفيظاً شاهداً أو حياً قديراً .

(٣) الآية (٨٥) .

(٤) رواه الشيخان اللؤلؤ والمرجان (٣/ ٢٠٢ ، ٢٠٣) والبخاري (٢/ ١٣٤) ، ومسلم (٨/

٣٧) .

(٥) سورة المائدة الآية ٢ .

(٦) التغليظ في الشفاعة في الحدود ثابت في البخاري (٨/ ١٩٩) والحديث المذكور ذكره مالك =

قياس خاطيء :

وجهل كثير من المسلمين ربهم عز وجل فلم يعرفوه ، فقاموا
سبحانه وتعالى على بعض عبادهم فاستشفعوا عنده بالأولياء والصالحين من
أموات المسلمين ، وطلبوا منهم الشفاعة لديه سبحانه وتعالى ، فكانوا
يقولون يا سيدي فلاناً اشفع لي عند ربي في قضاء كذا وكذا
ويا مولاي فلاناً توسلت بك إلى ربي ، فادع الله لي يفعل بي كذا
وكذا . ولما ينكر عليهم ذلك يقولون إن الذي لا يستطيع أن يدخل على
السلطان يطلب له واسطة؟؟

فجمعوا بذلك بين عظيمتين : الأولى دعاء غير الله تعالى وهو
شرك أكبر ، والثانية : قياس الخالق على المخلوق ، وتشبيهه به حيث
طلبوا له واسطة كما تُطلب للمخلوق من ذوي السلطان ، وجهلوا أن
المخلوق قد يخفى عليه أمر الإنسان فيحتاج إلى من يعلمه به ، وينبئه
إليه ، بخلاف الرب تبارك وتعالى فإنه عليم بأحوال عبادهم ، لا يخفى
عليه من أمرهم شيء ، فما هو في حاجة إلى من يعلمه بأحوال عبادهم ،
أو ينبئه إليهم ، وإذا كان المخلوق قد يعجز عن رفع حاجته إلى من
يقضيها له من سلطان وغيره فيضطر إلى البحث عن واسطة يشفع له
يرفع حاجته إلى من يقضيها له ، فإن الأمر بالنسبة إلى الله تعالى
يختلف تمام الاختلاف ، إذ العبد مع الله تعالى يمكنه أن يرفع إليه
حاجته مباشرة وبدون واسطة ، لعلمه تعالى بأحوال عبادهم وقربه منهم
بخلاف المخلوقين فإنهم لجهلهم بأحوال الناس ، وعجزهم عن كفايتهم
يحتاج طالب الحاجة منهم إلى واسطة ترفع حاجته إليهم ، ليعلموها ،
وتؤثر عليهم ليقضوها ، وهذا المعنى متف مع الله تعالى تماماً . ومن

= عن ابن الزبير موقوفاً بلفظه : إذا بلغت الحدود السلطان فلن الله الشافع والمشفع ، الموطأ
(٤٩ / ٥٠) وهذا في حكم المرفوع لأن مثله لا يقال بالرأي .

هنا قبح بالعبد أن يستشفع على ربه بأحد من خلقه . وحسن به أن يسأل ربه مباشرة وبغير واسطة ، وكيف ورّبه تعالى يقول :

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ^(١)

ويقول :

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ^(٢)

وإن قيل كيف جاز لنا إذا أن يقول بعضنا لبعض : يا فلان ادع الله تعالى لي بكذا ؟ أليس هذا هو عين ما نفيتموه من مسألة الاستشفاع بالأولياء ؟ .

قلنا : إن هذا ليس من ذاك أبداً ، وذلك لأمرين : أولهما : أن هذا قد أذن لنا الشارع فيه ، إذ ثبت بما لا مجال للشك فيه أن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا يطلبون منه صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله تعالى لهم . كما ثبت أن الرسول نفسه قد طلب مرة من عمر وهو ذاهب إلى العمرة أن يدعو الله تعالى له فقال : « لَا تَسْأَلُنِي يَا أَخِي مِنْ دُعَائِكَ » ^(٣) ، وبه أصبح المسلمون لا يترددون في أن يطلب أحدهم من أخيه أن يدعو الله تعالى له بخير . وكيف وقد أرشدنا إلى ذلك القرآن في قوله :

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ ^(٤)

(١) سورة البقرة الآية (١٨٦) .

(٢) سورة غافر الآية (٦٠) .

(٣) رواه أبو داود (١ / ٣٤٤) والترمذي (دعوات / ١٠٩)

(٤) سورة الحشر الآية (١٠) .

إذ في القرآن دعاء المؤمنين بعضهم لبعض . وثانيهما : طلبنا الدعاء من عبد صالح حيّ يسمعنا ويرانا ، ويقدر على أن يدعو الله تعالى لنا هو كطلبنا منه أن يتناولنا شيئاً ، أو يعطينا آخر ، بأن يقدم لنا طعاماً أو شراباً ، أو يعطينا مالاً أو متاعاً ، أو يعيننا على ما يشق فعله علينا ، أفليس هذا جائزاً ؟ بلى وقطعاً ، وبدون شك . وإذا فأي مانع من أن نقول لمؤمن صالح حي يصوم ، ويصلي ويسمعنا ويرانا ، ويقدر على أن يدعو الله لنا ، أي مانع أن تقول له : ادع الله تعالى لنا يا فلان بكذا أو اسأل الله تعالى لنا كذا أو كذا . . رجاء أن يستجيب الله تعالى له فينا فتقضى حوائجنا ، أو نحصل على خير من خيري الدنيا أو الآخرة .

وهذا بخلاف الاستشفاع بأموال المسلمين من أولياء وصالحين ، إذ هم أموات ، والميت غير مكلف بعبادة ولا دعاء ولا يسمع من يناديه ، ولا يعرف من يستشفع به ، فنداؤه وطلب الدعاء منه ، والاستشفاع به ضلال عقلي وخطأ فكري ، وفساد ديني ، يبرأ منه الإسلام وأهله ، وهذه أقل أحواله وإلا فهو شرك في عبادة الله ، وفاعله من المشركين بالله . والعياذ به تعالى من الشرك والمشركين .

الشفاعة في الآخرة

ما تقدم من أحكام الشفاعة ، والاستشفاع إنما كان في الشفاعة ، والاستشفاع للذين يتمن في هذه الحياة الدنيا . أما الشفاعة في الدار الآخرة فإنها تختلف - عنها في الدنيا اختلافاً كبيراً وذلك لأن الأمر يومئذ كله لله ، وليس لأحد غير الله تعالى منه شيء كما قال تعالى :

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۚ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۚ ﴾ (١٧) ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ۚ ﴾ (١٨)

وقد تكون يوم القيامة شفاعات كثيرة غير أنها تجري على خلاف ما تكون عليه اليوم في الدنيا وهذا بيّنها :

إن الشفاعة تنقسم يوم القيامة الى قسمين : شفاعة منفية تماماً لا حقيقة لها ، ولا واقع ، ولا وجود ، وشفاعة ثابتة واقعة لها حقيقة وجود .

وللشفاعة المنفية صور منها : -

١ - شفاعة الآلهة التي عُبِدَت من دون الله أو معه فهذه شفاعة لا وجود لها البتة ، وسواء كان المعبود المرجو الشفاعة ملكاً ، أو نبياً ، أو صالحاً ، أو دون ذلك من الجن أو الشياطين ، أو الحيوانات والجمادات ، وذلك لقول الله تعالى :

(١) سورة الانفطار الآية (١٧ - ١٩) .

﴿أَمْ أَلْهَيْتُمُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿١﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾^(١)

ولأن من عبد غير الله تعالى شرك كافر ، ولا شفاعاة لكافر لقول

الله تعالى

﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾^(٢)

وقوله :

﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾^(٣)

وهذه قطعاً نفس الكافرين والمشركين .

٢ - الشفاعاة بدون إذن الله تعالى للشافع ، أو عدم رضاه عن

المشفوع له وذلك لقوله تعالى :

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(٤)

وقوله :

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾^(٥)

وقوله :

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾^(٦)

(٢) سورة المدثر الآية (٤٨) .

(٤) سورة البقرة الآية (٢٥٥) .

(٦) سورة النجم الآية (٢٦) .

(١) سورة الزمر الأيتان (٤٣ ، ٤٤) .

(٣) سورة البقرة الآية (٤٨) .

(٥) سورة الأنبياء الآية (٢٨) .

والشفاعة المثبتة قسماً .

القسم الأول : شفاعات النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

والقسم الثاني : شفاعات غيره من الأنبياء ، والأولياء ،
والصالحين من عباد الله تعالى ، فأما شفاعاته صلى الله عليه وسلم فهي
كثيرة منها : الشفاعة العظمى ، وهي الشفاعة في فصل القضاء ، وهي
المقام المحمود الذي ذكر له في القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَجَدَ لَهُ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا
مَّحْمُودًا﴾^(١)

وورد بيان كيفية هذه الشفاعة في الصحيحين فروى البخاري
ومسلم واللفظ لمسلم عن أبي هريرة قوله : أتى رسول الله ﷺ يوماً
بلحم فرفع إليه الذراع ، وكانت تعجبه فنهس منها نَهْسة^(٢) فقال : أنا
سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون بما ذلك ؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين
والآخرين في صعيد واحد ، فيسمعهم الداعي ، وينفذ فيهم البصر ، وتدنو
الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ، ولا يحتملون ، فيقول
بعض الناس لبعض : ألا ترون ما أنتم فيه ؟ ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تنظرون من
يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : اتوا آدم ، فيأتون آدم ،
فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر
الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما
قد بلغنا ؟ فيقول آدم : إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن
يفضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته ، نفسي ، نفسي اذهبوا إلى
غيري اذهبوا إلى نوح .

(١) سورة الإسراء الآية (٧٩) .

(٢) نهس أي أكل منها بمقدم أسنانه .

فيأتون نوحاً عليه السلام ، فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض ، وسماك الله عبداً شكوراً ، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى مانحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لي دعوة فدعوت بها على قومي ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى إبراهيم عليه السلام .

فيأتون إبراهيم ، فيقولون : أنت نبي الله تعالى ، وخليه من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى مانحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم إبراهيم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وذكر كذباته ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى موسى . . فيأتون موسى عليه السلام فيقولون يا موسى أنت رسول الله ، فضلك الله تعالى برسالاته ، ويتكليمه على الناس اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى مانحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم موسى : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنني قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى عيسى . . فيأتون عيسى عليه السلام فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله ، وكلمت الناس في المهد ، وكلمة منه ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، فاشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى مانحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم عيسى : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر له ذنباً ، نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى محمد ﷺ .

فيأتونني ، فيقولون : يا محمد أنت رسول الله ، وخاتم الأنبياء ، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك ، وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى مانحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي ثم يفتح الله تعالى

عليّ ، ويلهمني من محامده . وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتح له لأحد قبلي ، ثم قال : يا محمد ارفع رأسك ، سلّ تعطّ ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول : يا رب أمتي أمتي ، فيقال : يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما « بين مكة وهجر أو كذا بين مكة وبُصرى »^(١).

ومن شفاعاته ﷺ : شفاعته في أناس من أمة فيدخلون الجنة بغير حساب ، وقد تقدّم دليلها آنفاً في حديث الشفاعة العظمى حيث قال له الرب تعالى : « أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن » ومنها : شفاعته ﷺ في أناس من أمة استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع لهم فلا يدخلوا النار ، ومنها : شفاعته ﷺ فيمن دخل النار من أمة فيخرج منها بشفاعته ﷺ لحديث الصحيحين واللفظ لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وإنني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة . فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً »^(٢).

والقسم الثاني من الشفاعة المثبتة : شفاعة الملائكة ، والأنبياء ، والعلماء ، والشهداء : فشفاعة الملائكة ثابتة بقوله تعالى :

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمٰوٰتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا اِلَّا مِّنْۢ بَعْدِ اَنۡ يَّأْذَنَ اللّٰهُ لِمَنۡ يَّشَآءُ وَرِضًى ۝۳ ﴾

(١) اللؤلؤ والمرجان (١/ ٤٩ - ٥١) ، البخاري (٦/ ١٠٥ - ١٠٧) ، ومسلم (١/ ١٢٧ - ١٢٩) .

(٢) اللؤلؤ والمرجان (١/ ٥١) ، ، البخاري (٩/ ١٧٠) ، ومسلم (١/ ١٣١) .

(٣) سورة النجم الآية (٢٦) .

ويقوله تعالى :

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾^(١)

وأما شفاعة الأنبياء ، والعلماء ، والشهداء فهي ثابتة بعموم القرآن ،
وخصوص السنة ، ففي القرآن الكريم يقول تعالى :
﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾^(٢).

ويقول وقوله الحق :

﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾^(٣)

ويقول : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(٤)
فهذه الآيات دالة على وجود شفعاء بمنطوقها ومفهومها .

وفي السنة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه ابن
ماجه والبيهقي والبخاري : « يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم
الشهداء » ، واستانده حسن^(٥) .

وقوله صلى الله عليه وسلم « يَشْفَعُ الشَّهِيدُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ
بَيْتِهِ » رواه أبو داود (١٧/٢) وصح أن القرآن الكريم يشفع لأهله
كذلك^(٦).

(١) سورة الأنبياء الآية (٢٨) .

(٢) سورة المدثر الآية (٤٨) .

(٣) سورة مريم الآية (٨٧) .

(٤) سورة البقرة الآية (٢٥٥) .

(٥) ابن ماجه (زهد / ٣٧) .

(٦) لما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي امامة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول : اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة نفيعا لأصحابه . . . الحديث - متن
مسلم (١٧ / ٢) .

وآخر القول في هذا أن كل ما تقدم من الشفاعات الثابتة للأنبياء والعلماء ، والشهداء هو مقيد بثلاثة قيود. فلا تتم الشفاعة لعبد من عباد الله تعالى إلا بعد توفرها له ، وتلك القيود هي : -

١ - أن لا يشفع أحد إلا بعد إذن الرب تبارك وتعالى له . وذلك لقوله تعالى ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ؟ والاستفهام هنا للنفي أي لا أحد يشفع إلا بإذنه تعالى .

٢ - أن لا يشفع أحد في آخر إلا إذا كان الله تعالى قد رضي عن المشفوع فيه بارتضائه قوله وعمله . وذلك لقوله عز وجل ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ ^(١)

فانه صريح في نفي الشفاعة عن أحد لم يرتضه تعالى لذلك .

٣ - أن لا يشفع أحد فيمن مات على الشرك والكفر ، وذلك لحكم الله تعالى بخلود الكافرين والمشركين في النار بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ ^(٢)

ولهذا وجب أن ينقطع طمع العبد في غير الله تعالى : فلا يطلب الشفاعة من أحد ، ولا يسألها من غير الله عز وجل ، إذ الشفاعات كلها لله تعالى وليس لأحد سواه منها شيء ، قال تعالى

﴿ قُلِ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ﴾ ^(٣)

وقال :

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ^(٤)

(١) سورة الأنبياء الآية (٢٨) .

(٣) سورة الزمر الآية (٤٤) .

(٢) سورة البينة الآية (٦) .

(٤) سورة البقرة الآية (٢٥٥) .

ومن أراد شفاعة النبي ﷺ فليسألها من الله تعالى ، وليقل : اللهم شفّع في نبيك ، أو اللهم ارزقني شفاعة نبيك ، أو يا رب اجعلني ممن تُشفّع فيهم نبيك ، وليتبع سؤاله الشفاعة من الله تعالى بالعمل الموجب لها ، والمقتضي تحقيقها ، وهو يتلخص في ثلاثة أمور :

١ - الإخلاص لله تعالى في العبادة ، ونفي الشرك عنه تعالى في ربوبيته وأسمائه ، وصفاته ، وفي عبادته ، لحديث الصحيح : « مَنْ أَسْعَدَ النَّاسَ بِشَفَاعَتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصاً مِنْ قَلْبِهِ أَوْ مِنْ نَفْسِهِ » (١)

٢ - كثرة الصلاة ، لما صح عنه صلى الله عليه وسلم « أَنَّهُ سَأَلَهُ أَحَدُ أَصْحَابِهِ مُرَافَقَتِهِ فِي الْجَنَّةِ فَقَالَ لَهُ : فَأَعْنِي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ » (٢) .

٣ - الصلاة على النبي ﷺ . وسؤال الوسيلة له ، وذلك لحديث مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ . فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ ، لَا تَبْغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ . فَمَنْ سَأَلَ اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ » (٣)

(١) البخاري (١٦ / ٣٥) .

(٢) مسلم (٥٢ / ٢) .

(٣) مسلم (٤ / ٢) .

التبرك

إن التبرك مثل التوسل والتشفع كلها شيء فهمها ، وجَهِل الناس بحقيقتها أوقع الكثير من المسلمين في أخطاء كبيرة أضرت بالمعتقد الإسلامي ، وأساء إلى الحياة الإسلامية أيما إساءة .

فباسم التبرك ، وتحت شعاره عُبدت الأشجار والأحجار ، وانتهكت الحرمات ، وضيعت الفرائض ، وأسقطت الواجبات . كما أنه باسم التوسل والاستشفاع ذبح لغير الله تعالى ، واستغثت بغيره عز وجل .

وبالجملة فإن ما وقع من الشرك في هذه الأمة أيام جهلها بكتاب ربها ، وسنة نبيها ، وبعدها عنهما إنما كان في الغالب عن طريق التوسل ، والتشفع ، والتبرك . ولهذا رأينا أنه مما ينبغي أن يبحث في هذا المعتقد ، ليكون المسلم فيه على علم كامل ، وبينه تامة ، هذه الثلاثة : التوسل والاستشفاع والتبرك ، وقد بحثنا الأول والثاني ، وها نحن نبحث الأخير إن شاء الله تعالى فنقول :

التبرك

التبرك مصدر تبرك بالشيء يتبرك به تبركاً إذا تيمن به ، والتيمن بالشيء هو طلب التيمن ، وهو البركة . والبركة هي النماء في الخير والزيادة فيه . ويطلق لفظ البركة على كل كثرة في الخير . واشتقاقها من برك البعير ، وهو استناخته في موضع ، ولزومه فيه . فالخير الدائم الثابت في الشيء ، والنامي فيه هو البركة .

والبركة في عرف الدين : ما يجعله الله تعالى من الخير في الشيء الذي يباركه . فقد أخبر تعالى أنه بارك في أرض الشام أي جعلها مباركة^(١) وأخبر أنه جعل كتابه مباركاً^(٢) ، والمعنى كثير خيرهما دائم لهما ، ثابت فيهما ، وأخبر عيسى عليه السلام عند تكلمه في المهد أن الله تعالى جعله مباركاً أينما كان . فقال :

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَيْتَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَيْنِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾^(٣)

ومن الأدعية الماثورة : « وبارك لي فيما أعطيتني » وعلى هذا فطلب البركة والتماسها أمر مستحسن شرعاً ، لأنه من طلب الخير والتماسه .
ومن ذا يرغب عن طلب الخير أو يكون له غنى عن بركة الله ؟
ولكن بم يكون التبرك ، وكيف يكون ؟

أما بما يكون التبرك ؟

فإن التبرك يكون بما علم شرعاً أن فيه بركة ، وأذن الشارع في طلبها منه . والتماسها فيه ، وذلك كبيت الله الحرام ، وزمزم الذي قال فيه الرسول ﷺ « مَا زَمَزُمُ طَعَامُ طَعْمٍ ، وَشِفَاءُ سُقْمٍ »^(٤)
وكالمساجد الثلاثة التي لا يُشد الرحال إلا لها ، وككل المساجد التي

(١) في قوله تعالى ﴿ وَنَجِّنَاهُ وَلَوْطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ سورة الأنبياء الآية (٧١) .

(٢) في قوله تعالى : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ... » سورة ص الآية (٢٩) .

(٣) سورة مريم الآيات (٣١ ، ٣٢) .

(٤) روى مسلم « إنها مباركة إنها طعام طعم » في حديث فضائل أبي ذر (٧ / ١٥٢ - ١٥٤) .
والزيادة (شفاء سقم) لغيره .

بنيت باسم الله ، وتقام فيها عبادة الله من صلاة وغيزها ، وكالأراضي المقدسة من الحجاز والشام ، وكمجالس العلم والذكر ، وقراءة القرآن ، ومجالسة الصالحين ، ومرافقتهم في أسفارهم ، وطلب دعائهم .

وأما كيف يكون التبرك !

فإنه يكون إن كان بيت الله تعالى فبزيارته للحج والعمرة ، وبالطواف به واستلام ركنيه ، والدعاء عنده ، والجلوس حوله ، وإن كان بزمزم فبالشرب منه ، والدعاء عند ذلك ، وإن كان بالمساجد الثلاثة فبالسفر إليها للصلاة فيها ، والاعتكاف بها ، وإن كان بسائر المساجد فبالصلاة فيها ، والعبادة بها من ذكر وتسييح ، وقراءة قرآن ، وطلب علم ، وإن كان بالأراضي المقدسة فبالإقامة بها على حسن سيرة ، وكمال أدب ، والحياة فيها ، والموت بها والدفن فيها ، وإن كان بمجالسة الصالحين من أهل العلم ، والإيمان ، والتقوى فبأخذ العلم عنهم ، وسماع نصائحهم ، والعمل بإرشادهم .
وتوجيهاتهم ، والرغبة في الحصول على دعائهم .

هذا - وبعد أن بنا ما يشرع التبرك به ، وكيف يتم التبرك به وجب أن نبين إتماماً للبحث حقائق هامة لا بد من بيانها في هذا البحث وهي :

١ - أن التبرك لم يعد كونه مشروعاً ، وأقصى درجات حكمه أن يكون مستحباً لا غير .

٢ - إن كان التبرك وهو طلب بركة ما قد يؤدي إلى فعل مكروه ، أو ارتكاب محرم فإنه يجب تركه ، ويتعين عدم فعله ، لأن درء المفسد مقدم على جلب المنافع ، ويشهد لهذا فعل عمر رضي الله عنه ، وهو أحد الخلفاء الراشدين الموصى شرعاً باتباع سنتهم ، فإنه رضي الله عنه لما رأى رغبة الناس عند المرور بالحديبية في طريقهم إلى مكة في النزول تحت شجرة بيعة الرضوان للتبرك بها ، أمر بقطعها ، حسماً لمادة الفساد ، إذ لو تركت لعمدت كما عبد غيرها من أشجار كثيرة باسم التبرك ، وفي كل زمان ، ومكان من عهد

نوح إلى ساعتنا هذه .

٣ - إن ما يفعله جهال المسلمين اليوم من شد الرحال إلى زيارته قبر فلان وفلان ، أو ضريح فلان من سيد أو صالح ، وإقامة الحفلات حولها ، والنزول بساحتها ، والعكوف والإقامة الليلة والليلتين عندها باسم التبرك ، كل هذا باطل منهى عنه ، ولم يشرع فعله للمسلمين ، وإنما هو من محدثات الأمور وضلال الابتداع ، وقد أدى إلى الشرك والعباد بالله ، فكم تسمع من مستغيث بأصحاب تلك الأضرحة ، وكم ترى حولها من مستجير بها ، وداع ضارع لها ، وباك خاشع لها ، وكم تجد من قطعان البقر والغنم تساق إليها ، وتذبح قرباناً لها ، كل ذلك تحت شعار التبرك ، وعنوان التوسل والتشفع ، ألا فلا تبرك ، ولا توسل ، ولا تشفع إذا كان ذلك يؤدي إلى الشرك والكفر .

٤ - إن العبد الصالح الذي تقدم أنه يجوز التبرك بزيارته للانتفاع به ، وبارشاده ، وتوجيهه ، ونصائحه ، وبالتالي بدعائه ، هذا العبد الصالح ينبغي أن يكون من أهل العلم ، والإيمان ، والتقوى ، وإلا فلا تُشرع زيارته ، ولا التبرك به لعدم وجود البركة في غير أهل العلم ، والإيمان ، والتقوى .

٥ - إذا كان الرجل يدعي الولاية ، ويدعو الناس إلى الاعتراف له بها ، ويستغل ذلك لفائدته الشخصية من جلب منافع خاصة ، من جاه ، أو مال ، أو ما إلى ذلك من الحظوظ النفسية والدينية ، فإن مثل هذا الرجل دجال لا بركة عنده ، ولا خير فيه ، فلا تحل زيارته ، ولا مجالسته ، ولا احترامه فضلاً عن التبرك به ، وذلك لفقد موجبات البركة عنده وهي العلم ، والإيمان والتقوى .

الولاية والكرامة

إن مما له صلة وثيقة ببحث عقيدة المؤمن موضوع الولاية والكرامة . إذ الولاية ولايتان ، ولاية للرحمن ، وولاية للشيطان ، والكرامة منها ما هو كرامة بحق ؟ يكرم الله تعالى بها أوليائه من صالحى عباده ، ومنها ما هو فتنة واستدراج للعذاب والامتهان . وعدم التمييز بين كرامة المؤمن ، ومهانة الشيطان ، يوقع في أخطاء قد تؤدي بكثير من المؤمنين إلى اعتقاد المبطل ، والعمل به .

ومن هنا كان لا بد من بحث هذه المسألة وبيان وجه الحق والصواب فيها ، ليكون المؤمن على بصيرة كاملة في معتقده الذي هو قوام حياته الدينية بل هو رأس ماله الذي تتوقف عليه سعاداته في الدنيا والآخرة معاً .

ولنبداً بحث هذه المسألة بالسؤال التالي :

ما هي الولاية ؟ :

الولاية في عرف اللغة مصدر ولي الشيء يليه ولياً وولاية^(١) إذا دنا منه وقرب أو أقام به ، وملك أمره ، أو نصره وأجبه - ويصاغ من فعل ولي المفاعلة فيقال : والاه يواليه موالاة إذا صادقته وناصره فهو موال له ضد مُعاد له . كما يصاغ التولية فيقال : تولاه تولية إذا صار له ولياً . ومنه اشتق لفظ الولي الذي هو ضد العدو .

(١) قال في مختار الصحاح وليه يلزم : الكسر فيهما وهو شاذ .

هذا معنى الولاية في عرف اللغة ، وهو لا يختلف عنه كثيراً في الدين ،
إذ كلا المعنيين يدور على القرب والحب ، والنصرة ، والقيام بالأمر لصالح
الولي ، وضد الولاية العداوة ، وهي تدور على البعد ، والبغض ، وإرادة
الشر والهلاك للشخص المعادي ، على عكس الولاية . وبناء على هذا فولاية
الله تعالى للعبد : أن يهديه إلى الإيمان به ، وإلى معرفته ، وطاعته ومحبته ،
ونصرة دينه فيعمل العبد بذلك ، ويقرب به من ربه عز وجل حتى يحبه ، فإذا
أحبه قربه ، وتولى أموره ، ونصره ، وحفظه ، فكان بذلك وليه . كما قال
تعالى من سورة البقرة :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
أُولِيَآؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ ^(١)

ولاية العبد للرب تبارك وتعالى أن يؤمن به ، ويتقيه ، ويتقرب إليه
بطاعته ، ويوافقه في محابه . ومكارهه ، ويوالي من يوالي ، ويعادي من
يعادي وينصر دينه وأوليائه ، وبذلك يكون ولياً لله تعالى ، قال تعالى من سورة
يونس :

﴿ أَلَا إِنَّ أُولِيَآءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٧﴾ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٨﴾ هُمُ الْبَشَرُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ
لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ^(٢)

الحال الجامعة :

وتكون الحال الجامعة بين الله تعالى الولي الحميد ، وبين العبد

(١) الآية (٢٥٧) .

(٢) الآيات (٦٢ - ٦٤) .

المؤمن التقي هي الموافقة في الحب والبغض، والقرب^(١)، والمناصرة والموالاتة، والمعاداة.

ومن هذا يُستخلص أصل الولاية وشرطها، فأصلها الإيمان والتقوى، وشرطها الموافقة التامة في الحب والبغض، والموالاتة والمعاداة ومتابعة الرسول ﷺ في كل ما جاء به، ودعا إليه من أصول العقائد، والعبادات، والآداب، والأخلاق، متابعة يتجرد فيها العبد لله، ويخلص له فيها، إذ لا تتم محبة الله للعبد إلا بشرط المتابعة للرسول ﷺ، وذلك لقوله تعالى من سورة آل عمران

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢)

وهذا لأن المتابعة هي سبيل طهارة الروح، وزكاة النفس، ومن طهرت روحه وزكت نفسه بالإيمان والعمل الصالح، مع البعد عن الشرك، والمعاصي كان أهلاً لحب الله تعالى، وموالاته عز وجل.

(١) يشهد لهذا حديث الصحيحين القلمي « وإن تقرب إلي بشير تقربت إليه ذراعاً » الحديث اللؤلؤ والمرجان (٣ / ٢٢٣) والبخاري (٩ / ١٤٧ ، ١٤٨) ومسلم (٨ / ٦٧ ، ٦٨) .
(٢) الآية (٣١) .

الفرق بين الولايتين

إن هناك فرقاً بين ولاية الله تعالى للعبد ، وبين ولاية العبد لله عز وجل تجب ملاحظته ، وهو أن الله تعالى لا يوالي عن افتقار للعبد ، واحتياج إليه ، وإنما يوالي إكراماً للعبد ، وإنعاماً عليه ، لغناه تعالى عن كل ما سواه ، وافتقار كل ما عداه إليه تعالى ، وهذا من معاني اسمه (الصمد) وقد نفى الله تعالى في كتابه العزيز من سورة الإسراء ، نفى أن يكون له ولي من الدن ، فقال تعالى :

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْخَظْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الدُّنْيَا وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا ۝ ﴾^(١)

وأما العبد فإنه يوالي - إن وفقه الله تعالى - يوالي لفقره وحاجته إلى ربه ، إذ هو دائماً في حاجة إلى نصرة ربه ومعونته ، ومحبته ورضاه ، وادنائته منه ، وتقريبه إليه ، إذ لا يسعد العبد إلا في جوار مولاه ، ولا ينعم إلا إذا تقمده ربه برحمته وخلع عليه فضلاً منه رضوانه . فالمنة إذاً لله تعالى على موالاته لعبده وقبوله له ولياً ، وأما العبد فلا منة له بحال ، وليس له أن يُدِلَّ على الله تعالى . ولو أذاب نفسه في طاعة الله ، وأوقف كل حياته عليه ، وحتى لم يبق له هم ولا هوى سوى الله عز وجل .

هذا هو الفرق بين ولاية الرب تعالى للعبد ، وبين ولاية العبد للرب سبحانه وتعالى فليعلم فإنه مهم وجدير بالفهم والمعرفة .

(١) الآية (١١١) .

الولي

إننا بعد معرفتنا للولاية سيسهل علينا - إن شاء الله - معرفة الولي
إن لفظ الولي وجمعه أولياء يكون اسم فاعل بمعنى المتولي غيره ،
المولي له ، ويكون اسم مفعول بمعنى الذي يواليه غيره ويتولاه . فالله
تبارك وتعالى وهو الولي الحميد ، ولي عبده المؤمن بمعنى أنه هداة
للإيمان ، ووفقه للطاعة ، وأدناه منه ، وقربه إليه ، وأحبه ، ونصره فهو
مولاه ووليه .

قال تعالى :

﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾^(١)

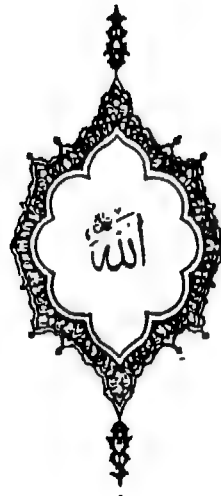
والمؤمن ولي الله تعالى بمعنى أن الله تعالى هداة وتولاه وبمعنى أن
المؤمن والى الله تعالى فآمن به . واتقاه وأحبه . وأطاعه . ووافقته في
محابه ومسخطه ، فوالى من يرأى . وعادى من يعادي . وأحب ما
أحب ومن أحب ، وكره ما كره ومن كره ، فكان بذلك عبده ووليه قال
تعالى في إثبات هذه الولاية وذكر كرامتها :

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ
آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَمْ يَشْرَوْا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ
لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٢)

(٢) سورة بونس الأيات ٦٢ - ٦٤

(١) سورة الأعراف الآية ١٩٦ -

وقد تقدم هذا المعنى واضحاً في بحث الولاية فازداد وضوحاً
وتقريباً ، وبالجمله فإن .ولي الله تعالى من عباده هو مؤمن أكرمه الله
تعالى بهدايته فأمن به واتقاه . وتقرب إليه بالصالحات ووافقه فيما يحب
وما يكره من الذوات والصفات ، ووالى من يوالى ، وعادى من يعادى ،
فوالاه الله تعالى لذلك . وتولاه ، وأكرمه بكرامات . فكان إذا دعاه
استجاب له . وإن استعاذه أعاده . وإن سأله أعطاه .



(الكرامة)

ما هي الكرامة :

الكرامة : الاسم من كَرَّمَ ، والجمع كرامات ، وهي ما يكرم
 الرب تبارك وتعالى به عباده من أنواع الإفضالات ، وهي عامة وخاصة .
 فالعامة هي ما كَرَّمَ الله به بني آدم ، وفضلهم به على غيرهم من هذه
 المخلوقات الأرضية ، ومن ذلك اعتدال القامة ، الخلق في أحسن
 تقويم ، والعقل ، والمنطق ، وتدبير المعاش وإصلاحه ، وتسخير الكون
 لهم ، والانتفاع به إلى غير ذلك من الإفضال والإنعام ، قال تعالى :
 ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ
 الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(١)

والخاصة وهي أفضلهما : ما يكرم الله تعالى به بعض عباده من
 هدايتهم إلى الإيمان ، وتوفيقهم إلى طاعته تعالى بفعل المأمورات ،
 وترك المنهيات ، فهذه الاستقامة على الإيمان والطاعة من أعظم
 الكرامات ، وأهلها هم أصحاب اليمين المذكورون في قول الله تعالى :
 ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾^(٢)

(١) سورة الإسراء الآية (٧٠) . .

(٢) سورة الواقعة الآية (٢٧) .

وفي قوله :

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلِّمْ لَهُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾^(١)

وهم المقصدون المذكورون في قوله تعالى :

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ

وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾^(٢)

وهم المبشرون بالجنة في قوله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٣)

وأخصر من هذه الكرامة كرامة الإيمان والاستقامة ، ما يكرم الله تعالى به بعض عباده زيادة على الإيمان والتقوى ، من الورع والتقليل من المباحات والإكثار من نوافل العبادات من صلاة ، وصدقات ، ورباط وجهاد ، وصيام ، وحج . وهؤلاء هم الموصوفون بالمقربين والسابقين في قول الله تعالى :

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ

ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَى ﴿١٢﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾^(٤)

وفي قوله تعالى :

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ

(١) سورة الواقعة الآيتان (٩٠ ، ٩١) .

(٢) سورة فاطر الآية (٣٢) .

(٣) سورة الاحقاف الآيتان (١٣ ، ١٤) .

(٤) سورة الواقعة الآيات (١٠ - ١٤) .

يَا ذَنْ اللَّهَ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَوْنَ فِيهَا
مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿١﴾

وهم المعنيون بقول الله تعالى في حديث البخاري : ﴿مَنْ آذَى لِي وَلِيًّا
فَقَدْ آذَنَهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءٍ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ،
وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أُحِبَّهُ كُنْتُ سَمْعَهُ
الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ ، وَيَدَّهُ الَّتِي يَتَبَطَّشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ
الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ ، وَلِئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِذَنَّهُ ، وَمَا
تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنُ يَكْرَهُ الْمَوْتَ
وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ ، وَلَا بَدَلَ لَهُ مِنْهُ﴾ (٢) .

فهؤلاء في أعلى مرتبة من مراتب الولاية ، إذ يعرفون
باستقامتهم ، واستجابة ربه لهم فيما يسألونه ويطلبون ، فلو سألوه
زواك جبل لزال ، ولو أقسموا عليه تعالى لأبرهم ، وهم الذين يظهر الله
تعالى على أيديهم ببركة دعائهم خوارق العادات كتكثير القليل ، وشفاء
العليل ، وكإكساب المعدوم ، والإنقاذ من الهلاك المحتوم .

(١) سورة فاطر الآيات (٣٢ - ٣٣) .

(٢) رواء البخاري في كتاب الرقاق باب التواضع (٨ / ١٣١) . إلا أنه ليس فيه (ولا بد له منه) .

مراتب الأولياء

ويناء على ما سبق فإن للأولياء أربع مراتب : عليا وعالية ، ودنيا
ووسطى .

فالعليا : هي مرتبة الأنبياء والمرسلين ، وكراماتهم يصرفونها لله
تعالى الذي من بها عليهم فتكون معجزات تقوم بها الحجة لله تعالى
على الناس .

والعالية : وهي مرتبة السابقين المقربين من أتباع الرسل عليهم
السلام وهم متفاوتون فيها تفاوت الرسل فيما بينهم في تسامي
الدرجات ، وعلو المنازل .

والوسطى : وأهلها هم أهل الإيمان والتقوى من أصحاب اليمين
المقتضدين .

ودنيا : وهي مرتبة أهل الضعف في الإيمان والتقوى ، وهم
الظالمون لأنفسهم ، المذكورون في قول الله تعالى من سورة فاطر :
﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ۖ
وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْذَنَ اللَّهُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ
الْكَبِيرُ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا
وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا

لَغْفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا
نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿١١﴾

والشاهد من هذه الآية الكريمة أن الله تعالى ذكر ثلاثة أصناف من
الناس وهم الظالمون لأنفسهم ، والمقتصدون ، والسابقون بالخيرات ،
وحكم على جميعهم بأنهم يدخلون الجنة يُحلون فيها من أساور من
ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ، فدل ذلك على أن أهل الضعف في
الإيمان والتقوى هم كذلك أولياء الله تعالى ، وإن ظلموا أنفسهم بترك
بعض الواجبات أو بفعل بعض المحرمات ، غير أن درجاتهم دون درجة
السابقين ، ولم تصل إلى درجة المقتصدين ، فهم في منزلة دون ،
وذلك لضعف إيمانهم وتقواهم (٣).

ويلاحظ هنا أن أهل هذه المراتب على اختلافها ، متفاوتون في
العدد قلة وكثرة ، فأهل المرتبة العليا أقل عدداً من أهل المرتبة العالية ،
وأهل المرتبة العالية أقل عدداً من أهل المرتبة الوسطى ، وأهل الوسطى
أقل عدداً من أهل المرتبة الدنيا وهذا أمر ظاهر لا يحتاج إلى أكثر من
تنبيه إليه .

(١) سورة فاطر الآيات (٣٢ - ٣٥) .

(٢) لعلي قائل يقول ألا يستحق أهل الظلم لأنفسهم العذاب عقوبة ظلمهم ؟ فنقول : إن الظالم قد
يعذب إن لم يغفر الله عز وجل له ؛ ولكنه بعد تطهيره من ذنوبه بالعذاب مصيره الجنة .

تقريرات

الأول : أنه لا تتم ولاية عبد الله تعالى ، ولا ينتظم في سلك أولياء الله تعالى إلا بالإيمان الصحيح ، والتقوى القائمة على مبدأ فعل المأمورات ، وترك المنهيات .

الثاني : أن الأولياء يتفاوتون في قربهم من الله تعالى ، وعلو منزلتهم عنده وفي كراماتهم بحسب قوة إيمانهم وتقواهم ، وكمال موافقتهم لرهبهم ، ونبههم فيما يحببان ويكرهان .

الثالث : أن الكرامات وهي الأمور الخارقة^(١) للعادة التي يظهرها الله تعالى على يد بعض أوليائه ، ليست شرطاً في ثبوت الولاية ، ولا في نفيها ولما كانت تنقص من درجة من يظهرها الله تعالى على يديه ، لأنها بمثابة تعجل الجزاء على الإيمان والتقوى في الدنيا ، كان بعض الأولياء يتوبون منها إلى الله تعالى ، ويستغفرونه لأجلها .

الرابع : الأولياء من غير الأنبياء والمرسلين لا عصمة لهم ، فقد يخطئون ويغلطون ، غير أن الغالب في أحوالهم الحفظ مما يدنس شرف الولاية ، ويخل بمقامها ، وإن وقع أن أحدثوا ذنباً لعدم عصمتهم أحدثوا له توبة على الفور ، يقبلها الله تعالى منهم بعد أن وفقهم لها ، فيسلم بذلك مقامهم من التداعي والسقوط ، ومنزلتهم من التزلزل والهبوط .

الخامس : لنا بحسب ما يظهر لنا من أحوال الناس أن نصف كل مؤمن تقي بالولاية ، فنقول : فلان ولي من أولياء الله تعالى أو نقول فلان ولي ، ونكرمه لذلك ، ونتحاشى أذيته لحديث أبي هريرة في

(١) هذا النوع الذي يطلقونه على الكرامة ؛ ويقولون إنه أمر خارق للعادة غير مقترن بالنجدي ودعوى النبوة .

البخاري عن النبي ﷺ عن الله تعالى ﴿من أذى لي ولياً فقد آذنته بالحرب... الحديث﴾^(١) ولا التفات إلى قول من يقول بعدم جواز ذلك لعدم الدليل على صحة الدعوى .

السادس : جهل المسلمين بحقيقة الولاية ، وبمعرفة الولي جعلهم لا يعترفون بولاية المؤمنين الذين يعيشون معهم من أهل الإيمان والتقوى إلا إذا ظهرت على يد المرء خوارق العادات ، أو مات وشيد له ضريح ، أو بنيت على قبره قبة ، حتى إن أحدهم لو طلب منه أن يدل أحداً على ولي من أولياء بلده لا يدلّه على مؤمن تقي يعيش بين الناس وإنما يدلّه على ميت له ضريح أو على قبره قبة وإن كان لا يعرف اسمه فضلاً عن حاله أيام حياته فتقبل شهادته فيه ، ويصح حكمه عليه .

السابع : لقد أنكر الله تعالى على الناس اتخاذ أولياء من دونه في قوله من سورة الرعد :

﴿قُلْ أَفَأَتَّخِذُكُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾^(٢)

فلا يحلّ لمؤمن ولا مؤمنة أن يتخذ له ولياً دون ربه عز وجل ، فليجأ إليه في الشدائد ، ويستغيث به عند المخاوف ، ويستعيذ به من المكاره ، أو يعبدّه ويتوكل عليه ، ويوالي فيه ويعادي فيه ، إذ هذا معناه اتخاذ آلهة من دون الله ، وهو شرك وكفر والعباد بالله .

(١) ذكر بتمامه في باب الكرامة فليرجع له .

(٢) الآية (١٦) .

أولياء الشيطان وموالاتهم

إن بين شياطين الإنس والجن موالاة أثبتها القرآن الكريم ، كتاب الله رب العالمين ، وحسبنا بالقرآن شاهداً ودليلاً ، قال تعالى في سورة الأنعام

﴿يَمَعَشِرَ الْجِنَّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْنَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾^(١)

وقال تعالى من السورة نفسها :

﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنَّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾^(٢)

وقال تعالى من سورة الأعراف :

﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^(٣)

والسؤال الآن هو : كيف تتم الموالاة بين الفريقين ؟

والجواب : أنها تتم حسب سنة الله تعالى في اتحاد

(١) الآية (١٢٨) .

(٢) الآية (١١٢) .

(٣) الآية (٣٠) .

المتجانسات ، وتلافي التشابهات وانجذاب كل شبه إلى شبهه ، ومن هنا كان إذا خبث الإنسان نتيجة توغله في الشر والفساد بارتكاب الذنوب والآثام المتمثلة في معاصي الله تعالى. ومعاصي رسوله ﷺ أمكنه الاتحاد بشياطين الجن ، والتفاعل معهم ، وتوليهم وتبادل المنافع معهم ، والتعاون على إغواء الإنسان وإفساده ، وإيقاعه في الشرور والمفاسد ، وبحكم الولاء الثابت بين كل من شياطين الإنس والجن ، فإن شياطين الجن يخدمون إخوانهم وأولياءهم من الإنس ، فيطلعونهم على بعض المغيات التي أمكنهم الاطلاع عليها ، ومعرفتها ، كما قد يقربون إليهم أشياء بعيدة ، أو يحملونهم إلى أماكن أبعد ، كما قد يجمعون لهم بين شخصين منباعدين ، أو متقاطعين ، وقد يظهرون لهم أشخاصاً ، أو يسمعونهم أصواتاً وبالجملّة فقد يظهرون لهم من بعض الخوارق ما يظن معه من لا علم له بهذا الشأن أنه كرامات كالتّي يظهرها الله تعالى على أيدي أوليائه كرامة لهم .



الركن الثاني من أركان عقيدة المؤمن الإيمان بالملائكة

مقدمة :

قبل البحث في هذا الركن من أركان العقيدة نقدم بيان الحقائق
الثلاث التالية :

الأولى : أن الكون كله ينقسم إلى غيب ، وشهادة .

فالغيب : ما غاب عن الموجودات عن أعين الناظرين ، وإن كانت
حقيقة مخرصة في صدورهم ، لا تغيب عن خواطرهم ، وذلك ككل
الموجودات الأرضية والسموية .

والشهادة : خلاف الغيب وهي كل ما كان من الموجودات أمام
نظر الإنسان يشاهده ويراه ، أو كان بحيث يدركه بإحدى حواسه التي
هي السمع ، والبصر ، واللمس ، والشم ، والذوق .

الثانية : أن الإنسان بحكم طبيعة الحياة مقدر له الإيمان بالغيب :
مفروض عليه ، لا يستطيع التخلص منه بحال ، اللهم إلا إذا سبّه
نفسه ، وأراد التخلي عن كرامته الآدمية ، وعن شرفه الإنساني : ليصبح
بعد ذلك حيواناً هابطاً لا خير فيه ، أو آلة صماء لا وعي لها ، ولا
إدراك !!!

وذلك لأن الإنسان كائن متحيز متى وُجد في مكان استحال عليه
أن يوجد في مكان آخر مع بقاءه في مكانه الذي هو فيه . ومن هنا

ستصبح سائر الأمور بـ خلو منه بعده عنها غيباً له . وليست بشهادة عنده ، ولا بد له من أن يؤمن بها ، وبما فيها من أشياء جواهر وأعراض ، متى وجدت آثار تدل على ذلك ، أو أخبار صادقة تنبئ به .

ثم إن حواس الإنسان التي يحصل له العلم بها محدودة القوة محصورة الإدراك في مجال معين لا تتعداه . فسمعه مقيد في السماع بالأصوات العالية فإذا انخفضت إلى درجة معينة تعذر عليه أن يسمع ، وبصره مقيد برؤية الأجسام الكبيرة فإذا صغرت ودقت ، وبلغت حداً معيناً من الصغر والدقة عجز عن رؤيتها ، ولمسه كذلك ، فإنه يحس بالأجسام الكثيفة ، فإذا خفت انقطع إحساسه بها . وحتى عقله فإنه يكل عن إدراك أشياء معقولة ، ويعيا عن تصورهما تماماً .

ومن هنا كان لا بد للإنسان من الإيمان والتصديق بأشياء لم يشاهدها ولم يحس بها ، بأية حاسة من حواسه ، ولم يدرك حتى تصورهما بعقله ، ولا خيار له في ذلك إذا أراد أن يقيم لكرامته وزناً ، ولقيمتة البشرية قدراً من الاحترام والتقدير . !!!

وكيف تُنكر هذه الحقيقة ، ونحن نرى أن الإنسان يعيش في بلد ما ولم يخرج منه أبداً وهو يؤمن بعشرات البلاد ، ويصدق بوجودها وهو لم يرها ، ولم ير من رآها قط .

كما نرى إنساناً آخر لم ير الفيل طول حياته ، وهو يؤمن بوجوده . هذا الحيوان الذي لم يره ، ولم ير من رآه أبداً . ونرى ثالثاً يؤمن بالجازبية إيماناً جازماً ، ومن المعلوم أن الجاذبية مما لا يُرى ولا يُشاهد أبداً .

ونجد رابعاً وُلد ولم يعرف والده لموته قبل ولادته ، وهو يؤمن بأن له والداً ، ولا ينكر ذلك بحال ، ولذا كان من المضحكات أن يدعي

إنسان أنه لا يؤمن بالغيب ، أو أنه يستطيع أن يعيش في هذه الحياة بدون الإيماذ بالغيب .

الثالثة : أن الإنسان يكتسب علمه بالموجودات عن طريق عقله وحواسه معاً ، فبعقله يدرك سائر التصورات العقلية ، وبالحواس يدرك سائر الماديات من مرئي ، ومسموع ، ومحسوس ، ومشوم ، ومطعم . فبالعقل أدرك فضيلة الصدق ، ورذيلة الكذب . وبالعقل أدرك المستحيلات : ككون الشيء إذا وجد في مكان لا يوجد في غيره ، والواجبات ككون الجسم لا بد له من حيز يشغله ، وككون المصنوع لا بد له من صانع . والجائزات ككون المريض قد يُشفى وقد لا يشفى ، والغائب قد يعود وقد لا يعود .

وبحاسة البصر أدرك المرئيات : أطوالها ، وأعراضها ، وصفاتها .

وبالسمع أدرك الأصوات ، وفرق بينها ، وأدرك الأخبار ومدلولاتها ، وبالدوق أدرك سائر الطعوم ، وعرف حلوها ومرها ، وحامضها وسامجها ، وبالشّم أدرك سائر الروائح طيبها وكرهها . وباللمس أدرك الأجسام وفرق بين خشنها وناعمها ، وحارها وباردها .

هذه هي طرق اكتساب الإنسان لعلومه ومعارفه (العقل والحواس) وهو مستعد دائماً للحصول على المعارف بواسطتها . إن الإنسان يتعقل الشيء ثم يصدر حكمه عليه بالإثبات ، أو بالنفي ، بالوجوب ، أو الاستحالة أو الجواز ، وينظر إلى الشيء فيحكم عليه بالطول ، أو القصر ، بالبياض أو السواد ، ويسمع الصوت فيحكم بأن المسموع صوت كذا أو كذا ... الخ .

وهكذا يتحصل الإنسان على معرفته بالموجودات بقسميها : الغيب والشهادة بواسطة العقل والحواس ، بيد أن ما كان من

الموجودات غيباً محضاً فإن طريق الحصول على معرفته ، والإيمان به هو السماع به ، أو مشاهد آثاره الدالة عليه .

فالمرء إذا أخبره أحد أن فلاناً مات ، أو سافر ، أو قدم من سفر ، وكان بعيداً عنه لا تمكنه رؤيته حصل له العلم بحاله من موت أو سفر ، أو قدوم منه ، حصل له بواسطة الخبر الذي تلقاه عن غيره من عقلاء الناس . والمرء قد يمر بأرض فيجد بها سيولاً تجري ، وشعاباً طافحة بالماء فيعلم فوراً أن مطراً قد نزل بتلك الأرض ، وإن لم يشاهد نزوله ، ولم يخبره بنزوله أحد ، وإنما حصل له علم به بواسطة الأثر ، وهو سيلان الأودية وامتلاء الشعاب . وقد يمر الإنسان بمكان ما فيشم روائح طيبة فيعلم أن هناك عطاراً ، أو أشجاراً من ذوات الروائح الطيبة ، وإن لم ير ذلك بعينه ، ولم يخبره به أحد من الناس . وهكذا يؤمن الإنسان بالغيب ، ويحصل فيه على اليقين الكامل بواسطة خبر الثقات ، أو آثار الأشياء التي آمن بها ، وصدق بوجودها لدلالة آثارها عليها .

ومن هنا كان الإيمان بوجود الملائكة أمراً معقولاً ، ومطلباً سهلاً ميسوراً ، فالملائكة وإن كانوا غيباً ، فقد دل على وجودهم الدليل الذي تثبت به كل الموجودات الغيبية عند الإنسان ، والذي هو خبر الثقات ، وآثار الموجودات . ونزيد هذه الحقيقة توضيحاً فنقول :

أليس الإنسان العاقل يخبره ذو صدق بحدوث كذا أو كذا من الممكنات فيصدق في خبره ، ويعتقد صحة ما أخبره به ؟

أليس الإنسان العاقل يسمع صوتاً بعيداً عنه لم ير مصدره فيؤمن بصوت ، ويصدق بوجوده كأنه رآه وشاهده ؟ .

أليس الإنسان العاقل يجد كرسيّاً قد وضع في غرفة فيعلم أن

هناك أحداً قد وضع هذا الكرسي وأعدده للجلوس عليه وإن لم ير من
عمل ذلك ؟ .

ليس الإنسان العاقل إذا رأى كتاباً يعلم فوراً أن هناك أحداً أُملى
هذا الكتاب وأن آلة قد طبعته ولا يشك في هذا ولا يتردد أبداً ؟

وحصول هذه اليقينات له كانت كلها من طريق الخبر أو الأثر ،
وهما الدليل العقلي للإيمان بكل الغيوب . ولهذا سوف نتكلم عن
الملائكة بملء الفم ونقرر أن وجودهم يقيني ، وحقيقة ثابتة لا يقوى
عاقل على إبطالها - أو نفيها . أما الذين كفروا بربهم ، وتنكروا لعقولهم
وهبطوا من سماء كرامة آدميتهم فأصبحوا لا يؤمنون بشيء حتى
بوجودهم فإننا لا نقيم لهم وزناً آمنوا أو كفروا صدقوا أو كذبوا .

وهذا هو دليل وجود الملائكة عليهم السلام وهو الدليل الذي
قدمنا أنه بواسطته آمن العقلاء بكل غيب تعذر أن يكون من قسم
الشهادة ، والدليل كما سبق أن عرفناه ، يتكون من عنصرين : الأول
الأخبار والثاني الآثار .

الأخبار :

أولاً : أخبار الله تعالى ، رب العالمين ، وخالق الملائكة ،
والجن ، والناس أجمعين ، وكفى بما يخبر به الله تعالى دليلاً ، إذ
الخالق أعلم بما خلق . ومن أخباره تعالى قوله :

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ
فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ
وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ﴾ (١)

(١) سورة البقرة الآية (٣٠) .

فقد تضمن هذا الخبر وجود الملائكة ومخاطبة الله تعالى لهم ،
ومخاطبتهم له سبحانه وتعالى ، وهو دليل قاطع على وجود الملائكة .
وقوله تعالى

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ
وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝﴾^(١)

ففي هذا الخبر أن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، وأنهم سجدوا
إلا إبليس أبى ، وهل يؤمر ويمثل غير موجود ؟!

وقوله تعالى

﴿لَن يَسْتَكْبِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۝﴾^(٢)
ففي هذا الخبر أن الملائكة المقربين لا يستكفون من عبادة الله ولا
يستكبرون ، وهل يستكف ويتكبر غير موجود ؟ وقوله تعالى

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِ شَاءَ أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ ۝﴾^(٣)
وفي هذا الخبر ينكر تعالى ، ويعيب على المشركين دعواهم أن
الملائكة إناث حيث قالوا ما ليس لهم به علم ، فهل يعقل أن يُعاب أو
ينكر على غير موجود ؟ .

وقوله تعالى

﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ
يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ۝﴾^(٤)

(١) سورة البقرة الآية (٣٤) .

(٢) سورة النساء الآية (١٧٢) .

(٣) سورة الزخرف الآية (١٩) .

(٤) سورة النجم الآية (٢٦١) .

ففي هذا الخبر أن كثيراً من الملائكة لا تغني شفاعتهم عن أحد شيئاً ، وهل يشفع أو لا يشفع غير موجود ؟ وأخيراً فهل هذه الأخبار الإلهية عن الملائكة وهي كثيرة جداً ، وكلها تتحدث عن صفاتهم ، وأحوالهم ، وعبادتهم ، وأعمالهم لا تدل على وجود الملائكة ، دلالة تُكسب اليقين ، اللهم بلى .

ثانياً : أخبار الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وتحدثهم عنهم ، ووصفهم لهم ، وتلقيهم الوحي بواسطتهم وهي كثيرة فلنكتف منها بما تواتر عن خاتم أولئك الرسل وإمامهم محمد عليه الصلاة والسلام فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ »^(١) . وقوله : « إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ »^(٢) . وقوله : « إِنَّ لِلَّهِ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً سَيَاجِينَ يُلْفُونَ بَنِي عَنْ أُمْتِي السَّلَامِ »^(٣) . وقال : « إِذَا أَمَرَ الْإِمَامَ فَأَمِنُوا فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تُؤْمِنُ ، فَمَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »^(٤) . وكان يقول في دعائه : « اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ ، وَمِيكَائِيلَ ، وَإِسْرَافِيلَ ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، إِهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »^(٥) . كما أخبر ﷺ ، وتحدث عن ملك الموت

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم . اللؤلؤ والمرجان (٣ / ٣٩) مسلم (٦ / ١٥٧) . والبخاري (٤ / ١٣٨) .

(٢) رواه مسلم (٢ / ٨٠) .

(٣) إسناده صحيح ورجال الصحيح وقد أخرجه أحمد والسائي وابن حبان . . . فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من تعليق الألباني الطبعة الثانية ص (٣٦) .

(٤) متفق عليه واللفظ لمسلم - اللؤلؤ والمرجان (١ / ٨٣) مسلم (٢ / ١٧) البخاري (١ / ١٨٧) .

(٥) رواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها (٢ / ١٨٥) .

وأعوانه ، وعن الروح ، وعن ملكي القبر ، وعن الحفظة ، والكرام
الكاتبين ، وعن رضوان خازن الجنان ، وعن مالك خازن النيران ،
وغيرهم من الملائكة في أحاديث متواترة صحيحة ، فكيف يسوغ
عقلاً ، أو يصح منطقاً وذوقاً أن تبلغ الإنسان هذه الأخبار الإلهية
والنبوية ، وهي أصح خبر في الوجود ، ولا يؤمن بالملائكة ولا يصدق
بوجودهم .. اللهم لا ! ؟

الآثار :

آثار الملائكة الدالة عليهم دلالة قطعية كثيرة جداً نكتفي بطرف
منها فنقول : هذا القرآن الكريم كتاب الله بين أيدينا سورة العديدة ،
وآياته الكثيرة ، وعلومه ، ومعارفه ، وإعجازه أثر من آثار الملائكة إذ
تلقيه المنزل عليه ﷺ بواسطة ، ولم يكن من الله مباشرة فما هي
الواسطة ؟ إنها جبريل كما أخبر بذلك مرسله ، ومنزله في قوله :
﴿وَأَنزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا رَبِّ الْعَالَمِينَ تَزَلَّ بِهِ أَلْسُنُ الْأَمِينِ عَلَى قَلْبِكَ
لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾^(١)

وهذا ملك الموت الذي يتخطفنا يوماً فيأخذ أرواحنا ، وينهي بأخذها
حياتنا ، ويفصلها عن أجسامنا ، فتعدم الحياة ، فهل يشترط للتصديق به
رؤيتنا له ؟ وآثار فعله ظاهرة فينا لا تنكر ؟ اللهم لا . ولو سألنا خالقنا
وقلنا من يتوفانا ؟ لكان الجواب

﴿قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾^(٢)

ثم إن كلاً من جبريل وملك الموت عليهما السلام قد رؤيا عياناً
غير مرة وهما من أعظم الملائكة فجبريل قد دخل مرة المسجد

(١) سورة الشعراء الآيات (١٩٢) - (١٩٥) .

(٢) سورة السجدة الآية (١١) .

وعشرات المصلين حاضرون ، فانتهى إلى النبي ﷺ وهو جالس فجلس إليه ، وأسند ركبته إلى ركبته ، ووضع يديه على فخذه ، وأخذ يسأل رسول الله ﷺ وهو يجيبه ، فسأله عن الإيمان ، والإسلام ، والإحسان ، وأشرط الساعة ، وكان ساعثذ في صورة رجل^(١) . كما أن ملك الموت قد تواترت الأخبار برؤيته عند ذنوه من المريض لقبض روحه ، فكلم من مريض تحدث بذلك ، وأخبر به قبل وفاته بفترة زمنية ثم يموت .

الإيمان بالملائكة أحد أركان العقيدة الإسلامية :

وبعد : فانه لم يبق بنا حاجة إلى سرد المزيد من الأدلة على وجود الملائكة فلذا نشرع الآن في تقرير كون الإيمان بالملائكة ركناً من أركان عقيدة المؤمن فنقول : لقد ذكر الله تعالى أركان العقيدة الإسلامية في عدة آيات من كتابه ، وذكر من بينها عقيدة الإيمان بالملائكة وذلك في قوله تعالى :

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾^(٢)

وفي قوله :

﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ءَ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ءَ﴾^(٣)

وفي قوله : ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(٤)

(١) هذا الحديث الذي ذكر إجمالاً رواه مسلم (٢٨ / ١ - ٢٩) ورواه البخاري بمعناه (١٤٤ / ٦) .

(٢) سورة البقرة الآية (١٧٧) .

(٣) سورة البقرة الآية (٢٨٥) .

(٤) سورة النمل الآية (١٣٦) .

كما ذكر الرسول ﷺ في حديث عمر المعروف بحديث جبريل أركان الإيمان الستة وذكر من بينها الإيمان بالملائكة وأقره جبريل على ذلك ، وصدقه إذ كان هو السائل له في محضر مئات الصحابة وهو في صورة رجل وبعد انصرافه أعلن الرسول ﷺ لأصحابه أن السائل كان جبريل عليه السلام^(١).

وبهذا كان الإيمان بالملائكة ركناً من أركان عقيدة المؤمن التي لا تتم إلا به ، وكان من شك فيه ، أو حاول التشكيك كاذباً كافراً لاحظ له في الإسلام ، ولا مقام له بين المسلمين ، لتكذيبه لله ، ورسوله والمؤمنين وإنكاره لقضائا العقل ، ومسلماتها البديهية .

(١) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة (١٩٤) .

خلق الملائكة

تعريف :

الملائكة : جمع ملائكة ، نقلت حركة الهمزة فيه إلى الساكن قبله ، ثم حُذفت الألف تخفيفاً فصارت ملكاً ؛ وهو مشتق من كلمة الألوكة التي هي الرسالة ، والجمع ملائكة وملائكة .

مادة خلق الملائكة :

الملائكة خلق عظيم ، وعددهم كثير لا يأتي عليه العد ، ولا يحصيه من دون الله أحد ، خلقهم الله من النور ، وطبعهم على الخير ، فهم لا يعرفون الشر ، ولا يأمرؤن به ، ولا يأتونه ، ولا يفعلونه .

فلذا هم لربهم مطيعون ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يُؤمرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، ولا يسأمون من عبادة الله ولا هم عنها يستكبرون ، أخبر الرسول ﷺ عن مادة خلقهم ، فقال : « خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِنْ نَارٍ وَمَا وَصِفَ لَكُمْ » (١) .

(١) إشارة إلى قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » سورة آل عمران الآية (٥٩) وإلى قوله تعالى « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون » سورة الحجر الآية (٢٦) والحديث رواه مسلم (٨ / ٢٢٧) .

تفاضل الملائكة

والملائكة يتفاضلون في القرب من الله تعالى : وعلو المرتبة
كالشراؤهم أكبر تفاضلاً ، إن منهم الملائكة المقربين لقوله تعالى :
﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾^(١)
ومنهم حملة العرش لقوله تعالى :

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ مَكْنِيَّةٌ﴾^(٢)

ومنهم الكرّيون ، ومنهم غير ذلك ، وأفضلهم جبريل ، وميكائيل ،
وإسرافيل ، وعزرائيل ملك الموت ، وأعظمهم الروح عليهم السلام
أجمعين .

أعمال الملائكة .

إن ما يقوم به الملائكة من أعمال لكثير جداً ، ومختلف متنوع
إلى حد كبير ، وهذا بيان مجمل عما جاء في القرآن الكريم ، والسنة
النبوية الشريفة من وظائف الملائكة وأعمالهم التي أناطها الله تعالى بهم
عبادة له وطاعة : -

١ - جبريل عليه السلام ، ويسمى روح القدس أيضاً ، وصفه الله
عز وجل بالقوة والأمانة في قوله تعالى من سورة التكوين

(١) سورة النساء الآية (١٧٢) .

(٢) سورة الحاقة الآية (١٧) .

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾^(١)

وخصه بأشرف وظيفة ، وهي السفارة بينه تعالى ، وبين رسله عليهم السلام فكان يتزل بالوحي كما قال تعالى :

﴿وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾^(٢)

وصح عن النبي ﷺ أنه رافقه في أعظم رحلة تمت في الوجود وهي إسرائ النبي ﷺ ومعراج ، فرافقه عليه السلام من مكة إلى المسجد الأقصى ، ومنه إلى سدره المنتهى بالملكوت الأعلى^(٣).

٢ - ميكائيل : ووظيفته التي وكله الله بها المطر والنبات .

٣ - إسرئيل : ووظيفته التي وكل بها النفخ في الصور يوم القيامة .

٤ - ملك الموت عزرائيل : وهو موكل بقبض الأرواح ، وله أعوان من الملائكة لقوله تعالى :

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾^(٤)

٥ - أعوان ملك الموت وهم صنفان : ملائكة رحمة ، وملائكة

(١) الآيات (١٩ - ٢١) .

(٢) سورة الشعراء الآيات (١٩٢ - ١٩٤) .

(٣) قصة الإسرائ والمعراج ثابتة في الصحيحين ، راجع للؤلؤ والمرجان (١ / ٣٥ - ٣٩) .
والبخاري (١ / ٩٢ - ٩٤) ومسلم (١ / ٩٩ - ١٠١) ، وقد ثبتت قبل ذلك بالقرآن وفيه سورة باسم الإسرائ ، ومباني تفصيل في (الوحي الإلهي وطرقه) فيما سيأتي من موضوعات الكتاب - إن شاء الله تعالى .

(٤) سورة الأنعام الآية (٦١) .

عذاب وهم مع ملك الموت ، المقصودون بقوله تعالى :

﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾

٦ - حملة العرش : عرش الرحمن عز وجل وهم أربعة ، وإذا

جاء يوم القيامة أضيف إليهم أربعة آخرون ، لقوله تعالى :

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾^(١)

ولقوله تعالى :

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾^(٢)

٧ - رضوان وعمله الذي وكل به خزانة الجنان ، فهو خازن الجنة

ورئيس الخدم بها .

٨ - خدم الجنة : وهم ملائكة لا يحصي عددهم إلا الله تعالى ، قال

تعالى :

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ
فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾^(٣)

وورد أن للواحد من أهل الجنة خدماً لا يقلون عن ثمانين ألف خادم ،
وظيفتهم : خدمة أهل الجنة^(٤) .

٩ - الزبانية وهم تسعة عشر ملكاً ، وكلهم الله تعالى بالنار ، فهم

(١) سورة غافر الآية (٧)

(٢) سورة الحاقة الآية (١٧) .

(٣) سورة الرعد (٢٣ ، ٢٤) .

(٤) روى الترمذي حديثاً في هذا المعنى ولكن في اسناده كلام .

خزائنها يعذبون فيها أهلها قال تعالى :
﴿سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ ۖ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۖ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۚ لَوَاحَةٌ
لِّلْبَشْرِ عَلَيْهَا ثَمْعَةٌ عَشْرٌ ۖ وَمَا جَعَلْنَاهُ أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً
وَمَا جَعَلْنَاهُ عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(١)

ورئيس هؤلاء الخزنة يدعى مالكا . قال تعالى في الحديث عن أهل النار
﴿وَنَادُوا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ ۖ لَقَدْ جِئْتَكُمْ
بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لَلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾^(٢)

١٠ - الكرام الكاتبون وعملهم كتابة أعمال البشر ، وإحصاؤها
عليهم ، فعلى يمين كل مكلف ملك يكتب صالح أعماله ، وعن يساره ملك
يكتب سيئات عمله . قال تعالى :

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾^(٣)
وفي الصحيح : « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يزيق أمامه فإنه يناجي الله
تعالى ما دام في مصلاه ، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكاً ليصق عن يساره ،
أو تحت قدمه »^(٤)

١١ - الحفظة وعملهم حفظ الإنسان من الجان ، والشيطان ،
والعاهات والآفات قال تعالى :

(١) سورة المدثر الآيات (٢٦ - ٣١) .

(٢) سورة الزخرف الآيات (٧٧ ، ٧٨) .

(٣) سورة الانفطار الآيات (٩ - ١٢) .

(٤) وإن قيل كيف يصق عن يساره وكاتب السيئات عن يساره ؟ قيل إن المؤمن في الصلاة لا يفعل
سوءاً قط فلذا ينضم كاتب السيئات إلى كاتب الحسنات إذ الصلاة هي أم الحسنات ولا سيئة
فيها ، والحديث رواه الشيخان بلفظ قريب من هذا - اللؤلؤ والمرجان - (١١١/١) .

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾^(١)
قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية : « ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فإذا جاء قدر الله خلوا عنه »^(٢). وقال مجاهد : يحفظونه في نومه ويقظته من الجن والإنس ، والهوام^(٣).

١٢ - الملك الموكل بالرحم لحديث البخاري ومسلم واللفظ له « إن الله عز وجل قد وكل بالرحم ملكاً فيقول أي رب نُطْفِئْ ، أي رب علقية ، أي رب مُضْغَةٍ ، فإذا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقاً قَالَ : قَالَ الْمَلِكُ أَي رَبِّ ذَكَرْ أَوْ اُنْثَى ، شَقِي أَوْ سَعِيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فَيَكْتُبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ »^(٤).

١٣ - ملك الجبال وهو ملك وكله الله بالجبال لحديث البخاري ومسلم : « فَأَنَادَانِي مَلِكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أَطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ . . . الحديث »^(٥).

١٤ - الملائكة السياحون وهم ملائكة في الأرض يبلغون سلام أمة محمد وصلاتها على نبيها ﷺ لحديث أحمد وهو صحيح الإسناد « إِنْ لِلَّهِ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ سَاحِرِينَ يَبْلَغُونِي عَنْ أُمَّتِي السَّلَامَ »^(٦).

١٥ - ملائكة الدعاء ، وعملهم الذي وكلوا به أن العبد إذا دعا بدعوة لأخيه المؤمن وهو غائب قال الملك : « آمين ولك بمثل ذلك » ، ولحديث

(١) سورة الرعد الآية (١١) . (٢) تفسير ابن كثير طبعة الحلبي (٢ / ٥٠٣) .

(٣) اللؤلؤ والمرجان (٣ / ٢٠٨) والبخاري (١ / ٨٣) ومسلم (٨ / ٤٦) .

(٤) اللؤلؤ والمرجان (٢ / ٢٢٧ / ٢٢٨) .

(٥) وأخرجه النسائي وابن حبان ، فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بتعليق ناصر الدين الألباني الطبعة الثانية (ص ٣٦) .

(٦) وأخرجه النسائي وابن حبان ، فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بتعليق ناصر الدين الألباني الطبعة الثانية (ص ٣٦) .

مسلم : « دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ يَظْهَرُ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ عِنْدَ رَبِّهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلِ » (١).

١٦ - ملائكة العروج بأرواح العباد بعد الموت لحديث مسلم « إِذَا خَرَجَتْ رُوحُ الْمُؤْمِنِ تَلْقَاهَا مَلَكَانِ فَيُصَيِّدَانِهَا قَالَ حَمَادُ (رَاوِي الْحَدِيثِ) فَذَكَرَ مِنْ طِبِّ رِيحِهَا وَذَكَرَ الْمِسْكَ قَالَ وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ رُوحٌ طَيِّبَةٌ جَاءَتْ مِنْ قَبْلِ الْأَرْضِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ وَعَلَى مَا كُنْتَ تَعْبُرِيهِ ، فَيَنْطَلِقُ بِهِ إِلَى رَبِّهِ ، عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ يَقُولُ انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ . . وَذَكَرَ لِلْكَافِرِ عَكْسَ ذَلِكَ » (٢).

١٧ - منكر ونكير : وعملهما سؤال العباد في قبورهم عن الرب تعالى ، والدين ، والنبي ﷺ أي يَقُولَانِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ، مَا دِينُكَ ، وَمَنْ نَبِيُّكَ ؟ لحديث الترمذي وهو حسن الإسناد وأصله في الصحاح وفيه « إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ أَنَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَرْزَقَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا الْمُنْكَرُ وَلِلْآخَرِ نَكِيرٌ فَيَقُولَانِ : مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ ؟ فَيَقُولُ مَا كَانَ يَقُولُ : هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ فَيَقُولَانِ قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا ، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ ثُمَّ يَتَوَرَّ لَهُ فِيهِ ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ : نَمْ يَقُولُ : أَرْجِعْ إِلَى أَهْلِي فَأَخْبِرْهُمْ فَيَقُولَانِ : نُمُّ كَنُومَةِ الْعُرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ . وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا : قَالَ : سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ قَوْلًا فَقُلْتُ مِثْلَهُ ، لَا أَثَرِي ، فَيَقُولُونَ : قَدْ عَلِمْنَا أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ ، فَيَقَالُ لِلْأَرْضِ السَّمِي عَلَيْهِ فَتَلْتِمُ عَلَيْهِ ، فَتَخْتَلِفُ أَضْلَاعُهُ فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ » (٣).

(١) معناه لمسلم (٨ / ٨٦) . (٢) مسلم (٨ / ١٦٢) .

(٣) رواه الترمذي (جناز / ٧٠) وأبو داود بمعناه (٢ / ٥٤٠ ، ٥٤١) وابن ماجه (جناز / ٦٥) وأحمد (٣ / ١٢٦ ، ٤ / ٢٨٨) .

هذا وإذا تتبعنا الآثار الواردة في أعمال الملائكة ملاحظين الآيات
القرآنية الدالة على الملائكة وأعمالهم مثل قوله تعالى ﴿والصافات ،
والزاجرات فالتاليات ، والنازعات ، والناشطات ، فالمدبرات ،
فالمقسمات﴾ لقلنا في صدق إن الكون كله علويه وسفليه قد أنيط أمر تدبيره
بالملائكة ، وذلك بإذن ربهم تعالى ، ويضاف إلى ذلك أن النبي ﷺ قال
« أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَبْطَأَ ، مَا مِنْ مَوْضِعٍ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ
وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ تَعَالَى »^(١).

(١) رواه أحمد (١٧٣ / ٥) والترمذي (زهد / ٩) وابن ماجه (زهد ١٩) والحاكم وصححه ووافقه
الذهبي .

بعض صفات الملائكة

إن الملائكة بذواتهم وصفاتهم من الغيب المحض ، قد دل الدليل العقلي ، والشرعي على وجودهم ، وعلى وجوب الإيمان بهم ، والتصديق بأعمالهم ، وأحوالهم . والمراد من الدليل العقلي والشرعي ما سبق أن ذكرناه من أنه الأخبار الصادقة ، والآثار الناطقة .

ومن خلال الأخبار الصادقة التي هي الدليل الشرعي تحصلنا على عدد كبير من صفات الملائكة ، وأحوالهم نشبه هنا في آخر بحث هذا الجزء من عقيدة المؤمن تقريراً وتأكيذاً فنقول :

١ - حياؤهم :

إن الملائكة تستحي استحياء يليق بحالها ، إذ قد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أَلَا أُسْتَجِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ ؟ » (١) يعني بذلك الرجل عثمان بن عفان رضي الله عنه . ففي هذا الخبر الصادق . الصحيح دليل على صفة الحياء للملائكة .

٢ - تأذيتهم :

إن الملائكة تتأذى من المكروه كما يتأذى منه الإنسان لحديث مسلم : « مَنْ أَكَلَ مِنَ الثُّومِ ، وَالْبَصْلِ ، وَالْكَرَاثِ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا ؟ فَإِنَّ

(١) رواه مسلم (١١٧ / ٧) .

الملائكة تَتَأَذَى مِمَّا يَتَأَذَى مِنْهُ بَنُو آدَمَ،^(١) ولحديث الصحيحين أيضاً « إِنَّ الملائكة لا تَدْخُلُ يَتًّا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ »^(٢) . فعدم دخولهم البيت الذي فيه كلب أو صورة كراهية منهم لهما دليل على تأذيهن من هذا المكروه .

٣ - تنزههم عن الأعراض البشرية :

إن الملائكة منزّهون عن الأعراض البشرية كالجوع ، والمرض ، والأكل والنوم ، والتعب وما إلى ذلك ، فقد جاء في القرآن ما يدل على ذلك بدلالة الالتزام ، إذ أخبر تعالى عنهم

﴿ يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾^(٣)

ولازم ذلك أنهم لا ينامون ، ولا يأكلون ، ولا يشربون ، ولا يتعبون .

٤ - خوفهم من الرب تبارك وتعالى :

إن الملائكة يخافون من الله تعالى ، أثبت ذلك الخبر القرآني في مثل

قول الله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾^(٤)

وقوله :

﴿ وَلَا يَسْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ آرَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾^(٥)

(١) مسلم (٢/ ٩٠) .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم ، اللؤلؤ والمرجان (٣/ ٣٩) مسلم (٦/ ١٥٧) والبخاري (٤/

١٣٨) .

(٣) سورة الأنبياء الآية (٢٠) .

(٤) سورة النحل الآيتان (٤٩ ، ٥٠) .

(٥) سورة الأنبياء الآية (٢٨) .

٥ - طاعتهم لله تعالى :

إن الملائكة مطيعون لله تعالى ، لا يعصونه بحال من الأحوال ، وذلك

لقله :

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١)

يقوله :

﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْقُونَهُ إِلَّا الْفَوَلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾^(٢)

٦ - حبهم لمن يحب ربهم :

إن الملائكة تحب حباً يليق بحالهم ، وحسب ذواتهم فقد دل الدليل

الشرعي على أنهم يحبون ، ففي حديث الصحيحين : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جَبْرِيلُ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فَلَانًا فَأَجِبْهُ ، فَيُخِبُهُ جَبْرِيلُ ، ثُمَّ يُنَادِي جَبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ : إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فَلَانًا فَأَجِبُوهُ فَيُخِبُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ »^(٣) .

٧ - دعاؤهم ولعنهم :

إن الملائكة ليدعون ربهم ويسألونه كما قال تعالى عنهم :

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾^(٤)

وإنهم ليلعنون من لعنه ربهم سبحانه وتعالى كما قال تعالى :

(١) سورة التحريم الآية (٦) .

(٢) سورة الأنبياء الآيات (٢٦ ، ٢٧) .

(٣) اللؤلؤ والمرجان (٣/ ٢٠٥ ، ٢٠٦) والبخاري (٩/ ١٧٣ ، ١٧٤) ومسلم (٧/ ٤٠ ، ٤١) .

(٤) سورة غافر الآية (٧) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ
وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾^(١)

٨ - عظم خلقهم وتفاوتهم فيه :

إن خلق الملائكة لعظيم ، وهم يتفاوتون فيه تفاوتاً كبيراً ، فقد صح أن
لجبريل عليه السلام ستمائة جناح^(٢) في حين أن من الملائكة من له جناحان
فقط ، كما قال تعالى

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي
أَجْنَحَةٍ مِّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣)

روى أبو داود بسند صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أذن
لي أن أتحدث عن ملك من حملة العرش رجلاه في الأرض السفلى ، وعن
قرنه العرش ، ومن شحمة أذنه عاتقه خفقان الطير سبعمائة عام ، فيقول ذلك
الملك : سبحانك حيث كنت » .

وروى الحاكم وصححه ووافقه الذهبي في ذلك عنه صلى الله عليه
وسلم قوله : « إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِي أَنْ أُخْبِرَ عَنْ دِيكَ قَدْ مَرَّتْ رِجْلَاهُ الْأَرْضَ ،
وَعُنْقُهُ مِثْنَةُ تَحْتَ الْعَرْشِ ، وَهُوَ يَقُولُ : سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَكَ !! »
فيرد عليه : لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ مَنْ حَلَفَ بِي كَاذِبًا^(٤)

(١) سورة البقرة الآيتان (١٦١ ، ١٦٢) .

(٢) ثبت هذا في الصحيحين للؤلؤ والمرجان (٤/١) والبخاري (١٤٠/٤٦) ومسلم (١٠٩/١) .

(٣) سورة فاطر الآية (١) .

(٤) ذكره صاحب الحبثك وعزاه الى أبي داود ، والذي وقفت عليه في أبي داود نصح « أذن لي أن
أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش ان ما بين شحمة أذنه الى عاتقه مسيرة
سبعمائة عام » والمراد من الديك أنه ملك شبه الديك ، ومعنى مرت : خرقت . أبو داود
(٢ / ٥٣٤) .

الجن والشياطين

وبمناسبة بحث الركن الثاني من عقيدة المؤمن « الإيمان بالملائكة عليهم السلام » نعرض لقضية الجن والشياطين ، إذ الإيمان بوجودهما جزء من عقيدة المؤمن أيضاً ، وذلك لأنهما من الغيب الذي أمر المؤمن بالإيمان به ويتصدق الله والرسول فيما قالاً في شأنه ، وأخبراً به .

ولولا الرغبة في زيادة إنارة عقيدة المؤمن لما كان بنا حاجة إلى بحث هذه المسألة من العقيدة بحثاً مستقلاً ، وذلك لأمرين . أولهما : أن من آمن بالله تعالى ، ويعلمه ، وقدرته ، وحكمته لا يتردد في تصديق الله تعالى في أي شيء يخبر به من غيب ، أو شهادة ، لاسيما مسألة كهذه حيث قررها الله تعالى ، وأثبتها في عشرات الآيات من كتابه الكريم . وثانيهما : أن الأدلة العقلية ، والبراهين التي سقناها للإيمان بالملائكة عليهم السلام ، هي بعينها يؤتى بها هنا ، وتستدل بها على وجود الجن والشياطين ، وخلاصتها : أن الكائنات كلها ما بين غيب وشهادة ، وأن الإنسان إذا كان في مكان خلت منه سائر الأمكنة وأصبح كل ما لا يراه ، ولا يسمعه ، ولا يحس به لبعده عنه غيباً له ، فإذا ما صدق به كان ذلك إيماناً منه بالغيب ، وطريقه إليه هو الآثار الدالة ، والأخبار الصادقة . فإذا وُجد أثر لشيء ما كان الإنسان مضطراً إلى التصديق به ، وإن لم يره ، ولم يسمعه ، ولم يحس به بأية حاسة من حواسه التي هي مصدر حصوله على أغلب علومه ، ومعارفه . كما أنه

إذا أخبره ثقة بشيء من الممكنات فضلاً عن أن تخبره جماعة كثيرة
تستحيل عادة تواطؤها على الكذب آمن بما أخبر به ، وصدق تصديقاً
جازماً ، بحيث لا يتردد في صحة ثبوته أبداً ، بل قد يعد المكذب به
ناقصاً في عقله ، هابطاً من شرف إنسانيته وكرامة آدميته .

ولما كان المؤمن قد آمن على مثل هذين الدليلين بالملائكة وهم
من الغيب المحض فكيف لا يؤمن بعالم الجان والشياطين ، وهما أقرب
المغيبات إلى الملائكة عليهم السلام .



أدلة وجود الجان والشیطان

والآن نورد الأدلة والبراهین المثبتة لوجود الجن والشیاطین بالآثار والأخبار كما برهننا بذلك علی وجود الملائكة الأظهر ، واكتفينا به :

١ - الأسار :

إن الآثار الدالة علی وجود الجن والشیاطین كثيرة جداً وحسبنا منها ما يلي :

١ - الصرع الذي لا یکاد یخلو منه زمان ولا مکان ، ومنذ فجر التاريخ ، ونعني بالصرع ما کان سببه الأرواح الخبيثة ، وهي أرواح الشیاطین ، وأما ما کان سببه الأخلاط الرديئة فذاک شيء آخر ، فإنه قد يعالج بالأدوية المادية ، وقد یشفى صاحبه ، وقد لا یشفى ، وإنما نعني بالصرع الدال علی وجود الجن والشیاطین ، الصرع الذي سببه الأرواح الخبيثة ، ذاك الصرع الذي وقف الطب حتی فی أيام تقدمه ، وقف حیاله لا یبدي ، ولا یعيد ، فإنه أثر من آثار الجان والشیاطین ، ودلیل قاطع علی وجودهم .

٢ - تکلم الجان علی لسان الشخص الذي یحل فيه ، ویلبس به ، وإخباره بأمور لم یکن الإنسان المصاب به یعرفها ، حتی إن بعضهم لیتکلم بلغات لم یکن المصاب یعرف منها حرفاً واحداً .

٣ - خروج الجان من الإنسان الذي حل فيه ، وركبه بواسطة

الراقي من ذوي الأرواح الطيبة ، والنفوس الزكية ، أو بواسطة الأرواح الخبيثة من البشر ممن يوالون الشياطين ، ويتعاونون معهم ، وتصريح الجن بالخروج وعدم العودة بالمصروع ، وذلك بعد تخويفه وتهديده من الراقي ، وهذه المسألة قد يستغربها البعض ، أو ينكرونها ، غير أن الواقع أثبتنا بما لا مجال للشك فيه بحال من الأحوال .

٤ : ظهور بعض الجان لبعض الناس ، ومخاطبتهم إياهم وهذا أيضاً متواتر الأخبار بحيث يعد إنكاره غباء وجهالة . أو مكابرة وجحوداً ، لا يرضاها العاقل لنفسه .

٥ - الجرائم التي يرتكبها الإنسان بين الناس من لواط ، وزنا ، وقتل نفس ، وسرقة ، وشرب خمر ، وكفر ، وعقوق ، وكذب ، وخلف للوعد ، ونكث بالعهد . كل هذه الجرائم التي تتنافى مع الفطر البشرية ؛ والشرائع الإلهية ، والقوانين الدولية هي بدون شك آثار للشياطين . إذ هي التي تحسنها للإنسان . وترينها له . وتغريه بارتكابها . لإغوائه وإفساد روحه التي عليها مدار سعادته وشقاؤه في الدار الآخرة ، إذ الشياطين في إفساد أرواح الناس هي بمثابة الجرائم التي تفسد أجسامهم وسواء بسواء .

وهنا نقول سبحانه الله إننا لو قلنا لإنسان مريض إن سبب مرضك أيها الأخ الجرائم الفلانية ، أو الفلانية فاستعمل لها الدواء الفلاني فإنك تشفى بإذن الله تعالى ، لما تردد في تصديقنا ، ولبادر إلى استعمال الدواء . وجربه مع أنه لم ير الجرائم . ولم يحس بها بأية حاسة من حواسه . وإنما صدقنا للأثر الذي شاهده وهو المرض القائم بجسمه . والذي يشعر بآلامه وأتعبه كل ساعة من ساعات أيام مرضه ، وإذا قلنا له إن نفسك مريضة ، ولذا أنت تحب الكذب ، والخيانة . وترغب في الجريمة . وتميل إلى الخبث . وأن سبب مرض نفسك الشيطان فاستعمل له كذا وكذا فإنك تشفى بإذن الله لأنكر غالباً ولم

يصدق ، في حين أن الدليل واحد في المسألتين ، وهي الآثار الدالة على المرض الجثمانى والروحانى ، وعدم تصديقه بالمسألة الأخيرة أكبر دليل على وجود الشيطان ، إذ لولا صرفه عن التصديق بما ألقى في نفسه من الريب ، والشكوك لما كذب ، وأنكر أبدأ ، إذ ما ثبت به وجود الجرائم في الجسم وهو الأثر ، هو عين ما يثبت به وجود الشياطين وهو الأثر أيضاً .

٢ - الأخبار :

إن الأخبار الإلهية ، والنبوية الصادقة ، والناطقية بوجود الجن والشياطين لكثيرة جداً ، فلنكتف بذكر طائفة منها ، ولنبدأ بأخبار الله تعالى :

١ - أخبار الله تعالى :

أخباره تعالى المصرحة بوجود الجن والشياطين كثيرة منها ، قوله تعالى في خلق الإنسان والجان :

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ (١)

وقوله في بيان العلة في خلقه للإنس والجن :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٢) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (٤)

وقوله تعالى في الإخبار عن طاعة ملائكته له ، وفسق إبليس عن أمره ، وفقر النهي عن اتخاذ إبليس وذريته أولياء :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾

(١) سورة الرحمن الآيات (١٤ ، ١٥) .

(٢) سورة الذاريات الآيات (٥٦ - ٥٨) .

فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِي
وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ^(١)

وقوله تعالى في إخباره بخلق الإنسان ، وتصويره ، وأمر ملائكته
بالسجود له ، وامتناع إبليس عن ذلك ، وتوبيخه على عدم السجود ،
 واعتذار إبليس عن عدم السجود لآدم ، وهو عذر أقبح من ذنب ، وعن
طرده الله تعالى له من الجنة وإبلاسه ، وإيعاده هو ومن تبعه من الناس
بعذاب جهنم :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا
إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ
قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاھِطْ
مِنْهَا فَاصْبِرْ لَكَ أَنَّ لَكَ كِبْرًا فِيهَا فَأَخْرَجَ إِيَّكَ مِنَ الصَّغِيرِ
قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعُثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي
لَأَفْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَا يَنْبَغُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ أَخْرَجَ
مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ^(٢)﴾

وقوله في الإخبار بأن شياطين الجن وشياطين الإنس يوحى بعضهم إلى
بعض الباطل والكذب ، لتضليل الناس ، واغوائهم بالفتن والشور :

(١) سورة الكهف الآية (٥٠) .

(٢) المنموم : المعيب بأسوء العيوب ، والمدحور : المطرود المبعد .

(٣) سورة الأعراف الآيات (١١ - ١٨) .

﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (١)

وقوله تعالى في الإخبار بما امتن به على عبده ورسوله سليمان عليه السلام ، وتسخير الجن والشياطين له ، حيث كان يستخدمهم عليه السلام في شتى الأعمال والأغراض :

﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۚ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيتٍ﴾ (٢)

وفي آية أخرى يقول :

﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلٌّ بَنَاءٌ وَغَوَاصٌ﴾ (٣) ﴿وَأَنحَرَيْنَا مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ (٤) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٥)

وقوله تعالى في الإخبار عن جن نصيبين الذين حضروا صلاة الصبح مع الرسول عليه الصلاة والسلام في بطن نخلة (٦) وكيف رجعوا إلى قومهم يدعونهم إلى الإيمان بالرسول ﷺ . وينذرونهم مما يترتب على عدم إيمانهم من العذاب الأليم :

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ﴾ (٧) ﴿قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كُتُبًا أُتِرِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ

(١) سورة الأنعام الآية (١١٢) .

(٢) سورة سبأ الآيات (١٢ ، ١٣) .

(٣) سورة ص الآيات (٣٧ - ٣٩) .

(٤) مكان بين مكة والطائف .

الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَتَقَوَّمْنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ، يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾

وقوله تعالى في أمر رسول الله ﷺ بأن يخبر بما أوحى إليه من استماع الجن لقراءته ، وبأنذي دار بين الجن من أحاديث عجيبة ، تحوي خفايا مذهبة عظيمة عن الجن ، وعقائدهم ، وأعمالهم ، وأحوالهم :

﴿ قُلْ أُوْحِيَ إِلَى أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الْآرْشِدِ فَأَمْنًا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ (٣٢) في كذا آية من سورة الجن .

وقوله تعالى في الأمر بالاستعاذة من الشيطان في ثلاث آيات منها :

﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣٣) ومنها :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (٣٤) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٣٦﴾

ومنها : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ

(١) سورة الاحقاف الآيات (٢٩ - ٣١) .

(٢) سورة الجن الآيات (٢٠ ، ١) .

(٣) سورة الاعراف الآية (٢٠٠) .

(٤) سورة النحل الآيات (٩٨ - ١٠٠) .

النَّاسِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٢﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي
صُدُورِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنَ الْخِنَةِ وَالنَّاسِ ﴿٤﴾^(١)

أخبار الرسول - صلى الله عليه وسلم -
وهي كثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم في الأخبار عن القرين
من الجن ، والذي وكل بكل إنسان :

« مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ قَالُوا : وَإِيَّاكَ يَا
رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : وَإِيَّايَ إِلَّا أَنْ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ فَلَا يَأْمُرَنِي إِلَّا
بِخَيْرٍ » ، أخرجه مسلم^(٢) وقوله صلى الله عليه وسلم في الإخبار عن
دخول الشيطان مع الإنسان بيته ، وتناوله من طعامه وشرابه وذلك من
رواية مسلم : « إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ
قَالَ الشَّيْطَانُ (لأولاده وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الشَّيَاطِينِ) لَا مَيْتَ لَكُمْ وَلَا
عِشَاءَ ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ : أَدْرَكْتُمْ
الْمَيْتَ ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ : أَدْرَكْتُمْ الْمَيْتَ
وَالْعِشَاءَ »^(٣) وقوله صلى الله عليه وسلم في النهي عن الأكل والشرب
بالشمال والتعليل بأكل الشيطان وشربه بشماله « لَا يَأْكُلُ أَحَدُكُمْ بِشِمَالِهِ
وَلَا يَشْرَبُ بِهَا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِهَا »^(٤) ، وقوله صلى
الله عليه وسلم وهو يحذر المؤمنين من أن يبيت أحدهم وفي يده أثر
طعام ، أو إدام من أن يأتي الشيطان للحس ذلك من يده فيؤذيه : « إِنْ

(١) سورة الناس يكاملها .

(٢) مسلم (٨ / ١٣٩) .

(٣) مسلم (٦ / ١٠٨) .

(٤) رواه مسلم (٦ - ١٠٩) ومالك وأبو داود .

الشَّيْطَانُ حَسَّاسٌ لِحَاسٍ فَاحْذَرُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، مَنْ بَاتَ فِي يَدِهِ غَمْرٌ فَأَصَابَهُ شَيْءٌ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ^(١) ، وقوله صلى الله عليه وسلم لما سأله الجن الزاد في حديث الصحيح : « كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَعَ فِي يَدِ أَحَدِهِمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لِحِمَاً وَكُلُّ بَعْرِ عُلْفٍ لَدَوَائِهِمْ »^(٢) . ومن هنا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن الاستجمار بالعظم والروث وقال معللاً النهي : « فَإِنَّهُ زَادُ إِخْوَانِكُمْ مِنَ الْجِنِّ »^(٣) وقوله صلى الله عليه وسلم في صلاته بالليل : « إِنْ عَفَرْتُمَا مِنَ الْجِنِّ تَقَلَّتْ عَلَيَّ الْبَارِحَةُ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةُ فَأَمَكَّنِي اللَّهُ مِنْهُ فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى نَصْبَحُوا وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ .. الحديث^(٤) . وقوله صلى الله عليه وسلم في إرشاده لأمته أَنْ تَسْأَلَ اللَّهَ تَعَالَى عِنْدَ سَمَاعِ صِيَاحِ الدِّيَكِ وَتَسْتَعِيذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ عِنْدَ سَمَاعِ نَهْيِ الْحِمَارِ » وَإِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكاً ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهْيَ الْحِمَارِ فَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ رَأَى شَيْطَاناً^(٥) وقوله صلى الله عليه وسلم في الارشاد الى الآداب في حديث البخاري « التَّائِبُ مِنَ الشَّيْطَانِ »^(٦) وقوله صلى الله عليه وسلم أيضاً وهو يرشد أمته إلى كيفية رد كيد الشيطان ومجاهدته بدفع ما يلقيه

(١) أخرجه الترمذي (أطعمة / ٤٨) ، وأبو داود (٣٠ / ١) وابن حبان وغيرهم . ومعنى حساس : شديد الاحساس ، ولحاس : كثير اللحم ، غمر بفتح العين والميم : رائحة الضعاع .
(٢) رواه البخاري من حديث أبي هريرة وجاء فيه فقلت : فما بال العظم والروث ؟ قال هما من طعام الجن وأنه أتاني وفد جن نصيين ونعم الحن فأسألوني الزاد فدعوت الله لهم أن لا يمروا بعظم ولا بروث إلا وجدوا عليها ضعماً (٥٩ / ٧) .

(٣) رواه أبو داود والترمذي والنسائي .

(٤) متفق عليه واللفظ للبخاري اللؤلؤ والمرجان (١٠٩ / ١) .

(٥) متفق عليه واللفظ للبخاري اللؤلؤ والمرجان (٢٣٣ / ٣) ومتن البخاري (١٥٥ / ٤) .

(٦) متفق عليه واللفظ للبخاري اللؤلؤ والمرجان (٣٢٧ / ٣) متن البخاري (١٥٢ / ٤) .

من الشبه في نفس العبد «يأتي الشيطانُ أحدكم فيقول : مَنْ خَلَقَ كَذَا مَنْ خَلَقَ كَذَا حتى يقول مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وليته»^(١) وقوله صلى الله عليه في الصحيح كذلك «إِذَا كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ أَوْ أُتْسِيتُمْ فَكُفُّوا صَبِيَانَكُمْ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَتَشَرُّ حَيْثُ... الحديث»^(٢)

وجوب الإيمان بوجود الجن والشیاطین

لذلك الأدلة العقلية والفعلية ، التي سقناها كان الايمان بوجود الجن والشیاطین واجباً حتماً ، بل كان جزءاً من عقيدة المؤمن لا يتجزأ وكل محاولة لإخلاء العقيدة الإسلامية من التصديق بوجود عالمي الجن والشیاطین تعد كفراً صراحاً ، مخرجاً من الملة المحمدية لأجل ما في ذلك من التنكر للعقل ، ورفض بدهياته ، وتكذيب الله تعالى في أخبره ، وتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم . وكفى بتكذيب الله تعالى ، وتكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم كفراً وباطلاً .

بعض معلومات عامة عن الجن والشیاطین

وها هي ذي بعض المعلومات عن عالمي الجن والشیاطین ، نوردها تقريراً لمبدأ الإيمان بوجودها ، وتوضيحاً لكثير من معالم ذلك العالم الغيبي المجهول عند الذين يعيشون بعيدين عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

١ - مادة خلق الجن :

الجان هو أبو سائر الجن ، وهو مخلوق من مادة النار المعروفة ،

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري اللؤلؤ والمرجان (٢٦ / ١) .

(٢) متفق عليه واللفظ للبخاري اللؤلؤ والمرجان (١٦ / ٣) .

وكان خلقه قبل خلق الإنسان ، وذلك لقوله تعالى
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَنْسُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ
خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾^(١)
وهل السنة في خلق الجن وذريته كالسنة في خلق آدم وذريته ؟ بمعنى
أن الجن الأول خلق من نار وأولاده خلقوا بطريقة أخرى كالتناسل
محتمل والله أعلم .

٢ - لم سمي الجن جنّاً ؟

سمي الجن جنّاً لاجتنانهم وهو استارهم ، وعدم ظهورهم
للناس ، لأن الاجتنان هو الاستار . وهو مأخوذ من جن الليل إذا
أظلم ، فستر الأشياء بظلامه ، ومنه سميت جنة المقاتل وهي الخوة
التي يجعلها على رأسه في الحرب وسميت الجنة دار النعيم جنة ، لأنها
تستر بأشجارها الكثيرة الملتفة من يدخلها كما سمي الجنين في بطن أمه
جنيناً لاستاره ببطن أمه ، وعدم ظهوره . قال تعالى في الشيطان من
الجن :

﴿إِنَّهُ يَرْتَكِبُ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴿٢١﴾﴾

٣ - إفتقار الجن الى الغذاء :

إن الجن مفتقرون إلى الغذاء المناسب لذواتهم كافتقار سائر
الحيوانات والنباتات لأغذيتها المناسبة لها ، والدليل على هذه الحقيقة :
ما صح من أن الجن سألوا رسول الله ﷺ الزاد فقال لهم : « كُلُّ عَظْمٍ

(١) سورة الحجر الآيات (٢٦ ؛ ٢٧) .

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٧ .

يُذَكِّرُ بِسْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرُ مَا يَكُونُ لَحْمًا^(١)، ونهى ﷺ عن الاستجمار بالعظم ، وَقَالَ إِنَّهُ طَعَامُ إِخْوَانِنَا مِنَ الْجِنِّ^(٢) . كما نهى عن الأكل بالشمال والشرب بها وعلل ذلك بأن الشيطان يأكل ويشرب بِشِمَالِهِ^(٣) .

ثبت بهذه الأحاديث الصحيحة المخرجة في البخاري ومسلم أن الجن والشياطين يأكلون ويشربون ، وذلك لأجل التغذية اللازمة لهم حسب ذواتهم والطبيعة التي خلقهم الله تعالى عليها .

٤ - الجن يتوالدون :

لا شك أن الجن والشياطين تتم بينهم عملية التوالد بحسب طبيعة خلقهم وتكوينهم ، وأن لهم سنة في ذلك يتم بحسبها وجود ذرية لهم ، كما تتوالد سائر الأحياء ، كل على نظام السنة التي جعلها الله تعالى له . ويشهد لهذه الحقيقة ويقررها القرآن الكريم : حيث جاء فيه قول الله تعالى :

﴿ اٰتَّخِذُوْهُ وَاٰلِهٖٓ ذُرِّيَّتَهٗٓ اَوْلِيَآءَ مِنْ دُوْنِيْ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۭ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِيْنَ بَدَلًا ۝ۙ ﴾^(١)

فإن المنهي عن اتخاذه وذريته أولياء هو إبليس وذريته بدليل السياق إذ أُولِه :

﴿ وَاِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوْا لِاٰدَمَ فَسَجَدُوْٓا اِلَّاۤ اِبْلِیْسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ اَمْرِ رَبِّهٖۙ اَتَّخِذُوْهُ وَاٰلِهٖٓ ذُرِّيَّتَهٗٓ اَوْلِيَآءَ مِنْ دُوْنِيْ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۭ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِيْنَ بَدَلًا ۝ۙ ﴾^(٢)

(١) تقدم تخريج هذا الحديث قريباً في فصل أخبار الرسول ﷺ .

(٢) سورة الكهف الآية (٥٠) .

كما ورد في صحيح مسلم أن الشيطان يشارك الإنسان في طعامه وشربه وفراشه إن لم يذكر اسم الله تعالى عند أكله وشربه ومخالطة أهله^(١). ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ يَقُولُ حِينَ يَأْتِي أَهْلَهُ بِاسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبِ الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، ثُمَّ قُدِرَ بَيْنَهُمَا فِي ذَلِكَ، أَوْ قَضِيَ وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانُ أَبَدًا»^(٢).

٥ - هل بين الجن والشيطان فرق ؟

نعم إن بين الجن والشيطان فرقاً كبيراً، ولكي تتجلى هذه الحقيقة واضحة نذكر أن الخلق الراقي أربعة أنواع وهي : الملائكة ، والإنس ، والجن ، والشياطين .

فالملائكة : عالم روحاني مستقل له خصائصه ، وصفاته ، وأحواله ، وقد تقدم البحث مستفيضاً في بيان حقيقة هذا العالم العلوي الكريم .

والجن : نوعان ، شياطين لا خير فيهم البتة ، وجن منهم الصالح . ومنهم الفاسد ، فحالهم كحال الناس ، منهم البار ومنهم الفاجر ، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر ، بيد أن الشياطين أصلهم من الجن ، وذلك لأن إبليس كان من الجن لإخبار القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى :

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾^(٣)

(١) تقدم هذا الحديث بلفظه قريباً في فصل أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) متفق عليه واللفظ للبخاري ، اللؤلؤ والمرجان (٢ / ١٠٠) ، والبخاري (٧ / ٢٩ ، ٣٠) .

ومسلم (٢ / ١٥٥) .

(٣) سورة الكهف (٥٠) .

ولما أبلس الشيطان ، وطُرد من الرحمة الإلهية ، وانقطع من الخير كلية ، كانت ذريته مثله بحكم الوراثة ، لا خير فيهم أصلاً ، فلا يعرفون إلا الشر ، ولا يدعون إلا إليه . والمثل القريب لذلك أن الحية لا تلد إلا حية ، فلم يطرأ ولن يطرأ على نسلها منذ أن كانت تغيير بحيث تلد أولاداً ، لاسم فيهم ، ولا خبث معهم .

ثم إن كل من يخبث ، ويتمرد ، وينقطع عن الخير من أفراد الجان والإنسان يصبح مُطْطَاناً ، فإن عتا قيل فيه مارد . وإن زاد عتوه وطغيانه قيل فيه عفريت .

وقد أثبت القرآن العظيم هذه الحقائق كلها ، إذ جاء فيه أن من الجن شياطين ، ومن الإنس شياطين قال تعالى من سورة الأنعام :

﴿ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (١)

كما جاء فيه أن من الجن صالحين وذلك في قوله تعالى فيما حكاه عن الجن من سورة الجن :

﴿ وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَّا دُونُ ذَلِكَ ﴾ (٢)

كما أخبر تعالى أنه خلق الجن كالإنس لعبادته وطاعته في قولا جل جلاله :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (٣)

(١) الآية (١١٢) .

(٢) الآية (١١) .

(٣) سورة الذاريات الآيات (٥٦ - ٥٨) .

كما أخبر تعالى أن الشيطان يأمر بالفحشاء في قوله من سورة البقرة :
﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾^(١)

كما أخبر تعالى أن الشيطان يضل من يتبعه ، ويهديه إلى عذاب السعير في قوله من سورة الحج :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ﴿٢٠﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾^(٢)

وهذا هو النوع الذي لا خير فيه من شياطين الجن ، وهو إبليس عليه لعائن الله تعالى .

٦ - هل الجن والشياطين يتشكلون ؟

لا شك في أن الجن كالشياطين يتشكلون بأشكال مختلفة ، ويتلونون تلونا كبيرا ، وهذا مما دل عليه دليل السمع ، والمشاهدة . وهو من الممكنات الجائزة عقلا ، اذ تصوّر وجودها لا يوجب تناقضا عقليا أبداً .

ومن الأخبار الدالة على تشكل الجن بأشكال متعددة ما يلي :

١ - مجيء الشيطان إبليس إلى دار الندوة في مكة ورجال قريش مجتمعون فيها للتشاور في أمر النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ودعوته الإسلامية التي أظهرها فيهم ، فتحيروا لها ، وعظم عندهم أمرها ، فاجتمعوا يبحثون عن تخريج لهم منها ، ولو كان قتل النبي صلى الله عليه وسلم ، أو حبسه ، أو نفيه ، فهم كذلك حتى دخل عليهم

(١) الآية (٢٦٨) .

(٢) الأيتان (٤، ٣) .

الشيطان في صورة رجل كبير محترم من رجالات نجد ومشائخها الموقرين ، وشارك في اجتماعهم ، ومداولاتهم ، ورجح لهم اقتراحاً حاز أغلبية الأصوات وهو أسوأ اقتراح تقدم به إنسان وأقبحه ، وأكثره شراً وفساداً ، ألا وهو الحكم بقتل الرسول صلى الله عليه وسلم^(١).

فهذه الحادثة متواترة لا مجال للشك فيها فضلاً عن إنكارها وجحودها .

٢ - تشكل جانب من جنان المدينة النبوية في صورة حية ،

لما روى مسلم أن أبا سعيد الخدري قال : كَانَ فَتًى مِّنَا حَدِيثُ عَهْدٍ بِعَرَسٍ ، فَخَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْخَنْدَقِ ، فَكَانَ ذَلِكَ الْفَتَى يَسْتَأْذِنُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِأَنْصَافِ النَّهَارِ ، فَيَرْجِعُ إِلَى أَهْلِهِ ، فَاسْتَأْذَنَهُ يَوْمًا ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : خُذْ عَلَيْكَ سِلَاحَكَ فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ قُرَيْظَةً ، فَأَخَذَ الرَّجُلُ سِلَاحَهُ ، ثُمَّ رَجَعَ ، فَإِذَا امْرَأَتُهُ بَيْنَ الْبَابَيْنِ قَائِمَةٌ ، فَأَهْوَى إِلَيْهَا بِالرَّمْحِ لِيُطْعَمَهَا بِهِ ، وَأَصَابَتْهُ غَيْرَةً ، فَقَالَتْ لَهُ : أَكْفُفْ عَلَيْكَ رِمَحَكَ ، وَادْخُلِ الْبَيْتَ حَتَّى تَنْظُرَ مَا الَّذِي أَخْرَجَنِي ؟ فَبَدَخَلَ فَإِذَا بِحَيَّةٍ عَظِيمَةٍ مُنْطَوِيَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ فَأَهْوَى إِلَيْهَا بِالرَّمْحِ فَانْتَضَمَهَا بِهِ ، ثُمَّ خَرَجَ فَرَكَّزَهُ فِي الدَّارِ فَاضْطَرَبَتْ عَلَيْهِ ، فَمَا يُدْرِي أَيُّهُمَا كَانَ أَسْرَعَ مَوْتًا : الْحَيَّةُ أَمْ الْفَتَى ؟^(٢).

٣ - تشكل شيطان في صورة إنسان ، وسرقته من تمر الصدقة كما

جاء في حديث أبي هريرة عند البخاري ، إذ فيه ما معناه أن أبا هريرة جعله رسول الله ﷺ على حراسة تمر الصدقة « الزكاة » فكان الجان يأتيه

(١) ذكر القصة ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ١٧٥ - ١٧٦) وابن هشام (٢/ ١٠٣ - ١٠٥) .

(٢) مسلم (٧/ ٤٠) .

في صورة إنسان وتأخذ من تمر الزكاة ، فقبضه ، وأراد أن يوقع به فاعتذر اللعين فتركه ، ثم أثنى للمرة الثالثة ، وعندها عزم أبو هريرة على أن يذهب به إلى رسول الله ﷺ غير أن الشيطان اعتذر كذلك بأن له عيلاً ، وأنه مضطر ، وطلب من أبي هريرة أن يسو عنه ، على أن يعلمه آية من كتاب الله تعالى من قرأها فإن الشيطان لا يقربه . وهذه الآية هي آية الكرسي ، فعفا عنه وتركه . ولما لاقى أبو هريرة رسول الله ﷺ بادره النبي ﷺ قائلاً : ما فعل أسيرك البارحة ؟ فقال له أبو هريرة كان من أمره كذا وكذا . فقال له النبي ﷺ صدقك وهو كذوب !!!^(١)

تنبيه :

على إثر تقريرنا أن الجن والشياطين يتشكلون ، كما تشكل الملائكة ننبه إلى أنه لم يثبت لدينا خبر صحيح عن كيفية شكل الملائكة ، والجان ، والشياطين ، غير أنه لا يبعد أن يكون الله تعالى قد علمهم أسماء يدعون بها ، أو كلمات يقولونها فيتم لهم ذلك الشكل على الصورة التي يريدون ، في حدود ما أذن لهم فيه ، بدليل أن الشيطان لا يقدر على التمثيل بصورة الرسول ﷺ لقوله عليه الصلاة والسلام : « مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى حَقًّا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي »^(٢)

٧ - أين يسكن الجان ؟

الغالب في الجن والشياطين أنهم يسكنون الخرائب ، والحشوش ، والمزابيل ، والقمامات لحديث أبي داود « إن هذه الحشوش

(١) رواه البخاري تعليقاً (٣ / ١٢٥) .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم ، المؤلّف والمرجان (٣ / ٨٠) والبخاري (٩ / ٤٢) ومسلم (٧ /

محتضرة فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل أعوذ بالله من الخبث والخبائث .

ومن هنا كانت الشياطين تنزل على أخبات الرجال والنساء من أهل الآثام والأفاكين ، الملوئين بالذنوب ، والجرائم العظام . قال تعالى من سورة الشعراء :

﴿ هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾^(١)

٨ - هل الجن تسترق السمع من الملأ الأعلى ؟

نعم إن الله تعالى أعطى الجن والشياطين قدرة على العروج إلى الملكوت الأعلى ، فلذا هم يعرجون كما تعرج الملائكة من الأرض إلى السماء ، ويسترقون السمع من الملائكة ، ويهبطون به إلى الأرض ، ومن كان له ولي من الإنس يقضي به إليه ، ليحدث به الناس ، فيفتنهم ، ويغويهم ، ويشهد لهذه الحقيقة ويشتها ما قصه الله تعالى في كتابه ، وحكاها عن الجن أنفسهم في قوله من سورة الجن :

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً مِنَّا فَخُذْ بَعِثْنَا فِي نَفُسِنَا فَخَرَّ السَّجْدُ فَاسْتَمَعْنَا لَهُمْ فَأَمَّارُ السَّمَاءِ فَمَنْ يَمَسُّ لَيْسَ أَشَدَّ لَعْنًا ﴿٢٢٤﴾ إِنَّا سَمِعْنَا لَعْنَهُمْ وَأَنَّا كَانُوا فِي آيَاتِنَا مُخَوَّلِينَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدِ اللَّسَمِ فَفَنُصِتْهُمْ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يَهْدِي الْغَلَامَ وَالْغُلَامَ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُصَرِّصْهُ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ وَلَئِنَّا لَهُ لَنَدِيرٌ ﴿٢٢٦﴾ ﴾^(٢)

كما يؤكد هذه الحقيقة حديث البخاري ، والذي فيه أن النبي ﷺ قال : « إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي الْعِنَانِ وَهُوَ السَّحَابُ ، فَتَذَكَّرُ الْأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ ، فَتَسْرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ ، فَتَسْمَعُهُ فُتُوحِيهِ إِلَى الْكُهَّانِ

(١) الآيات (٢٢١ - ٢٢٣) .

(٢) الآيات (٨ - ١٠) .

فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مَائَةً كَذِبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ،^(١)

٩ - الجن أقل قدراً وأدنى كرامة من الإنسان :

إن الجن حتى الصالحون منهم لأقل قدراً ، وأدنى كرامة ،
وانقص شرفاً من الإنسان ، إذ قرر الخالق عز وجل كرامة الإنسان ،
وأثبتها في قوله من سورة الإسراء :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ
الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾^(٢)

ولم يثبت مثل هذا التكريم للجان لا في كتاب من كتب الله ، ولا على
لسان رسول من رسله عليهم السلام ، فتبين بذلك أن الإنسان أشرف
من الجان ، ويدل على ذلك أيضاً شعور الجن أنفسهم بنقصانهم ،
وضعفهم أمام الإنس ، يدل على ذلك أنهم كانوا إذا استعاذ الإنس بهم
تعاظموا وترفعوا لما في استعاذة الإنسان بهم من تعظيمهم ، وإكبارهم
وهم ليسوا كذلك فيزدادون رهقاً أي طغياناً وكفراً . قال تعالى في
الحديث عنهم من سورة الجن :

﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ
رَهَقًا ﴾^(٣)

ويشهد لذلك أيضاً أن الإنسان إذا توسل بهم ، أو بأسماء عظمائهم ، أو
أقسم بأشرافهم أجابوه ، وقضوا حاجته ، كل ذلك شعور منهم
بالضعف ، والحقارة أمام ابن آدم الكريم على الله تعالى إذا آمن بالله
تعالى ، وعبدته موحداً له في ربوبيته ، وعبادته ، وأسمائه ، وصفاته .

(١) البخاري (٤ / ١٣٥) .

(٢) الآية (٧٠) .

(٣) الآية (٦) .

أما بدون ذلك فإن الإنسان كالجنان ، وصالحو الجان أفضل وأكرم من كفار بني آدم ومشركيهم .

١٠ - هل صالحو الجن يدخلون الجنة ؟

قد سبق أن قررنا فيما تقدم ، وبيننا بوضوح أن الجن غير أولاد إبليس ، خلّقوا لعبادة الله تعالى وطاعته ، شأنهم في ذلك شأن بني الإنسان ، وأن منهم الصالحين ، ومنهم دون ذلك ، وعليه فالصالحون منهم ، وهم أهل الإيمان والتقوى يدخلون الجنة ، وينعمون فيها إن هم ماتوا على الإيمان والتوحيد ، والتقوى والعمل الصالح .

والدليل على هذه الحقيقة العلمية عمومات قوله تعالى :

﴿ إِنَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾^(١)

وقوله تعالى :

﴿ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُزُوبٌ ﴾^(٢)

وقوله تعالى :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾^(٣)

فكلمة (من) من الفاظ العموم فيدخل فيها كل من حقق الشرط الذي قرّن بها من إمس وجن ، ويتلقى الجزاء ، وهو المغفرة ، والجنة كل من سن الشرط من إمس وجني . وأصرح في الدلالة من هذا قوله تعالى من سورة الرحمن

(١) سورة الروج الآية (١١) .

(٢) سورة الأنبياء الآية (٩٤) .

(٣) سورة المائدة الآية (٩) .

﴿وَلِمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾^(١)

في سياق ذكر الإنس والجن معاً .

١١ - هل الجن يؤذون الناس ؟

إن أذى الجن للإنس ثابت لا يُنكر ، حيث ثبت ذلك بالدليل السمعي ، والدليل الحسي ، والعقل لا يحيله ، بل يجيزه ويقره ، ولولا المعقبات من الملائكة التي أُنِيطَ الله تعالى بها حفظ الإنسان لما نجا من الجن والشياطين أحد .

وذلك لعدم رؤية الإنسان لهم ، ولقدرتهم على الانتقال والتحول بسرعة ، ولكون أجسامهم من اللطافة بحيث لا تشعر بها ، ولا نحس ، ومن هنا كان مما لا شك فيه أن بعض الجن يؤذون بعض الناس ، إما لكون الإنسان قد تعرض لهم بالأذى فآذاهم بصب ماء حار عليهم ، أو ببوله عليهم ، أو بتزوله في بعض منازلهم وهو لا يشعر ، فيتقنون فيؤذونه .

وإما لمجرد الظلم من بعضهم ، فيؤذون الإنسان بدون سبب كما يحدث ذلك بين الإنسان وأخيه الإنسان ، إذ أحياناً يؤذي الإنسان أخاه لسبب خاص ، وأحياناً لمجرد الظلم ، كما هو مشاهد في الناس عند فساد فطرهم ، وضعف إرادتهم ، وعقولهم ، وقد تقدم حديث الصحيح وجاء فيه أن الشاب الأنصاري لما طعن الجني المتمثل في صورة حية ، ما ماتت الحية حتى انتقم منه الجن ، وقتلوه ، فمات لغوره حتى قال أبو سعيد « لم يدر أيهما كان أسرع موتاً من صاحبه الحية أم الفتى »^(٢) ؟
ولشهرة هذه الحقيقة ، وتسليم الناس بها لا نطلب لها إيضاح شواهد

(١) الآية (٤٦)

(٢) رواه مسلم وتقدم في (هل الشياطين يشكرون) ؟ (ص ٢٢٤ - ٢٢٦) .

أخرى ، ونكتفي بحادثة الأنصاري الثابتة في صحيح مسلم ، وبذكر
حادثة أخرى تمت في بيتنا وعشنا آلامها ، وعانينا آثارها السيئة .

إنه كان لي أخت أكبر مني تدعى « سعدية » وكنا يوماً ونحن
صغار نطلع عراجين التمر من أسفل البيت إلى سطحه بواسطة جبل
يربط به القنور (العرجون) ونسجبه إلى السطح ونحن فوقه ، فحصل أن
أختي سعدية جرت الحبل ، فضعفت عنه ، فغلبها فوقعت على الأرض
على أحد الجنون ، فكأنها بوقوعها عليه آذته أذى شديداً ، فانقم منها
فكان يأتيها عند نومها في كل اسبوع مرتين أو ثلاثاً ، أو أكثر فيخنقها ،
فترفس المسكينة برجليها ، وتضطرب كالشاة المذبوحة ولا يتركها إلا
بعد أن تصبح أشبه بميتة ، ونطق مرة على لسانها مصرحاً بأنه يفعل بها
هذا لأنها آذته يوم كذا في مكان كذا . . وما زال يأتيها ويعذبها بصرعة
تأتيها عند النوم فقط حتى قتلها بعد نحو عشر سنوات من العذاب الذي
لا يطاق ، فصرعها ليلة على عادته فما زالت ترفس برجليها وتضطرب
حتى ماتت - غفر الله لها ، ورحمها أمين .

هذه الحادثة عشتها ، وبعيني رأيته ، وما راء كمن سمع !!!

فائدة عظيمة

ونختتم هذا البحث في موضوع الجن والشیاطین بفائدة جلیلة ، وهي أن التحصن من الشیاطین ، والاحتراز منهم ممکن ، إذا استعمل المؤمن واحداً من سبعة أشياء وهي :-

١ - الاستعاذة بالله تعالى ، لقوله عز وجل ،

﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١)
ولقول الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث الصحيحين : « إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ »^(٢).

٢ - قراءة المعوذتين : قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب

الناس لحديث النسائي وغيره وهو حديث حسن الإسناد : « يا ابن عباس أَلَا أَدُلُّكَ أَوْ أَلَا أَخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ مَا تَعُوذُ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ ؟ قَالَ : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ، وَقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ »^(٣).

(١) سورة فصلت الآية (٣٦) .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم اللؤلؤ والمرحان (٣/١٩٩) . ومسلم (٨/٣١) . والحاوي (٣٤/٨ ، ٣٥)

(٣) النسائي (٨/٢٢٠ ، ٢٢١) .

٣ - قراءة آية الكرسي :

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾^(١)

لحديث أبي هريرة في صحيح مسلم وقد تقدم^(٢) حيث جاء فيه : « أَنَّ الشَّيْطَانَ لَمَّا أَلْقَى أَبُو هُرَيْرَةَ عَلَيْهِ الْقَبْضُ قَالَ : أَطْلَقْنِي وَأَعْلِمَكَ آيَةٌ لَا يَرُوهَا أَحَدٌ وَيَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا ، وَقَدْ أَقْرَأَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : « صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ » .

٤ - قراءة سورة البقرة بكاملها ، لحديث مسلم وفيه : « لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفُرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ »^(٣)

٥ - ذكر لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة ، فإن من فعلها كانت له عدل عشر رقاب ، وكتب له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه^(٤) .

٦ - ذكر الله تعالى لحديث الترمذي وفيه قال يحيى بن زكريا

(٤) سورة البقرة الآية (٢٥٥) .

(٥) في «هل الجن والشياطين يتشكلون؟» في (ص ٢٢٣ - ٢٢٤) .

(٣) رواه مسلم (١٨٨/٢) .

(٤) متفق عليه اللؤلؤ والمرجان (١/٥٢٥) .

« وأمركم أن تذكروا الله تعالى فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم . كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى »^(١).

٧ - الوضوء عند الغضب ، فمن غضب فليتوضأ فإنه يعصم نفسه من الشيطان أن يحمله على ارتكاب ما لا ينبغي ، أو ما لا يحسن من قول أو فعل ، وذلك لحديث أبي داود : « إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ مِنَ النَّارِ ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ »^(٢).

(١) الترمذي (أدب / ٧٨) .

(٢) أبو داود (٥٥٠ / ٢) ، وأحمد (٢٢٦ / ٤) .

الركن الثالث من أركان عقيدة المؤمن الإيمان بالكتب

تعريف :

الكتب جمع كتاب ، والكتاب : مصدر كتب يكتب كتباً وكتاباً وكتابة إذا جمع الحروف ، وألف بينها ، فكانت كلمات ذات معان خاصة ، ثم كون من تلك الكلمات ذات المعاني جملاً مفيدة ، تسمى كلاماً .

فالكتاب إذاً هو ما حوى كلاماً مفيداً ، ذا أغراض متعددة . وكتب الله تعالى التي يجب الإيمان بها : هي الصحف التي حوت كلام الله عز وجل الذي أوحاه إلى رسله عليهم السلام فكانت كتباً ، أو بقيت صحفاً لم تجمع ، ولم يتكون منها كتاب خاص . فالصحف كصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام . والكتب كالطورا ، والزبور ، والإنجيل والقرآن العظيم .

حقيقة الإيمان بالكتب :

إن معنى الإيمان بالكتب الإلهية الذي هو جزء من عقيدة المؤمن : التصديق الجازم بما أوحى الله تعالى من كلامه الخاص إلى من اصطفى من رسله عليهم السلام ، فجمع ودون فكان صحفاً مطهرة ، وكتباً قيمة .

فما عرف منها آمن به المؤمن تفصيلاً ، وما لم يعرف آمن به

ما عرف من الكتب الإلهية وما لم يُعرف

إن المصدر الوحيد الذي يرجع إليه في معرفة الكتب الإلهية بالتفصيل هو القرآن الكريم وحده ، إذ هو الكتاب المحفوظ حفظاً ، لا يتطرق إليه معه الزيادة ، ولا النقص ، ولا التحريف ، ولا التغيير ، أو التبديل ، بحال من الأحوال : لأنه من ساعة نزول الآية منه أو الآيات ، أو السورة القصيرة أو الطويلة ورجال متوفرون لكتابته في سطورهم ، وحفظه في صدورهم ، فلم يتم نزوله في خلال الثلاث والعشرين سنة من عهد النبوة المحمدية حتى حفظه عن ظهر قلب مئات الرجال الأذكياء الأمناء ، ثم لم يمض غير قصير زمن حتى أصبح حفاظ القرآن غيباً في الصدور عشرات آلاف من الرجال الأفاضل ، والنساء الفضليات ، واستمر محفوظاً في الصدور ، ومدوناً في السطور ، ترعاه دول ، وأمم ، وشعوب ، وحكومات ، وتتوارث حفظه ، ورعايته الأجيال جيلاً بعد جيل إلى يومنا هذا . وأكبر شاهد أنني أنا كاتب هذه العقيدة أحفظه عن ظهر قلب ، وكذا والدي رحمه الله ، وجدي كذلك ، وقد يكون جد أبي كذلك . وسوف يستمر القرآن محفوظاً بحفظ الله تعالى له إلى قرب نهاية هذه الحياة ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾^(١)

(١) سورة الحجر الآية (٩)

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بِالدِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ
الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾^(١)

وقد ذكر القرآن الكريم من الكتب السابقة صحف إبراهيم ،
وصحف موسى وثلاثة كتب هي :

توراة موسى ، وزبور داود ، وإنجيل عيسى ، عليهم السلام ، ذكرها في
مواضع متفرقة منه : نذكر منها قوله تعالى من سورة الفرقان :
﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴾^(٢)
والمراد من لفظ الكتاب في هذه الآية التوراة ، وقوله تعالى في الحديث
عن اليهود :

﴿ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ
ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٣) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ
يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا
أَسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾^(٤)
وقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾^(٥)
وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ
وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ﴾^(٥)

(١) سورة فصلت الآيات (٤١ ، ٤٢) .

(٢) سورة المائدة الآيات (٤٣ ، ٤٤) .

(٣) الآية (٣٥) .

(٤) سورة الحديد الآية (٢٧) .

(٥) سورة الإسراء الآية (٥٥) .

وقوله تعالى :

﴿إِنَّ هَذَا نَبِيُّ الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ (١)

فقد جاء في هذه الآيات ذكر ثلاثة كتب إلهية مع كل من صحف إبراهيم وموسى ، كما جاء في مواضع أخرى من القرآن ذكر بعض ما جاء فيها من أخبار نحو قوله تعالى في التوراة :

﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ ۖ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ۖ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢)

حيث ذكرت حكماً من أحكام القصاص في الأطراف . ونحو قوله تعالى :

﴿يُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلَهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ (٣)

فقد نصت هذه الآية القرآنية على أن وصف الرسول محمد ﷺ ووصف أصحابه في كل من التوراة والإنجيل بنفس المعنى الذي حوته هذه الآية القرآنية الكريمة . كما جاء في قوله تعالى :

(١) سورة الأعلى الأيتان (١٨ ، ١٩) .

(٢) سورة المائدة الآية (٤٥) .

(٣) الآية (٢٩) من سورة النحل

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ
وِزْرَ أُخْرَى ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ
يُرى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾ ﴾

فقد نصت هذه الآيات من القرآن الكريم على أن في صحف كل
من إبراهيم وموسى : الإخبار بأن النفس المذنبة يوم القيامة لا يحمل
عنها ذنبها غيرها ، وأن الإنسان ليس له من نتائج العمل إلا ما عمله ،
وسعى فيه بنفسه ، كما أن سعي الإنسان سوف يعرف به ، ويجزاه كاملاً
غير منقوص .

فهذه الكتب التي ذكرت في القرآن الكريم بأسمائها ، وأسماء
أصحابها الذين نزلت عليهم ، يؤمن بها المؤمن تفصيلاً كما ذكرت
مفصلة ، ويؤمن بـ: كتب الله تعالى التي لم تذكر في القرآن
مفصلة ، حيث لم يرد في القرآن ذكر أسمائها ، ولا أسماء من نزلت
عليهم ، وإنما ذكرت مجملة كما في قوله تعالى من سورة الحديد :
﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ
لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (٢)

وكما في قوله تعالى من سورة البقرة :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ
مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ (٣)

(١) سورة النجم الآيات (٣٦ - ٤١) .

(٢) الآية (٢٥) .

(٣) الآية (٢١٣) .

فقد جاء في هاتين الآيتين ذكر الكتب مجملًا فيؤمن بها المؤمن
مجملًا ، وإن لم يعرف أسماءها ولا أسماء من أنزلت عليهم .

وهكذا تتلخص عقيدة المؤمن في الإيمان بالكتب بأنه يؤمن بكل
كتاب أنزله الله تعالى على من اصطفى من رسله ، لحمل رسالاته ،
وإبلاغها إلى عباده ، فما عُرف منها مفصلاً آمن به مفصلاً ، وما عرفه
منها مجملًا آمن به مجملًا . ولا يؤمن ببعض ويكفر ببعض تعصباً
وضلالاً ، كما هو حال اليهود والنصارى الذين آمنوا بالتوراة المحرفة ،
والإنجيل المبدل المغير ، وكفروا بالقرآن المحفوظ الباقي غصاً طرياً
كما نزل ، والصافي المحض ، الذي لم يُشب . فكانوا كمن آمن
بالباطل وكفر بالحق . وهم - يعلم الله - لكذلك .



على أي دليل آمن المؤمن بالكتب ؟

إن المؤمن لم يكن في حاجة إلى أدلة عقلية ، ولا حسيّة سمعية ليؤمن بالكتب الإلهية بعد أن آمن بالله وملائكته إيماناً راسخاً ، لا تزغزعه أعاصير الشك ، ولا تعصف به عواصف الأوهام مهما كانت عنيفة قوية لأنه يبنى دائماً أسس معتقده على العلم والمعرفة ، ويتحاشى دوماً أن يؤمن إيمان التقليد والتبعية ، فلذا سنذكره هنا بأصل كل الأدلة ، وأم كل البراهين ليقم اعتقاده بالكتب عليهما ، كما أقام ويقم كل معتقداته عليها إذ هما الدليلان اللذان لا يسقطان ، والبرهانان اللذان لا يُغلبان ، وهما دليل الأثر والخبر اللذان ثبت بهما كل غيب ، وآمن به كل عقلاء البشر ، فمن دليل الأثر نكتفي بأثر واحد وهو القرآن الكريم ، الكتاب الذي دل وجوده دلالة قوية قطعية على وجود منزله ، وعلى علمه ، وقدرته ، وحكمته ، ورحمته ، ودل على نبوة من أنزل عليه ، وعلى رسالته ، وعلمه ، وحكمته ، وفضله ، وشرفه ، وكماله ، كما دل بالتالي على ذات نفسه ، بأنه كتاب الله ، ووحيه ، وتنزيله ، كما قرر نزول كتب الله السابقة النزول عليه ، حيث ذكر صحف إبراهيم ، وتوراة موسى ، وزبور داود ، وإنجيل عيسى عليه السلام ، وذكر طرفاً مما جاء فيها من أخبار وأحكام ، كما قرر أن الله كتباً أخرى لم يكن اليوم بيد الناس منها شيء . .

وبعد : فأي أثر من الآثار الدالة على غيرها دل دلالة القرآن الكريم على نفسه وعلى غيره من كتب الله تعالى ؟؟ .

إن من يصفي إلى صوت العقل ، ويستمع إلى شهادة الفطرة ،
ويحكم شواهد الوجدان البشري ، ويرضى بحكمها ، لا يسعه أبداً غير
الإيمان بالله رباً ، ومحمد نبياً ورسولاً ، وبالقرآن إماماً وحاكماً ،
وبالإسلام شرعاً وديناً ، كل ذلك لدلالة القرآن العظيمة التي لا أرى ما
هو أعظم منها في باب الدلالات على اختلافها وتنوعها ، إذ القرآن -
وهو كتاب معجز - قد حوى علوماً ومعارف لم يأت للبشر أفراداً
وجماعات ، وأمماً ، وشعوباً إلاّ بيان بمثله حتى ولو أضيف إليهم العالم
الثاني (الجن) ، والتحدّي ما زال قائماً في قوله تعالى :

﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ
بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾^(١)

القرآن الذي هذا هو واقعه قد ثبت ثبوتاً قطعياً بغينا أيضاً أنه نزل
وحياً على محمد ، النبي الأمي ﷺ ، ولم يكن من تأليف أحد من
الخلق ، ولا من نظمه فضلاً عن أن يكون من تأليف محمد ﷺ ، أو من
نظمه ، وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب ، إذ حكم العادة البشرية جار
على أن من لم يقرأ ولم يكتب ، ولم يجلس بين يدي معلم قط ،
يستحيل في حقه أن يأتي بمثل القرآن في علومه ، ومعارفه ، وشرائعه ،
وآدابه ، وقصصه ، وأخباره ، يأتي بمثله من نفسه ، لاسيما وأن المنزل
عليه ﷺ قد قضى أربعين سنة من عمره المبارك لم يتكلم فيها بوحى ،
ولم ينطق فيها بقرآن قط .

وبالجملة فإن دلالة القرآن على ما ذكرنا من وجود الله تعالى ،
وعلمه ، وحكمته ، وقدرته ، ورحمته ، وعلى نبوة محمد ورسالته
وفضله ، وشرفه ، وكماله ، وعلى أن القرآن نفسه وحى الله ، وكتابه ،

(١) سورة الإسراء الآية (٨٨) .

وأن الكتب التي سبقتها هي كذلك كتب الله ، مُنزلة وموحى بها إلى من نزلت عليه من رسل الله ، وأنبيائه ، دلالة عقلية منطقية ، لا ترد بحال ، وبرهان عقلي لا يغلب بآخر ، وأن كل من أراد أن ينفي عن القرآن دلالة العظيمة على ما ذكرنا إنما أراد أن يتورط في إثبات مستحيلات قضت كل العقول باستحالة إثباتها وهي :

- ١ - وجود كلام بدون متكلم .
- ٢ - وجود علم بدون عالم .
- ٣ - وجود رسالة بدون رسول ولا مرسل .
- ٤ - وجود نبوة بدون نبي ولا منبىء .
- ٥ - وجود دلالة بدون دليل .
- ٦ - وجود أثر بدون مؤثر .

هذه ستة مستحيلات كلها يقول بها من يركب رأسه ، ويحاول أن ينكر دلالة القرآن على ما ذكرناه آنفاً . وهل يليق بعاقل أن يرتكب هذه الحماقات ، ويقول بتجويز هذه المستحيلات الستة ؟ اللهم ، لا .

ودليل الخبر :

ما الذي نوره من الأخبار وهي متكاثرة متواترة ؟ إن العاقل الحي من الناس ليخجل إذا أراد أن يدل على وجود البدهيات العقلية ، والضرورات الكونية .

أرأيت لو قام أحد في وسط جمع حاشد من الناس ، يدل لهم في حماس على وجود الشمس والقمر ، والأرض والسماء ، أو على حاجة العطشان إلى الماء ، والجائع إلى الطعام ، أو المريض إلى الدواء ، والخائف إلى الأمان ، فكيف يكون حاله من الغرابة والعجب ؟!

إذا فإن حال من نصب نفسه للناس يدل لهم على أن الله تعالى

قد أنزل كتباً ، أوحاها إلى رسله بعد أن قرأ الناس تلك الكتب ، وعملوا بها ، وانتفعوا بهديها ، ورفعتهم إلى المستوى اللائق بهم من الكمال البشري ، ومنذ آلاف السنين ، لأعجب وأعجب من حال الأول - والله المستعان ! ! .

ومع هذا فسوف نورد أخباراً هي أصدق أخبار تلقاها الإنسان منذ أن كان : هي أخبار الله تعالى الخلاق العليم ، ومن أصدق من الله حديثاً ؟ يقول تعالى في تقرير إنزاله الكتاب على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليحكم بين الناس :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْتِكَ اللَّهُ ﴾ (١)

ويقول في الامتنان على رسوله بما فضله وأنعم به عليه ، وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً (٢)

ويقول في الإخبار عن توحيده في ألوهيته ، وبيان إفضاله وإنعامه على خلقه بإنزال الكتاب بالحق على رسوله مصداقاً لما بين يديه من الكتب التي سبقت ، وإنزال التوراة ، والإنجيل ، والفرقان :

﴿ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (٣) نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴿٥﴾ (٣)

(١) سورة النساء الآية (١٠٥) .

(٢) سورة النساء الآية (١١٣) .

(٣) سورة آل عمران الآيات (١ - ٤) .

ويقول في تقرير وحيه إلى أنبيائه ورسله ، وإيتائه داود زبوراً ، وتكليمه موسى تكليماً ، وفي بيان الحكمة من إرسال الرسل .

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۖ ﴾ (١٦٦) ورسلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٧﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٨﴾

ونكتفي بهذا القدر من أخبار الله تعالى محيلين من أراد المزيد على كتاب الله القرآن الكريم ، فإن فيه من أخبار الله تعالى المصروفة بوحيه وكتبه ، وبأسماء كتبه ، وأسماء رسله الذين أوحى إليهم ، وأنزل كتبه عليهم ، الأمر الذي لا يترك مجالاً لأدنى شك يمكن أن يوجد في نفس انسان في شأن الكتب الإلهية ، ووجوب الإيمان بها ، والتصديق بما ورد فيها من أخبار وأحكام ، وشرائع وآداب .

(١) سورة النساء الآيات (١٦٣ - ١٦٥) .

أدلة وجوب الإيمان بالكتب الإلهية ، وكونه ركن الإيمان

إن الإيمان بالكتب السماوية الإلهية لواجب شرعاً كما هو واجب عقلاً وهذا بيان ذلك :

أما كون الإيمان بالكتب الإلهية واجباً شرعاً فذلك لأن الله تعالى أمر به أمراً جازماً لا يقتضي إلا طاعة الله تعالى فيه ، وتحريم معصيته إذ قال تعالى في الأمر بالإيمان بكتبه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَ الْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَ الْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَ الْيَوْمِ ءَ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(١)

إن هذه الآية وحدها كافية في الدلالة على وجوب الإيمان بكتب الله تعالى عامة ، وبالقُرآن الكريم كتاب الإسلام والمسلمين خاصة ، وفي تحريم التكذيب بها ، وعدم التصديق بكل ما جاء فيها ، مما هو وحي الله ، وكلامه سبحانه وتعالى .

إن الإيمان بالكتب ليس واجباً فحسب بل هو أحد أركان الإيمان الستة التي لا يصح إيمان عبد إلا باستكمالها بالإيمان بها كلها . وإنه - الإيمان بالكتب - للركن الثالث من تلك الأركان ، التي هي بناء العقيدة

(١) سورة النساء الآية (١٣٦) .

الإسلامية ، كما جاء ذلك في الكتاب والسنة ؛ ففي الكتاب يقول تعالى
من سورة البقرة :

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ
ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ
عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي
الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا
وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾^(١)

ويقول :

﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ءَ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ
وَمَلَائِكَتِهِ ءَ وَكُتُبِهِ ءَ وَرُسُلِهِ ءَ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ءَ﴾^(٢)

ومن السنة حديث مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه
والذي جاء فيه سؤال جبريل للرسول صلى الله عليه وسلم عن
الإيمان ، وجواب الرسول له بأنه : الإيمان بالله ، وفلائكته ، وكتبه ،
ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خير وشره (حلوه ومفه)^(٣).

وأما كون الإيمان بها واجباً عقلاً فإنه يظهر للمتأمل من حيث
حاجة العباد إليها ، وإقامة الحجة عليهم بها ، فإن الرسول المبلغ عن
الله شرائعه وأحكامه يحتاج غالباً في إثبات رسالته إلى كتاب من الله
تقوم به الحجة له على تلك الأمة التي أرسل إليها حتى يؤمنوا به ،

(١) الآية (١٧٧) .

(٢) سورة البقرة الآية (٢٨٥) .

(٣) مسلم (٢٩/٢٨/١) .

ويصدقوه ، ويتبعوه ويعملوا بما جاءهم به ، والتشريع الإلهي نفسه يفتقر إلى كتاب يحويه ، ويتضمنه ، ويثبت فيه ، ليبقى بعد وفاة الرسول الذي جاء شرعاً محفوظاً ، تعمل به الأجيال إلى المدى الذي حدد له بنسخه برسالة أخرى ، أو بنسخ بعض ما جاء فيه كما حصل للتوراة والإنجيل ، فقد نسخ الله تعالى بالإنجيل بعض أحكام التوراة ، ونسخ بالقرآن الكريم الإنجيل والتوراة كليهما .

ولولا بقاء الكتاب بعد الرسول لضاع الدين الذي جاء به ، أو ضاع الكثير منه ، وحينئذ يقول الناس : بم نعبد الله ، وكيف نعبده ولم يكن لدينا من شرائعه ما نعبده به ؟؟ .

وتكون لهم الحجة على الله تعالى ، وهذا ما لم يردده الله تعالى حيث صرح بنفسه في قوله
﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(١)

فهذه المسائل الثلاث :

* احتياج الرسول في إثبات رسالته إلى كتاب من ربه تقوم له به الحجة على قومه .

* افتقار التشريع الإلهي إلى كتاب يحويه ، ويتضمنه ، ويثبت فيه .

* عدم إعطاء الناس الحجة على الله تعالى ببقاء التشريع الإلهي محفوظاً في كتاب ، ثابتاً فيه ، هي التي اقتضت عقلاً وجوب كتب إلهية ، كما اقتضت وجوب الإيمان بها ، وتصديقها ، والعمل بما فيها ، لافتقار سعادة البشرية في الحياتين اليها ، وتوقفها عليها .

(١) سورة النساء (١٦٥) .

منزلة القرآن الكريم بين كتب الله تعالى

إن مما لا شك فيه عند الدارسين للقرآن الكريم ، الواقفين على أسرارهِ وعجائبهِ ، العالمين بما حواه من أصول التشريع وقواعده ، والمدرّكين للحقائق العلمية التي أثبتّها ، ولقت النظر إليها - أن للقرآن الكريم منزلة خاصة بين سائر الكتب الإلهية التي تقدمته في النزل .

وقد تتجلى هذه المنزلة العلية للقرآن العظيم بإمعان النظر في النقاط الخمس التالية والتأمل فيها :-

كونه ناسخاً لها لفظاً وحكماً ، فلا تُقرأ للتعبّد . ولا يعمل بما فيها من شرائع وأحكام وذلك :

أولاً - لما داخلها من تحريف ، وما أصابها من تضييع ونسيان إذ لم يبق فيها ما يُجزم بصحة نسبته إلى الله تعالى أبداً ، عرف هذه الحقيقة وقررها المنصفون والمحققون من علماء أهل الكتابين معاً .

وثانياً - كان التشريع فيها خاصاً ببني إسرائيل ، وموقوتاً بزمان معين ، وليس أدل على نسخ القرآن للكتب قبله من أمر الله تعالى لنبي القرآن محمد ﷺ أن يحكم بين سائر الناس على اختلاف ما يتحلون من ديانات بالقرآن الحكيم ، وذلك في قوله تعالى :

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ^(١)
وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا
جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾^(٢)

وقوله :

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ^(٣)

* كونه مهيمناً عليها رقبياً شهيداً ، فما صححه منها وأقره فيها
صح وقر ، وما أبطله منها ونفاه لكونه دخیلاً عليها ليس منها بطل
وانتفى . كما جاء شاهد هذا في الآية السابقة :

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ
وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾

* كون ما يحمل من التشريع الإلهي عاماً لكل الناس في أي
مكان كانوا وفي أي زمان وجدوا ، وذلك لعموم رسالة صاحبه المتزل
عليه ﷺ ، إذ قال الله سبحانه وتعالى :

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(٤)

(١) أل هنا تدل على الكمال فيه فهو الكتاب الذي أكمل الله به الدين ، فهو الحري بأن
يتصرف إليه لفظ الكتاب دون غيره من الكتب السابقة ، ومعنى بالحق : متلبساً به مؤيداً
له ، مشتملاً عليه ، مقررأ له .

(٢) أل في الكتاب للجنس أي من جنس الكتاب ، فيدخل في ذلك التوراة والزبور
والإنجيل وغيرها .

(٣) سورة المائدة الآية (٤٨) .

(٤) سورة النساء الآية (١٠٥) .

(٥) سورة الفرقان الآية (١) .

وقال :

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ ^(١)

وقال :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ ^(٢)

بخلاف الكتب التي سبقته فإنها كانت خاصة في المكان والزمان ، ولا عموم فيها البتة .

* تعهد الرب تبارك وتعالى بحفظه إلى أن يرفعه إليه ، إذ قال

تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ^(٣)

وقال :

﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ ^(٤)

فحفظه الرب تبارك وتعالى بأن ميص له جالاً أماناً ، حفظوه في صدورهم ، وسطورهم فلم تنوיד الرمان ، ولا يد عدوان على أن تريد فيه حرفاً ، ولا أن تنقص منه حرفاً ، بخلاف غيره من الكتب وخاصة التوراة فقد ضاعت كلها في غرو وخنقصر السالبي لمملكة بني إسرائيل ، ولم يعثر عليها إلا فيما بعد ، ثم ما إن جمعت والله أعلم بصحة ما جمع فيها حتى تسلط عليها عدة المادة فحرموها وبدلوها حسب مصالحهم وأهوائهم ، أما الإنجيل فيكفي في الدلالة على عدم حفظه

(١) سورة الأعراف الآية (١٥٨)

(٢) سورة ١ الآية (٢٨) .

(٣) سورة الحجر الآية (٩) .

(٤) سورة فصلت الآيتان (٤١ ، ٤٢)

، اليوم خمسة أُنَاجِيل^(١)، بعد أن كان يوم نزوله إنجيلاً واحداً. !!!

* شموله لأصول الهداية البشرية وفروعها ، واحتواؤه على أعظم منهج رباني محقق لسعادة الإنسان في الدنيا وفي الآخرة متى آمن به وعمل بما فيه . قال تعالى :

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢﴾﴾

(١) هي إنجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا وبرنابا والآخر أصحابها وقد أخفي من القرن الرابع إلى القرن السابع عشر . الميلادي .
(٢) سورة المائدة الآيتان (١٥ - ١٦) .

لوحة مشرقة بيان ما في القرآن من الهدى والخير

إن في القرآن المجيد من الهدى والخير لبني الناس كافة ما لا يوجد اليوم - والله - معشار عشره في كتاب غيره ، وفي الأرقام التالية بيان ذلك وتحقيقه : -

١ - الهدى الموصِل إلى كل خير ، والمرشد إلى كل كمال ، والهادي إلى سعادة الدارين ، قال منزله سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْكِتَابَ لَارِيبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(١)

٢ - الرحمة بآتم معناها ، الرحمة التي تعم الانسان ، والجان ، والحيوان ، والكبير والصغير ، والكافر والمؤمن ، والحي والميت . قال تعالى في اثباتها :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْكِتَابَ الْحَكِيمَ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ ^(٢)

٣ - الشفاء التام العام لجميع الأمراض العقلية ، والنفسية ، والقلبية شفاء من الكفر والشرك ، والقلق والاضطراب ، والحيرة والخوف ، والكبر والحسد ، والكسل والعجز ، والبخل والشح ، والظلم والخرف . قال تعالى في اثبات هذا الشفاء وتقريره :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٣)

(١) سورة البقرة الآيات (١ - ٢) .

(٢) سورة لقمان الآيات (١ - ٣) .

(٣) سورة الإسراء الآية (٨٢) .

٤ - النور الكاشف لجميع الظلمات القلبية ، والمبدد لسائر الجهالات النفسية ، والمبين لسائر الحقائق والأسرار الكونية . قال تعالى في تقرير نورانيته

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾^(١)

٥ - الموعظة الداعية إلى اكتساب كل فضيلة ، والزاجرة عن كل رذيلة ، قال تعالى في ذلك

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾^(٢)

٦ - البشرى بخير الدنيا والآخرة وسعادتهما . قال تعالى في ذلك :

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(٣)

٧ - الحق الإلهي الثابت في نفسه ، المحقق المثبت لغيره من كل ما هو حق ، فكل حق القرآن يؤيده ، والقرآن يقرره ، قال تعالى :

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾^(٤)

(١) سورة النساء الآية (١٧٤) .

(٢) سورة يونس الآية (٥٧) .

(٣) سورة النحل الآية (٨٩) .

(٤) سورة الأسراء الآية (١٠٥) .

وقال :

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾^(١)

أي متلباً به مشتملاً عليه ، مؤيداً له ، ومقرراً

٨ - الذكر الإلهي الذي تحيا عليه القلوب ، وتطيب بتلاوته الأرواح ، وتزكو بالعمل به النفوس . الذكر المكسب للشرف ، والموصل لحضرة القدس ، والرافع إلى ملا الأختيار . قال تعالى :

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾^(٢)

وقال في الحديث عنه :

﴿وإنه لَذِكْرُكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾^(٣)

٩ - الخير العام لكل إنسان ، وجان ، وحيوان ، فما من كائن في هذه الحياة إلا وناله من خيرية القرآن من يوم نزوله إلى يوم رفعه إلى الله ، وقبضه إليه ، اللهم إلا من كان من المطرودين من شياطين الانس والجان ، المبلسين من كل خير . قال تعالى :

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾^(٤)

١٠ - التبيان والبيان لكل شيء مما الانسان في حاجة إليه مما تتوقف عليه سعادته دنيا وأخرى . قال تعالى :

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾^(٥)

(١) سورة المائدة الآية (٤٨) .

(٢) سورة ص الآية (١) .

(٣) سورة الزخرف الآية (٤٤) .

(٤) سورة النحل الآية (٨٩) .

(٥) سورة النحل الآية (٨٩) .

١١ - الروح التي تتوقف عليه حياة الإنسان ، فالقرآن هو الروح اللازمة للحياة الفاضلة الكريمة . إن الناس بدون أن تسري فيهم الروح القرآنية أموات حقاً ، لا يتفهمون بوجودهم ، ولا بحياتهم المادية ، قال تعالى في هذا :

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا
الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ
عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١)

(١) سورة الشورى الآية (٥٢) .

شروط الانتفاع التام بما في القرآن من الخير والهدى

إنه بالرجوع الى تلك اللوحة المشرقة بنور القرآن وهدايته يتبين لنا بحق وصدق أن في القرآن الكريم من الهدى والخير ما يكفل للإنسان سعادة ، في دنياه وآخره ، غير أننا إذا عاودنا النظر لتلك اللوحة نجد أن ما في القرآن من الخير والهدى مخصوص بأناس وُصفوا بصفات أربع هي : الإيمان ، والإسلام ، والإحسان ، والتقوى ، فمن استجمع تلك الصفات فقد تهيأ لتلك الفيوضات الربانية ، وفاز بما في القرآن من الخير والهدى ، ومن قصر عنها ، ولم يستكملها فإن حظّه منه بقدر حظّه منها .

وهذا إيضاح لتلك الصفات الأربع :

١ - الإيمان : بأن يؤمن المرء إيماناً عاماً بكل ما جاء به رسول الله عن الله ، ويؤمن إيماناً خاصاً بما في القرآن من الهدى والخير إيماناً يحمله على تعرفه عليه ، وطلبه منه ، وذلك بدراسة القرآن ، والعمل بما فيه من العقائد والشرائع ، والآداب ، والأخلاق .

٢ - الإسلام : بأن يسلم المرء لله تعالى قلبه ، ووجهه ، فيسخر كل شيء فيه لله تعالى بحيث لا يكون له هم إلا الله تعالى ، فيعيش طالباً لما يرضاه الله من اعتقاد ، وقول ، وعمل ، متجنباً لكل ما يسخطه الله تعالى من اعتقاد ، وقول ، وعمل .

٣ - الإحسان : بأن يحسن في إيمانه وإسلامه ، فيعيش يراقب الله

تعالى في كل ما يأتي وينذر ، وما يقدم وما يؤخر ، يراقبه في طاعته كما يراقبه في معصيته ، وبعبارة أخرى يراقبه في محابه فيأتيناها بصديق ويعملها بأتقان ، وفي مباحطه فيتجنبها في بغض لها ، ويتعد عنها في كره منه لها تام .

٤ - التقوى : بأن يتقي الله تعالى في أن يشرك به ، أو أن يعصيه ترك ما أوجب عليه ، أو انتدبه إليه ، أو بفعل ما حرمه عليه ، أو كرهه له .

وكلمة أخيرة أن من استكمل هذه الصفات ، وحققها كما هي موضحة أعلاه ، ومينة فيما سلف فقد استوجب كل ما في القرآن من خير وهدي ، وتحقق له ذلك كاملاً ، فحصل له الشفاء في صدره وبدنه ، والرحمة في قلبه ، والنور في بصيرته ، والذكر والموعظة في قلبه ، والبيان في لسانه ، والحق في حكمه ، والبشرى في حياته وآخرته .

وأما من لم يستكمل تلك الصفات فإنه لم يتنفع بما في القرآن من الهدى والخير ، وليس ذلك عائداً إلى أن القرآن نفذ منه هداه وخيره اللذان كانا فيه ، وإنما هو عائد إلى عدم أهلية المرء للاستفادة منه . وإن لذلك مثلاً نضربه هو وجود مريض يُوصف له دواء نافع ، ويقدم له ، ولم يكلف نفسه مشقة تناوله ، فيبقى الدواء في خزانته ، ويبقى هو يعاني من آلام مرضه إلى أن يُكره على استعمال الدواء فيشربه ، فيشفى من مرضه ، أو لا يكرهه أحد على شربه واستعماله فيبقى يعاني من أسقامه ، وأوجاعه حتى يهلك بها ويموت . فهل الذنب في هذا ذنب الدواء ؟ والجواب لا ، إن الذنب ذنب المريض نفسه الذي لم يستعمل الدواء وهو بين يديه ، فكان حاله كحال من قال :

كالعيس في اليباء يقتلها الظمأ والماء فوق ظهورها محمول

تقرير أخير لعقيدة المؤمن في الكتب الأربعة القرآن ، والتوراة ، والزبور ، والإنجيل

إن المؤمن قد آمن ويؤمن بكل ما أنزله الله من كتاب إجمالاً فيما لم يعرف ، وتفصيلاً فيما عرف . فآمن بصحف إبراهيم ، والواح موسى وتوراته ، وزبور داود ، وإنجيل عيسى ، وفرقان محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين وسلم تسليماً كثيراً .

كما آمن بالقرآن على أنه كتاب إلهي هو أكمل الكتب ، نسخ الله تعالى به كل ما سبقه من الكتب ، لأنه متأخر عنها في النزول ، ومنه النسخ وطريقته دائماً أن ينسخ المتأخر المتقدم ، واللاحق السابق ، ولأن الرسالة التي تضمنها رسالة عامة لكل الناس أبيضهم ، وأحمرهم ، وأصفرهم ، وأسودهم . فلم تكن مخصصة بشعب دون آخر من شعوب البشر ، كما أن الكتب المتوفرة والموجودة لدى نزوله كالشجرة ، والزبور ، والإنجيل كان قد داخلها التحريف ، والتبديل ، والتغيير ، والزيادة ، والنقصان ، وذلك بشيان أهلها لأكثرها ، ولانقطاع سندها إلى من أوحيت إليهم من أنبياء بني إسرائيل ورسلمهم ، كما هو معروف ومسلم لدى عقلائهم ، والمنصفين منهم . فأصبحت تلك الكتب لا تمثل حقيقة كتب الله تعالى ، ولا تحمل الهدى ، والنور ، والرحمة ، والموعظة لأهلها ، فضلاً عن غيرهم فلم تكن قادرة على الإصلاح ولا الهداية للمخلق ، ومن ثم اقتضت رحمة الله تعالى بعباده أن يجدد لهم عهد النبوة بعد اندثارها ، وعهد الوحي بعد اندراسه ، فبعث الله تعالى النبي الخاتم ، النبي المنتظر ، النبي الأمي محمداً ﷺ ، وأن ينزل عليه

- الكتاب الكامل الجامع ، فيسخ به سائر الكتب ، وضمنه هداية الأبيض والأسود ، والعربي والعجمي من الناس أجمعين

فهو الكتاب الذي أنزله مصداقاً لما بين يديه من الكتب ، ومهيماً عليها ، أمر محمداً عبده ورسوله أن يحكم به بين الناس كافة إذ قال تعالى :

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾^(١)
وقال عز وجل :

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾^(٢)
فتعين لذلك نسخ القرآن لما سبقه من كتب الله تعالى ، ونسخ الدين الإسلامي لسائر الأديان السابقة . قال تعالى :

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(٣)

وقال : ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٤)

وقال رسول الله ﷺ مُبَيَّنًا نَسْخَ كِتَابِهِ «القرآن» لغيره من الكتب ، ونسخ دينه «الإسلام» لغيره من الأديان ، قَالَ : «والذي نفسي بيده لو أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا مَا وَسَعَهُ إِلَّا أَنْ يُتَّبِعَنِي» . قَالَ لِعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ

(١) سورة المائدة الآية (٤٨) .

(٢) سورة النساء الآية (١٠٥) .

(٣) سورة آل عمران الآية (١٩) .

(٤) سورة آل عمران الآية (٨٥) .

رضي الله عنه لما أتاه بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأ عليه ، فغضب ، وقال : « لقد جتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم - أهل الكتاب - عن شيء فيخبروكم بحق ، فتكذبوا به ، أو يباطل فتصدقوا به ، والذي نفسي بيده ... الخ »^(١) . وكيف لا يكون إلا ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وجزم به من أتباع موسى عليه السلام له فضلاً عن أمته ، والله تعالى يقول :

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَآتِكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٢)

(١) رواه أحمد والبخاري وابن أبي شيبة وإسناده صحيح

(٢) إصري : قال ابن جرير : عهدتي ووصيتي .

(٣) سورة آل عمران الأيتان (٨١ ، ٨٢) .

الركن الرابع الإيمان بالرسول عليهم السلام

مقدمات :

(أ) إمكان الوحي :

تعريف الوحي :

الوحي اسم مصدر من أوحى إليه بكذا يوحي إichاء : إذا أعلمه
بمراده في سرعة وخفاء :

فالوحي إذاً هو الاعلام السريع الخفي ، ويأتي وسطه حصل ، بد
ليس شرطاً فيه أن يكون من قرب ، أو قول ، أو بين متجانسين ؛ فقد
قال تعالى :

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا
يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الشَّعَرِ فَاسْلُكِي سَبِيلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾^(١)

وقال تعالى :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَاهُ فِي الْقِيَمِ﴾^(٢)
فقد أعلم الله تعالى النحل مراده فقهت عند ذلك ، ونفذته
كاملاً ، ولم يكن هنا قرب ، ولا قول . ولا تجانس مما يعرف الناس

(١) سورة النحل الأيتان (٦٨ ، ٦٩) .

(٢) سورة القصص الآية (٧)

في حياتهم المادية هذه . كما أنه تعالى أعلم أم موسى بمراده ففهمته ،
ونفذته كاملاً تاماً ، وبدون قرب أيضاً ، ولا قول ، ولا تجانس أبداً بين
الموجي ، والموحى إليه .

فالوحي بهذا المعنى ممكن ، ولا معنى لانكاره أبداً ، ونقول هذا
تنزلاً مع الشاكين فقط ، وإلا فالوحي قد وقع ، وتم ، ومنذ وجد الانسان
الأول على هذه الأرض وهو آدم عليه السلام .

والذين كلت أذهانهم أمس عن فهم الوحي وإدراكه لم يبق لهم
اليوم من عذر في دعوى كلال الذهن عن فهم الوحي وهم يشاهدون
الاتصالات السلوكية واللاسلكية ، والاذاعية وغيرها .

وقد بلغهم أن الاكتشافات العلمية أثبتت بما لا مجال للشك فيه
أن الوحي بالمعنى الذي قررنا موجود حتى بين الحيوان وأخيه الحيوان ،
بل بين أصغر الحشرات كالفراش والنمل وما إلى ذلك ، فيتم الاعلام
السريع الخفي بين حيوان وآخر وبدون قرب بل أبعاد شاسعة ، وبدون
قول أيضاً ، ولا مشابهة البتة .

فالوحي إذاً ممكن وموجود ، وإنكاره يعد إنكاراً للحس ، وتكذيب
بالواقع المشاهد . نعم الوحي تختلف وسائله ، فالوحي الإلهي كان يتم
بوسائل متعددة ، وكيفيات مختلفة وفيما يلي : بيان ذلك .

الوحي الإلهي وطرقه

تعريف :

الوحي الإلهي هو ما يوحى به الله تعالى من كلماته الصادقة في أخبارها ، العادلة في أحكامها ، بطريقة من طرق الوحي إلى من يصطفي من الناس ، ولا شاهد أقوى على وجوده وإيمانه من كلام الله تعالى الموجود بين أيدي المؤمنين يقرءونه محضاً لم يشب بكلمة واحدة من كلام الناس ، وهو القرآن الكريم الموحى به إلى النبي محمد ﷺ آيات وسوراً ، شيئاً فشيئاً حتى اكتمل نزوله ، ووحيه في خلال ثلاث وعشرين سنة .

وقد حاول خصومه منذ شروق أنواره أن يعيدوه عن حقيقته ، ويخرجوا به عن كونه وحياً تلقاه النبي محمد ﷺ من ربه كما قال تعالى :

﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَىٰ الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾^(١)

حاول أولئك الخصوم أن يخرجوا به عن حقيقته ، فقالوا : سحر ، وقالوا : شعر ، وقالوا : أساطير الأولين ، وقالوا غير ذلك . بيد أنهم لم تطل بهم الحياة حتى أذعنوا للحق ، وسلموا أنه وحي الله وكلامه ، الذي أوحاه إلى صفوة خلقه ، وسيد أنبيائه ورسله

(١) سورة النمل الآية (٦) .

محمد ﷺ ، فآمنوا به ، وعملوا بهدأيته ، فكمّلوا ، وسعدوا ، وسادوا
أيضاً .

ولتلقى الوحي الإلهي طرق بيّنها الله تعالى في كتابه بقوله من
سورة الشورى :

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ
رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿١﴾﴾

فهذه ثلاث طرق لتلقى الوحي الإلهي :

الأولى : الوحي المباشر وهو أن يعد الله تعالى قلب العبد إعداداً
خاصاً بتصفيته من الكدورات ، والرغونات النفسية ، ثم يلقي إلى
صاحبه بكلماته التي أراد أن يوحى بها إليه . فيتلقاها ذو القلب الطاهر
وهو النبي من أنبياء الله تعالى ويعيها وعياً كاملاً صحيحاً ، وهو جازم
بأنها كلام الله تعالى ، ووحيه إليه ، وذلك لما يجد في نفسه من ضرورة
نحتم عليه ذلك وتضطره إليه أكثر من ضرورة معرفة أحدنا بوجوده إنساناً
حياً بين الناس ، أو بضرورة معرفة صوت ، أبيه أو أمه أو أخيه ، ذلك
الصوت الذي عاش دهرأ يسمعه ، ويفرق بينه وبين سائر الأصوات .

الثانية : أن يخاطب الله تعالى من أعده لذلك من أنبيائه ورسله
فيُسمعه كلامه المباشر مع القرب ويدونه . ولكن من وراء حجاب ،
فيسمع النبي الكلام ولا يرى المتكلم ، وقد تم هذا للنبي محمد ﷺ
ليلة الإسراء والمعراج في الملكوت الأعلى ، إذ عُرج به ﷺ حتى بلغ
سدة المنتهى ، وكلمه ربه تعالى ، وفرض عليه الصلوات الخمس هذه
التي يصلّيها المؤمنون خمس مرات في كل يوم وليلة ، غير أنه لم ير

(١) الآية (٥١) .

ربه تعالى ، فقد سئل عن ذلك فقال : « نور أنى أراه »^(١). أما قوله تعالى من سورة النجم :

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۚ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۖ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَ مَا يَغْشَىٰ ۚ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۖ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۖ﴾^(٢)

فإن الضمير في قوله تعالى « ولقد رآه نزلة أخرى » عائد إلى جبريل عليه السلام وليس عائداً إلى الله تعالى .

كما تم هذا التكلم من وراء حجاب لموسى بنى إسرائيل عليه السلام ، وكان بجبل الطور من سيناء حيث ناداه ربه بالواد المقدس طوى ، ونبأه ، وأوحى إليه ، وأرسله إلى فرعون وملاه ، كل هذا وموسى عليه السلام يسمع كلام الله تعالى المباشر ، ولا يرى الله تعالى مُكَلِّمَهُ عز وجل حتى تآقت نفسه لرؤيته ، فسأل ربه ذلك فقال :

﴿قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ﴾

فقال الله تعالى له : ﴿لَنْ تَرَانِي﴾^(٣). وأقنعه بعبزه عن الرؤية لله تبارك وتعالى ، فأمره أن ينظر إلى الجبل وقد تجلى له ، فصار دكا فنظر موسى إلى الجبل فلم يقو على رؤيته بفخر ، مغشياً عليه فلما أفاق من غشيته قال :

﴿سُبْحَنَكَ ثَبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤)

(١) حديث الإسراء ثابت في الصحيحين وغيرهما للزُّلَّو والمِرْجَان (٢٥/١) وقوله ﷺ نور أنى أراه رواه مسلم (١١١/١) .

(٢) الآيات (١٣ - ١٨) .

(٣) سورة الاعراف الآية (١٤٣) .

(٤) سورة الاعراف الآية (١٤٣) .

الثالثة : أن يوحى الله تعالى إلى من اصطفى من رسله بواسطة ملك يرسله إليه ؛ وكان جبريل عليه السلام موكلًا بالنبى ﷺ ، وهو الذي صحبه في إسرائه ومعراجہ^(١) ؛ وما زال معه يأتيه بوحي ربه حتى قبض ﷺ ، والملك الرسول يأتي أحياناً في صورته الملائكية ، وأحياناً يتمثل بشراً كما تمثل لمريم البتول عليها السلام ، وقال لها لما استعازت بالرحمن منه :

﴿ قَالَ يَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكَ لِأَهَبْ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا قَالَتْ يَبْكَونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَوْلَاكَ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾

(١) إن الإسرائ والمعراج المجدي ثابتان بالكتاب والسنة . ففي الكتاب عن سورة الإسرائ يقول تعالى : «سحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بأكما حوله ، لنريه من آياتنا» ففي هذه الآية تصريح بالإسرائ وأنه كان من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس ، وفي قوله لنريه من آياتنا ، إشارة إلى المعراج بعد التصريح بالإسرائ إذ المعراج تم مع الإسرائ في رحلة واحدة ، كما ثبت ذلك الأحاديث الصحيحة . وفي قوله تعالى من سورة الحم :

«وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ، إِذْ يَبْعَثُ السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ، مَا رَآهُ الصُّرُومَ طُفَىٰ ، لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ » تصريح بالمعراج ووصول الرسول ﷺ فيه إلى سدرة المنتهى عند جنة المأوى ، وفي الملكوت الأعلى وما في الآيات من إجمال لحادثة الإسرائ والمعراج فقد بيته السنة وفصلته أيما تفصيل إذ أغلب كتب النسخ والمسانيد قد روت حادثة الإسرائ والمعراج مفصلة . ولما كانت عقيدة المؤمن مبنية على أساس تصديق الله والرسول في كل ما أخرجه وجاء عنهما فإن تصديق المؤمن بحادثة الإسرائ والمعراج ليس موضع شك أبداً كما أن إثبات هذه الحادثة لا يتطلب دليلاً بعد إثبات الكتاب السنة لها إن الإسرائ والمعراج ثبتا للنبي محمد ﷺ بروحه وجسده وبقطة لا مناماً وذلك في السنة الحادية عشرة من البعثة المحمدية ، ولا التفات إلى رأي من يقول بحصولها بالروح دون الجسد ، أو في المنام دون اليقظة إذ هذا الرأي فاسد وباطل لمنافاته لمعنى (أسرى بعنه) ولرفض سلف هذه الأمة له وإنكاره على قائله ومرتبته .

(٢) سورة مريم الآيات (٢١-١٩) .

كما كان يأتي النبي ﷺ في صورة دحية بن خليفة الكلبي وجاء مرة في صورة أعرابي فدخل المسجد وجلس إلى النبي ﷺ، وأسند ركبته إلى ركبته، ووضع يديه على فخذه، وأخذ يسأل الرسول ﷺ والرسول يجيبه وهو يصدقه بقوله: « صدقت » حتى عجب الصحابة منه ، كيف يسأله ويصدقه . ولما أنصرف أمر الرسول أصحابه أن يردوه عليه فطلبوه فلم يظفروا به ، فقال لهم « إنه جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم » (١٧) .

ب - ضرورة الوحي ، وحاجة الناس إليه .

إن الوحي الإلهي ضرورة من ضرورات شتى قد اقتضاها وجود الانسان على هذه الأرض ، يكابد فيها حياة طويلة فُرِضت عليه ، وقدرت له ، ولا ينتهي منها إلا بانتهاء هذا الكون وانقراضه ، حيث ينقل إلى ملكوت آخر فهو في هذه الرحلة الطويلة من حياته لا بد له من تعاليم من ربه تنظم حياته ، ولا بد له من هدي يعيّن عليه ، وكيف يتم له ذلك بغير الوحي ؟ فالوحي إذا ضرورة من الضرورات لا غنى عنه بحال من الأحوال .

وضرورة الوحي ، وحاجة الانسان إليه تظهران بوضوح إذا عرفنا أن الانسان مكون من روح وجسد ، وأن العالم عالمان علوي وسفلي ، وأن الحياة حيتان : أولى تنقضي ، وثانية تدوم ولا تنتهي ، وتبقى أبداً ولا تنقص ، وأن بين الحياتين برزخاً تنقضي فيه الأرواح فترة ما بين موت الإنسان وبعثه للحياة الثانية ، وبيان ذلك : أن كون الإنسان روحاً يقتضي وجباً إلهياً ، يخبره عن الروح ، وصفاتها ، وأحوالها ، وأسباب كمالها ونقصانها ، وسعادتها وشقائها . وأن كون الإنسان جسماً يقتضي كذلك وجباً إلهياً يبين له فيه طرق المحافظة على جسمه ، ويضع له

(١) مسلم (٢٨/١ ، ٢٩)

القوانين ، التي تساعد على بقاءه صالحاً المدة المحددة له من هذه الحياة . وأن كون العالم عالمين علوياً وسفلياً يقتضي حياً إلهياً يخبره عن العالم العلوي ، وما فيه ، لعجز الانسان عن معرفة ذلك بوسائله الخاصة ، وإدراكه ذون الوحي الإلهي ، وأن كون الحياة حياتين يقتضي كذلك حياً إلهياً يعرف الانسان بواسطته الحياة الثانية ماذا فيها ؟ وما الذي يتم للانسان يوم يُنقل إليها ؟ إذ مثل هذا لا يدركه الانسان بواسطة عقله مجرداً عن الوحي الإلهي بحال من الأحوال .

فهذه أكثر من ضرورة قد اقتضت الوحي الإلهي ، وجعلته حاجة من حاجات الانسان التي لا يستغني عنها بحال ، فالوحي إذاً مع إمكانه هو ضرورة من ضرورات حياة الانسان ، وحاجة من حاجاته ، وإنكاره والتكذيب به يُعد خطأ عقلياً كبيراً ، وعجزاً فكرياً مُثنيًا ، وفساداً فطرياً خطيراً ، لأن إنكار ما هو موجود وواقع ، وجحود ما هو ضرورة للحياة ، وحاجة أكيدة لها لا تقره العقول ، ولا توافق عليه بحال أبداً .

(جـ) النبوة .

تعريف :

النبوة اسم مشتق من نبا الشيء ينبو نبوة إذا ارتفع متجاوزاً غيره ، ومنه قولهم . نبا السيف ينبو نبوة إذا ارتفع متجاوزاً مضرب الفارس ، أو هي اسم مشتق من أنبا فلان غيره ينبثه إنباء إذا أخبره بخبر ذي شأن ، ولهذا يقال النبوة بالهمزة بعد الواو وبها قرأ ورش عن نافع :

﴿أَتَبَشِّرُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ﴾^(١)

وقرأ حفص عن عاصم النبوة بواو مشددة . ويمكن رد القراءة الأولى إلى هذه وذلك بقلب الهمزة واواً ، وإدغامها في الواو ، وهو إعلال معروف عند النحاة .

(١) سورة الأنعام الآية (٨٩) .

وبناء على هذا فالنبوة الشرعية هي إعلام الله تعالى من اجتنبى من الناس لرفعته ، والإعلاء من شأنه بإنبائه بالوحي الذي أراده له ، أو له ولغيره .

والأنبياء جمع نبي ويمد مهموزاً فيقال نبيء كما هي قراءة ورش عن نافع في جميع القرآن أو في غاله ، وهو عائد إلى الاشتقاق الأول الذي تقدم في كلمة النبوة .

والنبي : ذكر من بني آدم ، أوحى الله تعالى إليه بأمر ، فإن أمر بتبليغه إلى الناس فهو نبي ورسول ، وإن لم يؤمر بتبليغه فهو نبي غير رسول ، وبهذا يظهر الفرق بين كل من النبي والرسول ، وهو أن الرسول من أمر بإبلاغ ما أوحى إليه ، والنبي من أوحى إليه بشيء ولم يؤمر بإبلاغه لاختصاصه به دون غيره من الناس ، وعليه فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً . ومثال النبي غير الرسول يوشع بن نون صاحب موسى وفتاه عليهما السلام ، فقد نبأه الله تعالى ، وخلف موسى وهارون في بني إسرائيل وهو الذي غزا بيت المقدس وفتحها الله تعالى عليه .

ومثال النبي الرسول نبينا محمد ﷺ ، إذ هو نبي الله ورسوله إلى الناس أجمعين ، وكذا سائر الأنبياء والمرسلين المذكورين في القرآن الكريم كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى في بحث هذا الركن من أركان عقيدة المؤمن .

د - مؤهلات النبوة

الذي ينبغي أن يُعلم هنا أن النبوة لا تأتي من طريق الكسب والاجتهاد أبداً ، فلو انقطع المرء إلى العبادة كلية ، وتخلّى عن سائر الحظوظ النفسية ، وعن كل الرغبات ، والشهوات ، وسائر متع الحياة ، ولذائها لم يؤهله ذلك لأن يكون نبياً أو رسولاً بحال من الأحوال . إن النبوة هبة خاصة ، يختص بها الله وأحبها من أهلها من عباده

المؤمنين ، بيد أن الله يهيئ لها بإعداد خاص عبداً من عباده ، فيحفظه من التلوث النفسي ، والضلال العقلي ، والفساد الخلقي ، والانحراف القطري ، ويضفي عليه من الكمالات النفسية ، والعقلية ، والخلقية ما يؤهله به لمقام النبوة الشريف ، ومن المؤهلات للنبوة ، وتلقي الوحي الإلهي : -

١ - المثالية : ونعني بالمثالية ذلك الكمالات البشري الذي يحوزه المرء المرشح لمقام النبوة ، والذي لا يسمو إليه سواه من المرشحين لها من سائر الناس .

٢ - شرف النسب : إن عامل الوراثة سبق أن قررناه ، ولم ننكره ، وهو أن كثيراً من الصفات ، والخصائص ، والمميزات تنتقل بهذه السنته الإلهية (عامل الوراثة) من الأصل الوالد إلى الفرع المولود ، ومن هنا كان الأنبياء ، يبعثون في أشرف أقوامهم ، والمراد من الشرف بالمعنى العام : الترفع عن الدنيا والخلقية ، والتنزه عما يخل بالمروءات ، ويهبط بالقيم البشرية ، من كل سلوك شائن منحرف ، تكرهه الطبائع البشرية السليمة ، وتشمئز منه النفوس الكريمة .

٣ - عامل الزمن : إن المراد من عامل الزمن هو وجود مقتضيات في الزمن المعين ، تحتم بعثة نبي ، وإرسال رسول ، وتقتضيه ، ومن ذلك وجود فراغ روحي تسبب عنه فساد اجتماعي كبير ، فأصبحت الحال تتطلب نبياً مصلحاً ، يرد للحياة اعتبارها ، وللإنسان قيمته ، وذلك كالفراغ الذي كان قبل إرسال موسى وأخيه هارون عليهما السلام ، وكالذي كان قبل نبوة عيسى ورسالته عليه السلام ، وكالذي كان قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام ورسالته ، فإن الأحوال التي كانت سائدة في تلك الأزمنة الثلاثة كانت تلح مطالبة بنبوة نبي ورسالة رسول ، لإصلاح البلاد والعباد ، وكان الناس يومها يشعرون بالحاجة الملحة إلى نبوة تغير الأوضاع الفاسدة التي سادت يومئذ ، والذين قالوا

لفرعون إن زوال ملكك سيكون على يد رجل من بني إسرائيل ونو
إسرائيل يومئذ مستعبدون ، مضطهدون أكثر من غيرهم ، لاشوكة لهم ،
ولا قوة ، هذا القول وإن نسب إلى الكهنة فإنه هو نفسه عامل الزمن ،
وهو الشعور العام بالحاجة إلى مُصلح يصلح الأرض بعد أن أفسدها
الطغيان الفرعوني ، وجبروت الكبر ، وفساد العلو في الأرض ،
والإسراف في الشر .

كما أن زمن ما قبل البعثة المحمدية كان يوحى بقرب نبوة
مصلحه ، بحيث تطلع كثير من أهل الكتاب لها ، بل صرحوا بقربها ،
وجاهروا به ، وانتظروه ، لذا بادر كثير منهم بالإيمان بنبوة محمد ﷺ
ورسالته ، ولم يترددوا في ذلك بمجرد ظهورها ، وذلك كالنجاشي من
النصارى ، وعبد الله بن سلام من اليهود وغيرهما من أحبار اليهود ،
ورهبان النصارى ، وذلك لما شاهدوا من الفساد العام الذي انتظم
العالم بأسره وبخاصة جزيرة العرب ، وبلاد الروم ، وفارس ، وهي
تمثل العالم الإنساني تقريباً^(١) .

ومجمل القول أن وجود فساد عام في الأرض من شأنه أن تنطلع
معه النفوس إلى مصلح يصلح الله به البلاد والعباد ، وذلك لما غرز الله
تعالى في الفطر البشرية من الشعور بالرحمة الإلهية ، وقربها كلما عم
الشر ، وعظم الفساد ، شعور كشعور العطشان بالحاجة إلى الماء ،
وتطلعه إليه .

وما هي ذي البشرية اليوم في حاجة ملحة إلى نبوة إلهية تصلح
فسادها ، وتخرجها من محنتها المادية التي تعاني منها . والنبوة الإلهية

(١) ويشهد لهذا القرآن الكريم إذ جاء فيه قوله من سورة الفرة « ولا تفسدوا في الأرض
بعد إصلاحها » فهي الاقرار بأن الأرض كانت قبل البعثة المحمدية فاسدة ، وأن الله
تعالى قد أصلحها بها .

موجودة بين أيدينا ولكن الذي أعوزنا الغفري الملهم الذي يحملنا على
الاحتذاء بهديها ، والسير على ضوء هدايتها ، حتى ننجو من هلكتنا ؛
ونسعد في حياتنا . إن النبوة المطلوبة هي نبوة محمد ﷺ ، وهي
محفوظة لم تُشب بفساد ، ولم تخلط بباطل ولم يمسها سوء ، ولأمر ما
حفظها الله تعالى صالحة نقية بعد مضي زمن طويل على ظهورها ، وما
يدرينا أن الله تعالى قد ادخر لنا عبداً من عباده المؤمنين ، سيظهر في
يوم ما من الأيام فيملأ به الأرض طهراً وعدلاً بعد ما ملئت خساً
وظلماً .

هـ - صفات الأنبياء :

إن للمؤمنين لحمل رسالة الخالق إلى الخلق صفات كمال لا
تفقد في أحدهم أبداً ، إذ هي واجبة لكل من يحمل رسالة الله تعالى
إلى عباده ، ومن تلك الصفات .

١ - الصدق : صدق النية ، والإرادة ، صدق القول ، والعمل
حيث يستحيل أن يتصف المؤهل للنبوة بصد الصدق وهو الكذب ،
والنفاق ، أو الإهمال ، واللامبالاة ، والمتبع لبشر الأنبياء يعرف هذه
الحقيقة ، ويؤمن بها .

٢ - الأمانة : الأمانة في كل شيء في القول والعمل ، في الحكم
والقضاء في الحديث والنقل ، في الرواية والتبليغ ، في السر والعلن
معاً ، إذ يستحيل أن يتصفوا بصددها وهي الخيانة بحال من الأحوال ،
فلا خيانة فيهم أبداً ، ولو في أقل الأشياء وأنفهاها ، ومتى وجد شيء من
الخيانة فلا نبوة ولا أهلية لها أبداً .

٣ - التبليغ : والمراد منه أن يبلغ الرسول كل ما أمر بتبليغه فلا
يخفي منه شيئاً ، ولا يكتمه بحال من الأحوال . فلا تحمله رغبة ولا
رهبة على أن يكتم بعضاً مما أوحى إليه ، وأمر بإبلاغه إلى الناس ،

والكتمان للوحي الإلهي يتعذر على المرسلين ، ويستحيل في حقهم ، ولا يتأتى لهم ، لأن الله تعالى أهلهم للبلاغ عنه ما أراد له عباده من الهدى والخير . فمتى وجد الكتمان بطلت النبوة ، وانتفت الرسالة .

٤ - الفطنة : إن الفطنة ليست الفهم والذكاء فحسب ، بل هي مع ذلك رقة الشعور ، وصفاء الذهن ، ورهافة الحس وصدقه ، وسرعة البداهة . على حد قول حسان بن ثابت في النبي محمد ﷺ :
لو لم يكن فيه آيات مبينة كانت بديته تأتيك بالخبر

إذ الفطنة من المؤهلات لتلقي الوحي ، والأمانة عليه ، فالغباء ، وبلادة الحس ، وبطء الإدراك تتنافى مع مقام النبوة ، وشرف التلقي عن الله تعالى ، وسرف تكشف عن هذه المؤهلات ونجلي الكثير من معانيها إن شاء الله تعالى عند الحديث عن خاتم الأنبياء محمد ﷺ ، إذ هو المقصود بهذه الدراسات كلها ، وذلك لوجود رسالته قائمة بين أيدي الناس ، ولحاجة الناس إليها .

الرسل عليهم السلام

الرسل في التاريخ :

لقد سبق أن عرفنا الرسول في اصطلاح الشرع وهو : ذكر من بني آدم أوحى إليه بشرع ، وأمر بتبليغه ، وأنه بوحى الله تعالى إليه أصبح نبياً ، وبإرساله كان رسولاً

والآن نعرض لجملة من تاريخ الرسل فنقول : أن التاريخ الذي كتبه يد البشر ومهما كانت اليد الكاتبة أمينة ، وعليمة لتاريخ ناقص عن توفية الرسل حقهم فيما وهبهم الله تعالى من الكمال ، وقاصر عن اعطاء الصورة الواضحة لرسول الله وأنبيائه الذين لم تخل من وجودهم فيها أمة من الأمم ، ومن بدء الخليقة إلى أن ختموا بإمامهم ، وسيدهم ، محمد صلى الله عليه وعليهم وسلم تسليماً كثيراً ، لقول الله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾^(١)

ومع هذا فإنه لا يوجد في مصادر التاريخ اليوم ما يعول عليه في هذا ، الشأن ، وما يعتمد عليه في هذه المهمة العظيمة ، وهي التاريخ الصادق الكامل لصفوة الخلق ، وخلاصة البشر الرسل عليهم السلام ، اللهم إلا ما كان من كتاب الله تعالى القرآن الكريم ، فإنه المصدر الوحيد الموثوق ، الذي لا يُعَدَّلُ به غيره ، ولا يلتفت معه إلى سواه ،

(١) سورة فاطر الآية (٢٤) .

اذ لا يعرف الأنبياء ، كمن نبأهم ، ولا يعرف المرسلين المصطفين كمن اصطفاهم . وأرسلهم . فحسبنا اذا القرآن في هذا الشأن فنكتفى بإيراد بعض ما جاء فيه عن رسل الله من حيث عددهم ، وبيان زمن وجود كل منهم ، ومعرفة أسمائهم ، ومعرفة أعاضهم وأولي العرم منهم ، وذكر بلادهم ، وأقوامهم ، وما إلى ذلك من تاريخ حياتهم .

عدد الرسل

لم نشك أبداً في أن الرسل كانوا جمعاً غفيراً ، وذلك لقول الله تعالى :

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾^(١)
وقوله :

﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾^(٢)

غير أننا لا نستطيع أن نجزم بعدد معين لا نزيد عليه ، ولا نقص منه ، ذلك لعدم ثبوته عن الوحي الإلهي ، والخبر النبوي الصحيح ، وكل ما ورد عن النبي ﷺ في بيان عدد الأنبياء والمرسلين حديث أبي ذر الغفاري في مسند أحمد وسنده ليس بالقوي كما قيل ، ولفظه : «قلت : يا رسول الله أي الأنبياء كان أول ؟ : قال آدم ، قلت : يا رسول الله أنبي كان ؟ قال نعم ، نبي ، مكلم ، قلت يا رسول الله كم المرسلون ؟ قال ثلثمائة وخمسة عشر جمعاً غفيراً » . وفي لفظ : «كم وفاء عدد الأنبياء ؟ قال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، الرسل منهم ثلثمائة وخمسة عشر جمعاً غفيراً»^(٣) . ففي هذا الخبر المرفوع بيان أن

(١) سورة النحل الآية (٣٦) .

(٢) سورة فاطر الآية (٢٤) .

(٣) أحمد (١٧٨/٥ ، ١٧٩ ، ٢٦٦) .

آدم كان نبياً يكلمه الله تعالى ، ويوحى إليه ، وبيان عدد كل من الأنبياء والمرسلين . ولا يبعد أن يكون هذا الخبر صحيحاً وإن ضعف سنده وذلك لما فيه من آثار طابع النبوة وروحها .

ولما لم يجد علماء الإسلام بديلاً عنه قالوا بالمعنى الذي جاء فيه فحكموا بنبوة آدم ، وحذّثوا أن عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفاً ، وأن المرسلين منهم ثلثمائة وخمسة عشر . ولا تريب عليهم في ذلك لعدم وجود ضرر يترتب على القول بهذا الخبر ، إذ هو كإخبار بني إسرائيل تصح روايتها للاعتبار بها ، إذ لم يوجد في الإسلام ما ينافيها ،^(١) . أو يتنافى معها .

زمن وجود كل منهم

إن تاريخ الرسل عليهم السلام يتبدى بآدم أبي البشر عليه السلام ، ووجوده في الأرض ، وتكاثر أبنائه فيها مقتض للوحي الإلهي ، إذ به تكمل آدمية الإنسان ، وبه يتم شرفه ، وعليه تزكو نفسه ، ويتأهل للسعادة في الحياتين الأولى والأخرة .

ولم يعرف الناس نبياً من أولاد آدم لصلبه اللهم إلا ما كان من شيث عليه السلام ، فإنه روي أنه كان حفيداً لآدم أبي البشر النبي عليه السلام ، وقد أنزل عليه عدة صحف ، تعرف بصحف شيث عليه السلام . وجاء بعد شيث نبي الله ورسوله إدريس عليه السلام وهو مذكور في الكتاب الكريم ، وتقول الأخبار أنه من ذرية شيث عليه السلام .

ثم جاء نوح عليه السلام وهو أول رسول كما صرح بذلك القرآن

(١) ولا يقولن قائل بل جاء في القرآن ما يتنافى معها وهو قوله تعالى : « منهم من نقصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك فأننا نقول المنفى هو أخبارهم ، وأسماؤهم وأحوالهم مع اسمهم . أما خبر إجمالي كهذا فانه لا يتنافى مع الآية أبداً .

الكريم في قوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (١)

ثم جاء بعده هود فصالح فأبراهيم ، فلوط ، فإسماعيل ،
فإسحاق ، فيعقوب ، فيوسف ، ثم شعيب ، فموسى فهارون ، فداود .
ف سليمان . ثم إلياس فأيوب ، واليسع ، وذو الكفل ، ويونس ،
وزكريا ، فيحى ، وعيسى ؛ ثم خاتمهم محمد صلى الله عليهم وسلم
أجمعين .

وهذا الترتيب الزمني صحيح إلى حد ما ، ولولا الخفاء في زمن
كل من يونس ، وأيوب ، وذو الكفل ، واليسع لكان إلى الصحة أقرب
منه إلى غيرها . والحقيقة في هذا أنه من باب علم لا ينفع ، وجهالة لا
تضر ، إذ المطلوب هو الإيمان بالرسول ، وتوحيدهم ، وتعزيزهم ،
واتباعهم ، والافتداء بهديهم في أي زمان كانوا ، وفي أي أرض
وجدوا .

ديار الرسل :

إن عامة من ذكر من الرسل في القرآن الكريم كانت ديارهم في
الشرق الأوسط ، منها بُعثوا ، وفيها عاشوا مع أقوامهم ، وفيها ماتوا
ودفنوا ، فأبراهيم عليه السلام بعث بالعراق ، وهاجر منها إلى أرض
كنعان ، فتنقل بين الحجاز والشام وأرض المعاد حتى توفاه الله تعالى ،
وإسماعيل عليه السلام ولد بالشام وعاش بمكة المكرمة لم يفارقها ،
وفيها بعث ، وبين القبائل العربية دعا إلى الله حتى توفاه الله . وإسحاق
كان بأرض المعاد وكذا يعقوب ولده إلا أن الأخير هاجر إلى أرض
مصر ، فعاش بها مع أولاده ، ولعله توفي بها وأرسل من بعده يوسف ،

(١) سورة النساء الآية (١٦٣)

فعاش بمصر حتى هلك بها ، ثم أرسل موسى وهارون ، وعاشا بين مصر وسيناء إلى أن توفاهما الله تعالى ، وجاء داود وسليمان فكانا في أرض القدس ، وتوالت أنبياء بني إسرائيل على أرض الشام ، وكان آخرهم عيسى عليه السلام فولد في بيت لحم ، وعاش بأرض المقدس حتى رفعه الله تعالى لله . ثم بُعث خاتم الأنبياء محمد ﷺ بفكّة ، فولد بها وعاش إلى أن هاجر إلى المدينة من أرض الحجاز ، فعاش بها عشر سنوات ، وبها توفي ، وبها قبره الشريف .

أما نوح عليه السلام فلا يبعد أنه كان كذلك بين الشرقين الأوسط والأدنى ، وأما هود ، وصالح ، وشعيب فقد كانوا بأرض العرب ، هود في الجنوب ما بين حضرموت والشحر ، وصالح بالشمال ما بين الحجاز والشام ، وشعيب بغرب الجزيرة ، جنوب الأردن الشرقي بأرض مدين ، ولوط عليه السلام كان قد هاجر مع عمه إبراهيم الخليل من أرض بابل بالعراق ، فبعثه الله تعالى إلى المؤتفكات ، وكانت خمس مدن كبيرة أشهرها سدوم ، وعمورة فأهلك الله أهل تلك البلاد لفسادهم وخبثهم ، ونجى لوطاً ومن معه من المؤمنين ، فارتفعوا إلى أرض الشام وأقاموا بها .

أولو العزم من الرسل :

مما يعتبر جزءاً من العقيدة الإسلامية معرفة أولي العزم من الرسل عليهم السلام ؛ إذ جاء في القرآن قوله :

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَأُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾^(١)

فتعينت معرفتهم لذلك ، كما جاء في القرآن بيان عددهم ، وأسمائهم معاً ، وذلك في آية من سورة الأحزاب وهي قوله تعالى :

(١) سورة الأحقاف الآية (٣٥)

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ
وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ۖ﴾^(١)

فالكاف من قوله ومنك حرف خطاب تعني محمداً ﷺ ، فهو مقدم في
اللفظ الفضل ، ويأتي أربعتهم بعده وهم نوح وإبراهيم وموسى
وعيسى ، مرتبون في الفضل ، والزمن ، فنوح أولهم وعيسى بن مريم
آخرهم فصلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

(١) الآية (٧) .

وجوب الإيمان بالرسل عليهم السلام

بعد أن عرفنا إمكان الوحي ؛ وعرفنا الوحي . وطرقه الخاصة به ،
وعرفنا ضرورته ، وحاجة الناس إليه ، كما عرفنا النبوة ، ومؤهلاتها
وعرفنا صفات الأنبياء والرسل ، وتاريخهم العام ، نذكر إتماماً للبحث
في هذا المعتقد أن الإيمان بالرسل إجمالاً وتفصيلاً جزء من عقيدة
المؤمن لا يتجزأ ، بحيث لا تصح عقيدة المؤمن ، ولا تكمل إلا به .

ومعنى الإيمان بالرسل إجمالاً أن يؤمن المرء بكل ما نبأ الله من
نبي وبكل ما أرسل من رسول ممن عرف نبوتهم ورسالاتهم ، وممن لم
يعرف ، فيؤمن إيماناً إجمالياً .

ومعنى الإيمان بالرسل تفصيلاً : أن يؤمن المرء بكل نبي ورسول
عرف نبوته ورسالته عن طريق الوحي إيماناً تفصيلاً ، فمن عرفهم من
طريق الوحي الإلهي بأسمائهم آمن بهم واحداً واحداً على التفصيل ،
ولا يؤمن برسالة بعض ويكفر برسالة بعض آخر ، إذ الكفر بواحد منهم
يعتبر كفراً بجميعهم . وقد تقدم آنفاً بيان الرسل الذين ذكروا في القرآن
الكريم . وهم خمسة وعشرون نبياً ورسولاً ، منهم ثمانية عشر قد ذكروا
في آية من سورة الأنعام

﴿وَتِلْكَ جُنُودُ إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّسَاءِ

إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا
 هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى
 وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ
 كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا
 فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾

وذكر السبعة الباقون مفرقين في عدة سور من القرآن الكريم وهم آدم ، وإدريس ،
 وهود ، وصالح ، وشعيب ، وذو الكفل ، وخاتمهم محمد صلى الله عليه
 وسلم ، (٨٦) .

والإيمان بالرسول ضروري ، لا يتوقف على نظر ولا استدلال
 بالنسبة إلى المؤمنين بالله تعالى ، لأن الله تعالى هو الذي نبأهم ،
 وأرسلهم ، وأخبر عنهم ، وأمر بالإيمان بهم ، وتصديقهم ، والإيمان
 بالله تعالى مستلزم للإيمان بكل ما أمر الله بالإيمان به من الملائكة ،
 والكتب ، والرسول ، والبعث ، والخبراء ، والقدر ، والقضاء ، وبكل
 غيب أمر الله تعالى بالإيمان به فيكفي المؤمن دليلاً أن يبلغه خبر الله ،
 وأمره بالإيمان بالرسول كقوله تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالِكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى
 رَسُولِهِ ءَالِكِتَابِ الَّذِي أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ (٨٧)

(١) الآيات (٨٣ - ٨٦) .

(٢) آدم في (٣٣) من آل عمران ؛ وإدريس في (٥٦) من مريم ؛ وهود في (٥٠) من سورة هود ؛
 وصالح في (٧٣) من الأعراف ؛ وشعيب في (٨٥) من الأعراف ؛ وذو الكفل في (٨٥) من
 الأنبياء ؛ ومحمد في (٤٠) من الأحزاب .

(٣) سورة النساء الآية (١٣٦) .

وقوله تعالى :

﴿أَمَّا أَمَّا الرُّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ
وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ۚ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ﴾^(١)

فلهاتين الآيتين وغيرهما يؤمن المؤمن برسل الله تعالى ، ولا
يفرق في الإيمان بهم بين رسول ورسول منهم ، كما فعل اليهود
والنصارى ، حيث آمن اليهود بأنبياء بني إسرائيل وكفروا بـعيسى بن مريم
ومحمد ﷺ ، ولا كما آمن النصارى بكافة الأنبياء ، وكفروا بخاتمهم
وإمامهم محمد ﷺ .

وقد كفر الله ، وتوعد بالعذاب المهين من يؤمن ببعض الرسل ،
ويكفر ببعض في قوله من سورة النساء :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ
وَيَقُولُونَ نُوْمنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ
سَبِيلًا أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(٢)

هذا ونظراً لنسخ جميع شرائع الرسل عليهم السلام بشريعة
خاتمهم محمد ﷺ ، فإنه لم يبق هناك ما يلزم المؤمن إزاء أولئك
الرسل بسوى الإيمان بهم واعتقاد عصمتهم ، وكمالهم ، ووجوب
تعظيمهم ، واحترامهم .

ولهذا نكتفي بما سبق من البحث في اعتقاد المؤمن بالرسل
عليهم السلام لنخص بالبحث النبي الخاتم ، صاحب الشريعة المتممة
لسائر الشرائع ، والعامه لكل الناس ، وهو النبي الأمي محمد رسول الله ﷺ .

(١) سورة البقرة الآية (٢٨٥) .

(٢) الآيةان (١٥٠ ، ١٥١) .

مَحْمَدُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

التعريف به صلى الله عليه وسلم :

نسبه : هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن كعب بن مرة بن لؤي بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ابن معد بن عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام .

نشأته :

ولد صلى الله عليه وسلم بمكة بدار أبي يوسف ، ولدته آمنة بنت وهب بن زهرة بن عبد مناف بن قصي بن كلاب . ولدته صبيحة يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول عام الفيل ، الموافق لأغسطس عام (٥٧٠) ميلادية ومات والده عبد الله وهو حمل في بطن أمه ، وكفله جده عبد المطلب ، وماتت والدته آمنة وهو ابن ست سنين ، وحضته أم أيمن جارية أبيه . ومات جده فكفله عمه أبو طالب .

زواجه وأولاده :

ولما بلغ الخامسة والعشرين من عمره صلى الله عليه وسلم تزوج بخديجة بنت خويلد ، إحدى شريفات قريش ، فأنجب منها ولدين هما القاسم وعبد الله^(١) ماتا صغيرين ، وأربع بنات هن فاطمة الزهراء

(١) ومن أصحاب السر من يزيد الطيب فيجعل الأبناء ثلاثة والله اعلم بالحقيقة .

وزينب ورقية ، وأم كلثوم رضي الله عنهم ، ولم يزاوِل من الأعمال صلى الله عليه وسلم في هذه الفترة من عمره سوى رعي الغنم ، إذ قال صلى الله عليه وسلم « مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا وَرَعَى الْغَنَمَ ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ : وَأَنْتَ ؟ فَقَالَ : يَنْعَمْ ، كُنْتُ أُرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ »^(١) والتجارة حيث خرج مع عمه إلى الشام مرة واحدة وخرج بعد ذلك في تجارة لخديجة فربح لها ربحاً عظيماً .

وكان صلى الله عليه وسلم في هذه المدة من حياته يتمتع بأفضل الأخلاق ، وأطيب السمائل ، فلم يُؤثر عليه ما يخل بمكارم الأخلاق قط ، فلم يأت ولا مرة ما كان يأتيه بنو قومه أبداً ، فلم يسجد لصنم ، ولم يشرب خمرأ ، ولم يلعب قمارأ ولا مسراً ، ولم يستقسم بزلم ولم يظلم أحداً في عرض ، ولا مال ، ولا دم ، لقد كان بشهادة أعدائه وخصومه مثالياً في أخلاقه ، وناهيك بإجماع قريش على إضفاء لقب الأمين عليه ، هذا اللقب الذي لم يظفر به أحد في ديارها أبداً ، لقد كان صلى الله عليه وسلم آميناً في سره ، وفي علنه ، آميناً في قوله وفي عمله ، آميناً في غيبه ، ومشهده ، آميناً في كل شيء ، وعلى كل شيء .

وإذا كانت قريش قد اضطرت إلى منحه ذلك انلقب السامي ، الرفيع ، والكريم ، لقب الأمين ، فإن الله تعالى قد أقسم له في مطلع نبوته على أنه على خلق عظيم ، وهي شهادة والله لا تعادلها شهادة أبداً ، إذ قال من سورة القلم :

﴿ ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾^(١)

(١) البخاري (١٠٩/٣ ، ١١٠) كتاب الإجارة ، باب رعي الغنم على قراريط .

(٢) الآيات (١-٤) .

عناية الله به :

لم يكن الكمال الذي عاش عليه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرف به قبل نبوته ، لم يكن نتيجة أم أو آت ، أو أثر تعليم أستاذ ، أو مرب قط ، وإنما كان أثر عناية الله تعالى له ، فالله الذي خلقه لأن يكون واسطة بينه وبين عباده ، ليلبغهم شرعه ، ودينه ، هو الذي حماه من كل ما يلوث نفسه ، أو يعكر صفاء روحه ، إعداداً له لحمل رسالته إلى خلقه ، وحمل مثل تلك الرسالة يتطلب كمالاً نفسياً يكون صاحبه فيه مثلاً أعلى لغيره من سائر الناس ، وكذلك كان رسول الله ﷺ ، ولنستشهد على عناية الله للرسول ، وحمايته تعالى له من التلوث النفسي منذ ولادته بشاهدين اثنين نستغني بهما عن عشرات الشواهد والأمثلة وهما :

١ - ما روى البيهقي عن محمد بن إسحق عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : « سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : مَا هَمَمْتُ بِشَيْءٍ مِمَّا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَهْمُونَ بِهِ إِلَّا لَيْتَنِي ، كَلْتَاهُمَا عَصَمَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمَا : قُلْتُ لَيْلَةُ لِمَعْصَرٍ فِتْيَانٍ مَكَّةَ وَنَحْنُ فِي رِعَاءِ غَنَمٍ أَهْلِهَا ، فَقُلْتُ لِصَاحِبِي : أَبْصُرْ لِي غَنَمِي حَتَّى أَدْخُلَ مَكَّةَ أَسْمُرُ فِيهَا كَمَا يَسْمُرُ الْفِتْيَانُ : فَقَالَ : بَلَى ، قَالَ : فَدَخَلْتُ حَتَّى جِئْتُ أَوَّلَ دَارٍ مِنْ دُورِ مَكَّةَ ، فَسَمِعْتُ عَرَفًا بِالْغُرَابِيلِ ، وَالْمَزَامِيرِ ، فَقُلْتُ : مَا هَذَا ؟ قَالُوا : تَزُوجُ فُلَانُ فُلَانَةٌ فَجَلَسْتُ أَنْظُرُ ، وَضَرَبَ اللَّهُ عَلَى أُذُنِي ، قَوْلًا مَا أَبْقَظُنِي إِلَّا مَرَّ الشَّمْسِ فَرَجَعْتُ إِلَى صَاحِبِي ، فَقَالَ : مَاذَا قَعَلْتَ ؟ فَقُلْتُ : مَا قَعَلْتُ شَيْئًا ، ثُمَّ أَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي رَأَيْتُ (وَذَكَرْتُ أَنَّهُ حَصَلَ لَهُ مَرَّةً أُخْرَى قَعَمَ لَهُ مِثْلُ الَّذِي حَصَلَ فِي الْأُولَى) ثُمَّ قَالَ : قَوْلًا مَا

هَمِيتُ ، وَلَا عُدْتُ بَعْدَهُمَا لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى أَكْرَمَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
بِنُبُونِهِ»^(١)

٢ - ما زوى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ كَانَ يَنْقُلُ مَعَهُمُ الْحِجَارَةَ لِلْكَعْبَةِ
(لَمَّا أَرَادُوا تَجْدِيدَ بَنَائِهَا) وَعَلَيْهِ إِزَارُهُ ، فَقَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ عَمَّهُ : يَا ابْنَ أَخِي لَوْ
خَلَّكَ إِزَارُكَ فَجَعَلْتَهُ عَلَى مَنْكَبِكَ دُونَ الْحِجَارَةِ ، قَالَ : « فَخَلَّه فَجَعَلَهُ عَلَى
مَنْكَبِي ، فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ ، فَمَا رُؤْيِي بَعْدَ ذَلِكَ غَرِيَانًا ﷺ »^(٢).

نُبُونُهُ وَبَعَثُهُ :

وعلى رأس الأربعين كما هي سنة الله في الأنبياء نبيء محمد ﷺ
إِذْ جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ بِقَارٍ جَرَاءٍ ، بَعْدَ أَنْ كَانَ قَدْ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ فِيهِ
مُدَّةَ شَهْرِ رَمَضَانَ ، فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ بِهِ فَضَمَهُ إِلَى صَدْرِهِ وَأَرْسَلَهُ ثَلَاثًا
وَقَالَ لَهُ : اقْرَأْ . فَقَالَ : مَا أَنَا بِقَارِيءٍ وَفِي الرَّابِعَةِ قَالَ :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ﴾^(٣)
اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ ﴿٤﴾ ﴿٥﴾

فَذَهَبَ بِهَا ﷺ إِلَى خَدِيجَةَ زَوْجِهِ الْكَرِيمَةِ تَرْجَفُ بِوَادِرِهِ ، وَهُوَ خَائِفٌ
عَلَى نَفْسِهِ ، وَهِيَ تَقُولُ لَهُ : كَلَّا ، وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ

(١) ذكر هذه الحادثة ابن كثير في البداية والنهاية ، وقال هذا حديث غريب جداً ، وقد
يكون عن علي نفسه ، ويكون قوله في آخره « حتى أكرمني الله بنبوته » مقحماً ، والله
أعلم . أ . هـ - (٢٨٨/٢) الطبعة الأولى ١٩٦٦ أشرف عليها مكتبة المعارف ومكتبة
النصر .

(٢) اللؤلؤ والمرجان (٧٢/١) البخاري (٩٧/١) ومسلم (١٨٤/١) وما بين القوسين ليس
من الحديث .

(٣) سورة العلق الآيات (١ - ٣) .

لَتَصِلَ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الْكُلَّ ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتَقْرَى الضَّيْفَ ، وَتَعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ، وَانْطَلَقَتْ بِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِلَى وَرْقَةِ بْنِ نَوْفَلٍ بْنِ أَسَدِ بْنِ عِمْبَاءَ ، وَكَانَ امْرَءاً قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ ، فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ ، وَكَانَ شَيْخاً كَبِيراً قَدْ عَمِيَ ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ : يَا ابْنَ عَمِّ اسْمِعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ ، فَقَالَ لَهُ وَرْقَةُ : يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى فَقَالَ لَهُ وَرْقَةُ ، هَذَا التَّامُوسُ الَّذِي نَزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى ، يَالَيْتَنِي فِيهَا جَذَعاً^(١) ، يَا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا ، إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : أَوْ مُخْرِجِي هُمْ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا عُودِي ، وَإِنْ يُدْرِكَنِي يَوْمُكَ أَتُصْرِكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا ، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرْقَةُ أَنْ تُوْفِيَ وَفَتَرَ الْوَحْيَ^(٢) .

وبعد فترة فتر فيها الوحي ، تبدى له جبريل في صورته الملائكية وقد سد الأفق ، وله ستمائة جناح ، ثم أخذ يدنو منه ويتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله ما أوحى !! ونزل عليه قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ وَتِبَابَكَ فَطْمَحٌ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾^(٣) فأرسل بها ﷺ .

(١) جذعا منصوب على أنه خبر كان المحذوفة والتقدير ليتني أكون فيها جذعا ، أو الخير متعلق بالجار والمجرور وجذعا منصوب على الحال .

(٢) لم ينشب أي لم يتعلق بأي عمل من الأعمال ، كتابة عن كونه مات بعد قليل ولم تطل حياته ، والحديث بطوله أخرجه البخاري في أول كتابه (٦٠٥/١) ومسلم (٩٧/١ ، ٩٨) واللؤلؤ والمرجان (٣٢/١) .

(٣) سورة المدثر الآيات (١ - ٥) ، والحديث رواه البخاري ومسلم إلا أنه ليس فيهما في هذا الحديث أن له ستمائة جناح وأنه أخذ يدنو منه ويتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله ما أوحى راجع اللؤلؤ والمرجان (٣٤/١) ومسلم (٩٨/١ ، ٩٩) . والبخاري (٦/١) .

بدء الدعوة :

وبدأ ﷺ دعوته إلى الإيمان بالله ورسوله ، وكتابه ، ولقائه وتوحيده تعالى في عبادته ، بدأها فردية ، وتلقى هو ومن آمن به صنوفاً من الأذى ، وأنواعاً من الاضطهاد مما اضطر بعض أصحابه إلى الهجرة إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة النبوية . كما حُوصِر هو وأسرته الشريفة والمؤمنون من بني هاشم ، حوصروا في شِعْب أبي طالب ثلاث سنوات ، جاعوا فيها جوعاً أكلوا معه ورق الشجر ، مع كامل الأسف .

وفي هذه الأثناء توفيت أم المؤمنين خديجة ، وزوجه المفضلة رضي الله عنها ، كما توفي عمه أبو طالب الذي لم يأل جهداً يدفع عن رسول الله ﷺ ، ويحميه من كيد أعدائه له ، فكان ذلك العام يدعى عام الحزن كما قيل .

وفي نهاية السنة العاشرة من بعثته ﷺ ومطلع الحادية عشرة عُرج به ﷺ إلى الملكوت الأعلى حتى بلغ سدره المنتهى عند جنة المأوى ، وتجاوزها إلى مقام أسمى سمع عنده صريف الأقلام ، وناجاه ربه ، وناداه ، وفرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس^(١) ، وفي هذه الأثناء عقد ﷺ اتفاقية مع بعض رجالات الأوس والخزرج تنص على أن يحمي أولئك الرجال من يهاجر إليهم من المؤمنين مما يحمون به أنفسهم وأموالهم ، وأن لهم عند الله تعالى الجنة ، وسميت هذه الاتفاقية ببيعة العقبة الأولى ، وتمت عندها أخرى مثلها فسميت ببيعة العقبة الثانية^(٢) ، وهاجر الرسول ﷺ إلى المدينة بعد أن كثر بها الإسلام والمسلمون ، وكانت قبل ذلك تسمى (يثرب) فصارت بحلول النبي فيها تسمى المدينة النبوية ، والعامة تسميها المدينة المنورة ، وفيها شُرعت كل

(١) حديث الإسراء ثابت في الصحيحين ، اللؤلؤ والمرجان (١/ ٣٥) .

(٢) راجع أحاديث العقبة في البخاري (٥/ ٦٩ ، ٧٠) .

الأحكام والقوانين الجنائية والمدنية ، وبها تكونت الدولة الإسلامية الأولى في تاريخ الاسلام . ومن المدينة انطلق المسلمون ينشرون راية العدل والحق في ربوع الأرض ، ويخرجون الناس من ظلمات الكفر إلى أنوار الإيمان ، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جور السلطان إلى عدل الإسلام كما قال رباعي ابن حراش لكسرى ملك الفرس . ولم يقبض رسول الله ﷺ حتى انتظم الإسلام كامل شبه جزيرة العرب ، وحتى تم التشريع الإسلامي بوفور وقوى ما يكون ، ونزل في ذلك قوله تعالى من سورة المائدة :

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (١)

وقبض رسول الله ﷺ يوم الاثنين من شهر ربيع الأول بعد ما مضى عشر سنوات وشهران وبعض الليالي عنى هجرته إلى المدينة ، والتي كانت مبدأ التاريخ الإسلامي ، ولم يلتحق ﷺ بالرفيق الأعلى حتى لم يترك خيراً قط إلا دل أمة الإسلام عليه ، ولا شراً إلا حذرهما منه فصلوات الله عليه إلى يوم أن نسعد برؤيته وشفاعته .

هذه نظرة سريعة ألقيناها متبركين بها على تاريخ محمد رسول الله ﷺ بمناسبة الحديث عن نبوته ، فكانت مثل ترجمة قصيرة نقدمها بين يدي بحث دلائل نبوته ، وعموم رسالته ، وتقرير أن سعادة الانسان في الدنيا والآخرة رهن ذلك ومتوقفة عليه .

مؤهلاته للنبوّة :

لقد سبق أن ذكرنا أن من مؤهلاته للنبوّة العامل الزمني ، والمالية ، وشرف النسب فلننظر الآن فيما إذ كانت هذه العوامل الثلاثة

(١) الآية (٣) .

متوفرة للنبي العربي ﷺ أم لا ؟ ولنبدأ بالعامل الزمني فنقول :

لقد أجمع من أرخوا للدولتين الكبيرتين الفارسية والرومانية قبل البعثة المحمدية ، أجمعوا على أن فساداً عاماً قد عم تينك الدولتين العظيمتين فساداً في الدين ، فساداً في الأخلاق ، فساداً في الحكم ، فسرى ضعف هائل في كل أجهزة تينك الدولتين ، وخلايا تينك الأمتين الكبيرتين . هذا في دولة الفرس والروم الحضاريتين أما في غيرهما فإن الأحوال أسوأ ، والأمور أردأ ، والظلام في كل جوانب الحياة أحلك ، ففي شبه جزيرة العرب أصنام تُعبد ، وخمور تشرب ، وبنات تواد ، كهانات حلت محل النبوات ، وأعراف قبلية سائدة سيادة الشرائع الإلهية ، من له يُعطى ويزاد ، ومن ليس له يؤخذ منه ، وليس حال غيرهم خيراً من حالهم ، فالعالم يومئذ كله يعيش في ظلام دامس من الظلم والشر والفساد ، وهي حال تدعو بل تصرخ بذي نبوة إلهية ، ورسالة ربانية ، يصلح الله به وعلى يديه فساد البلاد والعباد .

وحقاً فقد تطلع الناس إلى صاحب هذه النبوة ، وحامل تلك الرسالة ، ففي الجزيرة العربية إرهابات كثيرة ، وبين أهل الكتاب تنبؤات أكثر ، همسات خفية في كل واد ، وممنية بقرب نبوة سماوية . كل الدلائل تشير إلى أن هذه النبوة ستكون هذه المرة في الأمة العربية ، قد يلوح سناها بين جبال فاران (مكة) وتطلع شمس ضحاها في يثرب ذات النخيل والظل الظليل ، إنها مهاجر النبي الذي قد أظل زمانه .

وسابق بعض أهل الكتاب الأحداث ، فهاجروا إلى الحجاز ، ونزلوا يثرب نفسها ، وتأكدت التنبؤات عند بعضهم ، حتى استفتحوا على العرب جيرانهم بأن النبي المنتظر سيبحث فينا ، ونقاتلكم معه .

وبالجملة فإن تلك الفترة وهي السبعون سنة بعد الأربعمئة من ولادة السيد المسيح عليه السلام ، كانت فترة إرهابات كثيرة ،

وتطلعات كبيرة ، وتنبؤات لا حد لها ، وفي أنحاء شتى من العالم إلى نبوة يتغير بها مجرى التاريخ الانساني ويوقف بها تيار الفساد العام بين البلاد والعباد ، ومن يا ترى يكون المؤهل لهذه النبوة ؟ .

إنه كان محمداً بن عبد الله ، دعوة إبراهيم القائل :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١)

وبشارة عيسى القائل :

﴿ يٰٓيَسَّىٰ إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ (٢)

إنه كان محمداً النبي الأمي الذي نادى قائلاً :

﴿ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمُ جَمِيعًا ﴾ (٣)

فمرحباً بوفادته على الدنيا ، ومرحباً بقيادته للإنسانية ومرحباً به وهو الرحمة الإلهية ، ومن العامل الزمني إلى المثالية ، فلنلق نظرة سريعة على المثالية المحمدية التي أهلته بإذن الله لقيادة البشرية ، وهيته لتلقي الوحي من السماء ، ليكون رسول الله إلى الناس كافة . فلتنظر إليها في الجانب الخلقي الذاتي ، ثم في الجانب الخلقي النفسي . إن أصحاب السير وجميع من كتب في السيرة المحمدية مجمعون على أن محمداً بن عبد الله والنبي الأمي كان أكمل الناس ذاتاً ، وأجملهم وجهاً ، وأحسنهم قداً واعتدالاً ، ولترك الرواة الصادقين يصفون لنا

(١) سورة البقرة الآية (١٢٩) .

(٢) سورة الصف الآية (٦) .

(٣) سورة الأعراف الآية (١٥٨) .

الدات المحمدية كما رأوها ، وعرفوها قال البراء في رواية مسلم « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا مَرْبُوعًا ، بَعِيدَ مَا بَيْنَ الْمَنْكِبَيْنِ عَظِيمُ الْجُمَةِ إِلَى شَحْمَةِ أُذُنَيْهِ ، عَلَيْهِ حُلَّةٌ حُمْرَاءُ مَا رَأَيْتُ شَيْئًا قَطُّ أَحْسَنُ مِنْهُ ﷺ »^(١) وقال أنس في رواية مسلم « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَزْهَرَ اللَّوْنِ ، كَأَنَّ عِرْقَهُ الْمُلُؤُؤُ إِذَا مَشَى بَنَكْفًا ، وَلَا مَسَتْ دِيْبَاجَةٌ وَلَا حَرِيرَةٌ أَلْيَنُ مِنْ كَفْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا شَعْمَتٌ مِسْكَةٌ وَلَا عُنْبُرَةٌ أَطْيَبُ مِنْ رَائِحَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ »^(٢) ، ولنصغ أخيراً إلى ما قاله الحسن بن علي رضي الله عنهما حيث قال : « سألت هناد بن أبي هالة عن جليلة رسول الله ﷺ وكان وصافاً ، وأنا أرجو أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به ، فقال : كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً ، يتلأأ وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر ، أطول من المربع (بين القصز والطول) وأقصر من المثذب (البائن الطول) عظيم الهامة ، رَجُلُ الشعر (ليس بسبط ولا خعد) إن انفردت عقيقته فرقها ، وإلا فلا يحاوز شعره مشحمة أذنيه إذا هو وفره ، أزهر اللون ، واسع الجبين ، أزج الحواجب^(٣) سوانخ من غير قرْن بينهما ، عرق يُدره الغضب ، أقرنى العينين^(٤) ، له نور يعلوه ، يحبه من لم يتأمله أشم ، كث اللحية ، أدعج ، سهل الخدين ، ضليع الفم ، أشنب^(٥) ، مفلج الأسنان ، دقيق المسربة^(٦) ، كأن عنقه جيد دُمية في صفاء الفضة ، معتدل الخلق ، بادنا (ذو لحم) متماسكاً سواء البطن والصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس

(١) الحديث متفق عليه واللفظ لمسلم للؤلؤ والمرجان (١٠٧/٣) ومسلم (٨٣/٧) ،
والبخاري (٢٢٨/٤) .

(٢) مسلم (٨١/٧) .

(٣) الأزج : الحاحب المقوس الطويل الكثير الشعر .

(٤) القنا : ارتفاع الأنف ، واحديداب وسطه . ودقة أربته .

(٥) الشنب : رقة الأسنان ، ورونفها ، وحسها .

(٦) المسربة : الشعر الذي بين الصدر والبرة .

(رؤوس العظام) أتور المتجرد ، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط ، عاري الثديين ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر ، طويل الزندين ، رجب الراحه ، شثن الكفين والقدمين ، سائل الأطراف ، عبل الذراعين^(١) ، خمضان الأخصمين ، مسيح القدمين ، ينبو عنهما الماء ، إذا زال زال ثقلها ، ويخطو تكفؤاً ، ويمشي هوناً . ذريع المشية ، إذا مشى كأنما ينحط من صب (علو) ارتقاء ، وإذا التفت التفت جميعاً ، حافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة ، يسوس أصحابه ، ويبدأ من نقيه بالسلام^(٢) .

هذا الجانب الخُلقي الذاتي هو محض عطاء الله تعالى وهته ، ولا كسب فيه للإنسان ، فإن النبي الأمي محمداً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم قد أعطي منه ما لم يُعط غيره ، حتى كان في جماله الذاتي مثلاً عالياً لا يسامى فيه ، ولا يُطاول أبداً . ولنظر إلى مثاليته ﷺ في الجانب الخُلقي النفساني ، متبعين عاصر الكمال فيه عصراً بعد آخر فنقول - ولسنا بموفيه ﷺ كماله مهما حدثنا وكتبنا .

رجاحة عقله :

نكتفي من عشرات الأمثلة الدالة على ما كان للنبي محمد ﷺ من كمال العقل ورجاحته بأربعة أمثلة ، اثنين منها قبل نبوته واثنين بعدها فأما اللذان قبل نبوته ﷺ فهما :

١ - حضوره حلف الفضول وقوله فيه : ولقد حضرت جلّفت الفضول بدار عبد الله بن جدعان ، وما أحب أن لي بجلّفت حضرة في

(١) العبل : الغلظ .

(٢) محمد المثل الكامل (١١/١٠) .

ذَارَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ جَدْعَانَ حُمَرَ النِّعَمِ ، وَلَوْ دُعِيََتْ بِهِ لِأَجَبَتْ^(١) .
فهذا الحلف تم على أساس نُصرة المظلوم ، والوقوف إلى جنبه
حتى يؤخذ له الحق ممن ظلمه ، فحضور النبي ﷺ له تأييداً للحق ،
واغتيابه به حتى قال : « ما أحب أن لي به حُمَرَ النِّعَمِ » دال على كمال
عقله ورجحانه بدون شك .

٢ - حكمه بأن يوضع الحجر الأسود في ثوب ، ثم تأخذ بأطرافه
القبائل القرشية ، حتى إذا بلغ الحجر مكانه من جدار البيت تناوله هو
ووضعه في مكانه . فقبض بذلك على خصومة من أشد الخصومات ،
وحقق دماء كانت قد تُراق لولا ذلك التصرف الحكيم ، الذي إن دل
على شيء فإنه يدل على كمال العقل المحمدي ورجاحته ، بما لا
مجال للشك فيه .

وأما المثالن للذان في عهد نبوته فهما :

١ - تنازله لقريش على كتابة لفظة الرحمن الرحيم ، وعلى لفظ
رسول الله في كتابة وثيقة المعاهدة التي أبرمها مع قريش عام صلح
الحديبية ، إذ أمر الكاتب وهو علي بن أبي طالب أن يكتب بسم الله
الرحمن الرحيم ، فقال ممثل قريش وهو سُهيل بن عمرو : أمسك لا
أعرف الرحمن الرحيم ، بل أكتب باسمك اللهم ، فتنازل عن ذلك وكتب
باسمك اللهم . ولما قال للكاتب أكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول
الله ، قال ممثل قريش : أمسك لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ،
ولكن أكتب هذا ما صالح عليه محمد ابن عبد الله ، فتنازل عن ذلك
وكتب^(٢) في حين أن أصحابه وعلى رأسهم عمر وعلي قد كرهوا ذلك

(١) سيرة ابن هشام (١٤٣/١) بمعناه ، وذكر الحلف أحمد رحمه الله في مسنده

(١٩٠/١ ، ١٩٣) وابن سعد في طبقاته الجزء (١) القسم (١) ص (٨٢) .

(٢) متفق عليه بذكر (محمد رسول الله) دون بسم الله الرحمن الرحيم ، اللؤلؤ =

وأبوا أن يفعلوه ، ورأوه أنه إعطاء للدنية في دينهم^(١)، غير أن النتائج الطيبة التي أعقبت ذلك التنازل أدلت على قصر نظر القوم . وبعد نظر الرسول محمد ﷺ ، وكمال عقله ورجاحته ، الأمر الذي كان به مضرب المثل في كمال العقل ، وحسن السياسة ، والتدبير .

٢ - لما دخل ﷺ مكة يوم الفتح متصراً ووجد رجالات فريش قد تجمعوا حول الكعبة ينظرون حكم الفاتح المتصر فيهم : ناداهم ﷺ قائلاً : « يَا مَعْشَرَ فَرِيشٍ مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ ؟ قَالُوا : خَيْراً أَوْ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ . قَالَ : إِذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ »^(٢) .

إن هذا الموقف المثالي في تاريخ العظماء يُنم قطعاً على ما أوتي رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم من رجحان العقل وكماله ، ما أصبح به مثلاً عالياً في هذا الشأن .

شجاعته :

إن شجاعة قلب النبي محمد ﷺ لم تكن أقل من رجاحة عقله ، إنه قد بلغ فيها بحق المثالية التي لا توصف ، وناهيك في إثبات هذا الخلق العظيم أن يقول أفذاذ الأبطال كعلي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وخالد بن الوليد ، وغيرهم ممن عُرفوا بالبطولات النادرة ، والشجاعات الفذة أن يقولوا : « كُنَّا إِذَا حَمِيَ الْوَطِيسُ ، وَاشْتَدَّ الْبَأْسُ نَلُودُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَتَّقِي بِهِ »^(٣) لقد انهزم الجيش الإسلامي يوم حُنين

= والمرجاد (٢٢٤/٢) ورواه مسلم بقريب من هذا اللفظ المذكور في الكتاب في (١٧٥/٦) .

(١) جاء هذا في حديث متفق عليه ، للزُّلْزُ والمرجاد (٢٢٤/٢) ، والبحاري (٢٢٨/٣) ، (٢٢٩) ، ومسلم (١٧٣/٥ - ١٧٥) .

(٢) سيرة ابن هشام (٤١/٤) .

(٣) روى مسلم عن البراء قوله « كُنَّا وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ » (١٦٨/٥) .

شر هزيمة ، وثبت رسول الله ﷺ في الميدان وحده ، حتى ثاب إليه أصحابه ، وقاتل بهم حتى انتصر نصراً ساحقاً على أعدائه ، وأمسوا في قبضته ، وتحت سلطانه ، ولهذا الموقف نظيره في أحد أيضاً ، وهذا مصداق شهادة القرآن له بالشجاعة في قوله تعالى :

﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ (١)

إن شخصاً يكلف بالقتال وحده ، وقاتل مَنْ ؟ إنه قتال كل أهل الكفر على الأرض وما على الأرض يومها إلا كافر باستثناء تلك الحفنة من أصحابه المؤمنين لشخص هو أشجع من طلعت عليه الشمس وغربت في دنيا الناس ، ذلك هو محمد رسول الله ﷺ .

سياسته :

إن سياسة النبي محمد ﷺ وفي كلا مجالها المدني والعسكري ، أو السلمي والحربي كانت وبدون شك ، ولا مبالغة مضرب المثل ، وكانت على نحو لم يطمع في الوصول إلى مثله أحد من الناس . ومهما أوتي من الكمال في هذا الخصوص . ولنكتف في الاستشهاد على هذه المثالية في السياسة المحمدية الرشيدة السديدة بذكر مسائر معينة منها :

* إذنه ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة بعد أن اشتد أذى المشركين لهم ، حيث علم أنه لا يقدر على دفع الأذى عنهم ، وأن بالحبشة ملكاً صالحاً كريماً ، سيكرم وفادة أصحابه ، ويحسن جوارهم وهو أصحمة النجاشي ، فكان هذا الإذن بالهجرة تدبيراً سياسياً جديراً بالتقدير والاحترام (٢).

(١) سورة النساء الآية (٨٤) .

(٢) ذكر البخاري رحمه الله الهجرة إلى الحبشة في (٦٢/٥ - ٦٤) وراجع البداية والنهاية

(٦٦/٣) وما بعدها . وسيرة ابن هشام (١/٣٣٠) وما بعدها .

* اتخاذه دار الأرقم بن أبي الأرقم مركزاً للدعوة الإسلامية أيام اضطهاد المشركين لها . وثقيف أصحابه فيها ، وتربيتهم ، وتعليمهم كان تدبيراً حكيماً دل على رشد في السياسة ، وحسن فيها ، مع حكمة التصرف ، وكمال التدبير .

* عقده اتفاقيتي العقبة - وهما بيعتان بايع فيهما رجالاً من أهل المدينة لتأمين الهجرة إليها ، وحماية المهاجرين فيها ، ثم أمره أصحابه بالهجرة ، وبالتالي هجرته هو ﷺ إليها . مما جعلها في بضعة أعوام دار إسلام ، وعاصمة خلافة في الأرض ، ومنطلق فتح ، وهداية لكافة البشر ^(١) .

معاهداته لطوائف اليهود الثلاث بالمدينة ، وما حققته تلك المعاهدات من فوائد للدعوة الإسلامية ، وما وفرت من حماية لها أيام حاجتها الملحة إلى الحماية والتأمين ، وذلك لضعفها . ومناوأة كل الناس لها .

* مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار تلك المؤاخاة التي لحمت ما بين المهاجرين النازحين ، وأهل البلاد المواطنين فجعلتهم كجسم واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر بالحمى والسهر ، تلك المؤاخاة التي لم يتم نظيرها على وجه الأرض قط . تحققت بفضل الله تعالى ، ثم بتلك الحُكمة السياسية والرشد المنقطع النظير فيها .

* زواجه ﷺ من خديجة وهي بنت أربعين سنة ، وهو شاب لم يتخط الخامسة والعشرين من عمره ثم زواجه من علة أرامل من النساء المسنات ، وكزواجه من أم المؤمنين عائشة بنت الصديق وسنها لم يتجاوز التاسعة من عمرها ، كل ذلك دال على بعد نظر ، وعمق

(١) بيعتا العقبة مذكورتان في البخاري (٧٠ / ٦٩/٥) ونس هشام (٤٧/٢ - ٥٦) والنداية والنهاية (١٤٧/٣ / ١٥٨) .

سياسة ، وحسن تصرف ، وكمال تدبير حيث أعطى به لدعوة ربه
الاسلامية دفعا قويا إلى النصر ، والتقدم ، والانتشار ، ما لم تكن لتصل
إليه وتحققه لولا تلك السياسة الحكيمة الرشيدة ..

* سراياه وغزواته العديدة ، والتي تجلت في جميعها الخبرة
العسكرية ، والقيادة المثالية الحكيمة والأمر الذي اعترف به الصديق
والعدو على حد سواء ، ويكفي في تقرير ذلك أنه في خلال عشر
سنوات من جهاده المقدس انتظم الإسلام أرض الجزيرة العربية كلها ،
واستنارت بنوره كل ديارها ، وأن قتلى تلك الحروب والمعارك الهائلة
التي دارت رحاها مدة عشر سنوات تقريبا ، ودانت نتيجة لها أرض شبه
الجزيرة كلها بالإسلام . لم يتجاوزوا الألفين والخمسمائة ما بين شهيد
وقتيل .

رحمته :

إن الرحمة التي كان يحملها قلب محمد النبي ﷺ لرحمة مثالية ،
لا تتأتى لغيره من بني الناس ، وإذا أردنا أن نذكر بعض مظاهرها تقريراً
لها ، فماذا عسانا أن نذكر منها بعد أن قال الله تعالى فيه :
﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢٨) ﴿١﴾

ومع هذا فلنشر إلى بعض المظاهر للرحمة المحمدية والتي منها :

١ - رُفِعَ إليه ولده إبراهيم بن مارية القبطية رضي الله عنهما ، وهو
مريض يجود بنفسه ، فوضعه بين يديه وبكى ﷺ ، وقال : **إِنَّ الْعَيْنَ**
تَدْمَعُ ، وَالْقَلْبُ يَحْزَنُ ، وَلَا تَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضِي رَبَّنَا ، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا

(١) سورة التوبة الآية ١٢٨ .

إبراهيمُ لمَحْزُونُونَ! «(١).

٢ - زار مرة قبر أمه بين مكة والمدينة ، وقف عليه وبكى طويلا ، وانصرف وهو يقول : « استأذنتُ ربي في أن أستغفرَ لها فلم يؤذن لي ، واستأذنته في أن أزورَ قبرها فأذن لي .. »(٢).

٣ - ولما فتح رسول الله ﷺ القموص حصن بني أبي حُثَيْق (من خير) أتى رسول الله ﷺ بصفية بنت حي بن أخطب وبأخرى ، فمر بهما بلال على قتلى يهود ، فلما رأتهما الجارية التي مع صفية صاحت ، وصكت وجهها ، وحثت التراب على رأسها فلما رأى رسول الله ﷺ بتلك الجارية ما رأى قال « أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟ »(٣) . ولم تكن رحمته ﷺ فاصرة على بني الناس فحسب بل تعدتهم إلى الحيوانات ، فكان يقول صلى الله عليه وسلم : « في كل ذات كبد رطبة أجر »(٤) ويقول : « عذبت امرأة في هرة ، أو ثقتها فلم تطعمها ولم تسقها ، ولم تدعها تأكل من حسائش الأرض حتى ماتت »(٥) . وأخبر مقررًا الرحمة وآثارها في أهلها فقال : « يَسْمَا كَلْبٌ يَطِيفُ بِرَكِيَّةٍ كَاذٌ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ إِذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَتَزَعُثُ مَوْقَهَا فَسَقَتْهُ ، فَغَفَرَ لَهَا بِهِ »(٦) .

(١) متفق عليه اللؤلؤ والمرجان (١٠٣/٣) .

(٢) أخرجه مسلم (٦٥/٣) .

(٣) ذكر هذا ابن كثير عن ابن اسحاق في البداية والنهاية (١٩٧/٤) .

(٤) متفق عليه . اللؤلؤ والمرجان (٧٥/٣) .

(٥) متفق عليه واللفظ لمسلم . اللؤلؤ والمرجان (٧٣/٣) مسلم (٣٥/٨) وقوله (حتى ماتت) في رواية أخرى لمسلم في الصفحة المذكورة .

(٦) متفق عليه . اللؤلؤ والمرجان (٧٥/٣) .

كرمه :

إن الكرم النفسي الذي كان يتحلّى به محمد رسول الله ﷺ لا يأتي عليه الوصف ، وكيف يوصف كرم من لم يُسأل شيئاً طول حياته وهو في حوزته وقال : لا ، قط . خرج يوماً وعليه حلة من أجمل الحلل فرآه أحد أصحابه ، فعزم أن يطلبها ليلبسها فتمس جلده بعد أن مست جلد الرسول ﷺ فقال : يا رسول أعطينها ، فدخل رسول الله ﷺ بيته فخلع الحلة وأتاه بها .

جاء رجل فأعطاه غنماً بين جبلين ، فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا فإنّ محمداً يُعطي عطاءً لا يخشى الفاقة (١).

وبايع مرة جابر بن عبد الله في جمل له كان قد كلّ في السفر فباعه إياه بكذا مائة درهم ، ولما جاء يتقاضاه الثمن أعطاه الثمن والجمل (٢).

الله أكبر ماذا يذكر عن كرم محمد ﷺ ؟ إنه في هذا الباب كما في غيره المثل المثل الأعلى في الكرم النفسي .

عدله :

إن المثالية في عدل محمد ﷺ تتجلى في مواقف عديدة ، تقتصر منها على موقفين لم يقفهما غيره ﷺ قط ، أولها : حينما سرقت المخزومية ، وجاء أسامة بن زيد مدفوعاً برجال قريش يشفع لها في إسقاط الحد عنها ، فقال له الرسول ﷺ وهو في غضب شديد : « أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة ؟ والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » (٣) وثانيهما : أن رسول الله ﷺ عدل صفوف

(١) رواه مسلم (٧٤/٧١) . (٢) متفق عليه معناه اللؤلؤ والمرحان (١٨٥/٢)

(٣) متفق عليه معناه اللؤلؤ والمرحان (١٨٥/٢) . (١٨٦) .

أصحابه يوم بدر وفي يده قدح يعدل به القوم ، فمر سواد ابن غذية حليف بني عدي بن النجار وهو مستنزل - أي متقدم - من الصف فظعن في بطنه بالقدح وقال « استويا سواد » فقال : يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقذني !! فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه فقال « استقذ . . . »^(١).

عفوه وحلمه :

إن الاستقصاء للشمال المحمدية غير محتمل أبداً وأحسن من قال :

إنما مثلوا صفاتك للناس كما مثل النجوم الماء

ولذا فإننا نكتفي دائماً بنماذج لذلك الكمال المحمدي في كل مظهر من مظاهره . ومن شمائل الحلم والعفو عنده صلى الله عليه وسلم نذكر الأمثلة التالية :

١ - صح أنه كان صلى الله عليه وسلم في غزاة فأعطى رجاله فرصة للاستراحة فيها ، فانتشروا في واد يستريحون تحت ظلال أشجاره وأتى هو شجرة فعلق سيفه في أحد أغصانها ، ونام ، فجاء أعرابي من المشركين فاخترط السيف وقال للرسول : من يمنعك اليوم مني يا محمد ؟ فرفع إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه وقال : « اللّهُ » فارتاع الرجل ، وسقط السيف من يده ، فتناول الرسول صلى الله عليه وسلم وقال : « من يمنعك أنت الآن مني ؟ فقال الأعرابي « لا أخذ ، فعفا عنه الرسول وانصرف »^(٢).

(١) البداية والنهاية (٢٧١/٣) وسيرة ابن هشام (٣٠١/٢) .

(٢) متفق عليه بمعناه اللؤلؤ والمرجان ١٦٢/٢ واللفظ المذكور قريب من لفظ البخاري (١٤٦/٥ ، ١٤٧) .

إنه عفو بعد مقدرة ، وهو من العفو الكريم الذي يستحق صاحبه كل إجلال وتقدير .

٢ - قسم صلى الله عليه وسلم مالا بين الناس فجاءه أعرابي فجذبه من طرف رداءه وقال : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله : فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وما زاد أن قال : « فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؟ رحم الله موسى قد أوديت بأكثر من هذا فصبر »^(١).

٣ - دخل أعرابي مسجده صلى الله عليه وسلم ، واضطرته الحاجة إلى البول ، فانتحى ناحية من المسجد وأخذ يبول ، فانتهره أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحوا فيه فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دعوه لا تزرموه »^(٢) فتركوه حتى قضى حاجته من بوله . ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدلو من ماء فصب عليه ، فحلم الرسول صلى الله عليه وسلم أنطق الأعرابي فقال : اللهم ارحمني ومحمداً ، ولا ترحم معنا أحداً ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : تحجرت واسماً^(٣).

كانت هذه نماذج من المثالية المحمدية وهي أحد مؤهلات ثلاثة تقدم اثنان منها وبقي الثالث ، وهو شرف النسب ، وطيب الأصل . فلتلق نظرة على تلك الأرومة الطاهرة ، وذلك المحتد الشريف ، فنقول : إن من ينظر بإنصاف في النسب النبوي الشريف يجده يحق أشرف نسب وأطيه ، وأطهره ، وأزكاه على الإطلاق ، إنه لم يعرف

(١) متفق عليه بقريب من هذا اللفظ اللؤلؤ والمرحان (١/ ٢٢٩ ، ٢٣٠) .

(٢) لا تزرموه : أي لا تقطعوا عليه بوله .

(٣) متفق عليه بمعناه اللؤلؤ والمرحان (١/ ٦٤) وزيادة اللهم ارحمني ومحمداً . الع عند أبي داود في أول الحديث مثل مسأبة البول . متن (١ : ٩١) .

التاريخ البشري نسباً كان أوضح وأنصح ، ولا أطيب ، ولا أطهر من نسب النبي محمد صلى الله عليه وسلم إذ قریش كانت أشرف القبائل العربية بلا منازع ولا مدافع ، وبنو هاشم كانوا أشرف قبائل قریش أيضاً بلا منازع ، والأنبياء يبعثون دائماً في أشرف أقوامهم هذه كلمة قالها هرقل ملك الروم وعظيمها^(١).

ولنستمع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه وهو يقرر هذه الحقيقة فيقول : « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ كِنَانَةً مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، وَاصْطَفَىٰ قُرَيْشاً مِنْ كِنَانَةٍ ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ »^(٢) فكان صلى الله عليه وسلم خياراً من خيار من خيار .

وأخيراً فهذه مؤهلات النبوة كلها قد توفرت لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبصورة لا أكبر منها ، ولا أوضح . فهل يصح في العقول نفي نبوته ، أو جحود رسالته ؟ اللهم . لا ، إلا أن يكون ذلك من جاهل متعصب ، أو من معرض ذي طمع فاسد ، يجاحد ويعاند ، ومع هذا فسنورد طرفاً من الأدلة العقلية والنقلية ما تؤكد به نبوته صلى الله عليه وسلم ، ونقرر به وجوب الايمان به ، وبكل ما جاء عن الله من الهدى والخير ، وتحتم اتباعه ، واتباع دينه توخيًا للحق ، وطلباً للنجاة من العذاب ، وفوزاً بالنعيم الآخروي في الملكوت الأعلى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين والشهداء ، والصالحين .

(١) راجع حديث أبي سفيان في البخاري (٧/١) .

(٢) مسلم (٥٨/٧) ورواه الترمذي أتم منه (٢٨١/٢) .

وجوب الايمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم

وأدلة ذلك

إن تلك المؤهلات العقلية والشرعية الدينية ، وقد توفرت كاملة للنبي محمد ﷺ لكافية في إيجاب الإيمان بنبوته ورسالته ﷺ ، بيد أنه لا مانع من المزيد من ذكر الأدلة والبراهين تأكيداً لنبوته ﷺ ، وتقريراً لها ، حتى تجعل الإيمان بها اضطرارياً لا يمكن دفعه إلا على ضرب من التحلل والمكابرة والعناد والمجادلة .

ومن تلك الأدلة ما يلي : -

(أ) شهادة الكتب السابقة له على نبوته ، وتبشير الأنبياء السابقين بها ، فقد جاء في إنجيل يوحنا :

١ - إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من (الأب) .
فيعطيكُم معزياً (فارقليط) آخر ليمكث معكم إلى الأبد ^(١) .

فالفارقليط ترجمته : محمد أو أحمد . وبقاؤه معهم إلى الأبد هو بقاء دينه وكتابه ، وسنته ، إذ هذه محفوظة بحفظ الله ، وباقية ببقاء هذه الحياة وهذا معنى إلى الأبد في قوله : « يبقى معكم إلى الأبد » .

٢ - لكني أقول لكم الحق ، إنه خير لكم أن أنطلق لأنني إن لم

(١) البات الرابع عشر العفرتان (١٥ ، ١٦)

انطلق لم يأتكم المعزي (الفارقليط) ولكن إن ذهبت أرسلته إليكم^(١) .
فالفارقليط هو محمد ﷺ ، ولو لم يذهب عيسى عليه السلام يرفع الله
تعالى له لما بعث محمد ﷺ ، إذ بعثه النبي محمد ﷺ كانت على فترة
من الرسل كما قال تعالى من سورة المائدة :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن
تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٢)

٣ - « والفارقليط روح القدس الذي يرسله الأب ، باسمي هو
يعلمكم كل شيء ، وهو يذكركم بكل ما قلته لكم »^(٣).

فالفارقليط روح القدس هو محمد ﷺ الذي أرسله الله إلى الناس
كافة ومن بينهم اليهود والنصارى كما قال تعالى من سورة النساء :
﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا
لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ
عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾^(٤)

فجاء في هذه الآية القرآنية لفظ الرسول معروفاً بالآلف واللام وهي وإن
دلت على تفخيم الرسول ﷺ وتعظيمه في كماله فإنها دالة على العهدية
وهي إشارة إلى ما في الكتابين : التوراة والإنجيل من البشارة بالرسول
محمد ﷺ كما ذكرنا ونذكر ، وكما اعترف به الصالحون والمنصفون من

(١) الباب السادس عشر الفقرة (٧) .

(٢) الآية (١٩) .

(٣) الباب الرابع عشر الفقرة (٢٦) .

(٤) الآية (١٧٠) .

علماء الطائفتين ، اليهود والنصارى .

وجاء في سفر التثنية من التوراة قوله : « جاء الرب من سيناء وأشرق لنا من ساعير ، واستعلن من جبال فاران ومعه ألوف الأطنار »^(١) .

فهذه شهادة صريحة من التوراة واضحة لمحمد صلى الله عليه وسلم بنبوته ورسالته ، إذ معنى هذا اللفظ : أن الله تعالى ناجى موسى وأوحى إليه بسيناء ، وأرسل عيسى وأوحى إليه بساعير وهي من أرض الجبل بالقدس ، وبعث محمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً معلناً كلمة « لا إله إلا الله » مستعلنين بها من مكة الواقعة بين جبال فاران كجبل أبي قيس وحراء وغيرهما من جبال مكة المحيطة بها .

ب - شهادة علماء أهل الكتابين :

جاء من سورة الشعراء قول الله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾^(٢)

فقد وبخ الله العرب الكافرين على عدم إيمانهم برسالة محمد صلى الله عليه وسلم مع وجود آية عظيمة تدل على صدق نبوته ، وثبوت رسالته ، وهي معرفة علماء بني إسرائيل وشهادتهم له بأنه نبي الله ، وما جاء به هو من عند الله .

وجاء من سورة البقرة قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا

(١) الباب الثالث والثلاثين : هذه النصوص الأربعة من التوراة والإنجيل نقلت عن العقيدة الإسلامية وأسماها ثم صححت على التوراة والإنجيل .

(٢) الآية (١٩٧) .

مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٦٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَ
مِنَ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٦٧﴾

فقد أخبر تعالى في هذه الآية أن الذين أوتوا الكتاب . التوراة والإنجيل يعرفون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وصدقته فيها معرفة مثل معرفتهم لأولادهم . كما أخبر أن فريقاً كبيراً منهم يكتُمون الحق بعد معرفتهم له ، ولذا لم يؤمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم بعد معرفتهم لها تمام المعرفة .

ونكتفي بشهادة عبد الله بن سلام رضي الله عنه عن غيرها من شهادة كثير من علماء اليهود وأخبارهم ، روى البخاري في صحيحه من كتاب الأنبياء عن أنس بن مالك : « أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فأتاه فقال : « إني أسألك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي ، قال :

ما أول أشراط الساعة ؟

وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟

ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخبرني بهن أنفاً جبريل ، قال : عبد الله بن سلام : ذاك عدو اليهود من الملائكة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما أول أشراط الساعة فتأرُّ تحشُّرُ الناس من المشرق إلى المغرب وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت . وأما الشبه في الولد ، فإن الرجل إذا غشى المرأة فسبغها ماؤه

(١) الأيتان (١٤٦ ، ١٤٧) .

كان الشبه له ، وإذا سبق ماؤها كَانَ الشبه لها ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ
سَلَامٍ : أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ . ثُمَّ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ
بُهِتَ إِنَّ عَلِمُوا بِإِسْلَامِي قَبْلَ أَنْ تُسْأَلَهُمْ بِهْتُونِي عِنْدَكَ . فَجَاءَتْ
الْيَهُودُ ، وَدَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ الْبَيْتَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ : أَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ ؟ قَالُوا . أَعْلَمْنَا وَابْنُ
أَعْلَمْنَا ، وَأَخِيرْنَا وَابْنُ أَخِيرْنَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ ؟ قَالُوا : أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ . فَخَرَجَ عَبْدُ
اللَّهِ إِلَيْهِمْ فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ

اللَّهِ . فَقَالُوا أَشْرُنَا وَابْنُ شَرِنَا وَوَقَعُوا فِيهِ !! «(١)

وبعد : فإن شهادة عبد الله بن سلام هذه تُعد من أكبر الشهادات
بعد شهادة الله ورسوله ﷺ لمحمد بالنبوة والرسالة ، ولذا لم نذكر بعدها
من شهادات علماء اليهود شهادة غيرها .

أما علماء النصارى فإن لهم من الشهادات برسالة محمد ونبوته ما
لا يسعه المقام ، فلذا فإننا نكتفي من كل ذلك بشهادة عظيمة أقرها
القرآن ، وسجلها في صفحاته ، ألا وهي : شهادة الملك الصالح
أصحمة النجاشي ، إذ جاء من سورة المائدة قول الله تبارك وتعالى :
﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا
وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
نَسَبِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ
تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا

(١) البخاري (١٦٠/٤) .

فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٢﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ
وَنَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ فَأَنْبَأَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨١﴾

فقد أجمع علماء التفسير والأخبار والسير على أن هذه الآيات
نزلت في النجاشي وأصحابه المؤمنين ، فقولهم : ﴿ وما لنا لا نؤمن
بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ﴾ .
قولهم هذا يعد شهادة عظيمة بالإسلام ، ونبيه ، وكتابه ، وأمه ،
ولنستمع إلى شهادة النجاشي رحمه الله تعالى من خلال رده على كتاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ورده وهو في دار ملكه ، وحاضرة
بلاده ، إذ جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبهر

سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته . لا إله إلا الله
هو الذي هداني إلى الإسلام فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت
من أمر عيسى ، فوزب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت
وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقربنا ابن عمك (جعفر) وأصحابه .
فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصداقاً . وقد بايعتك وبايعت ابن عمك ،
وأسلمت على يديه لله رب العالمين . وبعثت إليك يا نبي الله . بأريحا
ابن الأصحم بن أبهر ، فأني لا أملك إلا نفسي . وإن شئت أن أتيك
فعلت يا رسول الله ، (٢) .

(١) الآيات (٨٢ ، ٨٥) .

(٢) البداية والنهاية (٨٤/٣) وجاء في أبي داود أن النجاشي قال : أشهد أنه رسول الله
ﷺ ، وأنه الذي شره عيسى ابن مريم (١٨٩/٢) .

جـ - شهادة بلايين من المسلمين !

إن إيمان بلايين البلايين من المسلمين الذين شهدوا لمحمد ﷺ بنبوته ورسالته وآمنوا به حق الإيمان ، واتبعوا ما جاء به من الحق والهدى ، وجاهدوا دونه ، وبينهم العلماء ، والحكماء ، والصلحاء الصادقون الذين يفوق عددهم الخصر ، ويتعذر الإحاطة بهم علماً ، لهم من أعظم الشهادات ، وأقواها ، وأكثرها اقناعاً للعقول ، وجلباً للطمانينة والسكون في نفوس المؤمنين بنبوته محمد ورسالته ﷺ .

د - شهادة الحق عز وجل وملائكته :

إن شهادة الله عز وجل ، وشهادة ملائكته للنبي محمد ﷺ بالنبوة والرسالة لشهادة مغنية عن كل شهادة . قال تعالى من سورة النساء : ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾^(١)

ولولا كزازة النفوس ، ورعوناتها^(٢) ، وظلمات الجهل بالله تعالى التي تغشي كثيراً من قلوب الناس لما ذكرنا مع شهادة الله تعالى لمحمد ﷺ بالرسالة شاهداً أبداً . ولكن نظراً لما ذكرنا أوردنا تلك الشهادات السابقة وقفينا عليها بشهادة الله تعالى التي لا يردها عاقل أبداً .

وشهادة الله تعالى تنقسم إلى قسمين : شهادة أخبار ، وشهادة معجزات فشهادة الأخبار . هي أخباره تعالى في كتابه عن وحيه ، واسطفاء لرسوله وإرساله ، ونصرته إياه ، وشهادة المعجزات هي ما أظهره الله تعالى على يد نبيه من خوارق العادات ، إذ كل خارقة تقول

(١) الآية (١٦٦) .

(٢) الكزازة الفح والانتباض ، والرعونة : الحق .

بلسان حالها عن الله تعالى : صدق محمد عبدي ورسولي فيما أخبر
عني من اني ارسلته وهو رسولي .

ومن شهادة الأخبار ما يلي :

* قوله تعالى من سورة (الفتح) ..

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ﴾ ^(١)

* قوله تعالى من سورة الأعراف :

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ ^(٢)

* قوله تعالى من سورة البقرة :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ ^(٣)

* قوله تعالى من سورة النساء :

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ ^(٤)

* قوله تعالى من سورة الأحزاب :

﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ

بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ ^(٥)

* قوله تعالى من سورة المائدة :

﴿ يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ

رِسَالَتَهُ ﴾ ^(٦)

(١) الآية (٢٩) .

(٢) الآية (١٥٨) .

(٣) الآية (١١٩) .

(٤) الآية (١٦٣) .

(٥) الآية (٦٧) .

(٦) الايتان (٤٥ : ٤٦) .

* قوله تعالى من سورة النساء :

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُرُّ الرُّسُولِ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ﴾^(١)

ومن شهادة المعجزات ما يلي :

١ - نزول القرآن الكريم عليه وحياً أوحاه الله تعالى إليه ، فإنه أكبر معجزة عرفها الوجود البشري ، إذ العادة قاضية بأن أمياً لم يقرأ ولم يكتب ، ولم يجلس بين يدي أستاذ ، أو مرب أو معلم قط ، قاضية باستحالة تكلمه بالعلوم والمعارف ، ومعرفة لها ، وتفوقه فيها ، فضلاً عن أن يأتي بما لم يأت به غيره من كل معاصريه ، وممن يأتي بعدهم إلى انقراض الحياة ونهاية الكون .

فالقرآن الكريم وقد حوى أعظم تشريع ، واشتمل على قدر من العلوم الإلهية ، وعلى أثبت الحقائق العلمية ، كظام الزوجية^(٢) ، واتقوانين الكونية^(٣) ، كما تعرض لبدء الخليقة ، وذكر من قصص الماضين ، وأخبار السابقين الشيء العجب ، وأخبر بمغيبات عديدة فكانت كما أخبر حرفياً وبلازيادة أو نقصان^(٤) . هذا الكتاب يأتي به أمي ، يتحدى كل الخلق على الإتيان بمثله ، أو بعشر سور من مثل

(١) الآية (١٧٠) .

(٢) يشير إلى هذا القانون قوله تعالى من سورة يس : ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ (الآية ٣٦) .

(٣) كعملية إنزال المطر المشار إليها بقول الله تعالى ﴿والله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيسقطه في السماء . كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله﴾ سورة الروم الآية (٤٨) .

(٤) كالإخبار بنهاية حرب الروم مع فارس ، وغلب الأولى للأخيرة بعد أن كانت قد غلبت وانهزمت ، وذلك في قوله تعالى من سورة الروم ﴿الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد عليهم سيغلبون﴾ الآيات (١ - ٣) .

سوره ، أو سورة واحدة^(١) فتعجز البشرية ومعها الجن كلهم ، وتطأطئ رأسها ، وتسكت عن المعارضة لأكبر معجزة أوتيتها محمد صلى الله عليه وسلم لتدل على صدق نبوته ، وثبوت رسالته ، عرف هذا فداء أبي وأمي حين قال : « ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة »^(٢)

وهذه صورة التحدي قائمة إلى يوم القيامة تحويها آية واحدة من سورة البقرة ، هي قوله تعالى :

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۖ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ اللَّهِ ۖ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

فقوله تعالى : ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ أي الإتيان بسورة قرآنية من أمي مثل محمد ﷺ في أميته ، هذا التحدي وهو نفي الإتيان بسورة من أمي مثل محمد في أميته مازال قائماً . وقد مضى عليه الآن قرابة الألف والأربعمئة سنة ، ولا يؤمل أبداً أن يأتي أحد فيطلبه بأن يأتي بسورة قرآنية من رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب قط . هيهات هيهات أن يأتي أحد بمثل هذا القرآن والله يقول : ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ .

(١) يقول الله تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) سورة الإسراء (٨٨) . ويقول تعالى (قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) سورة هود الآية (١٣) . ويقول عز وجل (قل فأتوا بسورة مثله) سورة يونس الآية (٣٨) .

(٢) متفق عليه واللفظ لبسمل اللؤلؤ والمرجان (٣٠/١) ومسلم (٩٢/١) ، والبخاري (٢٢٤/٦) .

(٣) الأيتان (٢٣ ، ٢٤) .

- ٢ - فيضان الماء من بين أصابعه بالحديبية حتى سقى وروى جيشاً كاملاً قوامه ألف وأربعمائة رجل وامرأة^(١) .
- ٣ - تكثير الطعام يوم الخندق حتى أطعم بصاع من شعير وجدي صغير جيشاً كاملاً تعداده ألف رجل أو يزيدون^(٢) .
- ٤ - حنين الجذع إليه ﷺ ونطقه وسماع مئآت الرجال الأخيار له ، وعدم سكوته إلى أن أتاه الرسول وهدده كما تهدد الأم طفلها ، فسكت^(٣) .
- ٥ - رده ﷺ عين قتادة حيث خرجت حتى تدلت على وجنته بسبب ضربة أصابته يوم أحد فردها ﷺ ، ومسح عليها فكانت أحسن منها قبل إصابتها^(٤) .
- ٦ - تسبيح الطعام بين يديه ﷺ وأصحابه يسمعون ، وهم عدد كبير من خيار البشر^(٥) .
- ٧ - انشقاق القمر له ﷺ حين طلبت قريش ذلك استدلالاً على نبوته ﷺ فانشق القمر فكان فلقتان على جبل أبي قبيس وأهل مكة كلهم يشاهدون ويعجبون ، أثبتت هذه الحادثة في القرآن بقول الله تعالى : ﴿ أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾^(٦)

(١) رواه البخاري (٢٣٤/٤ ، ١٥٦/٥ ، ١٥٧) .
 (٢) متفق عليه ، اللؤلؤ والمرجان (٢٠/٣ ، ٢١) وكان هذا في غزوة الخندق .
 (٣) رواه البخاري بمعناه (١١/٢) .
 (٤) سيرة ابن هشام (٣٣/٣) .
 (٥) رواه البخاري (٢٣٥/٤) .
 (٦) سورة القمر الآية (١) . وحديث الانشقاق ثابت في الصحيحين ، اللؤلؤ والمرجان (٢٨٠/٣) .

٨ - سديم الشجر والحجر عليه على مرأى من الناس ومسمع ،
وعشرات المرات^(١) .

٩ - الإسراء به ﷺ ، والعروج من المسجد الحرام إلى المسجد
الأقصى ثم إلى السماء السابعة حيث سدره المتهى عند جنة المأوى ،
فبلغ مستوى سمع فيه صريف الأقلام ، وناداه ربه ، وفرض عليه وعلى
أمتة الصلوات الخمس^(٢) ، كل هذه المعجزات وغيرها كثير قد ثبت بما
هو أشبه بالتواتر من الأخبار .

١٠ - إخباره بالمغيات الكثيرة^(٣) فكانت كما أخبر . ونذكر منها
على سبيل المثال خبراً واحداً من أعجب الأخبار وهو قوله في رواية
أحمد بسند صحيح « سَيَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي رَجَالٌ يَرْكَبُونَ عَلَى السُّرُوجِ
كَأَشْبَاهِ الرِّحَالِ ، يَنْزِلُونَ بِهَا عَلَى أَبْوَابِ الْمَسَاجِدِ ، يَسْأَلُهُمْ كَاتِبَاتُ ،
عَارِيَاتٍ عَلَى رُؤُسِهِنَّ الْبُخْتُ الْبُخْتُ الْعِجَافُ ، الْعَنُوهُنَّ فَإِنَّهُنَّ
مَلْعُونَاتٌ »^(٤) .

فما هذه المركوبات يا تُرى التي أخبر أنها سيركها رجال من

(١) حديث تسليم الحجر عليه ﷺ بمكة وإخباره بهذا ثابت في مسلم (٥٨/٧) وتسلم
الأحجار والأشجار عليه ﷺ وسمع علي رضي الله عنه هذا في الترمذي في المناقب .
برقم (٣٦٣٠) من كتاب المناقب ، باب (٣ ، ٦) .

(٢) راجع تعليقات الصفحات السابقة من الكتاب تجد آيات وأحاديث الإسراء والمعراج .
(٣) من ذلك قوله في الحسن بن علي رضي الله عنه فيما أخرجه البخاري (٣٢/٥) . إن
ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فتيين (عظيمتين) من المسلمين فكان كما
أخبر ، وقوله في عمار بن ياسر وهو يحمل اللبن لبناء المسجد (تقتلك الفئة الباغية)
فكان كما أخبر كذلك ، فقد قتل عمار في حرب على معاوية قتله جيش الشام .
والحديث ثابت في مسلم (١٨٦/٨) .

(٤) (رواه أحمد ، والطبراني في الثلاثة ورجال أحمد رجال الصحيح) هكذا قال الساعاتي
في شرحه على الفتح الرباني (٣٠١/١٧ ، ٣٠٢) .

أمته ؟ إنها كسرج الفرس ، وليست بفرس وإنها لتشبه رحل البعير ولكن ليست على البعير ، إنها قطعاً السيارة بنت القرن التاسع عشر الميلادي ، فهل كانت البشرية تحلم يومئذ بالسيارة التي تقطع مئات الأميال في بضع ساعات ، حاملة الركاب وأمتعتهم ؟ والجواب : لا ، ولكن الرحي المحمدي أخبر بقدر ما يمكن أن يفهمه السامعون يومئذ ، وانتظر المؤمنون حتى يتم هذا الخبر ، وتمضي الأجيال جيلاً بعد جيل إلى القرن الثالث عشر الهجري حيث ظهر ما أخبر به صلى الله عليه وسلم ؛ وركب الناس على السروج كأشباه الرحال ، ونزلوا بها على أبواب المساجد . . ثم هل عرفت الدنيا يوم أخبر الرسول ﷺ (الميني جيب) ؟ وهل يعقل أن امرأة مؤمنة تمشي في الشوارع بين المسلمين وهي كاشفة عن فخذيها ، وكل جسمها ما عدا بطنها وظهرها إلى ركبتيها ؟ وهل عرفت النساء وكل النساء كفكفة الشعر على الرأس حتى يكون كذروة البعير الهزيل في غير القرن العشرين ؟ وهل يعقل أن امرأة مسلمة تفعل بشعرها هكذا ، وتخرج بارزة في الشوارع والطرق ؟ والجواب : لا . ولكن ما أخبر به محمد الرسول صلى الله عليه وسلم قد تحقق وهو من الغيب البعيد في أعماق المجهول ، فكان ذلك آية أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم . اللهم صل على محمد وآله وصحبه والمؤمنين به ، الناهجين نهجه ، المستقيمين على صراطك المستقيم إلى يوم الدين .

ختم النبوات

والكلمة الأخيرة في مبحث الإيمان بالرسول عليهم السلام نتناول فيها أمرين هامين :

أولهما : ختم سائر النبوات :

وثانيهما : النبي الخاتم .

أما عن الأمر الأول فنقول : إن الله تعالى قد ختم سائر النبوات بآخر نبوة ، وهي نبوة محمد رسول الله ﷺ ، فلم يبق من مطمع لأحد في أن يدعي النبوة ، أو يؤتاها بعد نبوة محمد النبي الأمي أبداً . ومن جهل هذه الحقيقة ، أو تجاهلها تضليلاً وخداعاً وادعى النبوة فقد كذب على الله ، وأعظم الفرية عليه ، وكذبه في قوله ، وكذب على خلقه . ولم يلبث طويلاً حتى يفتضح شر فضيحة ، ويُلعن بين الناس ، كما حصل لعدد من الدجالين الكذابين ، مثل مسيلمة الكذاب في الأولين ، وأحمد مرزا غلام^(١) في الآخرين عليهما لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . وذلك لأن الله تعالى قد أخبر بختم النبوات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى من سورة الأحزاب :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝ ﴾^(٢)

(١) غلام أحمد بن غلام مرتضى القادياني هو صاحب القاديانية الباطلة الكافرة .

(٢) الآية (٤٠) .

وبهذا كان الإيمان بمحمد ورسالته ، والعمل بها ضرورياً للنجاة من عذاب يوم القيامة ، وللغفران بالنعيم المقيم فيه . وأما عبد لا يؤمن بهذه الرسالة ، ولا يعمل بمحتواها في حدود طاقته وما يستطيع إلا وهو من أهل الخسران يوم القيامة ، ولا ينفعه إيمان بالله ، ولا بأنبيائه ، وذلك لعدم عمله برسالة محمد الختامية ، التي جعلها الله تعالى مزية للنفوس ، مطية للأرواح ، فلا تزكو نفس امرئ إلا على الإيمان بها ، والعمل بما جاء فيها . زكاة النفس هي المؤهل للفرد لأن ينجو من النار ، ويفوز بالجنة دار البرار ، وذلك لقوله تعالى من سورة الشمس :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝ ﴾^(١)

وعن الأمر الثاني نقول : إن خاتم الأنبياء قطعاً هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، لقول الله تعالى :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝ ﴾^(٢)

وإن الواجب على كل إنسان في هذا الوجود البشري أن يؤمن به ، ويتبع ما جاء به من الحق والهدى ، وذلك لأمر الله تعالى بالإيمان به وباتباع ما جاء به في مثل قوله :

﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ۝ ﴾^(٣)

ولتخصيص الرب تبارك وتعالى رحمته وهي الفوز بالجنة بعد النجاة من النار بمن آمن به واتبعه فيما جاء به صلى الله عليه وسلم قال تعالى من سورة الأعراف :

(٢) سورة الأحزاب الآية (٤٠) .

(١) الأيتان (٩ ، ١٠) .

(٣) سورة التغابن الآية (٨) .

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَالَّذِينَ هُمْ بِعَاقِبَتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي
يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ
إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ
وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾^(١)

ولتعلّق الله تعالى هداية الإنسان إلى الكمال البشري ، وحصوله على
مؤهلات الفرد للسعادة في الدنيا والآخرة على الإيمان به واتباعه إذ قال
تعالى : من سورة الأعراف :

﴿فَعَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ ۖ وَاتَّبِعُوهُ
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾^(٢)

وأخيراً فإن من الأدلة السمعية على ختم النبوة ، وأن محمداً هو
خاتم الأنبياء حديث الصحيحين ، الذي فيه يقول الرسول الخاتم صلى
الله عليه وسلم « إن مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه
وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويمعجون
له ، ويقولون : ملا وضعت هذه اللبنة ! فأنا اللبنة وأنا خاتم
النبيين »^(٣) .

ومثل هذا الحديث في الدلالة على ختم النبوة ، نبوة محمد

(١) الآيتان (١٥٦ ، ١٥٧) .

(٢) الآية (١٥٨) .

(٣) اللؤلؤ والمرجان (٩٤/٣) .

صلى الله عليه وسلم ، وأنه الخاتم للأنبياء قبله ، قوله فداه أبي وأمي في رواية الصحيحين : « إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَابُونَ ثَلَاثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي » (١) .

وقوله « إِنْ لِي أَسْمَاءٌ : أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَنَا أَحْمَدُ ، وَأَنَا الْمَاجِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي ، وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ » (٢) .

ومن أقوى الأدلة وأعظم البراهين على ختم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لسائر النبوات نبوة محمد نبيه ورسوله . أن يمضي الآن ما يقرب في ألف أربعمئة سنة على الإعلان بختم النبوات بنبوته صلى الله عليه وسلم . ولم تأت نبوة حق ، ولا نبي صدق ، في كل هذه الحقبة من الزمن الطويلة ، في حين أنه كان قبل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم تظهر النبوات في عصر ومصر (٣) وقد يوجد العدد من الأنبياء في الأمة الواحدة ، والبلد الواحد (٣) ، كما هو معلوم من التاريخ البشري وفي جانبه الديني بالخصوص .

(١) ورواه أحمد الترمذي وأبو داود واللفظ له (٤١٤/٢) ، وهو متفق عليه للؤلؤ والمرجان (٣٠٩/٣) ورواه البخاري بلفظ « ولا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريباً من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله » (٢٤٣/٤) وكذا مسلم (١٨٩/٨) .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم وفي رواية لمسلم (وأنا العاقب والعاقب الذي ليس بعد نبي) (٨٩/٧) . واللؤلؤ والمرجان (١١٠/٣) والبخاري (٢٢٥/٤) .

(٣) كما وجد داود وسليمان في عصر واحد ، وكما وجد زكريا ويحيى ، وعيسى في بلد واحد وأمة واحدة . والأمثلة كثيرة ؛ وما هناك بحاجة إليها .

الركن الخامس من أركان الإيمان الإيمان باليوم الآخر

تعريف :

ما المراد باليوم الآخر ؟

إن المراد من اليوم الآخر أمران : الأول : فناء هذه العوالم كلها ، وانتهاء هذه الحياة بكاملها . والثاني : إقبال الحياة الآخرة وابتدائها ، فدل لفظ اليوم الآخر على آخر يوم من أيام هذه الحياة وعلى اليوم الأول والأخير من الحياة الثانية ، إذ هو يوم واحد لا ثاني له فيها البتة . فالإيمان باليوم الآخر مقتضٍ للتصديق بأخبار الله تعالى بفناء هذه الحياة الدنيا ، وبما يسبقه من أمارات وما يتم فيه من أهوال ، واختلاف أحوال ، كما هو مقتضٍ كذلك لتصديق الله تعالى في أخباره عن الحياة الآخرة ، وما فيها من نعيم وعذاب ، وما يجري فيها من أمور عظام ، كبعث الخلائق ، وحشرهم وحسابهم ، ومجازاتهم على أعمالهم الإرادية الاختيارية التي قاموا بها في هذه الحياة الدنيا .

إمكان الفناء :

هل الفناء ممكن ؟

والجواب : نعم . الفناء ممكن ، لأن العالم ليس أزلياً أبداً ، ومالم يكن أزلياً فهو حادث ، وما كان حادثاً فالفناء من صفاته اللازمة له ، التي لا تنفك عنه بحال ، وطروء الفناء على الحوادث مشاهد في هذه الحياة لا يحتاج إلى دليل .

. إنه قد ثبت بالبراهين العقلية والمادية معاً حدوث العالم ، إن التغير الجاري ، والمستمر على العوالم دال على حدوثها ، وإن حدوثها دال على فنائها ، كما أن قانون الطاقة المتاحة - وهي نظرية علمية في غاية الصحة - قد أثبت حدوث العالم وبالتالي قد أثبت وجود الله تعالى الأزلي ، الموجد لكل موجود ، وكما أثبت حدوث العالم أثبت إمكان فنائه أيضاً إذ حقيقة هذا القانون العلمي الهائل هي أن الحرارة تنقل دائماً من وجود حراري إلى آخر غير حراري . واستمرار هذه العملية سترتب عليها أن تتساوى حرارة جميع الموجودات ، وحيث لا تبقى أية طاقة مفيدة للحياة والعمل ، فتنتهي العمليات الكيماوية الطبيعية ، وعندها تنتهي الحياة تلقائياً ، وبهذا بطلت أزلية العالم أي قدمه اللابندائي ، إذ لو كان أزلياً لفقد طاقته منذ زمان بعيد وانتهت بذلك الحياة .

وثبت أيضاً إمكان فنائه اللازم له ، والذي هو في طريقه إليه لأن عملية انتقال الطاقة من الأجسام الحرارية إلى خلافها مستمرة ، ولا بد أن يأتي عليها يوم تتساوى فيه حرارة جميع الأجسام ، وعندها تتوقف العمليات الكيماوية الطبيعية ، وتنتهي الحياة ، ويعم الفناء هذا الكون كله .

ودليل آخر : أن العالم كلُّ له أجزاء ، ونحن نشاهد الفناء يجري في أجزائه باستمرار . فالإنسان كالحيوان كالنبات كلها تنفئ أمامنا ، وتحت سمعنا وبصرنا ونفقد وجودها باستمرار ودون انقطاع ، وهي قطعاً أجزاء من هذا العالم كما أننا نرى الزلزال من الفينة إلى الفينة يدمر مدناً وقرى كبيرة ، ويغير معالم الأرض في كثير من البلاد في العالم ، فظاهرة الفناء هذه لأجزاء العالم دالة على فناء العالم كله ، إذ ما أمكن الفناء في أجزائه أمكن فناء كله .

وبناء على هذا فالיום الآخر ممكن الوقوع وهو مرتقب جداً ومنتظر

أنبائه ، وهو اليوم الذي لا يأتي بعده يوم من أيام هذه الحياة ، وذلك لخراب العالم وفنائه .

إمكان المعاد :

هل المعاد ممكن ؟

ولم لا يكون ممكناً وإثباته لا يوجب أي تناقض عقلي أبداً . وكل ما لا يوجب تصور وقوعه تناقضاً عقلياً فهو من قبيل الجائز الإمكان .

وهل تصور وقوع الحياة بعد فنائها كما كانت وأفضل مما كانت يوجب تناقضاً عقلياً ؟ وإذا كان الجواب : لا ، أبداً ، فالمعاد إذاً وهو بعث الخلائق أحياء بعد فنائهم الذي طرأ على حياتهم الأولى ممكن وجائز .

وشيء آخر وهو إذا كان المعاد غير مستحيل ولا واجب ، إذ المستحيل ما أوجب تصور وقوعه تناقضاً عقلياً كتصور وقوع الشيء موجوداً غير موجود . والواجب ما أوجب عدم تصور وقوعه تناقضاً عقلياً كتصور وجود مصنوع بدون صانع ، أو مخلوق بدون خالق ، أو معلول بدون علته فهو أي المعاد إذاً ممكن جائز ، وهكذا ثبت بالقياس العقلي ، والبرهان المنطقي إمكان البعث وجواز وقوعه .

أدلة البعث (١)

لقد سلك القرآن الكريم في اثبات المعاد والحياة الثانية مسالك عقلية هي غاية في الوضوح والسهولة منها :

• أن الشيء إذا لم يكن ثم كان وأعدم كانت اعادته أيسر وأهون

(١) البعث والمعاد واليوم الآخر ألفاظ مختلفة ، ومدلولها واحد ، وهو وجود حياة ثانية بعد فناء الأولى .

على من بداه أول مرة ثم أعدمه . وأفناه . فالذي بني داراً ، ثم هدمها لا يستحيل عليه ولا في حقه إعادة بنائها كما كانت أو خيراً مما كانت .

والذي يصنع آلة من الآلات مخترعاً لها لا يستصعب عليه أن يعيدها كما كانت إذا هو كسرهما بإرادته واختياره ليحولها إلى آلة أفضل منها قبل . ورد هذا المسلك من الاستدلال في سورة الروم إذ قال تعالى :

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١)

كما ورد في سورة يس في قوله تعالى :

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾

﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٢)

* الاستدلال بنوم الانسان والحيوان واستيقاظهما ، فالنوم يعتبر موتاً مصغراً ، والاستيقاظ يعتبر حياة مصغرة أيضاً . فكما تتم عملية النوم للإنسان والحيوان ، وعملية الاستيقاظ لهما تتم عملية الموت والحياة الكاملة لهما . جاء هذا الاستدلال في قول الله تعالى من سورة الأنعام :

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٣)

(٣) الآية (٦٠) .

(٢) الأيقان (٧٨ ، ٧٩) .

(١) الآية (٢٧) .

الاستدلال بالأرض الميتة بسبب المحل ، والجذب ، والقحط ،
حيث تنعدم فيها الحياة تماماً ، ثم ينزل بها الغيث ، أو تسقى بالماء
فتعود إليها كما كانت وخيراً مما كانت نماء وازدهاراً . قال تعالى من
سورة فصلت :

﴿وَمِنْ آيَاتِنَا أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَالِشَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ
أَهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ﴾ (١)

وقال تعالى من سورة الحج :

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ
مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣)

* الاستدلال بالقدرة الكافية التي بها خلق آدم من تراب ، وذريته
من نطفة على إمكان المعاد والبعث ، وتقرير وقوعهما ، قال تعالى من
سورة الحج :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُّرَابٍ ثُمَّ
مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ
فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا
أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَّن يَرْدُ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْلَا
يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ (٤)

(١) الآية (٥)

(٢) الايتان (٥ ، ٦)

(٣) الآية (٣٩)

* الاستدلال بالقدرة على خلق العوالم على إمكان إعادة حياة الناس بعد موتهم . وفناء أجسامهم ، قال تعالى من سورة المؤمن : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١)

وقال عز وجل من سورة النازعات :

﴿ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيَهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٨) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٢٩) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣٠) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعِمَ كَرَّمَ (٣٢) وقال تعالى من سورة يس رداً على من قال

﴿ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) ﴾ (٣)

* الاستدلال باختلاف سلوك الناس في هذه الحياة بالخير والشر والصلاح والفساد على وجود حياة أخرى يُجزى فيها كل عامل بما عمل من خير وشر ، لعدم استكمال المجازاة في هذه الحياة ، قال تعالى من سورة آل عمران :

(١) الآية (٥٧) .

(٢) الآيات (٢٧ - ٣٣) .

(٣) الآيات (٧٨ - ٨١) .

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
فَمَنْ زُحِرَ حَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ (١٨٥) ﴿١﴾

وقال تعالى من سورة يونس

﴿إِنَّهُمْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا
يَكْفُرُونَ﴾ (٢) ﴿٢﴾

وقال تعالى من سورة الليل :

﴿إِن سَعَيْكُمْ لَشَيْءٌ﴾ (٣) ﴿٤﴾ ﴿فَأَمَّا مَنْ ءُتِنَىٰ وَءَاتَىٰ﴾ (٥) ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ
فَسَنِّيَرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ (٦) ﴿وَأَمَّا مَنْ يُجِلُّ وَاسْتَفْتِنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ
فَسَنِّيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (٧) ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ (٨) ﴿٨﴾

* الاستدلال بالتكاليف الشرعية على وجود حياة أخرى يتم فيها
الجزاء على القيام بتلك التكاليف ، وعلى تركها وإهمالها ، اذ لم تتوفر
جزاء كاف في هذه الحياة الدنيا على تلك التكاليف قال تعالى من سورة
الملك :

﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ
وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٩) ﴿٩﴾

(٢) الآية (٤) .

(١) الآية (١٨٥) .

(٣) شئى . متروك مختلف .

(٤) الآيات (٤ - ١١) .

(٥) الأبتان (١ ، ٢) .

وقال تعالى من سورة المؤمنون :

﴿ اٰلْحَسِبُّمُ اٰنَّمَا خَلَقْنٰكُمْ عَبۡۡۤاٌۙ (١) وَاَنْتُمْ اِلٰنَا لَا تُرْجَعُوْنَ (١١٥) ﴾ (٣)

وقال تعالى من سورة القيامة :

﴿ اَلَيْسَبُ الْاِنْسٰنُ اَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) ﴾ (٣)

أدلة أخرى

١ - شعور كل أفراد البشر في جميع العصور والدهور ، وسواء منهم المتحضرون ، أو المتبدون ، شعور الجميع بوجود حياة ثانية يلقي فيها الإنسان جزاء عمله الذي قام به في هذه الحياة الدنيا من خير أو شر ، وصلاح وفساد هذا الشعور العام دال على وجود المعاد والحياة الثانية ، إذ لا يمكن أن يعم هذا الشعور كل أفراد البشر ولا يكون له حقيقة في نفس الأمر ، ولا صورة له في الخارج ، وهو شعور كشعور الانسان بالحاجة إلى الطعام ، والشراب الذي دل بوجوده وعمومه على وجود غذاء للإنسان لجوعه ، وماء لعطشه .

٢ - ما تأكد لدى الناس اليوم من مناجاة الأرواح . ومخاضتها ، ورؤيتها دال على أن وراء هذه الحياة المادية حياة أخرى روحية وجثمانية^(٤) .

٣ - رؤى الناس المتعددة التي واكبت الحياة الانسانية ولم يخل

(١) عبثا أي لا نأمركم ولا ننهاكم إذ فعل الأمر . وترك المنهى هو العبادة التي خلق الإنسان من أجلها .

(٢) الآية (١١٥) .

(٣) سدئ : أي مهمل ، لا يؤمر . ولا ينهى ولا يبعث ليحاسب ويجزى ؟ والآية برقم (٣٦) .

(٤) أصحاب هذه الفكرة يعتقدون أنهم يتاجون أرواح البشر والحق أنها أرواح لبعض الجن والشياطين ، وليست أرواح من مات من البشر وذكرنا هذا لما فيه من إثبات عالم الغيب . وحية روحية تخالف هذه الحياة المادية .

منها زمان ولا مكان . هذه الرؤى لأموات الناس في المنام ، والحديث معهم ، ومعرفة أحوالهم وسؤالهم ، وإخبار الأموات من رآهم في منامهم بأمور غيبية فتكون طبق ما أخبروا به دلالة قطعية على الحياة الثانية .

آخر الأدلة :

وآخر الأدلة ، وأعظمها على البعث ، والجزاء ، والحياة الآخرة أخبار الله تعالى ، وأخبار رسوله صلى الله عليه وسلم . إن من آمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله لا يجد داعياً للشك ، ولا مثاراً للجدل والتزاع في ثبوت المعاد ، وكل ما يتم فيه من حساب وجزاء ، إذ أخبر الله تعالى كلها صدق وحق ، فقد أخبر تعالى بآلاف الأخبار فلم تكن إلا وفق ما أخبر . كما أخبر رسوله بآلاف الأخبار فلم يتخلف منها خبر واحد عن مدلوله ، فكيف يعقل إذاً أن يخبر الله تعالى ويخبر رسوله بمئات الأخبار عن ثبوت الحياة الثانية ، وعن كل ما يجري فيها من بعث ، وحساب ، وجزاء ، ثم لا يصح شيء من ذلك ولا يثبت ، اللهم إن هذا باطل لا يصح ، ومحال لا يُقبل ولا يعقل .

إن حتمية الفناء ، ووجود معاد كامل ، وحياة أفضل تحوي نعيماً للمحسنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وجحيماً للمسيئين الذين أشركوا وعملوا السيئات مما أخبر الله تعالى به ، وقرره في كل كتبه ، وعلى السنة جميع رسله فالشك فيه ضرب من المرض العقلي ، والهبوط الشخصي ، والعياذ بالله تعالى من ذلك .

الحكمة في المعاد :

إن الحكمة من المعاد الأخروي الذي هو بعث الخلائق أحياء بعد موتهم وفنائهم ، أحياء كما كانوا يوم بدأ الله تعالى خلقهم ، هو مجازاة المكلفين منهم بحسب كسبهم الإرادي الاختياري الذي كسبوه في هذه الدنيا ، لأن الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء قال تعالى :

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾^(١)

فالناس يعيشون في هذه الحياة الدنيا متفاوتين تفاوتاً كبيراً في
أرزاقهم ، وأجالاتهم ، وأعمالهم ، وفي سعادتهم ، وشقائهم ، فمنهم
الظالم الغشوم ، ومنهم المظلوم المهضوم ، ومنهم الصحيح السليم ،
ومنهم المريض السقيم ، ومنهم الغني الثري ، ومنهم الفقير الشقي
ومنهم العزيز ، ومنهم الذليل ، ومنهم المحسن ، ومنهم المسيء ، إلى
غير هذا من التفاوت والاختلاف فلو أنهم يموتون بانقضاء آجالهم ، ولا
يعيشون لكان ذلك منافياً للحكمة ، مجانباً للعدل والرحمة ، ومن هنا
قضى الله تبارك وتعالى بالبعث والجزاء ، وحكم بهما . فهما كائنان لا
محالة ، فقد أمر رسوله محمداً ﷺ أن يقسم عليهما في قوله من سورة التغابن .
﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ
لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢﴾﴾

وقال تعالى من سورة النحل :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ
حَقًّا وَلَٰكِن أَكْثَر النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ لِبَيِّن لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ
وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٢٩﴾﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا
أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ رُكُنًا فَيَكُونُ ﴿٣٠﴾﴾^(٣)

(١) الآية (١٨٥) من سورة آل عمران .

(٢) الآية (٧) .

(٣) الآيات (٣٨ - ٤٠) .

وجوب الإيمان باليوم الآخر

إن الإيمان باليوم الآخر هو عبارة عن التصديق الجازم بانقلاب هائل يتم في الكون ، ويكون انتهاء هذه الحياة الدنيا بكاملها ، وابتداء حياة أخرى وهي الدار الآخرة بكل ما فيها من حقائق مدهشة ، من بعث الخلائق وحشرهم ، وحسابهم ، ومجازاتهم .

هذا الإيمان ليس واجباً فحسب بل هو أحد أركان ستة عليها تبنى عقيدة المؤمن ، فلا تتم إذا عقيدته إلا به ، ولا تصح إلا عليه ، قال تعالى :

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾^(١)

ولاهمية هذا المعتقد في حياة المؤمن ، ولأثاره الكبرى في استقامة الفرد وصلاحه عنى القرآن الكريم به عناية لا تقل عن العناية بالإيمان بالله سبحانه وتعالى ، فقد ذكره في عشرات السور منه ، وفي مئات الآيات ، مرة بوصفه ، والحديث عنه كقوله تعالى :

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۖ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ ۝١٥ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ

(١) سورة البقرة الآية (١٧٧) .

يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةً ﴿٢٦﴾ وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ
يَوْمَئِذٍ مُّكْنِيَةً ﴿٢٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿٢٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ
كِتَابَهُ يَمِينًا فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْتَبَىٰ ﴿٢٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ
حِسَابِيَةٍ ﴿٣٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٣١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٣٢﴾ قُطُوفُهَا
دَانِيَةٌ ﴿٣٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٣٤﴾ وَأَمَّا
مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ شِمَالًا فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ ﴿٣٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ
مَا حِسَابِيَةَ ﴿٣٦﴾ يَلَيْتَنِي كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٣٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ ﴿٣٨﴾
هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ ﴿٣٩﴾ خُدُّوهُ فَعْلُوهُ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٤١﴾ ثُمَّ
فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٤٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
الْعَظِيمِ ﴿٤٣﴾ وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٤٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا
مَحِيمٌ ﴿٤٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٤٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٤٧﴾

ومرة تقريره ، وتأكيده مجيئه ، كقوله تعالى من سورة الحج :

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٤٦﴾
وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٤٧﴾ ﴿٤٨﴾
وقوله تعالى من سورة التغابن :

﴿رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ
بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿٣٧﴾

(١) سورة الحاقة الآيات (١٣ - ٣٧) . (٢) الأيتان (٦ ، ٧) . (٣) الآية (٧) .

ومرة بتعليق الاستقامة على الإيمان به ، كقوله تعالى :

﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(١)

وقوله :

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ﴾^(٢)

ومرة بإثبات الهداية والفلاح للمؤمنين به ، وذلك كقوله تعالى :

﴿وَيَا الْآخِرَةَ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُقْلِحُونَ﴾^(٣)

ومما يؤكد أهمية هذا المعتقد ، ويجعله كالصمام لحياة الاستقامة
والطهر ، والخير هو ذكره مقروناً بالإيمان بالله تعالى ، وذلك كقوله
تعالى من سورة القرة :

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٤)

وكقوله تعالى :

﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(٥)

(١) سورة الطلاق الآية (٢) وفي سورة البقرة الآية (٢٣٢) (ذلك يوعظ به من كان منكم
يؤمن بالله واليوم الآخر) .

(٢) سورة الأحزاب الآية (٢١) . (٣) سورة البقرة الآيتان (٤ ، ٥) .

(٤) الموضع الثاني في سورة لقمان الآيتان (٤ ، ٥) أيضا (وهم بالآخرة هم يوقنون ،
أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) .

(٥) الآية (٦٢) . (٦) سورة الطلاق الآية (٢) .

وقوله تعالى :

﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(١)

وقوله :

﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(٢)

في عدة آيات من كتاب الله تعالى .

فذلك هذه العناية القرآنية بهذين الركنين من أركان الإيمان على أنهما قوام حياة الروح ، وعليهما مدار استقامة المرء في هذه الحياة ، وأن الإيمان بدونهما ليس شيئاً ، وأن من عدهما قد عدم كل خير ، وأن من افتقدتهما فقد افتقد كل عناصر الخير والفضيلة في نفسه وأصبح من شر البرية .

وبالجملة فإن معتقد الإيمان بالله واليوم الآخر هو رأس كل عقيدة ، وأساس كل إيمان ، وعليه مدار استقامة الإنسان ، وصلاح خلقه ، وطهارة روحه ، وبدونه فالإنسان مخلوق لا خير فيه لا لنفسه ، ولا لغيره ، وهو شر كله ، لا يؤمن جانبه ، ولا يطمأن إليه ، ولا تسكن النفوس عنده ، وذلك لما انعدم عنده من أصول الخير ، وينابيع الفضيلة والكمال البشري .

(١) سورة النساء الآية (٣٨) .

(٢) سورة النور الآية (٢) وسورة النساء الآية (٥٩) .

ظواهر الانقلاب الكوني أو أسراط الساعة

إن لكل كائن حي كالإنسان والحيوان ، أو نامٍ كالأشجار والنباتات علامات تظهر له عند دنو أجله ، وقرب ساعة هلاكه .

فالإنسان يشيب ويهرم ، ويعرض ويضعف ، ويكون ذلك علامة دنو أجله ، وقرب ساعة موته ، والحيوان في غالب أحواله كالإنسان يعتريه الهرم والضعف ، ويتأهب المرض فتخور قواه ، وتنحل بيته ويهلك . والنبات كالزروع مثلاً يصفر ويبس ، ثم يذوي ، ويسقط ويبس .

هذه أجزاء من الكون يسبق هلاكها وفناءها علامات تؤذن بقرب ذلك ، والكون وهو كلُّ له (حتماً) علامات تدل على قرب فناءه ، ووقت دماره وخرابه ، قد جاء الوحي الإلهي بذكر تلك العلامات وبيانها ، ونهت الرسل عليها . ولفتت النظر إليها تحذيراً وتعليماً . ففي القرآن الكريم يقول تعالى من سورة (محمد) صلى الله عليه وسلم :

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿١٨﴾ ﴾ (١)

ومن أسراطها التي جاء الوحي بذكرها : بعثة النبي محمد صلى

(١) الآية (١٨) .

الله عليه وسلم ، وانشقاق القمر آية له عليه الصلاة والسلام . أما بعثته صلى الله عليه وسلم فقد كانت شرطاً من أشراط الساعة لأن نبوته ختم الله تعالى بها سائر النبوات ، فلا نبي بعده ، وهذا إيدان بقرب نهاية الحياة حيث لم تتطلب الفترة المتبقية من عمر الحياة لقصر زمنها ، لم تتطلب تجديد التشريع ببعثة أنبياء آخرين ، ولذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم في الصحيحين : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وَأُشَارَ إِلَى أَصْبَعِيهِ السَّابَةِ وَالْوَسْطَى وَقَرْنَ بَيْنَهُمَا »^(١).

وأما انشقاق القمر فقد كان شرطاً من أشراط الساعة ؛ لأن الله تعالى ذكره مقروناً بالإخبار باقتراب الساعة فقال تعالى من سورة القمر : ﴿ أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۚ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۚ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ ﴾^(٢)

وقد انشق القمر فعلاً على عهد النبي ﷺ ، حيث طلبت منه قریش آية تدل على نبوته فدعا الله ، فانشق القمر فلقطين على جبل أبي قبيس ، على مرأى من أهل مكة وهم ينظرون إليه^(٣).

ونزيد هذه الحقيقة توضيحاً فنقول : إن الله تعالى مازال يبعث بالأنبياء ، ويرسل بالرسول لهداية الناس ، وإصلاحهم ، وإعدادهم للكمال الذي خلَقوا له في الدنيا والآخرة . حتى ختم الرسالات برسالة نبيه محمد ﷺ ، وأتم الشرائع بشريعته ، وجعله خاتم الأنبياء ، وأخبر أنه

(١) متفق عليه بمعناه اللؤلؤ والمرجان (٣/٣١٤) ، والبخاري (٦/٢٠٦) ومسلم (٨/٢٠٨ ، ٢٠٩) .

(٢) الآيات ١ - ٣ .

(٣) جاء هذا في حديث متفق عليه كما تقدم . اللؤلؤ والمرجان (٣/٢٠٨) ، والبخاري (٤/٢٥١) ومسلم (٨/١٣٢ ، ١٥٣) .

لا نبي بعده ، فدل ذلك على أن الوقت الباقي من عمر هذه الدنيا قصير ، وأن الرسالة الأخيرة تتممها إصلاحاً وهداية ، فلا يحتاج معها البشر إلى وحي جديد ، وإلى رسالة ناسخة أو مجددة للشرائع والأحكام ، كما كانت الحال قبل هذه الرسالة الختامية ، ولهذا كانت بعثته ﷺ علامة من علامات قرب الساعة ، وانتهاء هذه الساعات الدنيا .

ومن الظواهر الكونية الخارقة للعادة التي ستظهر وتكون علامات الساعة ، وأشراتها لها ما جاء في الوحي الإلهي (القرآن الكريم) من نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض حكماً عادلاً ، فقد جاء من سورة الزخرف قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم ﴾ فلا تمتحن بها ﴿ وذلك بعد الحديث عنه في قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَإِلَهُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ لَكِهُنَّ فِي الْأَرْضِ يَحْتَفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم ﴾ فلا تمتحن بها وَآتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴿^(١)

ومن تلك الظواهر أيضاً ظهور دابة الخلق ، تخرج إلى الناس ، فتكلمهم ، فيفتنون بها أيما افتنان ، فقد جاء من سورة النمل قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾^(٢)

(١) الآيات (٥٧ ، ٦١) .

(٢) الآية (٨٢) .

وسبها تكسار سد يأجوج ومأجوج . وخروج تلك الأمة المفسدة المدمرة لتبعث في الأرض فساداً ، وتروع الناس أيما ترويع إذ جاء من سورة الأنبياء قوله تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ حَتَّىٰ فَإِذَا هِيَ شِخَصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾^(١)

هذا في الكتاب ، وأما في السنة وهي من وحي الله فقد أخرج مسلم من رواية حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال : « اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر ، فقال ما تذكرون ؟ قالوا : نذكر الساعة قال : إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات . فذكر الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم . ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب . وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم »^(٢).

وهذه من علامات الساعة الكبرى ، وتستبقيها علامات صغرى وهي كثيرة جداً ، وقد ظهر منها من يوم الإخبار بها إلى الآن عدد كبير . وقبل ذكر بعضها ننبه إلى أن العلامات الكبرى إذا ظهرت آية منها تابعت حتى لكانها خرزات في خيط متى سقطت واحدة ، تابعت باقي الخرزات حتى تسقط عن آخرها في زمن وجيز محدود ، وبرهة من الزمن قصيرة . كما أن العلامات الكبرى أولها ظهوراً طلوع الشمس من مغربها لحديث مسلم في « أن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيهما ما كانت قبل

(١) الأيتان (٩٦ ، ٩٧)

(٢) مسلم (٨ ، ١٧٩) .

صاحبها فالأخرى على إثرها قريباً^(١).

هذا ولنعلم هنا أن هذه العلامات الكبرى إذا ظهرت منها علامة أغلق باب التوبة على الناس ، فلم يقبل إيمان عند بعدها لم يكن دأمن من قبل ، كما لم يقبل منه خير لم يقدمه قبل رؤية دأية وظهورها ، وذلك لقول الله تعالى من سورة الأنعام :

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا إِذْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾^(٢)

وهذا جدول بالآيات الصغرى ما ظهر منها حتى الآن وما لم يظهر منها بعد ، نقدمه كما ورد عن رسول الله ﷺ .

١ - قوله ﷺ في رواية الصحيحين : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتُلَ فِتْنَتَانِ عَظِيمَتَانِ . وَتَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَدَعْوَاهُمَا وَاحِدَةٌ »^(٣) هذه العلامة قد ظهرت كما أخبر بها رسول الله ﷺ :

إذا المراد من الفتنين عليّ ومن معه ، ومعاوية ومن معه رضي الله عنهم أجمعين ، والمقتلة العظيمة كانت بصفين .

(١) مسلم (٢٠٢/٨) .

(٢) الآية (١٥٨) وروى مسلم عن أبي هريرة قال . قال رسول الله ﷺ : ثلاث إذا حُرِح لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها شيئاً : طلوع الشمس من مغربها . والدجال . ودابة الأرض . (١٠٩ ، ٩٦) وروى البخاري ولا تقدم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا صنعت فرأها الناس أجمعون فسلك حين لا ينفع إيمانها ما لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها شيئاً ، (١٣٢/٧) ، واللؤلؤ والمرجاح (٣١/١) .

(٣) الفسط لمسلم (١٧٠/٨) واللؤلؤ والمرجاح (٣٠٣ ، ٣) والبخاري (٢٤٦٠٤) .

٢ - قوله ﷺ في رواية مسلم : « لا تقوم الساعة حتى يكثُر الهرج ، قالوا : وما الهرج يا رسول الله ؟ قال : القتل القتل »^(١) . وقد ظهرت هذه العلامة فعلاً فإن الحروب التي تقع في هذه الظروف قتلاها لا يعدون بالعشرات ولا بالآلاف ، ولا حتى بالآلاف بل بعشرات الآلاف ومئاتها . في حين أن قتلى حروب الإسلام الأولى التي كانت على عهد رسول الله ﷺ والتي دامت زهاء عشر سنوات ، لم تتجاوز ألفين وخمسمائة قتيل حسب إحصائية وثيقة ذكرها غير واحد^(٢) .

٣ - قوله ﷺ في رواية الصحيحين عن أبي هريرة « لا تقوم الساعة حتى يحسُر الفرات عن جبل من ذهب يقتل الناس عليه »^(٣) . هذه العلامة لم تظهر بعد .

٤ - قوله ﷺ في صحيح مسلم : « منعت العراق درهمها وقفيزها ، ومنعت الشام مديها ودينارها ، ومنعت مصر إردبها ودينارها ، وعُدتُم من حيث بدأتُم .. الحديث »^(٤) .

وهذه العلامة قد ظهرت كاملة ، فقد ذهب الخلافة الإسلامية منذ زمن واستقل أهل العراق بعراقهم ، وأهل الشام بشامهم ، وأهل مصر بمصرهم ، وانقطع ما كان يأتي أهل الحجاز من تلك البلاد من خراج وغيره ، وعاد الأمر في الحجاز كما كان قبل فتح تلك البلاد ، وفي هذا

(١) مسلم (١٧٠/٨ ، ١٧١)

(٢) لقد سمعتُ هذا واستفتيت من أخينا الشيخ أبو الحسن الندوي . وأحمد لي مستنداً له .
بند لا يتطرق إليه الشك .

(٣) اللفظ نسلم (١١٤/٨) اللؤلؤ والمرجان (٣٠٥/٣) والخاري (٧٣/٩) وللحديث
تمة .

(٤) مسلم (١٧٥/٨) .

الحديث آية من أعظم الآيات على صدق نبوة محمد ﷺ ، وثبوت رسالته ، إذ أخبر بهذا الغيب والإسلام لم يتجاوز أرض الجزيرة العربية ، فأخبر بأن العراق والشام ومصر ستفتح وتكون دار إسلام ، ويأتي منها الخير الكثير لأهل الحجاز ثم بعد ذلك يطراً عليها ما يجعلها تمنع ما كانت تعطيه لأهل الحجاز . فتم كل ذلك حرفياً ، ولم يتخلف منه شيء قط ، فصلّى الله وسلم على محمد نبي الله ورسوله صدقاً وحققاً . وبالحية من كفر به ؛ ولم يتبعه فيما جاء به .

٥ - قوله ﷺ في الصحيحين : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نارٌ من أرض الحجاز تُضيءُ أعناق الإبلِ ببصرى »^(١) . وقد ظهرت هذه العلامة كما أخبر ﷺ ؛ فقد احترقت الحرة الشرقية من المدينة النبوية ، واستمرت النار ملتهبة فيها مدة طويلة ، ولهبها يرى من بصرى الشام . وما زالت ججارتها سوداء محترقة كتنفحم إلى الآن ، وكان ظهور هذه النار ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة من عام (٦٥٤) هـ .

٦ - قوله ﷺ في الصحيحين : « لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوسٍ حول ذي الخلصة ، وكانت صنماً تعبدها دوسٌ في الجاهلية بنبالة »^(٢) . وقد ظهرت هذه العلامة وفق أخباره ﷺ ، فقد عادت الجاهلية إلى أرض الجزيرة قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى فعُبدت الأشجار والأحجار ، وانتشر ذلك في شتى بلاد العالم الإسلامي فذُبِحت الذبائح ، وأوقدت الشموع ، ونذرت النذور للمزارات والأضرحة والقبور بصورة عجيبة ، وعلى مرأى وسمع من كثير من علماء المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وفي هذا الخبر

(١) اللؤلؤ والمرجان (٣/٣٠٥) ، والبخاري (٩/٧٣) ومسلم (٨/١٨٠) .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم (٨/١٨٢) واللؤلؤ والمرجان (٣/٣٠٦) ، والبخاري (٩/٧٣) .

السمير الشريفة والذي تم طبق ما أخبر به الصادق المصدق صلى الله عليه وسلم رد على الذين يزعمون أن هذه الأمة لا يقع بينها الشرك ، ولا يوجد بينها من يعمل به مستدلين بقوله صلى الله عليه وسلم « إنَّ الشيطانَ قد يئس أن يعبدَهُ المصلونَ في جزيرة العرب » (١)

وفاتهم أن يفهموا أن يأس الشيطان ليس حجة في عدم وجود الشرك في الأمة الإسلامية . إن الشيطان يئس من أن يُعبد في الجزيرة العربية لما رأى أعلام التوحيد منشورة على ربوعها ، وأهل كلمة التقوى الذين هم أحق بها وأهلها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يملأون كل أجوائها وأرجائها تهليلاً وتكبيراً ، وتحميداً وتسييحاً فيُس اللعين ، ولكن ما إن ذهب ذلك الجيل الذي رباه القائد الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم وما تلاه من أجيال ، وجاءت أجيال أخرى لم تذق طعم تلك التربية النبوية ، ولم تعرف بحق هدى الله الذي جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم : فخالط أعمالها الشرك ، وداخل بعض معتقداتها الزيف والضلال حتى ذهب عن الشيطان يأسه الأول ، وعاد إليه الأمل المفقود ، وما زال يحسن لكثير من أفراد أمة الإسلام الشرك ، والعمل به حتى أصبح الشرك أكثر فشواً في الأمة من التوحيد ، وكفى بالواقع شاهداً على ما نقول ودليلاً ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (٢)

٧ - قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيحين : « لا تقوم الساعة »

(١) رواه مسلم (١٣٨/٨) وله تنمة ورواه الترمذي بلفظ : « ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبد في بلادكم هذه أبداً ، ولكن ستكون له طاعة فيما تحشرون من أعمالكم وسيرضى بها » كتاب البر باب ٢٥ ، وأحمد (٣٦٨/٢ ، ٣١٣/٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦٦ ، ٣٨٤ ، ٧٣/٥) والترمذي في الفتن أيضاً باب (٢) سورة يوسف الآية (١٠٦) .

حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه^(١). وهذه العلامة لهم تظهر بعد . .

٨ - قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيحين : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتلهُ : إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود »^(٢).

وقد بدت بوادر هذه العلامة تلوح في الأفق ، فقد قتل عرب المسلمون اليهود في عدة معارك في أرض فلسطين ، وسوف يستمر قتالهم لهم حتى يكتب الله النصر للمسلمين ، ويستأصرون اليهود من أرض القدس نهائياً .

٩ - قوله ﷺ : « بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ، ويمسي كافراً ، ويمسى مؤمناً ، ويصبح كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا »^(٣) وقد أخذت هذه العلامة في الظهور ، ووقع لعدد كثير من الناس ما حملة هذا الخبر النبوي الصادق .

(١) اللؤلؤ والمرجان (٣٠٧/٣) ومسلم (١٨٣/٨) والبخاري (٧٣/٩) .

(٢) متفق عليه والنفظ لمسلم (١٨٨/٨) والبخاري (٥١/٤١) واللؤلؤ والمرجان (٣٠٨/٣) .

(٣) مسلم (٧٦/١) .

آيات قريبة جداً من قيام الساعة

هذه بعض آيات أخرى تدل على قرب الساعة ، ولكنها قريبة جداً من قيام الساعة ، ولذا لم يظهر منها شيء بعد وهي :

١ - في قوله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة » ، قال : فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم تعال صل لنا ! فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله هذِهِ الْأَمَّةُ^(١) .

٢ - في قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيحين : « تقوم الساعة والرجل يحلب اللقحة^(٢) » فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم ، والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم ، والرجل يلوط^(٣) حوضه فما يصدر حتى تقوم^(٤) .

٣ - في قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيحين : « واللّه لينزلن

(١) (٩٥/١) وروى البخاري « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم بكم وإمامكم منكم » ، (٢٠٤/٤ ، ٢٠٥) واللؤلؤ والمرحان (٣١/١) ، ومسلم (٩٤/١) .

(٢) اللقحة : الناقة ذات البن .

(٣) لاط الحوض يلوطه إذا مدره بالطين لثلا ينشف الماء : وهذا اللفظ يروى بالفاظ أخرى : - يلط ، ويليط .

(٤) اللفظ لمسلم (٣١٠/٨) وللبخاري معناه (٧٤/٩) .

ابن مريم حكماً عادلاً ، فليكرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ،
وليضمنن الجزية ، ولتركن القلاص^(١) ، فلا يسقى عليها ، ولتذهبن
الشحنة والتباغض والتحاسد ، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد^(٢) .

٤- في قوله ﷺ في صحيح مسلم : «إِنَّ اللَّهَ يَمُتُ رِيحاً مِنَ
الْيَمَنِ ، أَلَيْنُ مِنَ الْحَرِيرِ فَلَا تَدْعُ أَحَدًا فِي قَلْبِهِ - قَالَ أَبُو عُلْقَمَةَ : مَثَقَالُ
حَبَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ»^(٣) .

٥ - في قوله ﷺ في صحيح مسلم أيضاً : «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا
عَلَى شَرَارِ النَّاسِ»^(٤) .

(١) القلاص : واحدها القلوص وهي الشاة من الإبل ، الطويلة القوائم .
(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم (٩٤/١) واللؤلؤ والمرجان (٣١/١) ، والبخاري
(١٠١/٣ ، ١٠٢) بمعناه .
(٣) (٧٦/١) .
(٤) (٢٠٨/٨) : ورواه البخاري بلفظ «من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء»
(٦١/٩) ، واللؤلؤ والمرجان (٣١٤/٣) .

(بداية الانقلاب الحقيقي)

إذا أذن الله جل جلاله ، وعظم سلطانه بانقراض الكون ، وانتهاء هذه الحياة الأولى أمر ملكاً يدعى إسرافيل أن ينفخ في الصور نفخة واحدة للفناء فينفخ نفخة فيصاب الكون كله بخلخلة عنيفة فتتحل بها كل الروابط التي كانت تربط بين أجزاء الكون ، فترتج الأرض رجاً عنيفاً ، وتترزّل زلزلاً مروعاً^(١) ، وتندك مع جبالها دكاً ، فتصير هباءً مُنْبأً .

وتُصاب السماء بانفطار عظيم يبطل معه قانون الجاذبية المعروف الآن ، فتتأثر الكواكب ، وتنكدر الشمس ، ويذهب ضوء الكل ، ويفقد الجميع كيانه ، فتتصهر تلك الأجرام السماوية بجميع مجراتها فإذا هي كالتحاس المذاب تماماً^(٢) . وإذا العالم كله سديم ويخار كما كان قبل وجوده وخلق الله تعالى له .

تنبيه :

ولنتبه هنا إلى أن كل هذا الذي ذكرناه من ظواهر الانقلاب

(١) أما الإنسان الذي يزعم أنه سيد هذا الكون ، ولم يبرح يتناول ويتعالى حتى على خالقه جل وعلا فإنه عندما يشاهد هذه الأحوال بعينه . ويسمع دويها بأذنيه يفقد كل رشده ، وتخف أحلامه ، وبطير له ويفقد صوابه حتى يصبح كالفراس في حمقه . وقلة تعقله . هائجاً مائجاً سكران من شدة الفزع والهول وما هو بسكران . مرضعه عما ترضع ذاهلة . وحامله لما في بطنها واضعة .

(٢) مصداقه في قوله تعالى : « يوم تكون السماء كالمهل » سورة المعارج الآية (٨) . وقوله « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » سورة الرحمن الآية (٣٧) .

الكوني لقيام الساعة لم يسر مستقى من مجرد النظريات الكونية ، ولا مستقى من تقولات الناس وتنبؤاتهم ، ولا من تكهنات المعنيين بمثل هذه الأحداث الكونية ، وإنما هو الحق اليقين الثابت بالوحي الإلهي ، الواصل بواسطة جبريل الروح الأمين المنزل على قلب سيد المرسلين محمد ﷺ .

وها هي ذي آيات الله رب الكون وخالفه تنطق بكل ما سيجري فيه ، وعليه ، قال تعالى في فاتحة سورة الحج :

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُورَ رَبِّكُمْ إِنَّا زَلَّلْنَا السَّاعَةَ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝﴾^(١)

وقال تعالى في فاتحة القارعة :

﴿الْقَارِعَةُ ۝ (١) مَا الْقَارِعَةُ ۝ (٢) وَمَا أَدرَكَكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُورِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۝﴾^(٣)

وقال تعالى من سورة المعارج :

﴿يَوْمَ نَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۝ (٩) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا يُبْصَرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بَنِيهِ ۝ (١١) وَصَحْبَتَهُ وَأَخِيهِ ۝ (١٢) وَفَصْلَتِ الَّتِي تُقَرِّبُهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ۝ (١٣) كَلَّا إِنَّهَا لَظُنْ ۝﴾^(٣)

(١) الآيتان (١ ، ٢) .

(٣) الآيات (٨ - ١٥) .

(٢) الآيات (١ - ٥) .

وقال تعالى من أول سورة الزلزلة :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝
وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا هَآءَا ۝ ﴾^(١)

٥ - وقال تعالى :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ۝
وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝ ﴾^(٢)

وقال تعالى :

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝
وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝ ﴾^(٣)

وقال تعالى :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝ لَيْسَ لَوَقَعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۝
رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۝ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۝ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۝ ﴾^(٤)

(١) الآيات (١ - ٣) .

(٢) الآيات . (١ - ٣) من سورة الانفطار .

(٣) الآيات (١ - ٦) من سورة التكويد .

(٤) الآيات (١ - ٦) من سورة الواقعة .

نشوء الحياة الثانية بعد انتهاء الأولى

إنه لا مجال للعقل البشري في معرفة الحياة الثانية وإدراكها ، ولا في بدء نشأتها ، وكيفية وجودها ، وكل ما في الأمر أن العقل البشري يجهل ولا يحيل وجود حياة كهذه الحياة ، أو أرقى منها بالقياس إلى هذه الحياة ، إذ القدرة الفاعلة المختارة التي كان بها هذا الكون ، ووجدت بها هذه الحياة ، في إمكانها عقلاً أن تحدث كوناً وحياة أرقى وأفضل من الكون السابق ، والحياة المتقدمة .

وبناء على هذا فإن نشأة الحياة الثانية مرد معرفتها إلى إخبار الله تعالى في كتبه ، وإخبار رسله عليهم الصلاة والسلام . وأن مجمل ما عرفناه عن نشوء الحياة الثانية هو : أنه بعد فناء العالم بنفخة إسرافيل نفخة الفناء ، كما تقدم آنفاً^(١) - وبعد مضي أربعين سنة لا ندري هل أيامها وشهورها مقدرة بأيام حياتنا هذه أو بأيام وشهور أخرى لا تخضع للنظام الشمسي الذي كانت به أيامنا وأعوامنا هذه ؟؟ بعد مضي هذا الزمن ينزل من السماء ماء ، فتنبث الأجسام تحت الأرض كما ينبث البقل ، وذلك بواسطة تفاعل الماء مع بذرة الحياة التي هي عبارة عن عظيم صغير يوجد في آخر فقرات الظهر من كل إنسان وجد في هذه الحياة الدنيا ، يسمى عَجَب الذَنْبِ . فإذا تم الخلق ، واكتمل النمو ، وأصبحت الأجسام هيكل تامة التكوين تحت الأرض لا ينقصها إلا أن

(١) في ص (٣٤٦) فصل : بداية الانقلاب الحقيقي .

تحلها الأرواح ، فتدب فيها الحياة وتتحرك ، وتقوم . أرسل الله الخالق سبحانه وتعالى الأرواح التي قبضها ملك الموت يوم وفاة كل إنسان في هذه الحياة ، وأودعت في مستودعات بعضها في العالم العلوي وهي الأرواح الطاهرة الطيبة نتيجة إيمان صاحبها ، وعمله الصالح ، وتركه الشرك والمعاصي . وبعضها في العالم السفلي وهي الأرواح الخبيثة نتيجة كفر صاحبها ، وارتكاب الجرائم والآثام . فتدخل تلك الأرواح الآتية من مستودعاتها الأجسام التي هيئت لها فتحيا : ثم ينادي مناد الله تبارك وتعالى : أن قوموا . أربكم ، فتسمع وتجب ، وتنشق الأرض عنهم بسرعة ويقومون من قبورهم أحياء للحشر بعد أن تم النشر .

وهذه المعلومات اليقينية التي سقناها ، وكشفنا بها عن كيفية المعاد وبدء الحياة الثانية ، وطريقة نشوئها ، جاءت بها آيات قرآنية ، وصحت بها سنن نبوية لا مجال أبداً لإنكارها ، أو الشك فيها . وها نحن نردها مجملين لها فيما يلي :-

قال تعالى من سورة الحاقة :

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۖ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ ۝١٥ وَأَنسَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهٍ ۖ ۝١٦ وَالْمَلِكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ كَمَلِيَّةٌ ۖ ۝١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۖ﴾ (١)

وقال تعالى من سورة ق :

﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۖ ۝٤١ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ۖ ۝٤٢ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ

(١) الآيات (١٣ - ١٨) .

يَوْمَ تَشْقُقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿١١﴾

وقال تعالى من سورة القمر :

﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكَرٍ ۖ خَشَعُوا أَبْصَارَهُمْ بَخْرُوجٍ مِّنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۖ مَّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسَرٍ ۖ﴾ ﴿٨﴾ ﴿١١﴾

وقال تعالى من سورة المعارج :

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصَبٍ يُّفْرَضُونَ خَشَعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرَاهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكِ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ۖ﴾ ﴿١١﴾ ﴿١٣﴾

وقال تعالى من سورة الإسراء :

﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغَضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسُهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلِ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ۖ﴾ ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾ ﴿١٣﴾

يَذْعُرُكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ ﴿١٤﴾

وقال رسول الله ﷺ في حديث البخاري ومسلم واللفظ له : وما بين التفخيتين أربعون قالوا : يا أبا هريرة أربعون يوماً ؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون شهراً ؟ قال أبيت ، قالوا أربعون سنة ؟ قال أبيت ، ثم ينزل من السماء ماء فينبثون كما ينبت البقل . قال : وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عَجَبُ الذَّنْبِ ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة (٥) .

(١) الآيات (٤١ - ٤٤)

(٢) الآيات (٦ - ٨) . (٣) الآيات (٤٣ - ٤٤) . (٤) الآيات (٥١ - ٥٢)

(٥) لم يجزم أبو هريرة راوي الحديث بتفسير لفظ الأربعين هل هو أربعون يوماً ، أو شهراً ، أو عظماً غير أنه ورد في رواية أخرى مفسراً بلفظ سنة ، قاله النووي في شرحه على مسلم (٨١٣، ٥) طبعة الشعب تحقيق وإشراف عبد الله أحمد أبو رية . والحديث في التلويح والمعارج (٣/ ٣١٥) ، والبخاري (١٥٨/٦ ، ٢٠٥) ومسلم (٢١٠/٨) .

الحشر

والموقف الصعب في عرصات القيامة

ما هو الحشر :

إن الحشر عبارة عن جمع الخلائق بعد بعثهم أحياء في ساحة واحدة تدعى عرصات القيامة ، وذلك لفصل القضاء ، وهو الحكم فيما بينهم من أجل مجازاتهم . فالناس إذا بُعثوا من قبورهم أحياء ، حفاة ، عراة ، غُرلاً ، كما بدأ الله تعالى خلقهم أولاً يعيده ثانياً ، قال تعالى من سورة الأنبياء :

﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾^(١)

وقال الرسول ﷺ في الصحيحين : «يحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ على أرضٍ بيضاءَ عفراءَ كقرصةِ النقي ليسَ فيها علمٌ لأحدٍ»^(٢) وقال في الصحيحين أيضاً : «يحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ حفاةً عراةً غُرلاً»^(٣) قلتُ يا رسولَ اللهِ النساءُ والرجالُ جميعاً ينظرُ بعضهم إلى بعضٍ ؟ قال ﷺ : يا عائشةُ الأمرُ أشدُّ مِنْ أَنْ ينظرُ بعضهم إلى بعضٍ»^(٤).

(١) الآية (١٠٤) .

(٢) اللفظ لمسلم (١٢٧ / ٨) والبخاري (١٣٥ / ٨) واللؤلؤ والمرجان (٢٧٥ / ٣) ومعنى عفراء بيضاء تميل إلى الحمرة قليلاً وقرصة النقي الخبز الأبيض السالم من القش والنقي من النخالة .

(٣) الغرل جمع أغرل وهو من لم يختن .

(٤) اللفظ لمسلم (١٥٦ / ٨) واللؤلؤ والمرجان (٢٩٤ / ٣) والبخاري (١٣٦ / ٨) .

ويحشر الكافرون على وجوههم ، لقوله تعالى من سورة الإسراء :
﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمًىٰ وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّاوَلَهُمْ
جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِٱلَّذِينَ بَعَثْنَا
وَقَالُوا ٱءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرُفًىٰ ٱءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (١)

وقيل للرسول ﷺ : كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟
قال : « أليس الذي أمشاه على رجله في الدنيا قادراً على أن يمشيه
على وجهه يوم القيامة ؟ » (٢)

وتدنى الشمس في ذلك اليوم من رؤوس الخلائق حتى تكون
قرية منهم جداً ، فتشتد الحرارة في الموقف ، ويعرق الناس لذلك
حتى يذهب العرق سبعين ذراعاً ، فقد جاء بهذا الحديث الصحيح فقي
مسلم عن المقداد بن الأسود قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول :
« تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل ،
فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق ، فمنهم من يكون إلى
كعبه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه » (٣)،
ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً قال : وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى
فيه » (٤)

(١) الآيتان (٩٧ ، ٩٨) .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم (٨ / ١٣٥) والخاري (٦ - ١٣٧) والذوئ والمرحان (٣ / ٢٨٢) .

(٣) الحق يفتح الحاء والجمع حواء كبناء هو الخصر . أو الإزار لأنه يشد على الحقو .

(٤) مسلم (٨ / ١٥٨) .

فصل القضاء والشفاعة فيه

ما هو فصل القضاء :

إن المراد من فصل القضاء هو أن الناس لما يحشرون إلى ربهم . ويبلغ العناء منهم مبلغاً عظيماً ، وذلك من شدة الهول ، وصعوبة الموقف ، يرغبون في أن يحكم الله تعالى فيهم أو بينهم بما هو أهله . وبما هم متهيئون له بحسب طهارة أرواحهم ، أو خبثها . فيريحهم من شدة الموقف واتعابه ومصداق هذا في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرْسِلُ أَقْتَتَ ۝ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۝ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۝ (١٤) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ (١٥) ﴾ كما في قوله عز وجل :

﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ۝ (١٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝ (١٦) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ (١٧) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْتُمْ وَالْأَوَّلِينَ ۝ (١٨) فَلَمَّا كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكَيْدُونَ ۝ (١٩) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ (٢٠) ﴾

ولما يطول موقفهم ويعظم كربهم يقول بعضهم لبعض : ألا ترون ما أنتم فيه ؟ ألا ترون ما قد بلغكم ؟ فيأتون آدم ليشفع لهم عند الله تعالى

(١) سورة المرسلات الآيات (١١ - ١٥) .

(٢) سورة المرسلات الآيات (٣٥ - ٤٠) .

فيعتذر لهم ويقول : « إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته ، نفسي نفسي !! اذهبوا إلى غيري ، فيأتون المرسلين واحداً واحداً نوحاً ، إبراهيم ، موسى ، فاعسى فيعتذر الكل ، ويقول نفسي نفسي !! حتى يتنهدوا إلى خاتم الأنبياء ، وإمام المرسلين محمد ﷺ فيقول : « أنا لها فيأتي ربه فيخرُ ساجداً تحت العرش ، ويلهمه ربه تعالى محامداً يحمده بها ، فلا يزال كذلك حتى يقول له الرب تبارك وتعالى : « ارفع رأسك ، وسل تعط ، واشفع تُشفع ، فيرفع رأسه ويقول : يا رب أمتي فيقال له : يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب^(١) » ، ويجري بعد ذلك القضاء مجراه فتعطى الكتب ، وتوضع الموازين ، ويحاسب الناس :

(١) كل هذا الذي ذكرنا من بيان الموقف ، والشفاعة ثابت في الصحيحين ؛ وقد تقدم في مبحث الشفاعة من هذا الغنية فليرجع إليه .

الحساب والميزان

إن الحساب يدور على محتويات الكتب التي يُعطاها كل فرد من أفراد الناس في ساحة فصل القضاء ، ويقرؤها كل واحد من أهل الموقف ، وسواء من كان يقرأ منهم ومن لم يكن يقرأ ، ويختلف إعطاؤهم تلك الكتب ، وتلقيهم لها ، إذ منهم من يُعطى كتابه يمينه ومن أمامه ، ومنهم من يعطى كتابه بشماله ومن وراء ظهره ، وبمجرد إلقاء نظرة على محتوى الكتاب يعلم صاحبه بمصيره ، ويعلم على الفور عن فوزه ، وفرحه ، وسروره ، أو عن خيبته ، وحزنه ، وخسرانه .
قال تعالى في بيان هذا وتقريره من سورة الانشقاق :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ ۖ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا
وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٨﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۖ ﴿٩﴾
فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١٠﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١١﴾ ۝ ﴾

وقال من سورة الحاقة :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ ۖ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ مِمَّا كُتِبَتْ لِي ۖ ﴿١٨﴾ إِنِّي
ظَنَنْتُ أَنِّي مَلَكٌ حَاسِبٌ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾

١٠١، الآيات (٧-١٢) .

فُطُوهُهَا دَانِيَةً ﴿٣٢﴾ كُلُّوْا وَاشْرَبُوْا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ
وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشَآءٍ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيَهٗ ﴿٣٣﴾ وَلَا
أَدْرِمَا حِسَابِيَهٗ ﴿٣٤﴾ يَلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٣٥﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ
هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ ﴿٣٦﴾ خُذُوْهُ فَعَلُوْهُ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ الْجَحِيْمَ صَلُّوْهُ ﴿٣٨﴾ ثُمَّ
فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوْهُ ﴿٣٩﴾ إِنَّهٗ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
الْعَظِيْمِ ﴿٤٠﴾ وَلَا يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَكِيْنِ ﴿٤١﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هِمٌّ
حَمِيْمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَلِيْنٍ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٤٣﴾

وبينما هم كذلك إذ توضع الموازين القسط ، ويتقدم الناس واحداً
واحداً للحساب ، فمنهم من يُحاسب حساباً يسيراً وهو العرض الذي
قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيه لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها
« من حوسب يوم القيامة عُذِبَ » فقلت : أليس الله عز وجل يقول :
﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ (٨) ﴿ ٣٩ ﴾

فقال لها : ليس ذاك الحساب إنما قال العرض ، من نوقش الحساب
يوم القيامة عُذِبَ ، (٣) .

ومنهم من يحاسب حساباً عسيراً ، يُستنطق الفرد ، ويسأل عن كل
صغيرة وكبيرة ، فإن أجاب بالصدق والحق فيها ونعمت ، وإن حول
الكذب أو الكتمان فإنه يختم على فمه ، وتستنطق جوارحه ، فتنطق

(١) الآيات (١٩ - ٣٧)

(٢) سورة الانشقاق الآية (٨) .

(٣) متفق عليه واللفظ لمسلم (٨ / ١٦٤) اللؤلؤ والمرجان (٣ / ٢٩٩) . والمحار (١ / ٣٩) .

بالذي عمل في دنياه ، ولا تخفي شيئاً ، فيلومها على نطقها وشهادتها عليه ، فيكون ردها عليه بقولها الذي حكاه القرآن الكريم من سورة فصلت :

﴿أَنْطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(١)

وقال تعالى في بيان هذه الحقيقة من سورة النور :

﴿يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢)

وقال تعالى في ذلك من سورة يس :

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٣)

ويجري هذا الاستجواب والاستنطاق في جو رهيب للغاية ، إذ تقوم فيه الأَشْهَاد ، ولا يؤذن للمرء في الاعتذار فيعتذر ، ولا تقبل من ظالم معذرة ، وتعرض الأعمال عرضاً حياً ناطقاً ، فيرى المرء عمله وهو يباشره وبيا للفضيحة !!! قال تعالى من سورة الزلزلة :

﴿يَوْمَ يُصْدَرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾^(٤)

ثم توضع الموازين العادلة ذات الدقة المتناهية ، وتحصر الأعمال فلا يترك منها عمل وإن قل ودق ، فتوضع في موازين العدل ، وتوزن ، وبحسب نتيجة الوزن تكون السعادة ، أو يكون الشقاء . قال تعالى في بيان هذه الحقيقة من سورة الأنبياء :

(١) الآية (٢١) .

(٢) الآية (٢٤) .

(٣) الآية (٦٥) .

(٤) الآيات (٦-٨) .

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (١)

وقال تعالى من سورة المؤمنون :

﴿مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٦) وَمَنْ خَفَّتْ
مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تَلْفَحُ
وُجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٨﴾ أَلَمْ تَكُنْ أَتِنَىٰ لُتْلَىٰ عَلَيْكَ
فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (١٠٩)

(١) الآية (٤٧)

(٢) الآيات (١٠٢ - ١٠٥)

الصراط

وأخيراً الصراط :

إنه بعد وزن الأعمال والفراغ منها ، وبين السعيد من الشقي في الجملة ، يضطر الناس إلى المرور على الصراط ، وهو جسر دقيق منصوب على ظهر جهنم وهي عقبة كأداء في طريق الداهيين إلى دار السلام ، وممر خطير للغاية يشهد لخطورته أن الرسول ﷺ يقف على جنباته والناس يمرون ، وهو : يدعو : « رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ »^(١) . ويكون مرور الناس بحسب أعمالهم في الدنيا ، فمنهم من يمر بسرعة مدهشة حتى وكأنه البرق الخاطف . ومنهم من يمر دون ذلك إلى أن ينجو من ينجو ولو حبواً على يديه وركبتيه ، ويهلك من يهلك بسقوطه في جهنم دار الشقاء ، والهوان ، واليوار ، والخسران .

وقد وصف رسول الله ﷺ الصراط في معرض حديثه عن الشفاعة العظمى والمقام المحمود الذي وعده به ربه تبارك وتعالى في قوله :

﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾^(٢)

فقال ﷺ : « فيأتون محمداً ﷺ فيقوم فيؤذن له ، وترسل الأمانة والرحم

(١) رواه مسلم (١/ ١٢٩ - ١٣٠) وفي البخاري الحديث عن القيامة والصراط وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم ، (١/ ١٩٣ ، ١٩٤) والذئذ والمرجان (٤٢ - ٤٤) وسلم تلفظ ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم ، (١/ ١١٢ ، ١١٤) .

(٢) سورة الاسراء الآية (٧٩) .

فتقومانِ جنبتي الصراطِ يميناً وشمالاً فيمرُّ أولكمُ كالبرقي : قلتُ :
 بأبي وأمي أي شيء كمر البرق ؟ قال : ألم تروا إلى البرقي كيف يمرُّ
 ويرجعُ في طرفه عينٌ ، ثم كمر الريح ، ثم كمر الطير ، وشدَّ الرجالِ
 تجري بهم أعمالهم ، ونبيكم قائمٌ على الصراطِ يقولُ : ربِّ سلم ،
 سلم . حتى تعجزُ أعمالُ العبادِ ، حتى يجيء الرجلُ فلا يستطيعُ السيرَ
 إلا زحفاً . قال : وفي حانتي الصراطِ كلاليبٌ معلقةٌ ، مأمورةٌ بأخذِ مَنْ
 أمرتُ به ، فمخدوشٌ ناجٍ ، ومكدوسٌ في النارِ ،^(١)

القنطرة بين الجنة والنار

هل هناك قنطرة بعد الصراط ؟

نعم : إنه بعد أن يجتاز المؤمنون الصراط بسلام وأمان من
 الوقوع في النار يرقفون على قنطرة بين الجنة والنار ، لتهديبهم
 وتطهيرهم من كل ما كان بينهم من عداوات أو شحناء ، أو حقوفهم
 لبعضهم على بعض ، ثم بعد ذلك يؤذن لهم بدخول الجنة فيدخلون .
 وقد روي حديث القنطرة هذه الإمام أبو عبد الله البخاري في صحيحه ،
 وهذا نصه :

يخلص المؤمنون من النار فيجسرون على قنطرة بين الجنة
 والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى
 إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ، فوالذي نفس محمد بيده
 لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا^(٢) .

(١) أخرجه مسلم (١/ ١٢٩ ، ١٣٠) .

(٢) البخاري (٨/ ١٣٨ ، ١٣٩ ؛ ٣/ ١٥٨ ، ١٥٩) .

دار السلام

إن من إتمام بحث عقيدة البعث والجزاء ، وتوفية هذا الركن من أركان عقيدة المؤمن حقه في الدرس والبحث أن يخص كل من دار السلام . ودار البوار^(١) بعرض خاص يجلي حقيقة كل منهما بما يبعث على الرغبة في الفوز بدار السلام ، ويتعد عن الثانية باجتناب الشرك ، وترك معصية الله تعالى ، ورسوله ﷺ .

ولما كان الحديث عن دار السلام شيقاً ومحبباً إلى النفوس المؤمنة ، فإن الإطناب فيه أولى من الإيجاز ، والاسهاب أولى من الاختصار . ومن هنا فسيكون بحثنا لهذا الجزء من ركن عقيدة المؤمن في البحث والجزاء ضافياً ، يتناول الحديث عن سعة دار السلام ، وأبوابها ، وأنهارها ، وخدمها ، ومطاعمها ، ومشاربها ، وسائر ألوان التعيم فيها . كما سيكون مصدر استقائنا لكل المعلومات في حديثنا عن دار السلام هو الكتاب والسنة ، إذ الأول كتاب من أوجدتها ، وأوجد نعيمها ، وخلق أهلها ، وهداهم ، فأعدهم لها ، وعرفهم بها ، وأما السنة فإنها أخبار من دخلها ، ووطئت أقدامه أرضها ، وبلغ سدره المنتهى فيها كما قال تعالى :

﴿ أَفْتَمَرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۖ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۖ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۖ ۝١٢﴾
 ۝١٣ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۖ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۖ ۝١٤﴾^(٢)

(١) دار البوار جهنم لقوله تعالى : « وأحلوا قومهم دار البوار يصلونها » سورة إبراهيم الأيتان (٢٨ ، ٢٩) .

(٢) سورة النجم الآيات (١٢ - ١٥)

سعة دار السلام وطيب ريحها

ما أوسع دار المتقين . وما أطيب ريحها !!

إن عرضها كعرض السموات والأرض ، وإن ريحها ليوحد من مسيرة مائة عام ، إذ قال تعالى :

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١)

وقال رسول الله ﷺ : « إن ريحها ليوحد من مسيرة مائة عام »^(٢)

(أبوابها)

إن للجنة دار النعيم لثمانية أبواب^(٣) . أحدها يسمى الريان ، وهو خاص بالصائمين^(٤) . ومنها باب خاص بالذين لا يخاسبون من أمة محمد ﷺ^(٥) .

وأبواب الجنة في غاية الوسع ، والكبر حتى إن ما بين مصراع

(١) سورة آل عمران الآية (١٣٣) .

(٢) النسائي بلفظ (وإن ريحها ليوحد من مسيرة سبعين سنة) (٢٢ / ٨) والترمذي ديات (١١) وابن ماجه (ديات / ٣٢) وأحمد (٢ / ١٧١ ، ١٨٦ ، ٢٧ / ٥ ، ٥٠ ، ٥١) والموطأ بلفظ :

(وريحها يوجد من مسيرة خمسمائة عام) (٣ / ١٠٣) .

(٣) لحديث مسلم في فضل الشهد بعد الوضوء (١ / ١٤٤ ، ١٤٥) والبخاري (٤ / ١٤٥) .

(٤) ورد هذا في المتفق عليه اللؤلؤ والمرجان (٢ / ١٩ ، ٢٠) .

(٥) تقدم في حديث الشفاعة من فصل القضاء وهو مخرج في الصحيحين اللؤلؤ والمرجان (١ /

٤٩ - ٥١) .

الباب مسيرة أربعين سنة ، ومع هذا الوسع فسوف تكتظ بأفواج الداخلين معها ، وتزدحم ، وقد علم أن خلق تلك الأبواب مكونة من ياقوت أحمر ، قائمة على صفائح من ذهب ، فقد روى مسلم في صحيحه عن الصادق المصدوق عليه السلام قوله : « إن ما بين مصراعي من مصاريع الجنة بينهما مسيرة أربعين سنة ، وليأتين عليها يوم وهي كظيظ من الزحام » ^(١) .

وقال عليه السلام وهو يحدث عن أهل الجنة : « ويستهنون إلى باب الجنة فإذا خلقه من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب » ^(٢) .

عند باب الجنة

ماذا عند باب الجنة :

إن عند باب الجنة شجرة عظيمة ينبع من أصلها عيان ، قد خصصت إحداها لشراب الداخلين ؛ وثانيتهما لتطهيرهم فإذا شربوا من الأولى جرت في وجوههم نضرة النعيم فلا يأسون أبداً - وإذا اغتسلوا من الثانية لم تشعث أشعارهم أبداً ، وفي القرآن الكريم مصداق هذا قال تعالى : من سورة الإنسان :

﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ ^(٣)

وفي الحديث يقول الرسول ﷺ : « وإذا شجرة على باب الجنة ينبع من أصلها عيان ، فإذا شربوا من إحداها جرت في وجوههم نضرة

(١) سلم في كتاب الزهد (٨ / ٢١٥) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي في حديث طويل في وصف الجنة . وصحح المنذري وقفه على علي رضي الله عنه في الترغيب والترهيب (٤ / ٤٩٤) . ولكنه في حكم المرفوع لأن مثله مما لا يقال بالرأي

(٣) الآية (٢١) .

التعظيم ، وإذا توضئوا مِنْ الأخرى لَمْ تَسْمَعْ أَشعارهم أبداً ،^(١) .

استقبال أهل الجنة

إن دخول الجنة سيكون قطعاً في فترات متتالية ، وقد يبعد ما بين الفترة والأخرى ، إذ صح أن فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل ذوي الحظوظ بخمسمائة عام^(٢) ، وذلك لعدم ما يستلزم وقوفهم طويلاً في ساحة فصل القضاء ، وموقف الحساب بخلاف أهل الحظ والغنى . وفي القرآن الكريم يقول تعالى من سورة الزمر :

﴿وَمِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾^(٣)

وفي الصحيحين من أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم : « أن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر . والذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة لا يولون ، ولا يتفوطون ، ولا يمتخطون ، ولا يتفلون أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوة^(٤) ، أزواجهن الحور العين ، أخلاقهم على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء »^(٥) . إن هذا التفاوت بين أهل الجنة في دخولهم ، وحسن هيتهم وجمال وجوههم عائد إلى تفاوت أعمالهم في الدنيا ، في كمياتها وكيفياتها ،

(١) قال الحافظ المنذري ١ رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي وغيرهما عن عاصم ابن حمرة عن علي موقوفاً عليه بنحوه وهو أصح وأشهر الترغيب والترهيب (٤ / ٤٩٤ - ٤٩٦) :

(٢) أبو داود (٢ / ٢٩٠) .

(٣) الآية (٧٣) .

(٤) العود يتخثر به .

(٥) اللفظ لمسلم (٨ / ١٤٦) واللؤلؤ والمرجان (٣ / ٢٨٩) ، والخاري (٤ / ١٦٠) .

وهو أمر من الوضوح بحيث لا يخفى على ذي لب ، ففي الدنيا تكتسب النفس البشرية حسناتها وجمالها من إيمان صاحبها ، وأعماله الصالحة ، وفي الآخرة يكتسب جمال الذات ، وكمال النعيم من نفس الزكاة الروحية التي كانت لها نتيجة إيمانها ، وصالح أعمالها في الحياة الدنيا .

وتستقبل الملائكة وفود الرحمن عند دخولهم إلى دار السلام ، وأول المستقبلين هو رضوان خازن الجنان ، ثم الملائكة الموكلون بنعيم الجنة وأهله . وفي القرآن الكريم :

﴿وَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾^(١)
وفيه أيضاً :

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾^(٢)
وفيه أيضاً :

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾^(٣)

قصور دار السلام وتفاضلها

نكتفي بوصف قصور دار السلام ، وبيان تفاضلها بما جاء في رسالتي « الجنة دار الأبرار والطريق الموصل إليها » إذ قلت : « من الذي يقوى على وصف قصورهم ، أو يحسن التعبير عن نعيمهم

(١) سورة الأنبياء الآية (١٠٣) .

(٢) سورة الزمر الآية (٧٣) .

(٣) سورة الرعد الأيتان (٢٣ - ٢٤) .

وسرورهم ، والله مكرمهم ، والمنعم عليهم يقول :

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۖ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُوسٌ خُضَرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۖ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُرْجَاءَ ۖ وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ۖ﴾^(٢٢)

وقلت أيضاً : « إن الذي يمكن أن يحدثنا بعض الحديث عن قصور الجنة ، وما حوت من النعيم المقيم هو رجل واحد فقط ذلكم هو النبي الأمي محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ هو الذي تشرفت دار السلام بقدومه عليها ، ورؤيته لها في هذه الحياة الدنيا يقظة مرة ، ومناماً مرات أخرى ، ورؤيا الأنبياء وحي ، فلستمع إليه صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عنها ويقول محدثاً عن آخر رجل يدخل الجنة « فيقول (يا رب) ألحقني بالناس .. فينطلق يرمل في الجنة إذ دنا من الناس رفع له قصر ، من درة ، فيخر ساجداً ، فيقال له : إرفع رأسك . مالك ؟ فيقول : رأيت ربي فيقال له : إرفع رأسك إنما هو منزل من منازلك . ثم يلقي رجلاً فيتهيا للسجود له ، فيقال له : مه فيقول : رأيت أنك ملك من الملائكة ، فيقول له : إنما أنا خازن من خزانك ، وعبد من عبيدك .. فينطلق أمامه حتى يفتح له القصر ، وهو درة مجوفة سقافها ، وأبوابها ، وأغلقها ، ومفاتيحها منها ، تستقبله جوهرة خضراء ، مبطنة ، كل جوهرة تفضي إلى جوهرة على غير لون الأخرى ، في كل جوهرة سرر ، وأزواج ، ووصائف أدنان حوراء عيائ عليها سبعون حلة ، يرى مخ ساقها من وراء حللها ، كبدها مرآته ، وكبدته مرآتها ، إذا عرض عنها إغراضه ازدادت

(١) سورة الإنسان الآيات (٢٠-٢٢) .

في عينيه سبعين ضعفاً ، فيقال له : أشرف ، فيشرف ، فيقال له ملكك مسيرة مائة عام ينفذه بصرك»^(١) .

هذا وأما تفاوت درجات أهل دار السلام ، وتفاضل ما بينهم بحسب كمال إيمانهم ، وكثرة صالح أعمالهم . فلنورد له الحديث الصحيح التالي : إذ فيه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن أهل الجنة يترأءون أهل الغرف من فوقهم كما يترأءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم ، قالوا ، يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ، قال : بلى ، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله ، وصدقوا المرسلين »^(٢) .

وفي القرآن الكريم مصداق هذا في قوله تعالى من سورة الحديد : ﴿سَاقِبُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾^(٣)

نظرة على أرض الجنة

وتحت هذا العنوان قلت في رسالتي المشار إليها آنفاً :

« ما تظن أخى القارىء في أرض الجنة ؟ »

(١) قال الحافظ المنذري : « رواه ابن أبي الدنيا ، والطبراني ، والحاكم هكذا عن ابن مسعود مرفوعاً . . وأخذ طرق الطبراني صحيح واللفظ له وقال الحاكم صحيح الإسناد وهو في سلم بنحوه باختصار عنه الترغيب والترهيب (٤/٥٠٣ - ٥٠٦) .

(٢) عنه . . اللؤلؤ والمرجان (٢/٢٨٨) والبخاري (٤/١٤٥) . ومسلم (٨/١٤٥)

(٣) الآية (٢١) .

هل هي من تراب أبيض أو أحمر؟

وهل حصاؤها من حجارة ملونة جميلة؟

وهل جدران مبانيها من لبن في غاية الحسن والجمال؟

وهل الطين الذي يوضع بين اللبنة لرصنها وإحسانها من مزيج الرمل الأبيض و (الأسمنت) ^(١) الأزرق الناعم؟

إعلم أخي القارئ أنه لا يستطيع أحد أن يجيبك عن هذه التساؤلات كلها إلا أحد شاهدها ، وعاش ساعة فيها كرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وها هو ذا يسأله أحد أصحابه عنها فيقول له : «إنها لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة ، وملاطها» ^(٢) المسك الأذفر ، وحصاؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا يأس ، ويخلد لا يموت ، ولا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم» ^(٣).

جنة عدن بين الجنان

لجنة عدن بين سائر الجنات ميزة خاصة لم تكن لغيرها ، ألا وهي أن إيجادها تم بخلق الله تعالى المباشر لها ، إذ ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن الله تعالى قد خلق جنة عدن بيده فقد أخرج ابن أبي الدنيا والطبراني عنه صلى الله عليه وسلم قوله : «خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء ، ولبنة من ياقوتة حمراء ، ولبنة

(١) الاسمنت كلمة معربة لعل عربها لحيروا الحصص أو نوع مهمتها يخالفهما في القوة والشكل لا في المعاني والذات .

(٢) الملاط : الطين .

(٣) رواه الترمذي (حج/٢) والدارمي (رقائق / ١٠٠) ، وأحمد (١ / ٣٠٥ ، ٤٤٥) ، وقال عدد القادر الأرباطوط في تعليقه على جامع الأصول (١٠ / ٤٩٧) وابن حبان في صحيحه ، والطبراني في الأوسط .

من زبرجدة خضراء ، وملاطها المسك ، وحشيشها الزعفران ،
حصاؤها اللؤلؤ ، ثرابها العنبر ، ثم قال لها انطقي ، قالت : قد أفلح
المؤمنون ... (١) ..

تبيته !

نحن نعلم أن الله تعالى هو خالق كل شيء ، وليس في الكون
كله علويه وسفليه إلا خالق واحد هو الله رب العالمين ، وإله الأولين
والآخرين ، وليس ثم غيره أبداً .

فعندما نذكر أنه تعالى خلق كذا بيده ، لإخباره تعالى بذلك كما
في قوله :

﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ ﴾ (٢)

أو لإخبار رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك كما في الحديث السابق
الدال على خلق الله تعالى لجنة عدن بيده سبحانه وتعالى فإننا نعني أن
هذا الخلق قد تم على خلاف سنة الله تعالى في خلق الكائنات ، وأن
ما أخبر تعالى عنه بأنه خلقه بيده يكون له مزيد شرف ورفعة بذلك
الخلق الخاص وهو الخلق المباشر .

ومن باب تقريب هذه الحقيقة إلى الأذهان نقول : إنه عندما يأمر
الملك أو ذو السلطان ببناء قصر مثلاً فيبنى ، فإنه يقال بنى الملك
القصر ، وإن لم يباشر البناء بيده ، وذلك لأن البناء قد تم بأمره ،
وبسبب الامكانيات التي وضعها تحت تصرف بانيه ، كما أنه إذا تناول
الملك حجراً ووضع بيده في زاوية من زوايا جدار القصر يقال وضع
الملك حجر الأساس بيده ومعنى ذلك أنه باشر وضعه بيده حقاً وصدقاً

(١) الترغيب والترهيب (٤ / ٥١٣ ، ٥١٤) .

(٢) سورة ص (٧٥) .

وليس من باب المجاز المرسل الذي علاقته السببية في شيء .

ومن هنا قلنا : إن خلق الله تعالى لأدم بيديه هو خلق مباشر ،
وحقيقة لا ينبغي إنكارها .

ومثل خلق آدم خلق جنة عدن ، وكل ما ورد في الكتاب والسنة
أن الله تعالى خلقه بيديه هو من باب الحقيقة ، ولا معنى لذكر المجاز
في ذلك ولا فائدة منه .

الخيام والأسواق في دار السلام

بما أن الجنة فيها - بإخبار الله تعالى - ما تشبهه الأنفس وتلذ
العين ، ولأصحابها فيها كل ما يدعون ويطلبون ، وفيها من النعيم
المقيم العظيم ما لم تره عين ، أو تسمع به أذن ، أو يخطر لبشر على
قلب ، كما جاء ذلك في الصحيحين في قول الله تعالى على لسان نبيه
محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿أَعَدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ
رَأَتْ ، وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ﴾^(١) وفي قوله تعالى
من كتابه العزيز :

﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾^(٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا بِحَاثِرَاتِنَا
وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٧١﴾ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٢﴾ يُطَافُ
عَلَيْهِمْ بِصُحُفٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَافٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ
الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٣﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

(١) رواه مسلم (١٤٣/٨) والبخاري (١٤٣/٤) والترمذي (٢٨٦/٣) .

(٢) سورة الزخرف الآيات (٦٨ - ٧٢) .

وفي قوله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا مَاءً يُشْرَبُ وَلَا تَكُونُ لَنَا حَمَاقٌ وَلَا نَحْمِلُهَا عَلَى كُلِّ نَفْسٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِنَا فَأَنزِلْهُنَّ أَجْنَادًا مِنْ سَمَوَاتِكُمْ خَافِئًا عَلَى عَيْنِ النَّاسِ مَعَهُمْ زُرَّارًا ۚ نَحْنُ أَوْلَىٰ بِالْأَمْرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ۚ﴾ (٣١) زُلَّامٌ غُفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٢﴾ (١)

أقول بما أن الجنة حاوية لكل أوجه النعيم الروحاني والجسماني ، مشتملة على كل ضروب السعادة ، وصنوف النعيم لا يستكر أن يكون فيها خيام ، ولا يستبعد أن يكون فيها أسواق إذ في الخيام متع ، وفي الأسواق سرور وجبور وسنكتفي بعرض هذه الحقيقة ، وتأكيدها بذكر كلمات قليلة جاءت في رسالتي « الجنة دار الأبرار » تحت عنوان حائلي صغير :

في الخيام - حيث قلت : في الجنة خيام قطعاً ، وكيف لا ؟
وخالقها عز وجل يقول :

﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ (٢)

والسؤال هو ما شكل تلك الخيام ؟ ما نوعها ؟ ما هي مادة تكوينها ؟ وما مدى حسنها وجمالها ؟ .

والإجابة الصحيحة عن هذه التساؤلات لا تتلقى إلا من فم النبوة الطاهر برهاناً ساطعاً ، وحقاً قاطعاً ، إذ يقول فداه أبي وأمي : « للمؤمن في »جنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها (في السماء) ستون ميلاً (وعرضها ستون ميلاً) للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن

(١) سورة فصلت الآيات (٣٠ - ٣١) .

(٢) سورة الرحمن الآية (٧٢) .

فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا^(١) وَقُلْتُ وَمِنَ الْخِيَامِ إِلَى السُّوقِ :

سبحان الله؟! وهل في الجنة أسواق؟ وكيف لا يكون ذلك والله

تعالى يقول لعباده من أهل الإيمان والاستقامة :

﴿نَحْنُ أَوْلَىٰ أَوْكُرَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى
أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾^(٢)

إنه ليس من المستغرب أبداً أن تتوق نفس المؤمن في الجنة إلى دخول
سوق من الأسواق وخاصة المؤمنين الذين تعودوا الضرب في الأسواق ،
والأرباب الطائفة ، كعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وأمثاله ممن
كانوا يتعاطون التجارة في صدق وأمانة ، ويربحون أعظم الأرباح - فقد
تتوق نفس أحدهم إلى ذلك وهو في دار السلام فيطلبه ويدعيه فيخلق
الله تعالى لهم أسواقاً يدخلونها إتماماً للأنعام في دار السلام .

وهذا مسلم يخرج لنا حديث السوق في الجنة فيقول : إن أنس

ابن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ
لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلُّ جَمْعَةٍ فَتَهْبُ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْنُو فِي وَجْهِهِمْ وَثِيَابَهُمْ
فِيَزْدَادُونَ حَسَنًا وَجَمَالًا ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِهِمْ وَقَدْ زَادُوا حَسَنًا
وَجَمَالًا ، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُهُمْ : وَاللَّهِ لَقَدْ زَادْتُمْ بَعْدَنَا حَسَنًا
وَجَمَالًا»^(٣) .

(١) رواه مسلم (٨/ ١٤٨ ، ١٤٩) وأما ما بين القوسين من الريادات فهي في مسلم أيضاً في نفس

الموضع ولكنها من أحاديث أخرى ورواه البخاري أيضاً في بدء الحلق باب صفة الجنة (٤/

١٤٣) ، راجع للزُّلُّو والمرجان (٣/ ٢٨٩) .

(٢) سورة فصلت الآية ٣١ :

(٣) مسلم (٨/ ١٤٥) .

أنهار الجنة وأشجارها

تحت هذا العنوان من رسالة « الجنة دار الأبرار » قلت يا أخي القاريء هات يدك نتجول قليلاً بين أنهار الجنة وتحت أشجارها ، ونمتع النفس ساعة قبل يوم الساعة !

هيا بنا إلى ذلك النعيم المقيم ، هيا بنا إلى الأنهار الأربعة التي هي أصل كل أنهار الجنة ، إنها نهر الماء ، ونهر اللبن ، ونهر الخمر . ونهر العسل كما جاء ذلك في قول الله عز وجل من سورة مائدة : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَنًّى وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ (١)

إن من بين هذه الأنهار العظيمة نهر الكوثر ، وما أدراك ما الكوثر ! ؟ .

إن الله سبحانه وتعالى خص به نبينا محمداً ﷺ وأمه ، وهو أعظم أنهار الجنة ، وأحسنها ، جاء الوعد به في كتاب تعالى القرآن الكريم حيث قال :

(١) الآية (١٥) .

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾ ❶ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ❷ ❸

ولنستمع إلى صاحبه صلى الله عليه وسلم يصفه لنا فنمتع سمعنا بذلك ، روى البخاري عنه صلى الله عليه وسلم مرفوعاً قوله : « بينما أنا أسير في الجنة إذ أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هو الكوثر الذي أعطاك ربك . قال ف ضرب الملك بيده فإذا طينه مسك أذفر » ❷ كما روى الترمذي بسند صحيح عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « الكوثر نهر في الجنة ، حافتاه من ذهب ، ومجرأه على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك وماؤه أخلى من العسل وأبيض من الثلج » ❸ قلت : ومن الأنهار إلى الأشجار .

فلنصنع إلى البخاري يروي لنا طرفاً من أخبار الأشجار ، فإنه أصح رواية ، وأدق عبارة في هذا الشأن . قال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، واقروا إن شئتم :

﴿وِظِلٌّ مِّمْدُودٌ ❶ وَمَاءٌ مَّكُوبٌ ❷﴾ وَفِكْهَةٌ كَثِيرَةٌ لَّامَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ ❸ وَفَرُّشٌ مَّرْفُوعَةٌ ❹

ويحدث ابن عباس عن هذا الظل فيقول « الظل الممدود » شجرة

(١) سورة الكوثر الآيتان (٢٠١) .

(٢) البخاري ٨ / ١٤٩ :

(٣) ذكر هذين الحديثين المنفرد في الترهيب (٥١٧ / ٤) راجع الترمذي (٨٤ / ٦) .

(٤) رواه البخاري في (٦ / ١٨٣) ومسلم في (٨ / ١٤٤) واللؤلؤ والمرجان (٣ / ٢٨٧) والآيات

من سورة الواقعة الآيات (٣٠ - ٣٤) وراجع الترمذي (٧ / ٢٠٩) .

في الجنة على ساق قدر ما يسير الراكب المجد في ظلها مائة عام في كل نواحيها ، فيخرج أهل الجنة ، أهل الغرف وغيرهم فيتحدثون في ظلها فيشتهي بعضهم ويذكر لهو الدنيا ، فيرسل الله تعالى ريحاً من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو كان في الدنيا^(١) . ويقول : « نخلُ الجنة جذعُها من زمرّد خضرٍ ، وكربُها ذهبٌ أحمرٌ ، وسعفُها كِسوةٌ لأهل الجنة ، بنها مقطعاتهم وحلّيلهم ، وثمرُها أمثالُ القلال والدلاء أشدُّ بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، وألين من الزبد : ليس فيها عجمٌ »^(٢) .

المطاعم والمشارب في الجنة

لقد ضل قوم من الفلاسفة والنصارى فزعموا أن نعيم الجنة روحاني بحت ، لا شيء فيه من النعم للجسم بالمرّة ، وهذا المعتقد خطأ محض ، وباطل لا شك في بطلانه عند من يعرف عن الله تعالى وعن رسله عليهم السلام .

وهذه حجج عقلية وسمعية نوردها على صحة هذا المعتقد الحيوي الخطير فنقول :

أولاً : إن الأرواح التي يراد لها النعيم لا يتم لها التمتع الحقيقي إلا إذا كانت حالة في أجسام ثلاثمها ، وتستقر فيها ، وتقوم بها ، ولذا فإنه لما أريد إنعام الشهداء وتكريمهم خلق الله لأرواحهم أجساماً خاصة ثلاثمها فتحل فيها ، فتم لها التمتع بما أعد لها من نعيم طيلة حياتها في

(١) رواه الترمذي وحسنه ، الترغيب والترهيب (٤ / ٥٢٠) .

(٢) رواه الحاكم وصححه وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤ / ٥٢٣) ، والحاكم (٢ / ٧٦) إلا أن في الحاكم لفظ « كرايفها » بدل « كربها » وكلاهما بمعنى : أصل السفة الغليظة العريضة .

البرزخ ، فقد أنخبر الرسول صلى الله عليه وسلم : « أَنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي خَوَاصِلِ طَيْرٍ خَضِرٍ تَرعى فِي الْجَنَّةِ ، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلٍ مُعَلَّقَةٍ تَحْتَ الْعَرْشِ »^(١) ومصدق هذا في قوله تعالى :

﴿وَلَا تَحْزَنْ أَلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(٢) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسَبِّحُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٣)

وثانياً : أن القدرة الكافية التي خلقت الإنسان اليوم ورزقه ، وخلقت له ضروباً من النعيم الدنيوي كأطيب المطاعم ، وألذ المشارب ، وأجمل الملابس ، وأحسن المساكن وأفره المراكب ، قادرة على إيجاد ذلك في الملكوت الأعلى وتوفيره بصورة أجل وأكرم .

وثالثاً : تفضيل الحياة الدنيا التي وجدت على أساس الفناء على الآخرة التي وجدت على أساس البقاء ، وتفضيل ما يفنى على ما يبقى مردود عقلاً ، ومن هنا كان من غير المعقول أن يكون النعيم في الحياة الدنيا جثمانياً روحياً ينال الجسم والروح معاً مع أن الدار دار كدر ، وتنغيص ، وفناء ، كل ما فيها وجد على مبدأ الزمان المؤقت ، والأجل المعدود ، ويكون النعيم في الآخرة وهي الحياة الباقية الخالدة روحياً بحثاً لا وجود للأجسام ، ولا علاقة للأرواح بها ، في حين أن الحياة في البرزخ وهو الفترة ما بين موت الإنسان إلى يوم أن يبعث لم تنقطع فيها علاقة الروح بالجسد ، وإن فني وكان تراباً ، إذ سيقى للروح تعلق بالقبر كامل ، فيكون القبر لها أشبه بمحطة اللاسلكي متى أرادت

(١) معنى الحديث مخرج في الحاكم على شرط مسلم وواقعه الذهبي (٢/ ٢٩٧ . ٢٩٨) ، وقد

رواه مسلم بقريب من هذا اللفظ (٦/ ٣٨ ، ٣٩) .

(٢) سورة آل عمران الآيات (١٦٩ ، ١٧٠) .

الاتصال به اتصلت ، ولهذا ورد أن الميت إذا سلم عليه زائره في قبره عرفه ورد عليه السلام^(١) .

هذا وكل ما ذكرنا من هذه الأدلة العقلية على أن النعيم يكون في الآخرة جثمانياً روحياً معاً ليس بشيء إلى جانب الأدلة السمعية الدينية الشرعية التي هي أخبار الله تعالى ، وأخبار رسوله صلى الله عليه وسلم ، إذ لا أعلم بالخلق من الخالق : ولا من الرائي بما رأى وشاهد . فالله تعالى يقول مخبراً عما سينعم به على عباده المسلمين الذين آمنوا وكانوا يتقون :

يَعِبَاءٌ لَّا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٧٦﴾ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٧﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَأْسِيَةٌ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٨﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٩﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٨٠﴾

والرسول صلى الله عليه وسلم يحدث عن نعيم أهل الجنة ، ويصفه كما رآه وعرفه فيقول : « أَهْلُ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ ، وَلَا يَتَفَلَّوْنَ ، وَلَا يَبُولُونَ ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ . قَالُوا : فَمَا بِالْطَّعَامِ ؟ قَالَ : جُفَاءً وَرَشْعٌ كَرَشِحِ الْمِسْكِ ، يَلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ والتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ

(١) ورد هذا في الحديث الذي صححه ابن عبد البر عن النبي ﷺ أنه قال : « مَا مِنْ رَجُلٍ يَمُرُّ بِقَبْرِ الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا فَيَسْلِمُ عَلَيْهِ إِلَّا زَادَ اللَّهُ عَلَيْهِ رُوحَهُ حَتَّى يَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، عَنْ أَصْوَاءِ الْبَيَانِ (٦ / ٤٢٦) .

(٢) سورة الزخرف الآيات (٦٨ - ٧٣) .

لنَفْسٍ»^(١). ويقول : «إِنَّ أَسْفَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَجْمَعِينَ دَرَجَةٌ لِمَنْ يَقُومُ عَلَى رَأْسِهِ عَشْرَةُ آلَافٍ خَادِمٍ ، مع كُلِّ خَادِمٍ صَحْفَتَانِ وَاحِدَةٌ مِنْ ذَهَبٍ وَالْأُخْرَى مِنْ فِضَّةٍ ، فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ لَوْ أَنَّ لَيْسَ فِي الْأُخْرَى مِثْلُهُ ، يَأْكُلُ مِنْ آخِرِهَا مِثْلَ مَا يَأْكُلُ مِنْ أَوَّلِهَا يَجِدُ لآخِرِهَا مِنَ الطَّيِّبِ وَاللَّذَّةِ مِثْلَ مَا يَجِدُ لِأَوَّلِهَا ، ثُمَّ يَكُونُ ذَلِكَ رِيحَ الْمِسْكِ الْأَذْفَرِ ، لَا يُؤْلُونُ ، وَلَا يَنْفُوطُونَ ، وَلَا يَمْتَحُطُونَ»^(٢).

وما ذكرناه لم يعد أن يكون شاهداً فقط ، وإلا فإن هناك عشرات الآيات ، والأحاديث الصحاح تصرح بنعيم أهل الجنة ، وأنه روحاني جسماني ، وأنه ليس مقصوراً على المطاعم والمشارب بل يتعداه إلى لبس الحلل ، والتحلي بالحلي ، والجلوس على الأرائك ، والتمتع بالنساء والطرب ، وركوب الخيل ، والزيارات الكريمة ، واللقاءات الحبية .

وهذه أخبار الله تعالى ، وأخبار رسوله صلى الله عليه وسلم تحدث بذلك فلنستمع إليها وهي تقول : عن الحلبي والحلل .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۖ وَهَدُوءٌ إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾^(٣)

(١) رواه مسلم (٨ / ١٤٧) وفي البخاري معناه (٤ / ١٤٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا والطبراني : قال المنذري رواه ثقات الترغيب والترهيب (٤ / ٥٠٨) .

(٣) سورة الحج الآيتان (٢٣ ، ٢٤) .

وعن الأرائك والأسرة :

تقول :

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۚ﴾ (١١) ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۚ﴾ (١٢)
ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۚ﴾ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۚ﴾ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۚ﴾ (١٥)
مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ۚ﴾ (١)

وتقول :

﴿وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۚ﴾ (١٦) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ
لَا يَرَوْنَ فِيهَا كُتْمًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۚ﴾ (١٧) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلِّلَتْ
قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۚ﴾ (٢)

وعن النساء :

تقول :

﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ۚ﴾ (١٨) ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۚ﴾ (٣)

وتقول : «ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما
بينها ريحاً ، ولأضاءت ما بينها ، ولنصففها على رأسها خير من الدنيا
وما فيها» (٤)

وتقول : «لو امرأة من نساء أهل الجنة أشرفت لملأت الأرض ريح مسك ،

(١) سورة الواقعة الآيات (١٠ - ١٦) .

(٢) سورة الإنسان الآيات (١٢ - ١٤) .

(٣) سورة الصافات الآيتان (٤٨ ، ٤٩) .

(٤) البخاري بقريب من هذا اللفظ (٤) / (٢٠ ، ٢١) .

وَلَذَهَبَ ضَوْءُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ^(١) .

وعن الطرب :

تقول : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لِمَجْتَمَعاً لِلْحَوَرِ الْعَيْنِ يَرَفَعْنَ بِأَصْوَاتٍ لَمْ تَسْمَعْ
الْخَلَائِقُ بِمِثْلِهَا يَقُلْنَ :

نَحْنُ الْخَالِدَاتُ ، فَلَا نَبِيدُ .

وَنَحْنُ النَّاعِمَاتُ ، فَلَا نَبَأُ .

وَنَحْنُ الرَّاغِبَاتُ ، فَلَا نَسْخَطُ .

طُوْنِي لِمَنْ كَانَ لَنَا وَكُنَّا لَهُ^(٢) .

وتقول : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ نَهْراً طَوَّالَ الْجَنَّةِ ، حَافَتَاهُ الْعَذَارَى قِيَامٌ
مُتَقَابِلَاتٌ يُغَنِّينَ بِأَحْسَنِ أَصْوَاتٍ يَسْمَعُهَا الْخَلَائِقُ ، حَتَّى مَا يَرَوْنَ فِي
الْجَنَّةِ مِثْلَهَا » قِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ (رَاوِي هَذَا الْخَبَرِ) : مَا ذَاكَ الْغِنَاءُ ؟ قَالَ : إِنَّ شَاءَ
اللَّهُ : التَّسْبِيحُ ، وَالتَّحْمِيدُ ، وَالتَّقْدِيسُ ، وَالشَّائِءُ عَلَى الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ^(٣) .

وعن الخيل وركوبها :

تقول : « قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَاعِدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كُنْتُ رَجُلًا أُحِبُّ
الْخَيْلَ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَلْ فِي الْجَنَّةِ خَيْلٌ ؟ فَقَالَ : إِنَّ أُدْخِلَكَ
اللَّهُ الْجَنَّةَ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ كَانَ لَكَ فِيهَا فَرَسٌ مِنْ الْيَاقُوتِ لَهُ جَنَاحَانِ

(١) رواه الطبراني والبيهقي وإسناده حسن . الترغيب والترهيب (٤ / ٥٢٣) .

(٢) رواه البيهقي والترمذي ووسمه بالغرابة الترغيب والترهيب (٤ / ٥٣٧) .

(٣) رواه البيهقي موقوفاً الترغيب والترهيب (٤ / ٥٣٨ ، ٥٣٩) .

يطيرُ بِكَ حَيْثُ شِئْتَ^(١). وتقول :

«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَخْرُجُ مِنْ أَعْلَاهَا حُلَلٌ ، وَمِنْ أَسْفَلِهَا خَيْلٌ
مِنْ ذَهَبٍ مُسَرَّجَةٌ مُلَجَمَةٌ مِنْ دُرٍّ وَيَاقُوتٍ لَا تَرُوثُ وَلَا تَبُولُ ، لَهَا
أَجْنَحَةٌ خُطُوبُهَا مَذُ الْبَصْرِ ، فَيَرْكَبُهَا أَهْلُ الْجَنَّةِ ، تَطِيرُ بِهِمْ حَيْثُ شَاءُوا»^(٢).

وعن تزاورهم :

تقول «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ فَيَشْتَاقُ الْإِخْوَانُ بَعْضُهُمْ إِلَى
بَعْضٍ ، فَيَسِيرُ سَرِيرٌ هَذَا إِلَى سَرِيرٍ هَذَا ، وَيَسِيرُ سَرِيرٌ هَذَا إِلَى
سَرِيرٍ هَذَا حَتَّى يَجْتَمِعَا جَمِيعاً ، فَيَتَكَيَّ هَذَا وَيَتَكَيُّ هَذَا فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ
لصَاحِبِهِ : أُنْعِمُ مَتَى غَفَرَ اللَّهُ لَنَا ؟ فَيَقُولُ صَاحِبُهُ : يَوْمَ كَذَا ، فِي الْوَضْعِ
كَذَا ، قَدَعُونَا اللَّهُ تَعَالَى فَقَفَرَ لَنَا»^(٣).

وعن أعظم نعيم روحاني يتم لهم في دار السلام :

تقول : «إِذَا سَكَنَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ أَتَاهُمْ مَلَكٌ فَيَقُولُ لَهُمْ : إِنَّ
اللَّهَ تَعَالَى يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَزُورُوهُ ، فَيَجْتَمِعُونَ ، فَيَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى دَاوُدَ عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَيَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ ، ثُمَّ تَوَضَّعُ مَائِدَةٌ
الْخُلْدِ ، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ : وَمَا مَائِدَةُ الْخُلْدِ ؟ قَالَ : زَاوِيَةٌ مِنْ زَوَايَاهَا
أَوْسَعُ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، فَيُطْعَمُونَ ، ثُمَّ يُكَسَوْنَ . فَيَقُولُونَ :
لَمْ يَبْقَ إِلَّا النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ رَبِّنَا عَزَّ وَجَلَّ فَيَتَجَلَّى لَهُمْ فَيَخِرُونَ سُجُوداً ،
فَيَقَالُ : لَسْتُمْ فِي دَارِ عَمَلٍ إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي دَارِ جَزَاءٍ»^(٤) وتقول : «يَنِمَّا

(١) رواه الطبراني وزواته ثقات . الترغيب والترهيب (٤ / ٥٤٥) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا وسكت عنه المنذري الترغيب والترهيب (٥ / ٥٤٤) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا والبخاري وسكت عنه المنذري ، الترغيب والترهيب . (٤ / ٥٤٣) .

(٤) رواه أبو نعيم وسكت عنه المنذري وسكت المنذري معناه موافقة منه على سلامة الرواية
الترغيب والترهيب (٤ / ٥٤٦) .

أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نَوْرٌ ، فَرَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ ، فَإِذَا الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ . قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعَمِ مَا دَامُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ تَعَالَى حَتَّى يَحْتَجِبَ عَنْهُمْ ، وَتَبَقَّى فِيهِمْ بَرَكَتُهُ وَنُورُهُ^(١) .

وتقول : إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ . فَيَقُولُونَ : - لَيْكَ رَبَّنَا وَسِعْدِيكَ ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ . فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبُّ وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ نُمْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فَيَقُولُ : أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُونَ : يَا رَبُّ وَآيُ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَيَقُولُ أَجَلُ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا^(٢) .

(١) رواه ابن ماجه وغيره وسكت عنه المنذري (٤ / ٥٥٣) .

(٢) البخاري ومسلم واللفظ له (٨ / ١٤٤) ، واللؤلؤ والمرجان (٣ / ٢٨٧) . والبخاري (٨ / ١٤٢) .

دار البوار

إن دار البوار هي نار جهنم مأوى الكافرين^(١)، كما أن دار السلام هي الجنة دار المؤمنين المتقين^(٢)، وقد تقدم لنا أنه من إتمام البحث لعقيدة المؤمن في اليوم الآخر، أو البعث والجزاء أن يخص كل من دار السلام، ودار البوار بعرض خاص يجلي حقيقة كل منهما بما يبعث على الرغبة في الفوز بدار السلام، وعلى الرهبة من دار البوار، فتطلب دار السلام بالإيمان والتقوى، وتطلب النجاة من دار البوار باجتنب الشوك، وترك المعاصي، وقد استعرضنا الجنة دار السلام استعراضاً كافياً - والحمد لله - حتى لكأن القارئ عندما ينهي آخر خبر عنها قد رآها بأمر عينه، وعاش فيها بنفسه وبدنه، وها نحن نستعرض دار البوار - أعاذنا الله منها، زحزحنا عنها لننجو من عذابها، ونفوز بالجنة ونعيمها فنقول: إن الحديث عن دار البوار ليس كالحديث عن دار الأبرار، فإذا حسن الأطناب في الحديث هناك فإنه يحسن الاقتضاب في الحديث هنا، إذ النفس تنبسط عند سماع النعيم، وترتاح له، وتلذذ، وتنقبض عند سماع الشقاء، وترتاح له، وترهبه. ولذا فسنسرع في العرض لدار البوار، ونوجز فيه ما أمكن الإيجاز على خلاف استعراضنا لدار السلام، وما فيها من نعيم مقيم، وهذا هو العرض

(١) يقول الله تعالى: «الم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار، جهنم يصلونها ویش القرار» سورة إبراهيم الآيتان (٢٨، ٢٩).
(٢) قال عز وجل: «والله يدعو إلى دار السلام...» سورة يونس الآية (٢٥). وقال عز من قائل: «لهم دار السلام عند ربهم...» سورة الأنعام الآية (١٢٧).

مخبيء جهنم للناس في الموقف

وها هي ذي جهنم قد جيء بها ، وبرزت للناس في عرصات القيامة قال تعالى :

﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ يَوْمِئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ ^(١)

وقال : ﴿وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ ^(٢)

إن الانقلاب الكوني الذي يتم ، وتبدل فيه الأرض غير الأرض ، والسموات غير السموات ، ويبرز للناس فيه الله الواحد القهار . كما قال تعالى من سورة إبراهيم عليه السلام :

﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ^(٣)

يفاجأ فيه الناس من أهل الموقف بظاهرة غريبة وهي بروز جهنم لهم ، ورؤيتهم لها ، حيث يجاء بها تُجر بالآزمة كما تجر القاطرة ، ولها تغيط وزفير كما قال الله تعالى :

﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ يَوْمِئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴿٢٢﴾ يَقُولُ يَلْبِئْتَنِي قَدَمْتُ لِحَيَاتِي﴾ ^(٤)

(٢) سورة الشعراء الآية (٩١) .

(١) سورة انفجر الآية (٢٣)

(٣) الآية (٤٨) .

(٤) سورة انفجر الآيتان (٢٣ - ٢٤) .

، وبقوله تعالى :

﴿وَبَرَزَتْ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ إِنْ مَأْكُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصَرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُفُّوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَتَجْعَلُونَ ﴿٩٥﴾﴾^(١)

وقوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح « يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ ، سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُونَهَا »^(٢) .

(١) سورة الشعراء الآيتان (٩١-٩٥) .

(٢) رواه مسلم (٨ / ١٤٩) ورواه الترمذي كتاب صفة جهنم (١) .

أبواب جهنم

إن دار البوار وهي عبارة عن عالم الشقاء ذات دركات ، دركة تحت الأخرى إلى نهايتها ، وهي سبع تتفاوت في شدة عذابها ، أخفها عذاباً أعلاها ، وأشدّها أسفلها ، ولكل دركة اسمها الخاص بها ، وبابها الخاص كما قال تعالى :

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿١٤﴾﴾

وكما قال تعالى :

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴿٢١﴾﴾

وقد وردت أسماء دركات دار البوار في القرآن الكريم ، غير أنها وردت مفرقة في عدة سور ، ومذكورة في عشرات الآيات بحسب سياق الحديث عنها ، وقد يكون ترتيبها كالتالي : نار جهنم ، نظى ، الحطمة ، السعير ، سقر ، الجحيم ، والهاوية . هذه هي السبع الدركات ، اللهم أجرنّا منها ، واصرف عنا عذابها

﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿١٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسَقَّرًا وَمُقَامًا ﴿١٦﴾﴾

(١) سورة الحجر الآيتان (٤٣ ، ٤٤) .

(٢) سورة النساء الآية (١٤٥) .

(٣) سورة الفرقان الآيتان (٦٥ ، ٦٦) .

كيف يدخلونها ؟

إنه يؤثني بأهل النار يساقون إليها أفواجا متتابعة فوجاً بعد آخر وزمراً متداركة زمرة بعد أخرى ، وقد برزت لهم كما قال تعالى :

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ﴾^(١)

وما إن تراه من مكان بعيد حتى سمعوا لها تغيظها وزفيرها ، كما قال تعالى :

﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ يَّعِيدُ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ۚ﴾^(٢)

ثم يخرج منها عتق فيلتهم من شاء الله أن يلتئمهم من أهل الموقف من الجبارين والمشركين ، فقد جاء هذا واضحاً في رواية الترمذي إذ يقول صلى الله عليه وسلم : « يخرج عتق من النار يوم القيامة له عيان تبصران ، وأذنان تسمعان ، ولسان ينطق ، يقول : إني وكلت بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر ، وبالمصورين ، وتساقت تلك الزمر إلى جهنم حتى إذا وصلوها وجدوا أبوابها مغلقة ، فتفتح لهم ، ويدفعون إليها دفعاً عنيفاً كما قال تعالى :

﴿يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفِجْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصِرُوا سَوَاءً عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ﴾^(٣)

ثم يلقون منها في أماكن صيقة وهم مقيدون في الأصفاة ، مكبلون بالسلاسل

(١) سورة الزمر الآية (٧١) .

(٢) سورة الفرقان الآية (١٢) .

(٣) سورة الطور الآيات (١٣ - ١٦) .

والأغلال كما قال تعالى :

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾^(١)

وكما قال تعالى :

﴿وَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾^(٢) سَرَابِلُهُمْ مِنْ قِطْرَانِ النَّارِ^(٣)

هذا طرف من بعض أحوال أهل النار عند دخولهم لها ، ذكرناه بياناً لجانب من جوانب الحديث عن دار البوار ، وسواصل العرض والحديث في اقتضاب وإيجاز وفاء بما وعدنا والله المستعان .

عذابهم فيها وتلاومهم

وما أن تستقر تلك الجماعات الهالكة ، والزمر الخاسرة في حينهم بعد أن ألقوا فيها مهانين ، حقيرين ، ذليلين حتى يتزل بهم عذاب نفساني أليم ، مهين ، ذلك هو عذاب التوبيخ ، وانتقير ، والتأنيب الذي يتلقونه من ملائكة العذاب الموكلين بهم مثل قولهم : ﴿الرَّيَاتِكُمْ نَذِيرٌ﴾^(٤)

﴿الرَّيَاتِكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ﴾^(٥) ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾^(٦)

(١) سورة الفرقان الآية (١٣) .

(٢) سورة إبراهيم الآيات (٤٩ ، ٥٠) .

(٣) سورة الملوك الآية (٨) .

(٤) سورة الزمر الآية (٧١) .

(٥) سورة الطور الآية (١٤) .

﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا إِمَّا نُجْزُونَ مَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ﴾^(١) ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾^(٢)

كل هذا التوبيخ والتفريع والتأنيب جاء بيانه في كتاب الله عز وجل ، وما
ذكرناه قليل من كثير .

وأما تلاومهم فحدث ولا حرج ، وبكفيينا أن نصفي إلى بعض
الآيات القرآنية التي سجلت تلاومهم بأمانة وصدق فلنسمع خاشعين إلى
قول الله تعالى وهو يخبر عنهم فيقول :

﴿كَمَا دَخَلْتَ أُمَّهُ لَعَنْتَ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِهِمْ
أُولَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَعَاتِبِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ
ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأُخْرِهِمْ فَا كَانَ لَكُمْ
عَلَيْنَا مِنْ فَضْلِ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾^(٤)

ويقول :

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ
الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ
قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى
بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾^(٥) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ آلَيْلٍ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ

(١) سورة الطور الآية (١٦) .

(٢) سورة النبا الآية (٣٠) .

(٣) سورة الأعراف الآيتان (٣٨ ، ٣٩) .

وَنَجْعَلْ لَهُ عَذَابًا وَاسْرًا أَلَدًا ۖ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ
فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣١﴾

ويقول :

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ
الْيَمِينِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣٣﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ
مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ۖ حَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰهِقُونَ
فَأَعْوَيْنَكُمْ ۖ إِنَّا كُنَّا غَالِينَ ﴿٣٤﴾ فَأِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ
مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾

ويقول :

﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَعَٰبٍ ﴿٣٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَنَسُوا الْحِمَادَ
هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ ﴿٣٦﴾ وَءَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِ ۖ أَزْوَاجُ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا
فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۖ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٣٨﴾ قَالُوا بَلْ
أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَنَسُوا الْقَرَارَ ﴿٣٩﴾ قَالُوا رَبَّنَا
مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٤٠﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى
رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٤١﴾ اتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ
الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٤٣﴾﴾

(١) سورة سبا الآيات (٣١ - ٣٣) .

(٢) سورة الصافات الآيات (٢٧ - ٣٣) .

(٣) سورة ص (٥٥ / ٦٤) .

خطبة إبليس في أهل النار

ومن أغرب ما يعرف عن أهل النار من أحوال في غاية العجب أن يخطب فيهم إبليس خطبة من أبلغ الخطب ، وأفصحها ، وأشدّها أثراً ، ووقعاً في نفوس سامعيها أقماهم الله وإياه سوء الخاطب والمخطوب . فقد يُنصب لإبليس منبر من نار فيرقاه فيخطب أهل النار عليه ، فيزيدهم في كربهم ، وطول محزنهم ، وشدة إيلاسهم ، وذلك لما يكسبهم خطابه من الندامة الممضة ، والحسرة القاتلة ، وقد سجل القرآن الكريم هذه الخطبة الإبلسية فلنستمع إليها كما جاءت من سورة إبراهيم عليه السلام

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١)

درجة الحرارة في جهنم

إن حر نار جهنم لشدته قد يصهر كل ما يلقى فيه ، وإن الاستعار والتأجيج في جهنم يزداد باستمرار ، لقوله تعالى :

﴿ مَا أُولَهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ (٩٧) ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنًا أَءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ

(١) الآية (٢٢) .

مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَّارِيبَ فِيهِ ﴿١﴾

ولهذا فلن نستطيع أن نقدر حر نار جهنم بأية نسبة من النسب التي يعرفها الناس اليوم عندما يقيسون حرارة أي جسم حراري ، سواء كان مغلياً ، أو ناراً ملتهبة . بيد أننا إذا أخذنا في اعتبارنا حديث الصحيحين والذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقَدُ بِنَوَادِمِ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ . قَالُوا : إِنْ كَانَتْ لِكَافِيَةِ يَا رَسُولَ اللَّهِ : فَإِنَّهَا فَضِلَتْ عَلَيْنَا بِسَعَةِ وَتَيْنِ جُزْءاً كُلُّهَا بِثُلِّ حَرِّهَا » (٢) . وإذا عرفنا درجة حرارة النار اليوم وضربناها في النسب المذكورة في الحديث أمكننا حينئذ أن نعرف درجة حرارة نار جهنم على وجه التقريب والمقايسة فقط .

لون نار جهنم

إننا نعرف أن : النار - جسم حراري ملتهب مضيء ، كما نشاهده عندما نوقد أي نار ، ونضرمها لحاجتنا إليها ، ولكن نار جهنم ليست معلومة عندنا ، ولا يمكننا أن نعرف أي شيء عنها ، إلا من طريق الوحي فقط ، فلو سألنا عن لونها ؛ لما أمكننا أن نجيب بشيء مقنع مالم يكن لدينا وحي فنجيب به . غير أن مالكاً رحمه الله تعالى قد روى لنا في موطئه حديثاً شريفاً ، صحيحاً أمكننا به أن نعرف لون نار جهنم ، وأنه أسود ، أشد سواداً من القار لقوله صلى الله عليه وسلم : في رواية مالك المشار إليها آنفاً : « أَتَرَوْنَهَا - نَارُ جَهَنَّمَ - حُمْرَاءُ كَنَارِكُمْ هَذِهِ ؟ لَيْسَ أَسْوَدُ مِنَ الْقَارِ » (٣) ويروي لنا الترمذي في جامعه عن أبي

(١) سورة الإسراء الآيات (٩٧ - ٩٩) .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم (٨ / ١٤٩ ؛ ١٥٠) واللؤلؤ والمرجان (٢ / ١١٠) والبخاري (٤ /

١٤٧) ، والموطأ (٣ / ١٥٥ - ١٥٦) .

(٣) القار : الزيت المعروف . راجع الموطأ (٣ / ١٥٦) .

هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أُوقِدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ »^(١) فمن خلال هذا الوحي عرفنا لون نار جهنم . وبلغني وأنا أكتب هذا البحث أن علماء الكون اليوم قد أقرّوا هذه الحقيقة للون النار حسب مشاهداتهم لشمس الهائلة في هذا الفضاء الكبير والذي هو دون السماء الدنيا .

عمق جهنم وبعد غورها

إن جهنم وهي إحدى دركات دار البوار ليس من الممكن بغير الوحي الإلهي أن نعرف مدى عمقها ، ولا بعد غورها بحال من الأحوال ، لأنها لا تقاس بقرن من أفران الدنيا اليوم مهما كان عظيماً ، وحتى في عصر أفران الذرة والهيدروجين ، وذلك لاختلاف ما بين الدنيا والآخرة ، وبعد ما بين طبيعتهما ، وللفرق الهائل الكبير بين صنع الخالق عز وجل وصنع المخلوق الضعيف .

ولكي نعرف على وجه التقريب عمق جهنم ، وبعد غورها نورد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ الصَّخْرَةَ تُلْقَى مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ فَتَهْوِي سَبْعِينَ عَاماً وَمَا تُفْضِي إِلَى قَرَارِهَا »^(٢) . وقوله صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم من رواية أبي هريرة : قال : « كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً^(٣) . فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : تَدْرُونَ مَا

(١) الترمذي (صفة جهنم / الباب الثامن) وابن ماجه (الزهد / الباب الثامن والثلاثين) وقال الترمذي فيه : « حديث أبي هريرة في هذا موقف أصح ، وذكره عنه المتذري في الترهيب والترغيب (١ / ٤٦٤) قلت : ولكن هذا الكلام مما لا مجال للرأي فيه فهو في حكم المرفوع .
(٢) رواه الترمذي (جهنم / ٢) وأحمد (٤ / ١٧٤) .
(٣) صوت سقوط الحجر .

هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا»^(١). ومما يؤثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول في خطبه: «أَكْثَرُوا ذِكْرَ النَّارِ، فَإِنَّ حَرَّهَا شَدِيدٌ، وَإِنَّ قَعْرَهَا بَعِيدٌ، وَإِنَّ مَقَامُهَا حديد»^(٢).

أودية جهنم

إن دار البوار لعالم كبير، لا يعرف له مدى ولا منتهى، غير أننا لو أردنا أن نستشف منه وسعه وكبره لأمكنا ذلك من خلال ما صح عن النبي ﷺ «من أن ناب الكافر في جهنم يكون كجبل أحد الذي يزيد طوله عن خمسة أميال، وارتفاعه عن ميل كامل»^(٣).

إن عالم الشقاء: دار البوار لا شك أنه مكون من أودية، وجبال. لورود الوحي بذلك، ففي التزليل الكريم وردت ألفاظ مقرونة بما يدل على أنها ألوان من العذاب، وفسرها في الجملة كثير من السلف بأنها أودية في جهنم، ومن ذلك: الغي في قوله تعالى: ﴿تَخْلَفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾^(٤).

والأثام في قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾^(٥).

(١) مسلم (٨/ ١٥٠).

(٢) رواه الترمذي في صفة جهنم، الباب الثاني.

(٣) رواه مسلم بلفظ «ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد، وغلط جلده مسيرة ثلاث» (٥/ ١٥٣).

(٤) ١٥٣، ١٥٤.

(٥) سورة الفرقان الآية (٦٨).

(٤) سورة مريم الآية (٥٩).

والويل في قوله تعالى :

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾^(١) ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ﴾^(٢)

كما قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم : « تفسير الويل بواد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره »^(٣) .

سلاسل جهنم وأغلالها

إن من لوازم العذاب الشديد عادة السلاسل والأغلال ، والكبول والأنكال^(٤) حتى إنه قد لا يتصور عذاب أليم لا يُغل فيه صاحبه ولا يكبل ، أو لا يوضع في سلسلة .

ومن هنا كان في جهنم السلاسل والأغلال ، والكبول والأنكال ، وقد جاء ذلك وبيانه في كتاب الله عز وجل مفرقاً في عدة سور منه كقوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِّلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾^(٥)

وقوله :

﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۖ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾^(٦)

وقوله :

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذَا الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾^(٧)

(١) سورة المطففين الآية (١) .

(٢) سورة إبراهيم الآية (٢) .

(٣) رواه الترمذي (تفسير سورة الانبياء) وأحمد (٣/ ٤٧٥) والحاكم وصححه (٤/ ٥٩٦) .

(٤) الكبول جمع كبل القيد الشديد ، وكذا النكل الذي جمعه انكال .

(٥) سورة الإنسان الآية (٤) .

(٦) سورة غافر الآيات (٧٠-٧٢) .

(٧) سورة المزمل الآيات (١٢ ، ١٣) .

وقوله : -

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿ ٣١ ﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ
ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿ ٣٢ ﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿ ٣٣ ﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَى
طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿ ٣٤ ﴾ (١)

وقد روي بأسانيد جياد عن كثير من السلف أن هذه السلسلة تدخل في
فم الكافر ، وتخرج من دبره ، فينظم فيها كما تنظم السمسة في
الخيط ، والخرزة في السلك .

الحيات والعقارب في جهنم

إذا كانت جهنم - أجازنا الله تعالى منها - هي دار العذاب ، وعالم
الشقاء ، كان العذاب أنواعاً متنوعة ، وصنوفاً مصنفة حتى في عالمنا
الأرضي هذا ، وحياتنا الدنيا هذه ، فما بالنا بعالم الشقاء ، ودار
البوار ، إن فيها من صنوف العذاب ، وضروب الشقاء ما لم تره عين ،
ولم تسمعه أذن ، ومن هنا فلا يستغرب أبداً وجود حيات ناهشة ، ولا
عقارب لاذعة مميتة في جهنم ، يعذب بنهشها ولسعها أهل دار
العذاب ، وكيف ، وقد فسر الخبر ابن عباس رضي الله عنهما ، وقوله
تعالى :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ
بِمَا كَانُوا يَفْسِدُونَ ﴾ (٢)

فسر زيادة العذاب بأنها عقارب تلسعهم العقرب كالبعلة الموكفة (٣).

(١) سورة الحاقة الآيات (٣٠ - ٣٤) راجع ابن جرير الطبري في تفسيره (١١ / ١٣) .

(٢) سورة النحل الآية (٨٨) .

(٣) الموكفة : الضخمة الغزيرة اللبن ، راجع ابن جرير في تفسير سورة النحل (٦ / ١٦٠) .

ولا يبعد أن يكون هذا التفسير من ابن عباس مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم لا سيما وقد روى الحاكم وضححه عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله «إِنَّ فِي النَّارِ حَيَاتٌ كَأَمْثَالِ أَعْنَاقِ الْبُخْتِ» (١) تَلْسَعُ إِحْدَاهُنَّ اللَّسْعَةَ فَيَجِدُ حَرَّهَا سَبْعِينَ خَرِيفاً ، وَإِنَّ فِي النَّارِ عَقَارِبَ كَأَمْثَالِ الْبِغَالِ الْموَكَّفَةِ تَلْسَعُ إِحْدَاهُنَّ اللَّسْعَةَ فَيَجِدُ حَمَوَتَهَا (٢) أَرْبَعِينَ سَنَةً (٣) .

(١) البخت : الإبل الخراسانية .

(٢) الحموة : سورة وشدة الألم .

(٣) الحاكم وقال فيه صحيح الاسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي (٤ / ٥٩٣) .

طعام أهل النار

هل لأهل النار من طعام ؟ وهل حياتهم تمكنهم من أن يأكلوا أو يشربوا ؟

نعم ، إن لأهل النار مطاعم كثيرة ومشارب ، إذ الطعام والشراب من لوازم الحياة ، وأهل النار أحياء فيها لا يموتون : إذ لو ماتوا لاستراحوا من العناء والعذاب ، ولكنهم لا يموتون كما قال تعالى : ﴿كَلَّمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾^(١) وقد يسألون الموت بالفعل ، ويطلبونه ولكن لا يُستجاب لهم . جاء طلبهم الموت في القرآن في قوله تعالى :

﴿وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ﴾^(٢) وقد أخبر تعالى عن عدم موتهم بقوله :

﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾^(٣)

كما أخبر تعالى أن من يصلى النار الكبرى لا يموت فيها ولا يحيا جاء ذلك في قوله من سورة الأعلى :

(١) سورة النساء الآية (٥٦) .

(٢) سورة الزخرف الآية (٧٧) .

(٣) سورة فاطر الآية (٣٦) .

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٣﴾﴾^(١)

بعض أنواع طعامهم :
١ - الزقوم :

هو ثمر يخرج من شجرة تنبت في أصل الجحيم ، مذاقه مر شديد المرارة ، يغص في الحلق فلا يسوغ إلا بالماء الحميم ، ومن خواصه أنه يغلي في البطن غليان الماء فهو شبه بالجبر ، الذي إن صب عليه الماء فار وغلا ، قال تعالى في بيانه :
﴿أَذْكَاءٌ خَيْرٌ تَزُلَا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿١٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿١٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿١٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَكُونُ مِنْهَا مَقَالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿١٧﴾﴾

وقال :

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿١٢﴾ طَعَامُ الْأُنِمْ ﴿١٣﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿١٤﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿١٥﴾﴾

وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى من سورة آل عمران :
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

(١) الآيات (١١ - ١٣) .

(٢) سورة الصافات الآيات (٦٢ - ٦٧) .

(٣) سورة الدخان الآيات (٤٣ - ٤٦) : والمهل : الزيت العكر أو الرصاص أو الفضة إذا اذيت .

وقال وَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنْ الرِّقْمِ قُطِرَتْ فِي الدُّنْيَا لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ ، فَكَيْفَ يُمْنُ يَكُونُ ضَعْفُهُمْ ؟ (١) .

٢ - الغسلين :

وهو ما تجمع من عصارة أهل النار من قيح ، وصديد ، وعرق ، وما يخرج من فروج الزناة ، وما يسيل من لعاب شارب الخمر ، والمغتابين ، والكذابين ، وقتلي الباطل ، وشاهدي الزور .

ورد ذكر الغسلين في سورة الحقة في قوله تعالى :

﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ۖ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۚ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ (٢)

والمراد من الخاطئين الذين كسبوا نسيئات فأخطت بهم خطاياهم فدخلوا النار بذلك . قال تعالى من سورة البقرة :

﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٣)

٣ - الضريع :

وهو شوك مر متناه في المرارة ، يشب في الحلق ، يسبغ الأكل بالحميم ، فيسبب له إسهالاً فظيماً ، فذا هو لا يضمن آكله ، ولا يغنيه من جوع ، كما قال تعالى من سورة الغاشية :

﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۚ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ (٤)

(١) رواه الترمذي وصححه (صفة جهنم / ٤) وابن ماجه (زهد / ٣٨) وأحمد (٣٠١/١) ، (٣٣٨) .

(٢) الآية (٨١) .

(٣) الآيات (٣٥ - ٣٧) .

(٤) الأيتان (٦ ، ٧) .

بعض انواع مشاربهم :

الشراب لازم لكل ذي كبد رطبة ، وأهل النار ذوو أكباد ، فلا بد لهم من ماء يشربون ، كما لا بد لهم من طعام يأكلون ، إذ الأكل والشرب ضروريان لبقاء الحياة ، واستمرار نمائها ، وقد قدر لأهل النار البقاء فيها ، فلذا هم يأكلون ويشربون ولم يكن الأكل والشرب ليدفع عنهم غائلة الجوع والعطش ولكن ليزيد في محتتهم وطول عذابهم ، وقد سبق بيان بعض مآكلهم ، وهذا بيان بعض مشاربهم .

١ - الحميم :

وهو ماء حار يجري من عين آنية^(١)، ومن خواصه أنه يصهر به ما في بطونهم ، ويقطع أمعاءهم قال الله تعالى :

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۚ عَامِلَةٌ تَأْسِبُ ۚ ۝ ٢ ۚ تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝ ١ ﴾
تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آٰنِيَةٍ ﴿ ٢ ﴾

وقال تعالى :

﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ ۝ ٣ ﴾

وقال تعالى :

﴿ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۝ ١٩ ۝ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۝ ٢٠ ۝ وَلَهُمْ مَقْشِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ۝ ٢١ ۝ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝ ٢٢ ۝ ٤ ﴾

(١) آنية : أي درجة حرارة الماء قد انتهت إلى ما لا مزيد عليه أبداً .

(٢) سورة الغاشية الآيات (٢ - ٥) .

(٣) سورة محمد الآية (١٥) .

(٤) سورة الحج (١٩ - ٢٢) .

٢ - ماء الصديد :

وهو ماء كدر ، يحوي كميات من الصديد ، يُغص به شاربهُ حتى لا يكاد يسيغه ، يعاني شاربهُ منه آلاماً لا يعلم مداها إلا الله تعالى :
قال تعالى من سورة إبراهيم :

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيَسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ يُجْرَعُهُ وَلَا يَكَادُ يَسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٦﴾﴾ (١)

٣ - ماء المهل :

وهو ماء تخين حار حتى تكأنه النحاس المذاب بحيث إذا شابه أحدهم من فمه ليشربه ، شوت حرارته جلدة وجهه . قال تعالى فيه :
﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢١﴾﴾ (٢)

٤ - ماء نهر الغوطة :

وهو ماء متجمع مما يسيل من فروج الزواني من النساء فقد روى أحمد بسند صحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عنه فقال :
« نَهْرٌ يَجْرِي مِنْ فُرُوجِ الْمُؤْمِنَاتِ يُؤْذِي أَهْلَ النَّارِ رِيحُ فُرُوجِهِمْ » (٣) .
هذا ونهني الكلام على مطاعم أهل النار ومشاربهم بحديث تفصيلي

(١) الآيات (١٥ - ١٧) .

(٢) سورة الكهف الآية (٢٩) .

(٣) أول هذا الحديث : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر ، وقاطع الرحم ومصدق بالسحر ، ومن مات مدمن الخمر سقاها الله حل وعلا من نهر الغوطة ، قيل : وما نهر الغوطة قال : نهر . . الخ ، أحمد (٤/٣٩٩) .

رواه الترمذي موقوفاً عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، حيث قد استمرضت فيه أحوال أهل النار بصورة وافية عجيبة يقول : « يُلْقَى عَلَى أَهْلِ النَّارِ الْجُوعُ ، فَيَعْدِلُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ ، فَيَسْتَغِيثُوا فَيُعَاثُونَ بِطَعَامٍ مِنْ ضَرِيعٍ لَا يَسْمُنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ، فَيَسْتَغِيثُونَ فَيُعَاثُونَ بِطَعَامٍ ذِي غُصَّةٍ ، فَيَتَذَكَّرُونَ أَنَّ هُمْ يُجِيرُونَ الْغَصَصَ فِي الدُّنْيَا بِالشَّرَابِ ، فَيَسْتَغِيثُونَ بِالشَّرَابِ . فَيُدْفَعُ إِلَيْهِمْ بَكَلَالِيٍّ مِنَ الْحَدِيدِ ، فَإِذَا دَنَتْ مِنْ وُجُوهِهِمْ شَوْتُ وَجُوهِهِمْ ، فَإِذَا دَخَلَتْ بِطُونُهُمْ قَطَعَتْ مَا فِي بَطُونِهِمْ فَيَقُولُونَ : ادْعُوا خَزَنَةَ جَهَنَّمَ ، فَيَقُولُونَ : « أَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رَسُولُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ؟ قَالُوا : بَلَى قَالُوا : فَادْعُوا ، وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ » قَالَ : فَيَقُولُونَ : ادْعُوا مَالِكاً ، فَيَقُولُونَ : « يَا مَالِكُ لَبِضْ عَلَيْنَا رَبِّكَ ! قَالَ : إِنَّكُمْ مَكْثَرُونَ » !! قَالَ : الْأَعْمَشُ : بُشْتُ أَنْ بَيْنَ دَعَائِهِمْ وَبَيْنَ إجابة مَالِكُ إِيَّا هُمْ أَلْفَ عَامٍ قَالَ فَيَقُولُونَ : ادْعُوا رَبَّكُمْ فَلَا أَحَدٌ خَيْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ . فَيَقُولُونَ : « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ، رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ » ، قَالَ فَجَبَّيْهِمْ : « اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْلِمُوهُمْ » ، قَالَ : فَعِنْدَ ذَلِكَ يَتَسَوَّاهُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ وَعِنْدَ ذَلِكَ يَأْخُذُونَ فِي الزَّفِيرِ ، وَالْحَسْرَةِ ، وَالرَّوِيلِ »^(١) .

(١) الترمذي صفة جهنم (٥) .

فحش أجسام أهل النار وقبح منظرهم

ماذا عسى أن نقول في فحش أجسام أهل النار ، وقبح مظهرهم ، وهل في الإمكان تصور ذلك في الذهن ، أو تصويره للناس ليدركوه ، ويفهموا حقيقته لولا أن الوحي الإلهي الذي نطق به رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رسم لنا صورة واضحة نستشف من خلالها مدى فحش أجسام أهل النار وقبح منظرهم ؟ ولنستمع إلى كل من الشيخين يروي لنا حديثاً في هذا الشأن يقول البخاري ومسلم في صحيحه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما بين منكبي الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع »^(١) ويقول مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد ، وغلظ جلده مسيرة ثلاث »^(٢) ويقول أحمد بن حنبل في مسنده : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ضرس الكافر مثل أحد ، وفخذه مثل البيضاء »^(٣) ومقعده من النار كما بين قديد ومكة ، وكثافة جسده اثنان وأربعون ذراعاً بذراع الجبار .. »^(٤) ويروي لنا أحمد وغيره بسند لا بأس به : « أن

(١) متفق عليه اللؤلؤ والمرجان (٢٩٣/٣) ، والبخاري (١٤٢/٨) ، ومسلم (١٥٤/٨) .

(٢) مسلم (١٥٣/٨) ، (١٥٤) .

(٣) البيضاء : جبل .

(٤) الجبار : ملك من ملوك اليمن له ذراع معروف المقدار . والحديث في أحمد (٣٣٤/١) .

الكَافِرُ لِيَجْزُرَ لِسَانُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرَاءَهُ قَدْرُ فَرَسَخَيْنِ يَتَوَطَّؤُهُ النَّاسُ» (١).

وما أحسب أن هناك منظراً أقبح من هذا المنظر ، لولا ما أخبر به الله تبارك وتعالى في سورة المؤمنون عن كلوح أهل النار كقوله : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ (٢)

حيث فسر الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : « تتقلص شفة الكافر العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتترخي شفة السفلى حتى تضرب صرته » روى هذا التفسير للكلوح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . أحمد والترمذي والحاكم رحمهم الله تعالى أجمعين (٣).

تفاوت عذاب أهل النار

إن تفاوت العذاب بين أهل النار في دار البوار ثابت مقطوع به ، صرحت بذلك الأحاديث النبوية الصحاح ، وهو تابع لتفاوت أعمالهم ، وما كسبوا من خير وشر في هذه الحياة الدنيا ، كما هو مقتضى العدل الإلهي القاضي بأن تجزى كل نفس بما عملت ، لها ما كسبت من خير وعليها ما اكتسبت من شروها هي ذي الأحاديث المصروفة بتفاوت أهل النار في العذاب بحسب كسبهم الإرادي الاختياري في الحياة الدنيا ، روى مسلم في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أهونُ أهل النار عذاباً أبو طالب وهو متعل بنعلين يغلى منهما دماغه » (٤) وخف عذاب أبي طالب إلى هذه الدرجة من أجل ما قدمه من خدمات

(١) أحمد (٩٢/٢) ورواه الترمذي (صفة جهنم/ ٣) بلفظ « إن الكافر ليسحب لسانه الفرسخ والفرسخين يتوطؤه الناس » .

(٢) سورة المؤمنون الآية (١٠٤) .

(٣) الترمذي (جهنم/ ٥) أحمد (٨٨/٣) .

(٤) مسلم (١٣٥/١) .

للاسلام في شخص نبيه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما روى البخاري قوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَهْلَ النَّارِ عَذَاباً رَجُلٌ عَلَى أَحْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَفْلَى مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَفْلَى الْمَرْجُلُ بِالْقَمَقَمِ »^(١) كما روى مسلم أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم « مِنْهُمْ - من أهل النار - مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَعْبَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى رِجْلَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى حُجْرَتِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى عُنُقِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى تَرْقُوَيْهِ »^(٢) وفي هذا أظهر دليل وأوضحه على تفاوت العذاب بين أهل النار .

بكاء أهل النار وعويلهم

إن العويل والبكاء من لوازم معاناة المخاوف والآلام ، ومقاساة الشدائد والأهوال ، ودار البوار وسكانها لا يرحون يتجرعون الغصص ، ويتذوقون مر العذاب ، جزئهم دائم ، وعذابهم لا يقطع ولا يخف ، ومن هنا لا يستغري منهم البكاء والعويل ، ولا يستنكر عليهم الصباح والنواح ، فهم يتضاعون فيها ، ويصطرخون ، يدعون بالويل ، والحسرة ، والشبور .

وهذا القرآن الكريم يقص علينا بالحق ما سوف به يدعون ويقولون ، قال الله تعالى :

﴿ وَإِذَا الْقَوَا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا مُقْرِنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾^(٣)

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري (٨ / ١٤٤) ، واللؤلؤ والمرجان (١ / ٥٣) ومسلم (١ / ١٣٥) ، (١٣٦) .

(٢) رواه مسلم (٨ / ١٥٠) إلا أن قوله « ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه » . ليس في هذه الرواية إنما هو في أخرى لمسلم أيضاً في نفس الجزء والنسخة .

(٣) سورة الفرقان الآية (١٣) .

وقال تعالى :

﴿وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ
بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرُنِي عَلَى مَا قَرَّطْتُ فِي
جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ (٣)

وقال تعالى :

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلْبِئْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا
يَا بُولْبَلَى لَئِنِّي لَمَّا اتَّخَذْتُ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ
إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ (٤)

وأخيراً فقد روى الحاكم بسند صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « إِنَّ أَهْلَ النَّارِ يَكُونُ حَتَّى لَوْ أُجْرِيَتْ السَّفَنُ فِي دُمُوعِهِمْ لَجَرَتْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَكُونُ الدَّمُ يَعْنِي مَكَانُ الدَّمْعِ » (٥) ، فاللهم قنا عذابك ، يوم تبعث عبادك ، وأجرنا من النار وأدخلنا الجنة مع الأبرار .

(١) سورة فاطر الآية (٣٧) .

(٢) سورة الأنبياء الآية (١٠٠) .

(٣) سورة الزمر الآيتان (٥٥ ، ٥٦) .

(٤) سورة الفرقان الآيات (٢٧ - ٢٩) .

(٥) الترغيب والترهيب (٤٩٣/٤) . والحاكم وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي (٥٩٣/٤) .

البرزخ

تعريف :

البرزخ في عرف اللغة : ما حجز بين شيئين ، أو ما فصل بين ماهيتين ، كاليابس من الأرض يكون بين بحرين ، أو نهرين فاصلاً بينهما ، وقد يكون فاصلاً بين ماهيتين كالحد الفاصل بين ماهية الإنسان ، والحيوان وهو النطق أو الكلام مثلاً ، وقد يكون حتى بين الشك واليقين .

وفي عرف الدين : البرزخ هو : الحياة المجردة عن النعيم أو الشقاء الجسماني التي تستقل فيها الروح عن الجسد ، إذ الحيات ثلاث : الأولى : الحياة الدنيا ، والتي تسعد أو تشقى فيها الأرواح مع الأجساد القائمة بها ، والحالة فيها .

الثانية : حياة البرزخ وهي الحياة التي تنفصل فيها الأرواح عن أجسادها التي كانت تعمرها ، وتستقل فيها الروح عن الجسد بالنعيم أو العذاب ، وسواء وجد لها في العالم العلوي هياكل تناسبها فتحل فيها مؤقتاً ، أو لا يوجد لها ذلك^(١) .

والثالثة : الحياة الآخرة وهي التي تعود فيها الأرواح إلى أجسادها التي كانت لها في الحياة الأولى ، وانفصلت عنها بالموت ، فالحياة الثانية بين الأولى والثالثة هي حياة البرزخ ، إذ هي حد فاصل بين الحياة الدنيا والحياة

(١) في هذه العبارة إشارة إلى ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن حياة الشهداء التي تُبْنى لهم القرآن فقال : « أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة في العرش ، تروح من الجنة حيث شاءت تم تأوي إلى تلك القناديل . . . » مسلم (٣٨/٦ ، ٣٩) .

الآخرة ، وهي عبارة عن عملية تربص وانتظار ، والفرض منها : اجتماع الأرواح ، وتكاملها استعداداً للدخول في الحياة الآخرة ، وذلك أن الحياة الأولى قامت على أساس الإيجاد المتلاحق ، فيخلق الله تعالى الجسد والروح على طريقة معينة في الخلق ، فيعيش ذلك المخلوق عاملاً بما خلق له زمناً معيناً ، ثم تجري له عملية انفصال الروح عن الجسد وهي ما يسمى بالموت فيموت ، ويحفظ له عمله في ديوان خاص ليحجز به في الحياة الآخرة إن كان قد مكن من العمل ببلوغه من حياته زمن التكليف وهو سن الرشد ببلوغه عاقلاً ، وسميماً ، بصيراً ، ولما كان الخلق في الحياة الدنيا يأتي متلاحقاً جيلاً بعد جيل ، هذا يُوجد وذاك يعدم إلى أن ينتهي الخلق الذي قدر الله خلقه وإيجاده في الحياة الدنيا ، ويومها يحدث الانقلاب الكوني العظيم الذي تنتهي فيه حياة ، وتبتدىء فيه أخرى .

أقول : إنه لما كان الخلق يجري على ما ذكر . كان لا بد من وجود حياة وسط بين الحياتين ، تجتمع فيها الأرواح بعد انتهاء مهماتها التي خلقت لها في الحياة الدنيا ، وعندما يتكامل جمعها يعيد الله تعالى لها أجسادها التي كانت لها ، ويبعثها فيها لتلقى جزاءها في الحياة الآخرة من نعيم أو جحيم . فالْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِذَا هِيَ حَيَاةُ عَمَلٍ ، وَالْحَيَاةُ الْآخِرَةُ هِيَ حَيَاةُ جَزَاءٍ ، وَالْحَيَاةُ الْوَسْطَى بَيْنَ الْحَيَاتَيْنِ هِيَ حَيَاةُ الْبَرْزَخِ ، وَهِيَ حَيَاةُ تَرْبِصٍ وَانْتِظَارٍ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ تَقْرِيراً لِمَبْدَءِ أَنْ الْحَيَاةِ الْأُولَى حَيَاةُ عَمَلٍ لَا جَزَاءَ ، وَأَنْ الْحَيَاةِ الْآخِرَةَ حَيَاةُ جَزَاءٍ لَا حَيَاةَ عَمَلٍ :

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾^(١)

(١) الآية (١٨٥) .

والسؤال الآن : برهن في حياة البرزخ - وهي حياة علمنا أنها تستقل فيه
الأرواح عن الأبدان - من نعيم يجري على الروح فتسعد به فترة تربصها ، أ
عذاب تشقى به مدة حبسها وانتظارها ؟؟
والجواب : نعم ، وهذا بيانه مفصلاً .

الله

مراحل جريان النعيم أو العذاب على الروح في البرزخ

المرحلة الأولى عند الموت ونزع الروح :

إن نعيماً أو عذاباً يتم للروح عند نزعه بواسطة ملائكة رحمة أو عذاب
كما جاءت الأخبار الصادقة الصحيحة بذلك ففي القرآن الكريم يقول الله
تعالى من سورة الأنفال :

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ اتَّوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرِيحُونَ وَجْهَهُمْ
وَأَذْبَرُهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ
لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١﴾

ويقول عز وجل من سورة الأنعام :

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ انْطَلَبُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ
أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ
غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْكِبُونَ ﴾ (٢) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى
كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى
مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُذِّبُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ
وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (٣)

(١) الآيات (٥١ ، ٥٠) .

(٢) الآيات (٩٣ ، ٩٤) .

فقله : ﴿ باسطاً أيديهم ﴾ دال على أن الملائكة تعذب المحتضر الكافر أو الفاجر بضربه على وجهه وظهره ، كما هو صريح قوله تعالى في آية الأنفال المتقدمة : ﴿ والملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ هذا العذاب عند الموت ، وحال النزاع هو بالنسبة إلى ذي الروح الخبيث من أهل الكفر والإجرام ، وأما بالنسبة إلى ذي الروح الطيب الطاهر من المؤمنين المتقين فقد قال الرسول ﷺ : « إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا ، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ ، بِيضُ الْوُجُوهِ . كَانَتْ وَجُوهِهُمُ الشَّمْسُ ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ ، وَحَنَوطٌ مِنْ حَنَوطِ الْجَنَّةِ . حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ، وَيَجِيءُ مَلِكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ : أَيَّتَا الرُّوحَ الطَّيِّبَةَ أَخْرِجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ . قَالَ : فَتَخْرُجُ فَتَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السَّقَاءِ . الْحَدِيثُ .

وأما ذو الروح الخبيث من الكافرين والمنافقين فقال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا ، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ سَوْدُ الْوُجُوهِ ، مَعَهُمُ الْمَسْوُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلِكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ : أَيَّتَا النَفْسَ الْخَبِيثَةَ أَخْرِجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبِهِ . فَتَفْرُقُ فِي جَسَدِهِ ، فَيَتَزَعُّهَا كَمَا يَتَزَعُّ السَّفُودُ مِنَ الصَّوْفِ الْمَبْلُولِ . . . الْحَدِيثُ (١) .

(١) رواه أحمد ، قال المنذري رواه محتج بهم في الصحيح ، الترغيب والترهيب (٤/٣٦٦ ، ٣٦٧) ، أبو أحمد (٤/٢٨٨ ، ٣٩٦ ، ١٣٦/٥) والفتح الرباني (٧/٧٤ ، ٧٨) ورواه النسائي بلفظ قريب من هذا (٤/٧ ، ٨) ، ومعنى حنوط : طيب ، وفي السقاء : قم القربة ؛ والمسوح : ثياب خشنة غليظة ، والسفود : الحديد التي يشوى بها اللحم ، والمراد من سيل الروح كسيل القطرة من في السقاء : كناية عن سهولة خروجها من جسد المؤمن . والمقصود بتزعها كما يتزع السفود من الصوف المبلول : كناية عن شدة وصعوبة خروجها من جسد الكافر والفاجر ، والمراد من تفرق روح الكافر في جسده . كناية عن شدة الخوف والفرع وكأنها تريد الهرب عند سماعها ذلك الكلام . والله اعلم .

المرحلة الثانية :

النعيم في القبر أو العذاب :

القبر أول منازل الحياة الثانية وهو العتبة للدار الآخرة ، ويجري نعيم والعذاب على الروح والجسد معاً ، في الساعات الأولى منه ، ثم تستقل الروح بهما دون الجسد . إن نعيم القبر أو عذابه ثابت ، بالدليلين العقلي والقياسي ، والنقلي الشرعي الديني ، فالدليل العقلي هو عدم استحالة ، وما لم يكن مستحيلاً فهو جائز ، إذ ثبوت النعيم أو العذاب للميت في القبر لا ب تصور تناقضاً عقلياً . وثانياً : ما علمه كل إنسان ، وعرفه من نفسه المرات العديدة من رؤية منامية يرى فيها نفسه في نعيم كامل لا يؤسفه إلا أن ينتطح عنه بالاستيقاظ . أو عذاب شديد لا ينهيه عنه إلا استيقاظه ، بل يبقى أثر الرؤيا في نفس المرء فترة من الزمن خيراً كان أو شراً .

وأما الدليل النقلي الديني فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن ملك الموت إذا أخذ روح العبد المؤمن لم تدعها الملائكة في يد ملك الموت طرفة عين حتى يأخذوها ، ويضعوها في ذلك الكفن . وذلك المحنوط (تقدم الحديث عنهما) ويخرج منه كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، ثم قال : « فيصعدون بها فلا يمرون على ملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون : فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التي كان يسمي بها في الدنيا حتى يتهوا بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له ، فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها . حتى يتهوا بها إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل . اكتبوا عبي في عليين (في أعلى درجة في الجنة) ، وأعيدوه إلى الأرض في جسده ، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان : من ربك ؟ فيقول : ربي الله ، فيقولان : ما دينك ؟ فيقول ديني الإسلام ، فيقولان : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول :

هو رسول الله ، وآمنت به ، وصدقته ، فينادي مُنادٍ مِنَ السماء : أن صدق عبدي ، فأفرشوه مِنَ الجنة ، وافتحوا لَهُ باباً في الجنة ، قالَ فيأتيهِ مِنْ رُوحها ورائحتها ، وطيبها ، ويفسحُ لَهُ في قبره مَدَ بصره . قال : ويأتيهِ رجل حسنُ الرُجهِ ، حسن الثياب ، طيب الرُيح . فيقول : أبشُرْ بالذي يسرك ، هذا يومك الذي كنتَ توعِدُ . . فيقول : مَنْ أَنتَ ؟ فوجهك الوجهُ الحسنُ يجيءُ بالخير . فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقول : رب أقم الساعةَ حتى أرجعَ إلى أهلي ومالي « (١) .

وفيه أيضاً أنه قال : إن ملك الموت إذا أخذَ رُوحَ العبدِ الكافرِ لم تدعها الملائكةُ في يده طرفة عينٍ حتى يجعلوها في تلكَ المسوح (٢) ، وتخرجُ مِنْهَا كأنَّ جيفةً وجدتْ على وجه الأرض ، فيصعدونَ بِهَا فلا يمرُّونَ بِهَا على ملاٍ مِنَ الملائكةِ إلا قالوا : ما هذِهِ الرُوحُ الخبيثةُ ؟ فيقولون : فلان ابن فلان بأقبحِ أسمائه التي كان يُسمي بِهَا في الدنيا ، فَيُفتَحُ لَهُ فلا يُفتَحُ لَهُ . وقرأ رسول الله ﷺ :

﴿ لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ (٣)

فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى ، ثُمَّ تُطْرَحُ رُوحُهُ طَرَحاً ، ثُمَّ قَرَأَ ،

﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا نَعَّرَ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَفُّهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ

(١) هذا اللفظ الذي سبق كلاهما حديث واحد وقد تقدم انه أخرجه أبو داود واحمد وأن رواة أحمد

كلهم محتج بهم في الصحيح كما قال الحافظ المنذري . راجع ص (٤١٣) .

(٢) : المسوح جمع مسح بكسر فتكون ثوب من شعر غليظ .

(٣) سورة الأعراف الآية (٤٠) .

الرَّيْحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ ﴿١﴾

فَتَعَادُ رُوحَهُ فِي جَسَدِهِ ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ؟
 فيقول : هاه هاه^(٢) لا أدري ، قَالَ فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا دِينُكَ ؟ فيقول : هاه ، هاه
 لا أدري ، قَالَ فَيَقُولَانِ لَهُ : مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي يَبْعَثُ فِيكُمْ؟ فيقول : هاه هاه
 لا أدري ، فينادي منادٍ من السماء أَنْ كَذَبَ فَاغْرُسُوهُ مِنَ النَّارِ ، وافتحوا له باباً
 إِلَى النَّارِ ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسُومُوبِهَا ، وَيَضِيقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفُ
 أَضْلَاعُهُ ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ ، قَبِيحُ الثِّيَابِ ، مَتْنُ الرِّيحِ ، فيقولُ لَهُ :
 أَبْشُرْ^(٣) بِالَّذِي يَسُوكُ ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تَوَعَدُ ، فيقول . مَنْ أَنْتَ ؟
 فَوَجْهَكَ الْوَجْهُ الْقَبِيحُ يَجِيءُ بِالْشَّرِّ ؟ فيقول . أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ . فيقولُ
 رَبِّ لَا تَقُمْ السَّاعَةَ ، ثُمَّ يَقِضْ لَهُ أَعْمَى ، أَصَمَّ ، أَبْكَمَ فِي يَدِهِ مَرْزَبَةً لَوْ
 ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ كَانَ تَرَاباً ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً فَيَصِيرُ تَرَاباً ، ثُمَّ يَعِيدُهُ اللَّهُ كَمَا
 كَانَ ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَى ، فَيَصِيحُ صِيحَةً يَسْمَعُهُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ قَالَ
 الْبَرَاءُ ، ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ النَّارِ ، وَيَمْهَدُ لَهُ مَنْ فَرَشَ النَّارِ . وَصَحَّ عَنْهُ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أَنَّ اسْمَ أَحَدِ الْمَلَائِكَيْنِ يُقَالُ لَهُ مُنْكَرٌ ، وَأَنَّ اسْمَ الثَّانِي
 يُقَالُ لَهُ نَكِيرٌ ، وَأَنْهُمَا يَشِيرَانِ الْأَرْضَ بِأَنْيَابِهِمَا ، يَلْجِفَانِ^(٤) الْأَرْضَ
 بِشَفَاهُمَا ، أَصَوَاتُهُمَا كَالرَّعْدِ الْقَاصِفِ وَأَبْصَارُهُمَا كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ ،
 فَيَجْلِسَانِهِ . . الْحَدِيثُ^(٥) .

(١) سورة الحج الآية (٣١) .

(٢) كلمة هاه ، هاه هي صوت الضاحك وهي هنا التوجع ، والحيرة لعدم علمه مما يقول .

(٣) كلمة أبشر ، هنا المراد بها التهكم والتوبيخ والتفريع .

(٤) يلحفان : يضربان الأرض بشفاههما . ويحفراها بهما .

(٥) رواه أحمد وقال الحافظ المنذري استنده حسن . الترغيب والترهيب (٤/ ٣٦٩) .

المرحلة الثالثة :

نعيم الروح أو عذابه وهو في برزخ بعيد عن القبر ، متصل به

إنه بعد انتهاء فترة القبر التي تتم فيها فتنة الإنسان ، وبها يكشف أمره ، وتظهر حاله ، فيسعد أو يشقى نتيجة لما يجيب به عن سؤال الملكين ، حيث يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ، ويضل الله الظالمين .

بعد انتهاء الفترة هذه تودع الروح البشرية في مستودع للرحمة أو العذاب في عليين ، أو في سجين ، وتبقى هكذا مرهونة محبوسة في ذلك المستودع إلى يوم يبعثون ، حيث يعيد الله تعالى الأجسام بعد فنائها ويأذن للأرواح أن تدخلها .

يبد أن للأرواح . وسواء كانت في عليين مستودع الأخبار ، أو في سجين مستودع الأشرار اتصالاً مباشراً بالقبر الذي ضم رفاة صاحبها ، وأودعت جثته فيه ، وهو اتصال مباشر شبيه بالاتصال اللاسلكي الذي يتم اليوم بين محطتي الإرسال والاستقبال . وبذلك يتم معرفة الزائر للقبر ، والمسلم على صاحبه^(١) ، بل ذلك الاتصال تجد الروح معه لذة النعيم ، أو ألم الجحيم في القبر ، ولا يستثنى من هذه الحقيقة إلا أرواح الشهداء ، فإن القرآن والسنة قد صرحا بأن أرواح الشهداء تكون بعد الاستشهاد في حواصل طير خضر ترعى في الجنة ، وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش قال تعالى :

(١) روى ابن عبد البر صححه عن ابن عباس مرفوعاً : وما من أحد يعرف أخيه المسلم كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد عليه روحه حتى يرد عليه السلام ، وقد مر في 'المطاعم والمشارب في الجنة' فليرجع إليه .

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ
يَرْزُقُونَ ﴿٢٠﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١)

وقال رسوله صلى الله عليه وسلم « أرواحهم - الشهداء - في جوف طير
خضِر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى
إلى تلك القناديل . فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟
قالوا : أي شيء نشتهي ، ونحن نسرّح من الجنة حيث شئنا ؟ ففعل بهم ذلك
ثلاث مرات ، فلما رأى أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : يا رب نريد أن
ترد أرواحنا في أجسامنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس
لهم حاجة تركوا »^(٢) .

(١) سورة آل عمران الأيتان (١٦٩ ، ١٧٠) .

(٢) مسلم (٣٨ / ٦ ، ٣٩) .

الركن السادس من أركان عقيدة المؤمن الإيمان بالقضاء والقدر

إنه ما تزال العقيدة الإسلامية منذ إحداثها في العالم ذلك الانقلاب العظيم ، وهزتها العنيفة لأركانه المتداعية ، وخلخلتها لتكيان البشري المميز . منذ ذلك الانقلاب الهائل العظيم الذي أضح بصروح الباطل ودك عروش الشر والكفر والفساد ، ما تزال العقيدة الإسلامية ، تُستهدف لتطعن الشديد ، وتعرض للنقد القاسي المرير من خصومها الأعداء ، وأعدائها الأشداء من يهود ونصارى ، ومجوس وملحدين على حد سواء ، علماً منهم أن سر ذلك الانقلاب العظيم الذي وقع في الكون على أيدي أصحاب رسول الله ﷺ ، وأتباعهم من التابعين المؤمنين المحسنين إنما كان في العقيدة الإسلامية ، فلماذا لم يبرح أولئك الخصوم يشككون فيها ، ويطعنون حتى زلزلوها في نفوس أكثر المسلمين ، ويومئها فقط تسنى لهم^(١) ، أن يرفقوا تيارها ، ويقطعوا أسلاك أنوارها ، فتعود الظلمة إلى العالم الإنساني ، وتصاب البشرية بنكسة كبيرة أدت بها إلى مهاوي الردى . وأستصحبها في جحيم لا يطاق .

ولبذكر في هذا وعلى سبيل المثال فقط : أن عقيدة القضاء والقدر وهي أحد أجزاء العقيدة الإسلامية ، وليست كنها أبداً قد تعرضت لطعن خفيف ، وتشكيك سخيف ، بصورة تدعو إلى العجب والاستغراب . إنه لم تكذب تذهب آثار شمس النور المحمدي لتستخلف مع البقية الباقية من أصحاب

(١) تسنى : نهى وتيسر

رسول الله ﷺ حتى ظهر في المسلمين مبدأ نفي القدر ، والقول بالجبر ، ومذهب الاعتزال ، والتشيع ، ونجم^(١) الشر واستطار ، وطرق كل الأقطار ، وتعرضت أمة الإسلام بعقائدها ، وبلادها ، وبكل وجودها إلى أعنف الهزات التي زلزلت كيانه ، تنهاوى تحت ضربات الحائقين ، وطعنات الناقمين .

ولما هوى ذلك النجم الذي أضاء المعمورة ، وغمر الحياة بالهدى والخير قال الذين كفروا - تشفياً من الإسلام ، وإمعاناً في الإجرام - إن ما أصاب المسلمين من الانهيار والسقوط ، بعد التفكك والضعف الكبير ، كان نتيجة بعض العقائد عندهم ، وخصوا بالذكر عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر ، وكان ذلك منهم إفكاً^(٢) مفترى ، وكذباً مقلوباً ، مشوهاً للحقيقة ، إذ الواقع هو أن الذي أحل بالمسلمين ما أحل بهم من ضعف وهوان ودون لم يكن نتيجة إيمانهم بالقضاء والقدر على الوجه الصحيح المطلوب ، وإنما كان نتيجة إيمانهم بالقضاء والقدر على وجه غير صحيح ولا مطلوب ، وذلك بما دس فيها الأعداء ، وما شوهوا به من تأويل باطل ، وتحريف سخيف قضى عليها ، وأمانتها في نفوسهم أو كاد .

وهذا من أشد ما يملأ نفس أسي وحزناً ، إن أعداء المسلمين ما زالوا يفسدون عليهم عقائدهم ، ويشككونهم فيها حتى تخلوا عنها ، فضعفوا لذلك ، وهانوا ، ثم انبرى أولئك الأعداء يقولون : إن ضعف المسلمين كان من جراء عقائدهم التي يعيشون عليها معتقدينها ، منفعلين بها ، مستجيبين لها .

ومن المؤسف حقاً أن أكثر المسلمين مازالوا إلى اليوم لم يصرفوا داءهم ، ولا ما كادهم به أعداؤهم ، إذ أننا نرى كثيراً منهم يلوك بلسانه عقيدة القضاء والقدر ، ويحتج بها مرة على فسقه ، وتهربه من مسؤولياته ، ومرة يتجنى بها على الله تعالى ربه وخالقه ومدبر أمره ، ويمسره إلى ما خلقه له .

(١) نجم : ظهر .

(٢) الإفك : الكذب المقلوب وهو أسوأ الكذب .

فينسب إليه تعالى الظلم ، ويعترض عليه في قضائه ، ومجاري أقداره ،
وعادل أحكامه .

ومن هنا رأيت العناية يبحث هذا الجزء من عقيدة المؤمن واجبة ، لما
عسى أن ينفع الله به من يقرؤه أو يسمعه ممن هم في بلبلة فكر ، واضطراب
نفسي من عقيدة القضاء والقدر ، فينقطع بلبال أفكارهم ، ويزول اضطراب
نفوسهم ، فيؤمنون ويرضون ، ويعملون بطاعة الله ورسوله فينجون
ويسعدون .

وبين يدي بحث هذا الجزء من عقيدة المؤمن وهو القضاء والقدر أقدم
ثلاث كلمات تمهيدية قد تساعد على فهم هذا المعتقد ، وتسهل الوصول إلى
إدراك حقيقته .

الكون ومظاهر التنظيم فيه

إن كلمة الكون تعني هذا الوجود من العوالم العلوية والسفلية كالأرض والسماء وما فيهما ، وما بينهما . وهو كون هائل عظيم يحوي عوالم كثيرة لا تحصى عدداً ولا يحاط بها حداً ، كل عالم منها يقف العقل البشري أمامه حائراً مشدوهاً ، ففي سمائنا الدنيا هذه وحدها بلايين الكواكب والنجوم ، تختلف في أحجامها ، وأبعادها ، وقوانين سيرها ، كما تختلف في أجرامها ، ومحتوياتها ، وخصائصها .

وفي أرضنا هذه التي نعيش عليها عوالم لا تقل عظمة وروعة عن العوالم العلوية . ففي عالم الإنسان ، كعالم الحيوان ، كعالم النبات عجائب كثيرة في الخلق ، وعجائب في العدد والكثرة ، وعجائب في الخصائص والطباع .

وكل هذا الكون الضخم العجيب قد ربطت بين أجزائه كلها العلوية والسفلية أنظمة من السنن الإلهية الدقيقة المدهشة ، فسار الكون كله متحداً متناسقاً إلى غاية لم ينته إليها بعد ، إذا ما وصلها يكون قد استنفذ طاقته وانتهى . قال الله تعالى من سورة الأنعام :

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّىٰ عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾^(١)

(١) الآية (٢)

هذا الكون المدهش المحير تجري فيه حوادث هائلة عظيمة ، كل حادثة منها لها عواملها ، وأسبابها ، ومقتضياتها الخاصة بها ، فدورة الأفلاك ، وسير الكواكب ، وهبوب الرياح ، واختلافها ، وتراكم السحب ، وسقوط الأمطار ، ونبات الزروع ، وتوالد الإنسان والحيوان ، وما يتجدد من موت وحياة كل هذا خاضع لسنن تحكمه فتقوده لحكم عالية ، وأغراض صالحة سامية ، فليس بين هذه الأحداث والحوادث الجارية في الكون ما هو عار عن حكمة متوخاة ولا ما هو جار على غير قانون ثابت يربطه بكل أجزاء الحياة .

ومن أجل هذا التنظيم الساري في كل أجزاء هذا الكون ما شئت الذين أوتوا العلم في أن رب هذا الكون جل جلاله ، وعظم سلطانه قيد علمه قبل خلقه كلا وتفصيلاً ، ووضع هذا النظام الذي يحكمه قبل وجوده ، ثم ربطه به بعد أن أوجده فهو يسير فيه ، لا يتخلف عنه ، ولا يخرج ، وهذا النظام هو سر 'ضراد الحياة الدنيا ، وبقائها إلى أجلها الذي تنهي إليه - وهو بالتالي نظام القضاء والقدر الذي دعت رسل الله جسيماً إلى الإيمان به والرعى كل مجاريه خيره وشره على حد سواء .

الثانية :

كيف كان الكون موجوداً ؟

الوجود قائم لا معنى لإنكاره ، ولا حاجة إلى إقامة الدليل على وجوده ، وإنما المسألة التي شغلت أذهان الباحثين فيه قديماً وحديثاً هي مسألة قدم العالم وحدوثه ، أي هل الوجود قديم أزلي أو حادث سبقه عدم ، وطرأ عليه وجود .

إن أكثر علماء البشر قد أطبقوا على حدوث العالم ، وذلك لعلة التغير ، والكون أو الوجود متغير فهو إذاً حادث غير أزلي قطعاً ، هكذا كان استدلال العلماء على حدوث العالم . واستمر كما هو إلى القرن التاسع عشر الميلادي ، وحتى اكتشف قانون الطاقة المتاحة والذي أثبت بمالا مجال

للكشك فيه ، كما يقول علماء الكون اليوم أن العالم لم يكن أزلياً أبداً وإنما هو حادث - مخلوق ، كما لم يكن أبدياً أبداً ، بل لا بد له من نهاية حتماً ، وسر ذلك أن الطاقة الحرارية المتاحة تنتقل دائماً من جسم حراري إلى آخر على خلافه ، ولا يمكن أن يكون العكس ، فهذه الطاقة المتاحة لا بد وأن يكون هناك من أتاحها أولاً ، إذ العدم السابق لا ينتج شيئاً فتعين أن يكون خالقه أزلياً ، وبهذا يبطل أن يكون الوجود أزلياً كما ادعى بعض الفلاسفة الملحدون ولزم أن يكون حادثاً ، له بداية ، ولما كان له بداية كان له نهاية حتماً .

وعند تقرير هذه الحقيقة العلمية يقول أحد علماء الغرب : وهكذا أثبتت البحوث العلمية دون قصد أن لهذا الكون بداية ، فأثبتت تلقائياً وجود الإله لأن كل شيء ذي بداية لا يمكن أن يبتدىء بذاته . ولا بد أن يحتاج إلى المبدى الأول وهو الإله الخالق سبحانه وتعالى ، وفي القرآن الكريم مصداق هذا حيث جاء فيه قول الله تعالى :

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^(١)

بحكم هذا القانون السابق الذكر وهو انتقال الطاقة من الأجسام الحرارية إلى غيرها ، وهي عملية مستمرة فإن هذه الطاقة ستنفد في يوم من الأيام وعندها تنتهي هذه الحياة ، هكذا يقول علماء الكون ، وهي نظرية سليمة ، غير أن نهاية الحياة أخبر عنها خالقها بأنها تكون عند نهاية الأجل المسمى لها ، ولا تكون بفقد الطاقة الحرارية ، ولكن باختلال الأفلاك ، كما قال تعالى في كتابه العزيز :

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۖ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۚ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۖ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۖ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ۖ﴾^(٢)

(٢) سورة الواقعة الآيات (١ - ٦) .

(١) سورة فصلت الآية (٥٣) .

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾^(١)
 ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۖ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾^(٢)

يبد أن أولئك العلماء حسبهم أنهم قد أثبتوا بطريقتهم العلمية الخاصة حدوث العالم ، وعدم أبديته ، وأنه لا بد من فئائه ، ونهاية هذه الحياة الدنيا .

وبعد هذا فإن السؤال الملح هو كيف كان بدء الوجود . أو كيف كان هذا الكون ؟ وعند الجواب عن هذا السؤال انقطعت السنة الماديين من كونييين ومن غيرهم . فلم يحاروا جواباً ، وأتت لهم أن يجيبوا بشيء سوى الهوس ، والتخمين ، والحدس ، أو الظن ، والكذب ، والخرص ، ومن تلك الظنون والتخرصات قول بعضهم : إن الأرض قد انفصلت عن الشمس شرارة ملتهبة ، ثم بردت بعد ملايين السنين ، وتحجرت ، وأصبحت ذات قشرة ترابية ، فتهيأت بذلك للمخلق . والحياة عليها .

وأما الحياة فإنهم يقولون : إنها بدأت خلية بسيطة ، ثم أخذت تتطور وتتكاثر حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن ، ثم لو سئلوا وقيل لهم : إذا كانت الأرض قد انفصلت عن الشمس ، والشمس وسائر الكواكب والنجوم وهي ملايين بتقديراتهم أنفسهم عما كان انفصالها ؟ .

وخلية الحياة ، وهم يقولون : إنه لا يبعد أن تكون قد جاءت في شكل جرثومة من بعض الكواكب الأخرى لم لا تكون خلية أخرى إذاً قد وقعت على كوكب آخر كالقمر مثلاً ، ونمت فيه كما نمت على الأرض ، وأصبح في ذلك الكوكب عالم من الأحياء كعالمنا هذا ؟ مع أنهم يقولون إن القمر خال من الحياة تماماً بناء على ما ادعوه من مشاهدة سطح القمر عند نزولهم على

(١) سورة التكويز الآيات (١ - ٣) .

(٢) سورة الانفطار (١ ، ٢) .

سطحه كما يزعمون؟؟ والحمد لله القائل :

﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ
مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصِيدًا﴾^(١)

فقد أغنى الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين عن هذه الهواجس ،
والوساوس ، والظنون والتخرصات حيث أخبر تعالى وهو الخالق عن كيفية
خلق الكون ، وكفى بمن خلق مخبراً ؛ وكيف لا يعلم ما خلق وهو اللطيف
الخبير ؟ إذ يقول تعالى :

﴿أَوَلَمْ يَرَأِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا
فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا
فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ يَمْدَّ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ
يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ
وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^(٢)

وقال :

﴿قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ كُفْرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ إِندَادًا
ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوْسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ
فِيهَا أَقْوَاتَهَا أَرْبَعَةً أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لَيْنَهُمْ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ
وَهُى دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا
طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ

(١) سورة الكهف الآية (٥١) .

(٢) سورة الأنبياء الآيات (١٠ - ٣٣) .

أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصْنُوحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ ﴿١﴾

هذا خبره تعالى عن خلق الكون ، وأما عن خلق الانسان ، والجان .
والحيوان ، والنبات فيقول تعالى :

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ ﴿٢﴾
ويقول :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴾ ﴿٣﴾ وَالْجَانَّ
مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ ﴿٤﴾
ويقول :

﴿ وَاللَّهُ خَنَّ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَنُفِثُ مِنْ يَمِينِهِ عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ
يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿٥﴾

ويقول :

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا
الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعَيْنًا وَقَضْبًا ﴾ ﴿٦﴾ وَزَيَّنَّا لِلْإِنْسَانِ
وَحَدَاتِهِ غُلْبًا وَفَلَكَهَةً وَأَبَا مَتَعَالَى وَلَا تَنْعَمُكُمْ ﴿٧﴾

(٢) سورة الرحمن الأيتان (١٤ ، ١٥) .

(١) سورة قصص الآيات (٩ - ١٢) .

(٣) سورة الحجر الأيتان (٢٦ ، ٢٧) .

(٤) سورة البور الآية (٤٥) .

(٥) سورة عيس الآيات (٢٤ - ٣٢) .

أين هذا الإيمان الواقعي ، والقول الشافي ، والنبأ اليقين في خلق الإنسان والكون ، من ذلك الهراء الخواء ، والخرص والتخمين ، بل الكذب والإفك المبين؟؟ إن ما بينهما كما بين الوجود والعدم ، والسمع والصمم !!

وأين هؤلاء من أولئك؟؟!!

هؤلاء هُذوا بإيمانهم لمعرفة الحق فعرفوه ، وقبلوه ، وسكنت له نفوسهم ، وآثروه ، وأولئك ضلوا بكفرهم ، فآثروا العمى على الهدى ، فعارضوا العلم الحق بالشبهات ، وردوا اليقين بالشك واليمين^(١).

المؤمنون أضاء لهم نور الوحي المبين ، فأروا في نوره أهل الظلمات في آرائهم يعمهون ، وفي ضلالاتهم يتهوكون^(٢) وفي ريبهم يترددون . والكافرون لاح لهم في بقاء الهوى سراب ، فجزوا وراءه ظانين أنه الحكمة وفصل الخطاب ، ولما انتهوا إليه بعد كلال ، وجدوه خيبة آمال وسوء مآل . قال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّدُنِّيَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾^(٣)

الثالثة :

لقد أصبح معلوماً بالضرورة لدى العالمين بأحوال الكون أن الكون كله

(١) المين بفتح الميم ، وسكون الباء الكذب ومنه قولهم : أكثر الظنون ميون .

(٢) العمه والتهوك كلاهما بمعنى التحيير والتردد .

(٣) سورة النور الآيات (٣٩ ، ٤٠) .

علويه وسفليه مربوط بنظام دقيق هو غاية في الدقة . فمن أكبر حجوم فيه كوكب الشمس مثلاً إلى أصغر شيء كنواة الذرة الكل مشدود بقوانين عجيبة ، ومحكوم بسنن ثابتة لا تبدل ولا تتغير ، كما صرح بذلك القرآن الكريم في قوله :

﴿ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ ^(١)

ولو فرض أن سنة من تلك السنن التي تربط الكون قد اختلت لخرب العالم أجمع .

ففي العالم العلوي مثلاً لو أن خللاً طرأ على النظام الشمسي بخروج بعض الكواكب عن مسارها ، واصطدامها ببعض الكواكب الأخرى لكانت نهاية العالم حتماً . ولو أن حرارة الشمس زادت نسبتها على ما هي عليه الآن بعض الزيادة ، أو نقصت على ما هي عليه بعض النقصان لما أمكن الحياة على الأرض للاحتراق الذي يصيبها في الحالة الأولى ، أو التجمد الذي يصيبها في الحالة الثانية .

هذا في العالم العلوي ، وفي العالم السفلي لو أن نسبة الأكسجين وهي واحد وعشرون في المائة (٢١٪) زادت على نسبة الهواء فكانت خمسين مثلاً لاحترق كل شيء قابل للاحتراق .

كما أنها لو نقصت عن هذه النسبة المحددة لاختق البشر ، وهلك الناس ، هذا مجرد مثال سقناه للأنظمة العامة التي أوجدها الله سبحانه وتعالى في هذا الكون وربط بها الحياة ، وجعلها متوقفة عليها . وأما النظام الخاص والموضوع لكل كائن في الحياة فهو نظام مدھش جداً . إنه يوجد لكل كائن سنن خاصة به في وجوده ونشأته ، وتطور حياته ، وفي طرق معاشه ، واكتساب رزقه ، وسنن تناسله ، وحفظ نوعه ، وكيفية موته وفنائه . وأكثر هذه

(١) سورة فاطر الآية (٤٣) .

السنن الخاصة بالأحياء معلومة لمن تأملها ، وفكر فيها . ومن هذه السنن أذكر على سبيل المثال ثلاث سنن من سنن اللقاح في الإنسان ، والحيوان ، والنبات فأقول : -

إن الميل الفطري الذي يجده الرجل إلى امرأته ، والمرأة إلى زوجها ، وذلك الغشيان الخاص للنسل ، وحفظ النوع عميل يتم وفق سنة موسوعة للانسان لحفظ نوعه .

ومن أجل تحقيق تعاون بين الزوجين ينتج عنه حفظ الأولاد ، وتربيتهم توجد الظاهرة التالية ، وهي أن الرجل يبقى في حاجة إلى غشيان المرأة حتى في حال حبها ، بخلاف الحيوان فإنه إذا حبلى أنثاه عافها وتركها مسا يدل على أنه مفطور على إتيانها لا لغريزة الشهوة المركبة فيه كما هو الظاهر فقط ، وإنما للنسل ، والذي بواسطته يتوفر للانسان غذاؤه من اللحم ، واللبن ومشتقاته ، والصوف ، والوبر ، والشعر لفراشه ولباسه ، في حين أن الحيوان ينصرف عن أنثاه في حال حبها ، وتنقطع المودة بينهما ، وذلك لعدم الحاجة إلى التعاون بينهما على تربية الولد ، وحفظه كما هي الحال في الإنسان في تربية أولاده ، وحفظهم . ولعل هذه الظاهرة قد توجد في الحيوان الذي يستقر إليه ولده في تربينه وحفظه إلى أمد معين - فسبحان من أعطى كل شيء خلقه ، ثم هدى ، هذا في الإنسان والحيوان ، وإنه ليبدو معقولاً ، مقبولاً . أما في النبات فإنه لم يأخذني العجب من شيء في ظواهر هذا الكون كما أخذني من ظاهرة كيفية عملية لقاح شجر التين . وحقاً إنها لظاهرة جد عجيبة ، تأخذ بلب التأمل فيها ، وبكل مشاعر الناظر إليها .

إنه يوجد في نوع شجر التين شجر منه يعرف بذكر التين . وفي أوساط الربيع وبعدهما يورق كل من ذكره وأنثاه يخرج كل منهما حباً صغيراً هو ثمرة المعتاد ، غير أن الملاحظ في ذلك أن حب الذكر يكبر بسرعة حتى إذا ما تهيأت الأنثى للقاح حسب سنة الله تعالى فيه كان حب الذكر قد ينح ، فيأخذ

الفلاح ثمرة الذكر البانعة فيعلقها بأغصان الشجرة الأنثى ، فيخرج من حبة الذكر المعلقة ذباب صغير في غاية الصغر ، ويعرف ذلك الذباب طريقه إلى حبة الأنثى فيدخل في مكان على سطحها قد أعد لذلك هو أشبه ما يكون بفرج حيوان ، فيدخل ذلك الذباب حاملاً معه مادة بيضاء قد علقته بجسمه الصغير ، ثم يخرج منها بعد أن يكون أتم عملية التلقيح ، ليدخل في حبة أخرى ليلقحها وهكذا حتى يلقح عدداً كثيراً من حبات الثين الصغيرة المهيأة للتلقيح ، وبعدها يموت ذلك الذباب وقد أتم مهمته التي خلقه الله تعالى لها . هكذا تتم هذه العملية المعقدة العجيبة التي هي من أقوى البراهين على وجود الله تعالى ، وقدرته ، وعلمه ، وتدبيره ، فسبحان من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

والآن ونحن في غاية التأثر والإعجاب بهذه الظاهرة الكونية في لقاح شجر الثين لا يسع إلا أن نسجل كلمة نستودعها الله تبارك وتعالى ليردها علينا يوم القيامة ، فينفعنا بها وهي أن ظاهرة كهذه في لقاح هذا الشجر الطيب المبارك يستحيل أن تتم بالضرورة ، أو الصدفة ، أو الطبيعة كما يقول الملاحدة والطبيعيون ، وإنما تتم بخلق وتقدير ، وتدبير خلاق عليم ، مدبر حكيم ، هو الله رب العالمين ، رب السموات والأرض وما بينهما ، ورب كل شيء ومليكه الذي أشهد شهادة علم ويقين ، أنه الله الذي لا إله إلا هو القائم بالقسط ، العزيز الحكيم . اللهم إنا نستودعك هذه الشهادة فهي لنا عندك وديعة تردها علينا يوم القيامة . وأخيراً فهذا النظام في الكون كله علويه وسفليه لم يكن إلا نتيجة قدر وعلم سبقه فكان كل شيء في هذا الكون يتم على مقتضى ذلك التقدير الأزلي القديم الذي هو القضاء والقدر ، والذي لا يتم إيمان عبد إلا به ، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

القضاء والقدر

ولكي يسهل علينا معرفة القضاء والقدر ينبغي أن نرجع بالذاكرة إلى تلك الكلمات الثلاث التي قدمناها تمهيداً لبحث القضاء والقدر ، وما أوردنا فيها من كلام في خلق الكون والنظام الذي رُبط به ، والسنن التي تحكم كل أجزائه وما وقفنا عليه من عجيب الخلق والتدبير في هذا الكون كله : في الإنسان ، والحيوان ، في النبات ، والجمادات . لقد رأينا أن النظام الشمسي في غاية الدقة إذ لكل كوكب بل لكل نجم من النجوم وهي بلايين مساره الذي يسير فيه ، ومداره الذي يدور عليه ، وذلك على مر هذه الحياة الطويلة ، ولم يقع أن خرج كوكب عن مداره الذي يدور عليه ، ولا نجم عن مساره الذي يسير فيه إذ لو وقع ذلك لانتهى العالم من الوجود .

كما رأينا سنن الله تعالى في حياة الإنسان ، والحيوان ، والنبات نشوءاً ، وتطوراً ، ونماءً ، وبقاءً ، وفناءً . وأن ذلك مربوط بسنن لا تبدل ، وبذلك انتظمت الحياة فهي تسير إلى غاياتها المحدودة لها . وعرفنا أن هذا هو سر للقدر وتفسيره .

ومن هنا صح لنا أن نعرف القدر والقضاء بأنهما : علم الله تعالى الأزلي بكل ما أراد إيجاداً من العوالم ، والخلائق ، والأحداث ، والأشياء ، وتقدير ذلك الخلق ، وكتابته في الذكر الذي هو اللوح المحفوظ ، كما هو حين يقضي بوجوده في كميته ، وكيفيته ، وصفته ،

وزمانه ، ومكانه ، وأسبابه ، ومقدماته ونتائجه بحيث لا يتأخر شيء من ذلك عن إبانته^(١) ، ولا يتقدم عما حدد له من زمان ، ولا يتبدل في كميته بزيادة أو نقصان ، ولا يتغير في هيئة ولا صفة بحال من الأحوال ، وذلك : -

أولاً : لسعة علم الله تعالى الذي علم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وعظيم قدرته عز وجل التي لا يحدها شيء ، ولا يعجزها آخر ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

وثانياً : لربطه تعالى الوجود كله بقانون السنن الذي يحكم كل أجزاء الكون علويه وسفليه على حد سواء . هذان هما القضاء والقدر اللذان لا ينكرهما إلا مكابر مجاحد ، أو جاهل معاند ، إذ هما يتجليان في شكل قوانين ثابتة تشمل كل كائن في هذا الوجود من الفلك إلى النور والحلك ، ومن الإنسان إلى الحيوان ومن النباتات إلى الجمادات .

ولنستمع بأذان صاغية إلى الخلاق العليم ، والصانع الحكيم سبحانه وتعالى وهو يخبر عن قدرته وحكمته فيه^(٢) ، ومشيئته له ، وقضائه به :

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ ﴾^(٣)

﴿ وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّزْرُوعٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٍ وَمَنْ لَكُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝ ﴾^(٤)

(١) الإبان : بتشديد الباء الموحدة التحتية : الوقت والزمن الذي يوجد فيه الشيء .

(٢) الضمير في « فيه » عائد إلى القدر .

(٣) سورة الحديد الآية (٢٢) .

(٤) سورة الحجر الآيات (١٩ / ٢١) .

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾^(١) ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْؤَسَىٰ ﴾^(٢)
 ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرُهُ تَقْدِيرًا ﴾^(٣) ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾^(٤)
 ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾^(٥)

هذا ولم ينكر القدر؟ والإنسان المخلوق المحكوم بقوانين القدر التي لا يستطيع أن يخرج عنها بحال من الأحوال ، لا ينكر عليه إذا أراد أن يبني منزلاً أن يرسم له صورة كاملة على ورقة صغيرة ، ثم يأخذ في بنائه ، فيخرجه إن كان ذا قدرة وعلم كافيين ، صورة طبق الأصل . فلا يختلف شيء مما قدره فيه ، ولا يختلف فيه شيء عما رسمه له .

إذا كان الإنسان على ضعفه وعجزه لا يستغرب منه ذلك ، بل يُحمد عليه ، ويشنى عليه به . فكيف يستغرب مثل ذلك من الله الخلاق ، العليم ، ذي القوة المتين ؟!! .

وإذا فكيف وجد من ينكر القدر ، ويجادل فيه ؟ .

وقبل الإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن نذكر هنا أن القدر قدرا : قدر سلمه ، وآمن به كل المؤمنين بالله تعالى ، ولم ينكره أحد ؛ أو يمار فيه آخر ، وهذا النوع من القدر هو ما كان مثل خلق العالم ، وما فيه من سنن ، وما يجري فيه من أحداث كالحياة والموت ؛ والقحط والجذب ، وما ينزل بالإنسان من مصائب لم يتسبب هو فيها ، ولم يكن له قدرة بحال على دفعها ، وذلك ككونه يولد جميلاً

(١) سورة القمر الآية-(٤٩) .

(٢) سورة طه الآية (٤٠) .

(٣) سورة الفرقان الآية (٢) .

(٤) سورة الأحزاب الآية (٣٨) .

(٥) سورة الأعلى الآيات (١-٣) .

أو دميماً ، طويلاً أو قصيراً ، وفي زمن كذا دون غيره من الأزمنة ، وفي بلد كذا دون غيره من البلاد مثلاً .

وككون القضاء مضي بسعادة المرء أو شقائه ، كما مضي بسعيد رزقه وأجله ، فهذا النوع من القدر هو من مراد قوله تعالى :

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾^(١)

وقول الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك . رفعت الأقلام ، وجفت الصحف»^(٢) . وهذا النوع من القدر كما يجب الإيمان به ، يجب الرضى به ، والتسليم لله تعالى فيه فإنه على وفق رضى الله تعالى ، وبناء على مشيئته وحكمته وواقع على أساس تدبيره لملكه وخلقه ، وإنه ما من حادثة تحدث في الكون إلا والله تعالى فيها حكمة ، عالية ، مقصودة ، ومن هنا قبح بالمرء أن يتبرم من هذه الأحداث المقدرة له ، كما جمل به أن يقابلها بكامل الرضى ، ومطلق التسليم .

(١) سورة الحديد الآية (٢٢) .

(٢) رواه الترمذي (قيامة / ٥٩) وأحمد (١ / ٢٩٣) وابن أبي عاصم في كتاب السنة .

ثمرة الرضا بالقضاء

وللرضا بهذا القضاء نتائج سارة ، وثمرات طيبة ، ومن تلك النتائج السارة والثمرات الطيبة . أنه يكسب صاحبه قوة الشكيمة ، ومضاء العزيمة ، إذ من اطمأنت نفسه إلى أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأ لم يكن ليصيبه خلت جميع أعماله من الحيرة والتردد ، وانتفى من حياته القلق والاضطراب ، لأنه بمجرد ما يترجح لديه الإقدام على أمر ما أقدم عليه في غير ما خوف ، ولا هية . ولا تردد ، ومن هنا فإنه لا يحزن على ماضٍ ولا يغم لحاضر ، ولا يؤلمه مم المستقبل وبذلك يكون أسعد الناس حالاً وأطيبهم نفساً ، وأصلحهم بالاً ، وأهدأهم خاطراً ، ومنها أيضاً أنه يكون من أشجع الناس عقلاً وقلباً ، وأكرمهم قولاً ونفساً ، إذ من عرف أن أجله محدود ، ورزقه معدود فلا التجبن يزيد في عمره ، ولا الشح يزيد في رزقه ، نافس في البطولات وسابق في المكرمات .

ومما لا شك فيه أن هذه الصفات قد تجلت واضحة في هذه الأمة ، أمة الإسلام أيام كانت عقيدة القضاء والقدر واضحة في نفوسهم ، قوية في قلوبهم فقد فاقوا الناس شجاعة وكرماً ، وصبراً وحلماً ، ومعرفة وعلماً الأمر الذي تمكنوا به من سيادة العالم وقيادته مدة من الزمن طويلة غير قصيرة .

والآن يحسن بنا أن نحيب عن السؤال الذي أرجأنا الإجابة عنه

وهو : كيف وجد من ينكر القدر ويجادل فيه ؟ فنقول : لقد علمنا من الكلمة التي استطردها هنا عند إرجائنا الإجابة عن هذا السؤال أن القدر الذي وجد بين المسلمين من ينكره ويجادل فيه ليس هو القدر العام الذي يشمل الكون كله وما يجري فيه من أحداث لا بد للإنسان فيها ، ولا قدرة له على دفعها أو تغييرها إذ هي جارية على نظام السنن التي يقول الله تعالى فيها :

﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾^(١)

وإنما هو القدر الخاص المتعلق بأفعال العباد ، حسنها وسيئها ، صالحها وفاسدها ، وأول ما ظهر القول فيه على عهد عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي الراشد ، وذلك في حدود المائة الأولى من الهجرة ، قال به ، وأظهره ودعا إليه غيلان الدمشقي حتى قتله هشام بن عبد الملك ، وهذا لا ينافي ما روي من أن القول بنفي القدر كان في أواخر أيام الصحابة رضي الله عنهم ؛ إذ ما قيل في تلك الأيام لم يعد كونه مجرد قول قاله فرد أو أفراد فأنكره عليهم من وجد من أصحاب رسول الله ﷺ كابن عمر ، وابن عباس رضي الله عنهم حتى قضوا عليه ، وأحمدوا نار فتته إلى حين .

ونفي أولئك النفر للقدر معناه أن الأمور المتعلقة بأفعال العباد لم تقض أزلاً ، ولم تكتب في كتاب المقادير^(٢) ولم يعلمها الله تعالى قبل وجودها ، ويبدو أن الطائفة التي قالت بنفي القدر بهذا المعنى قد دحضت حجتها ، وذهب باطلها وانتبهت نهائياً من الوجود لأن نصوص الكتاب والسنة في إثبات القدر الخاص والعام متكاثرة متضافرة بحيث يعد منكرها كافراً لا مقام له بين المسلمين ، وما نحن نورد تلك

(١) سورة فاطر الآية (٤٣) .

(٢) المراد من كتاب المقادير اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء .

النصوص تسجيلاً لها في هذا المقام بهذه المناسبة ليرتادها القلب كلما رانت عليه آثار الشبه التي لا تبحر تمر بالقلب ، وتوجد حوله للإغواء والفتنة ، ومن تلك النصوص قوله تعالى :

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾^(١)

وقوله :

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾^(٢)

وقوله :

﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾^(٣)

وقوله :

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾^(٤)

وقول الرسول ﷺ في رواية لمسلم « كَتَبَ اللَّهُ مُقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ قَالَ وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ »^(٥) وقوله ﷺ في رواية للبخاري : « كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ »^(٦) وقوله ﷺ في رواية أبي داود « أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ أَكْتُبْ فَقَالَ : رَبِّ مَاذَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : أَكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ

(١) سورة القمر الآية (٤٩) .

(٢) سورة الفرقان الآية (٢) .

(٣) سورة الأعلى الآيات (١ - ٣) .

(٤) سورة الحديد الآية (٢٢) .

(٥) مسلم (٨ / ٥١) .

(٦) البخاري (٩ / ١٥٢) والمراد بالذكر اللوح المحفوظ .

الساعة»^(١) وقوله ﷺ لبعض أهل بيته وقد لاموا أنساً في بعض تقصيره في إحضار شيء طلبوه منه : « دَعُوهُ فَلَوْ قَضَى شَيْءٌ لَكَانَ »^(٢) وقول ابن عمر رضي الله عنهما في صحيح مسلم وقد أخبر بأن ناساً يزعمون أن لا قدر ، وأن الأمر أنف^(٣) . قوله لمن أخبره بذلك : « إِذَا لَقِيتَ هَؤُلَاءِ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَأَنْتُمْ بَرَاءُ مِنِّي ، وَالَّذِي يَخْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَتَفَقَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ »^(٤) ، وقد تقدم حديث ابن عباس عند الترمذي وفيه قوله ﷺ « رفعت الأقاليم ، وجفت الصحف » . غير أنه قد وجد فيما بعد من يقول بنفي القدر عن أفعال العباد ، فزعم أن العبد يخلق أفعاله بنفسه . وأن الله تعالى لا دخل له في ذلك ، ولا عمل ، وأن أفعال العباد لم تقدر ولم يعلمها الله تعالى قبل وجودها . وقالوا : كيف يفعل الله القبيح وهو ينهى عنه ويحرمه ، وهذا هو أساس شبهتهم التي بناوا عليها مذهبهم في كون الله تعالى لم يخلق أفعال العباد ولم يقدرها لهم أو عليهم ، وإنما العبد وحده هو الخالق لأفعاله . وأضافوا إلى شبهتهم هذه شبهة أخرى وهي قولهم : كيف يخلق الله أفعال العباد ثم يعاقبهم عليها ؟ وأصبحوا بهذا يعرفون بالقدرية ، أي نفاة القدر ، ولزمهم أن العبد ما دام يستقل بخلق أفعاله فقد أصبح رباً يخلق ما أراد أن يخلق من الأفعال ، وبطل بذلك التوحيد الذي هو أصل الدين وأساسه ، ومن هنا سموا بمجوس هذه الأمة ، لتعدد الخالقين بحسب مذهبهم في أن الإنسان خالق أفعاله بمقتضى قدرته وعلمه لا بمقتضى قدرة الله وعلمه .

(١) أبو داود (٢ / ٥٢٧ : ٥٢٨) وكذا رواه الترمذي (قدر / ١٧) وأحمد (٥ / ٣١٧) .

(٢) هذه الرواية ذكرها ابن القيم في كتاب القدر وهي ضعيفة سنداً والحيث رواه أحمد (٣ /

٢٣١) عن أنس رضي الله عنه بلفظ « خدمت النبي ﷺ عشرين سنة مما أمرني بأمر وتوانيت عنه

أَوْضِيعْتَهُ فَلَا مَنِي فَإِنْ لَامَنِي أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ إِلَّا قَالَ : دَعُوهُ فَلَوْ قَدَرْتُ أَوْ قَالَ قَضَى أَنْ يَكُونَ كَانِ ،

(٣) الألف . المستجد الذي لم يسبق به علم الله ولا قدره .

(٤) في ص ٤٢٠ .

(٤) مسلم (١ / ٢٨) .

الجبر وحقيقته

وعلى العكس من نفاة القدر كانت طائفة الجبرية من المعتزلة ، وأول من ظهر منهم الجعد بن درهم ، وكان قد تلقى مذهب الجبر من يهودي من يهود الشام ، وتلقاه عنه الجهم بن صفوان رئيس الطائفة الجهمية نفاة الصفة المعطلين .

ومما تجدر الإشارة إليه أن مذهب القدر كمذهب الجبر كليهما من صنع اليهود ، لإفساد عقيدة المسلمين ، إذ سبق أن ذكرنا أن أول من قال بنفي القدر غيلان الدمشقي الذي قتله هشام بن عبد الملك فلا يبعد أن يكون غيلان هذا قد تلقاه من يهود الشام أيضاً .

وحقيقة الجبر : أن الإنسان لا يخلق أفعاله ، ولا ينبغي أن تنسب إليه إلا على سبيل المجاز ، فهي نسبة فعل لا نسبة إرادة واختيار إذ هي أفعال الله تعالى ، أجراها على يد العبد بدون إرادة من العبد ؛ ولا اختيار ؛ ولازم هذه العقيدة أن العبد غير مؤاخذ على أفعاله ، وأنه لا يعاب منه فعل ، ولا يلام عليه ، ولو كان في غاية القبح والفساد ، ولذا كان هذا المذهب أفسد وأشدّ شراً من سابقه الذي هو مذهب القدرية والذي ينبغي الإشارة إليه هنا هو أن عقيدة الجبر بالرغم من كونها أكثر ضرراً وفساداً من عقيدة نفي القدر فقد ظلت ظاهرة في المسلمين ، سارية فيهم وبدون إرادة منهم لها ، ولا رغبة فيها ، ولعل السبب يعود في ذلك إلى أن عقيدة الجبر هذه تلقي التبعة عن العبد فيما يرتكب من المعاصي ، وفيما يقارف من الذنوب ، وتجعله معذوراً أمام نفسه ، حتى قال بعض ضحايا هذا المعتقد الخطير :

أصبحت منفعلاً لما يختار مني ففعلني كله طاعات
 وكم قعد هذا المعتقد الخاطيء الفاسد بكثير من المسلمين عن
 العمل الجاد النافع فضعفوا ، وهانوا ، وأصيبوا بكل قاصمة للنظير ،
 حتى أصبحوا المثل في العجز والكسل ، والتخلف في ميادين العمل
 والإنتاج . ووجد بسببهم - العدو الكافر مجالاً للطعن في عقيدة الإسلام
 والاحتجاج على المسلمين فيما أصابهم ، ونزل بهم بسلوك هؤلاء
 الذين قتلهم مذهب الجبر ، وأفسد عليهم دينهم وديارهم ، فأصبحوا
 يرون أحياءهم أمواتاً ويررون موتهم وعودهم عن كل خير يكسبه
 غيرهم ، ويسعد به في حياته يبرزونه بمثل قول شاعرهم :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان^(١) التحرك والسكون
 جنون بك أن تسعى لرزقك ورزق في غيابه^(٢) الجنين

فلنتظر كيف تحول مذهب الجبر إلى مذهب معطل قاتل ، لا يقود
 أهله إلا إلى خسران الدنيا والآخرة . أرأيت لو أخذ الناس كلهم بهذا
 المذهب ماذا كان يحدث للحياة ؟ كانت تنتهي وكفى !!

فسبحان الله ! ماذا يفعل التضليل بالناس ! وهذا شأن كل
 المذاهب الهدامة التي هبطت بالإنسان إلى منزلة الحيوان ، وبالتأمل
 يظهر لنا أن جميع المذاهب الهدامة ، المدمرة في العالم كانت من
 صنع اليهود الحاقدين على البشرية ، الناقمين عليها ، ومن هنا فإني لا
 أشك أن مذهب الجبر كمذهب القدر ، كمذهب التشيع كأكثر طرق
 التصوف الكل طيخ في مطابخ اليهود ، وقدم طعاماً مسموماً للمسلمين
 ليموتوا به ، ويهلكوا عليه . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

والآن حان لنا أن نعرض عقيدة القدر والقضاء عرضاً أكثر وضوحاً
 وتحديداً من ذي قبل وتحت عنوان :

(٢) غيابه : ظلمة الرحم .

(١) سيان : بمعنى مستو .

لا جبر ، ولا نفي للقدر الإنسان فاعل مختار والله خالق الإنسان وخالق أفعاله

إنه قد صعب على غير الموفقين من الناس التوفيق بين كون الإنسان فاعلاً لأفعاله ، مريداً لها ، مختاراً فيها ، مهياً للشواب عليها إن كانت خيراً ، وللعقاب عليها إن كانت شراً ، وبين كون الله تعالى هو خالقه وخالق أفعاله خيراً وشرها ، مع اعتقاد عدل الله ، وتنزيهه عن الظلم .

ومن هنا انقسموا فرقاً فقالت فرقة منهم : إن العبد هو خالق أفعاله بنفسه ، وليس لله تعالى فيها دخل البتة ، واعتذروا بكون أفعال الإنسان منها ما هو شر وقبيح يُنزه الله تعالى عنه ، ولا تجوز نسبته إليه ، فالتزموا بناء على هذا المذهب بمبدأ نفي القدر عن أفعال العباد ، أي لم يعلمها الله تعالى أزلاً ، ولم يقدرها ، ولم تكتب في الذكر (كتاب المقادير) ؛ ولزمهم في معتقدهم هذا أن يكون للكون غير خالق واحد ، وهو رد صريح لقول الله تعالى

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ ^(١) وقوله : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ^(٢) وقوله :
﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقُ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ^(٣)

(١) سورة الأعراف الآية (٥٤) .

(٢) سورة الصفات الآية (٩٦) .

(٣) سورة الأنعام الآية (١٠٢) .

فكانوا بهذا مجوساً لإبائهم خالقين مع الله تعالى في الكون ، وقد روى أحمد وأبو داود بسند حسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « الْقَدْرِيَّةُ مَجُوسٌ هَذِهِ الْأَمِيَّةُ ، إِنْ مَرَضُوا فَلَا تَعُوذُوهُمْ ، وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشْهَدُوهُمْ »^(١) .

وقالت فرقة أخرى بعكس ما قالت الأولى ، فكانوا على النقيض معهم : إذ قالوا : -

إن العبد لا إرادة له في أفعاله ولا اختيار ، وليس هو بالفاعل على الحقيقة أبداً ، وإنما الفاعل هو الله عز وجل . وما ورد في القرآن من نسبة الفعل إلى العبد كقوله تعالى : ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾^(٢) وقوله : -

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾^(٣)

إلى غير ذلك من الآيات التي تسند الفعل إلى العبد خيراً كان أو شراً ، إنما هي نسبة مجازية علاقتها السببية ولم تكن نسبة حقيقة أبداً . إن هي إلا أفعال الله تعالى أجراها على يد العبد ، والعبد مجبور عليها ، غير مريد لها . ولا اختيار له في فعلها أو تركها . ولزمهم بذلك أن لا يكون في فعل العبد حُسن ولا قبح ، ولا خير ولا شر ، وبالتالي فلا حساب عليها ولا عقاب . وبناء على مذهبهم هذا فإنه لم يبق من معنى لبعثة الرسل ، وانزال الكتب . ووضع الشرائع ، ومن هنا كان هذا

(١) أبو داود (٢/ ٢٤ ، ٢٥) وأحمد (٢/ ٨٦ ، ١٢٥) والفتح الرباني (١/ ١٤٠ ، ١٤١) وابن ماجه (مقدمة / ١٠) .

(٢) سورة البقرة الآية (١٩٧) .

(٣) سورة النحل الآية (٩١) .

المذهب مذهب الجبر والتعطيل أسوأ ، وأفسد ، وأقبح من القدرية
« نفاة القدر » .

وقال فريق ثالث : إنه ما دام الله تبارك وتعالى قد نفى الظلم عن
نفسه في قوله :

﴿ إِنْ أَلَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفْهَا ۖ ﴾^(١)

وحرمه على نفسه وعلى عباده في قوله في حديث مسلم القدسي : ﴿ يَا
عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا
تَظَالُمُوا ۖ ﴾^(٢) .

فكيف يجوز إذاً عقلاً أن يكتب على العبد أزلاً أعماله ليقوم بها
حتماً ، ثم يؤاخذ عليها ؟ بل ذهبوا إلى أكثر من هذا القول بشاعة
وقبحاً فقالوا : ما دام الله تعالى قد علم مصير العبد ، وقرره ، حيث
قدره بكتابته في كتاب المقادير العام اللوح (المحفوظ) ، وأصبح العبد
لا محالة صائراً إليه شاء أم أبى ، أحب أم كره ، فكيف يؤمر العبد إذاً
وينهى ، ويُطالب بفعل الطاعات ، وترك المعاصي ، والأمر قد بُت
فيه ، وفرغ منه ، إنما يؤمر وينهى من لم يحدد له مصير ، وتقرر له
نهاية ، فمثل هذا يؤمر وينهى ليتقرر مصيره بحسب استجابته لما أمر به
ونُهي عنه ، وعدمها .

(١) النساء الآية (٤٠) .

(٢) مسلم ٨ / ١٧ .

(الإِبليسيه)

هذا ملخص هذا المذهب الثالث ، وإنه ليدو أن أصحابه مترددون بين إثبات القدر ونفيه ، والقول بالجبر وعدمه ، ولزمهم في مذهبهم هذا ما أصبحوا به شراً من إبليس ألا وهو الاعتراض على الله تعالى ، ونسبة الظلم إليه وهو المنزه عن الظلم ، البعيد عن كل نقص سبحانه لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

وأخيراً ينبغي أن تسمى هذه الفرقة الحيرى المترددة (بالإبليسية) وإن كانت شراً من إبليس .

وهدى الله أهل الإيمان والتقوى إلى الحق الذي اختلفت فيه تلك الفرق فضلت عنه وجانبته ، وعاشت بعيدة عنه ، وهي ما بين مجوسية نافية لأقدار الله تعالى ، مثبتة باطلاً خالقين متعددين في العالم ، في حين أنه لا خالق إلا الله سبحانه وتعالى .

وبين جبرية معطلة للشرع ، منكرة للعقل ، وبين إبليسية معترضة على الله تعالى في قدره ، نافية لمشيئته وحكمته ، شاكّة في عدله ، ورحمة قضائه .

هداهم - أهل الإيمان والتقوى - إلى الحق بإذنه فآمنوا بقضاء الله وقدره ، وعدله ورحمته ، وإرادته ومشيئته ، وحكمته ، وحنن تديبه ، وقالوا لا يتم إيمان عبد حتى يؤمن بقدر الله تعالى .

ذلك القدر الذي هو سر نظام الحياة ، وهو علم الله الأزلي ،

وتقديره لكل شيء ، وكتابته في اللوح المحفوظ ، والمعبر عنه أحياناً بالإمام المبين كقوله تعالى :

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾^(١)

فلا يزيد شيء عما كتب ولا ينقص ، الأحداث الصغار التي تجري في هذا الكون كالأحداث الكبار ، والأعراض والصفات كالأجسام والذوات ، كل شيء كان منذ كان الكون أو سيكون إلى انقراض الكون ، قد جرى به العلم ، ومضى فيه التقدير ، وكتب في الذكر حتى عجز الخاملين ؛ وكيس النابهين . روى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ قوله : « كُلُّ شَيْءٍ يُقَدَّرُ حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ »^(٢) وأخرج الشيخان عن عليّ أن النبي ﷺ قال : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ . قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَفَلَا نَتَكَلَّفُ عَلَى كِتَابَتِنَا ، وَنَدْعُ الْعَمَلَ ؟ قَالَ : « اْعْمَلُوا فَكُلُّ مُسِرٍّ لِمَا خُلِقَ لَهُ . أَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُسِرُّ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَأَمَا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَيُسِرُّ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ . ثُمَّ قَرَأَ : فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ ، وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى » الآيات^(٣) كما روى البخاري أن النبي ﷺ قال لأبي هريرة « جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ فَاخْتَصَّ عَلَى ذَلِكَ أَوْ ذَرَّ »^(٤).

آمن هؤلاء الموفقون بالقضاء ، والقدر والعدل ، والإرادة ، والمشية ، والحكمة ولم يصعب عليهم كما صعب على غيرهم التوفيق

(١) سورة يس الآية (١٧) .

(٢) مسلم (٨ / ٥١ ، ٥٢) .

(٣) متفق عليه بمعناه اللؤلؤ والمرجان (٣ / ٢٠٩) ، والآيات من سورة الليل (٦٠٥) .

(٤) البخاري (٥ / ٧) .

بين كون فعل العبد قد قدره الله تعالى ، وكتبه عليه ، وسبق به علمه قبل التقدير والقضاء وبين كون العبد فاعلاً لفعله مريداً له ، مختاراً في فعله وفي تركه ، يحاسب به ، ويجزى عليه . ولا بين كون العبد فاعلاً لفعله وبين كون الله خالقاً للعبد وخالقاً لفعله . ولا بين كون الله يقضي للعبد ما شاء من قضاء ، ثم يأمره وينهاه ، ويجزيه حسب عمله الذي قُدر له ، وكتبه له أو عليه ، فقالوا : إن الله تعالى لما قدر ما للعبد وما عليه من خير أو شر ، وسعادة أو شقاء قد قدره مربوطاً بأسبابه ، فللخير أسبابه ، وللشر أسبابه ، كما قدر أن العبد يأتي تلك الأسباب ، ويعمل بها بمحض إرادته التي قدرها له ، وحرية اختياره الذي قضى له به ، فلا يصل العبد إلى ما كتب عليه وقُدر له من سعادة أو شقاء إلا بواسطة تلك الأسباب التي يفعلها غير مكره عليها . ولا مجبور على فعلها ، والحجة في ذلك قول الرسول ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بَعْمَلٍ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُدْخِلُهُ رَبُّهُ الْجَنَّةَ ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بَعْمَلٍ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدْخِلُهُ رَبُّهُ النَّارَ »^(١) . ودلالة هذا الحديث الصحيح ظاهرة في أن الله تعالى إذا كتب على العبد أزلاً السعادة ، أو الشقاء كتب له كذلك أنه يعمل بالأسباب التي تسعد أو تشقي لستم السعادة أو الشقاء على أساس نظام الأسباب كما أن الاستدلال بنظام الكون العام له وجه أيضاً إذ الإنسان جزء من الكون كله ، والكون جميعه مربوط بسنن وقوانين تحكمه إلى نهاية أجله فلم لا يكون إذا الإنسان كذلك مبلوّه ، وسعيه ، ومصيره مربوط كذلك بسنن تحكمه لا يمكنه الخروج عنها بحال من الأحوال ،

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٣/ ٩٢ ، ٩٣) . . وأبو داود في سننه (٢/ ٥٢٩) والترمذي في تفسيره سورة الأعراف (٢) وأحمد (١/ ٤٥) .

وتلك هي نظام القضاء والقدر إذ أنه لا فرق بين الإنسان والكون إلا أن الإنسان منظور في سعيه إلى إحدى غايتين : السعادة أو الشقاء فهو واصل بسعيه إلى إحداهما لا محالة فلذا اختلف سعيه عن سعي غيره من سائر الخلق ، ومن أجل هذا أعطي قدراً زائداً عن سائر الخلق وهو الإرادة والاختيار في سعيه ، فالكون من غير الإنسان يسعى مسعاه الذي قدر له لا يخرج عنه لأنه غير منظور في سعيه إلى إحدى الغايتين وإنما إلى غاية واحدة لا تتخلف فلذا لم يعط إرادة ولا اختياراً ، وكان بعكسه الإنسان الذي أعطي الإرادة والاختيار فتحمل بهما الأمانة بعد أن رفضها الكون كله وأبأها قال تعالى في سورة الأحزاب :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾^(١)

زيادة ايضاح :

ولمزيد التوضيح لهذه الحقيقة نقول إن الإنسان مخلوق لله تعالى ، مربوب له كسائر الخلق كالشمس والقمر والنبات والحيوان يقوم بفعله كما تقوم سائر المخلوقات بما أناط بها ربها تعالى من أفعال تقوم بها ، وإنما الفرق بين الإنسان وسائر الخلق أن الإنسان أعطي إرادة واختياراً لعل التكاليف : والجزاء عليه بخلاف غيره^(٢) . فإنه لا جزاء له على عمله الذي يقوم به لعدم منحه إرادة حرة ، واختياراً كاملاً بحيث يكون إن شاء فعل وإن شاء ترك ، فيصل إلى إحدى غايتيه بما أَرادَه من عمله ، واختاره لنفسه بمحض إرادته واختياره ومن هنا لو أن العبد أكره على عمله ، وأجبر عليه لم يترتب عليه حساب ولا جزاء بثواب أو

(١) الآية (٧٢) .

(٢) ومن هنا كان المجنون والعبي والنائم والمكره والناسي لا مؤاخذه عليهم في أفعالهم ، لعدم وجود الإرادة والاختيار عندهم ..

عقاب لعله فقدته الإرادة الحرة ، والاختيار الثام .

بهذا تم لأولئك الموفقين التوفيق بين كون فعل العبد قد قضاه الله تعالى أولاً على العبد فهو فاعله لا محالة ، وبين كون العبد مريداً لفعله مختاراً له يُثاب على حسنه ويعاقب على سيئه .

ولبيان حقيقة كون العبد فاعلاً لفعله قائماً به ، والله خالقه ، وخالق فعله نقول : إن الكون كله مخلوق لله تعالى ، وليس ثم من خالق غيره سبحانه وتعالى :

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾^(١)

والإنسان من جملة أجزاء الكون المخلوق فهو إذاً مخلوق ، والله خالقه وخالق الكون كله ، وهل المخلوق يخلق ؟ اللهم : لا .

إن الأفلاك تدور والكواكب تسير ، والشجر ينمو ، والحيوان يعمل عمله فيأكل ، ويشرب ، ويتوالد ، فهل يقال لهذه المخلوقات من الكون إنها خالقة لأفعالها ؟ أم الله هو الذي خلقها وخلق أفعالها ؟ وإذا كان الجواب واحداً وهو أن الله تعالى هو الذي خلقها وخلق أفعالها فبأي منطق تخرج أفعال العباد من هذا الحكم العام ؟ والإنسان من جملة أجزاء الكون مربوط بنفس السنن التي تربط الكون ! أمن أجل كون الإنسان مريداً لأفعاله ، مختاراً لها ؟ فإن ذلك منحه دون سائر الخلق لعله أن يثاب على فعله ، أو يعاقب فقط ، فليس ذلك بمخرجه عن كونه عبداً لله مربوطاً له . الله خالقه ، وخالق أفعاله بالقوة التي أودعها فيه ، وأقدره على الفعل بها ، كما خلق غيره وخلق أفعاله ، وكما خلق سائر المخلوقات في الأرض والسموات بسنن الخلق والتكوين التي أودعها الكون ، وربطه بها ، فسبحانه من إله خلاق عليم !! .

(١) سورة غافر الآية (٦٢) .

بهذا قد تقررَت هذه الحقيقة وثبتت ناصعة وهي أن الإنسان فاعل لأفعاله ليس خالقاً لها . والله جل جلاله خالق للإنسان ، وخالق لأفعاله .

ونزيد الأمر توضيحاً ، والحقيقة تقريراً فنقول : أليس الإنسان ينطق ، ويسمع ، ويبصر ويعقل ، والله هو الذي جعله كذلك ؟ .

أليس الإنسان يذهب ويجيء ، ويأخذ ويعطي والله هو الذي أقدره على ذلك ؟ أليس الإنسان يحب ويكره ، ويريد ويشاء ويختار ، والله هو الذي هيأه لذلك ؟ إذاً فما دام الله تعالى هو الذي جعله وأقدره ، وهيأه لكل أفعاله تلك فهو خالقه ، وخالق أفعاله بلا جدل ولا نزاع . وكل ما في الأمر أن الإنسان يريد لأفعاله الإرادية ، مختار لها ، والله هو الذي جعله كذلك لعله الابتلاء والجزاء .

. وهنا يقال للذي لا تنتهي وساوسه في هذا الباب : يا عبد الله اخسأ ، لا تعدد قدرك ! ولا تعترض على ربك ، إنك تسأل ولا يُسأل ، خلقتك ولم تخلقه ، كنت به ولم يكن بك ، وكان ولم تكن .

وقال أولئك الموفقون في كون الله تعالى قدّر للعبد أزلاً ما شاء من قدر ، وقضى به عليه ، ثم هو يأمره ، وينهاه ، ويجزيه بحسب استجابته لأمره ونهيهِ ، وعدمها - قالوا :

أولاً : - إن الله تعالى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، له الملك ، وله الحمد ، ولا يُسأل عما يفعل ، وذلك لكمال علمه ، وعدله ، وحكمته ورحمته .

وثانياً : - أن فعل الله تعالى ، وتقديره ، وحكمه كله عدل وخير ، فليس في أفعال الله تعالى ، ولا تقديراته ، ولا أحكامه ظلم أو شر قط . قضى بهذا العقل ، وصح به النقل ، فهو سبحانه وتعالى يقول :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾^(١)

ويقول :

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(٢)

ورسوله ﷺ يقول وهو يقرر هذه الحقيقة التي قدمنا : «والخير كله في يديك ، والشر ليس إليك»^(٣)

إن الظلم والشر ، وإرادتهما لم تكن إلا من صفات المحدثين ، وسمات المخلوقين . أما ذو العرش المجيد ، الفعال لما يريد ، الغني عن العبيد فقد تنزه عن الظلم وفعل الشر . وكيف وهو الأمر بالعدل في قوله :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْعَفْوَ وَالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾^(٤)

وهو الناهي عن الظلم ، المحرم له في قوله : ﴿يَا عِبَادِي إِنِّي خَزَمْتُ الظُّلُمَ عَلَىٰ نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا﴾^(٥) . والمرغب في فعل الخير بقوله :

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ﴾^(٦)

وقوله :

﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٧)

(١) سورة النساء الآية (٤٠) .

(٢) سورة فصلت الآية (٤٦) .

(٣) رواه مسلم (١٨٥ / ٢) .

(٤) سورة النحل الآية (٩٠) .

(٥) رواه مسلم (١٧ / ٨) .

(٦) سورة البقرة الآية (١٩٧) .

(٧) سورة الحج الآية (٧٧) .

وثالثاً : - ما هو الظلم ، وما هو الشر ؟ أليس في مفهوم كل العقلاء هو وضع الشيء في غير موضعه ، وأن الشر هو كل فعل خلا من نفع ، أو زاد ضرره عن نفعه ؟ بلى ، وإذا ، فهل تعذيب عاص متمرد على ربه ، فاسق باختياره وإرادته عن أمر مولاه ، عازم على مواصلة الفسق ، مصمم على المعصية ولو عاش دهر الدهارير ، وآباد الأبدین ، ولم يحدث نفسه بالتوبة ، ولم يردها ، وهو قادر عليها بما وهبه الله من قدرة ، وما منحه من إرادة .

فهل يا معشر العقلاء تعذيب هذا الإنسان يعد ظلماً وشرّاً ؟
اللهم : لا .

رابعاً : - إنه بحكم ملكية الله تعالى لعباده بخلقه إياهم ، ورزقه لهم ، وتديره لأموالهم كان له الحق المطلق في أن يتصرف فيهم بما يشاء فلو عذبهم أجمعين لما كان ظالماً لهم ، ولو رحمهم أجمعين لكانت رحمته خيراً من عملهم . وبهذا صح الخبر ، إذ روى أحمد وأبو داود وابن ماجه بسند لا بأس به عن زيد بن ثابت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قوله : « لَوْ أَنَّ اللَّهَ غَزَى وَجَلَ عَذَبَ أَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَذَابَهُمْ وَهُوَ غَيْرَ ظَالِمٍ لَهُمْ ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْراً لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ . وَلَوْ انْفَقَتْ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَباً فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ ، وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَدَخَلْتَ النَّارَ » (١)

(١) أبو داود (٢/ ٥٢٧) وابن ماجه (مقدمة / ١٠) وأحمد (٥/ ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٩) .

خامساً- إن الله تعالى لما قدر مقادير العباد من أعمار وأرزاق ، وسعادة وشقاء قدر ذلك مع موجباته وأسبابه بحيث لا ينفك قدر مهما كان عن سببه - إلا أن يشاء الله - كما هي الحال بالنسبة إلى سائر أجزاء الكون إذ الكل مربوط بنظام السنن ، محكوم بقوانينها من أكبر جرم إلى أصغره كخلية النواة .

ويشهد لهذه الحقيقة مثل قول الرسول ﷺ : « إِن أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلٍ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلٍ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا ، وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلٍ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلٍ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا »^(١) والشاهد من هذا الحديث الصحيح إثبات نظام الأسباب ، فإنه لما كان لدخول الجنة أسباب ، ولدخول النار أسباب ، فإن العبد مهما عمل من أعمال تخالف أسباب سعادته أو شقائه فإنه لا بد في النهاية أن يعمل مريداً بأسباب ما كتب له أو عليه في كتاب المقادير ليوافق علم الله وتقديره ، وهو في نفس الوقت مريد مختار لم يُكره على فعل ما فعل ، ولم يجبر على ترك ما ترك .

إن هذه الحقيقة المدهشة حرة بالوقوف عندها ، والتفكير فيها .
إنني لا أشك في أن عبداً يدرك كنه هذه الحقيقة إدراكاً صحيحاً سليماً ، ثم لا يتصدع أمام عظمة الله تعالى ، ولا يخر ساجداً بين يديه سبحانه وتعالى .

وبيان هذه الحقيقة : أن الله تبارك وتعالى قبل أن يخلق الكون

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم (٨ / ٤٤) ، واللؤلؤ والمرجان (٣ / ٢٠٧ ، ٢٠٨) . والحارثي (٤ / ١٣٥) .

بمحمسين ألف سنة^(١) علم أنه سيخلق في يوم كذا ، وتاريخ كذا ، في مكان كذا عبد اسمه كذا ، ووصفه كذا وكذا ، وعلمه الذي سيختاره وبمحض إرادته واختياره هو كذا وكذا ليتحقق له به كذا وكذا من خير أو شر ، من سعادة أو شقاء . وكتب ذلك كله في كتاب عنده . وفي نفس الوقت المعين ، والمكان المحدد يوجد ذلك العبد ، ويربيه إلى غاية بلوغه أشده وهو صحيح ، سليم الحواس ، صحيح العقل ، ثم تعرض له - العبد - أمور متعددة ؛ وأحوال مختلفة فيختار منها ما يراه لنفسه وهو بعيد عن كل إكراه ، أو إجبار . فيفعل الذي اختاره لنفسه بكامل حريته واختياره ؛ ثم يجد نفسه بالتالي قد وافق ما كتب الله له في ذلك الكتاب الأزلي القديم ؛ ولم يخالفه في شيء ، ولم يخطئه في قليل أو كثير . فسبحان ذي العز والجبروت ، سبحان ذي الملك والملكوت ، سبحان الحي الذي لا يموت .

(١) روى مسلم رحمه الله عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كَتَبَ اللَّهُ الْخَلَائِقَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِمُحْسِنِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، قَالَ : بَعْرُشُهُ عَلَى الْمَاءِ » (٨ / ٥١) .

إرادة الله تعالى ومشيتته

إن مما له صلة وثيقة بموضوع القضاء والقدر مسألة الإرادة والمشيتة .

فلنسمع كلمة في هذا الموضوع تبين لنا وجه الحق فيه ، وتهدينا للتي هي أقوم وأحسن في هذه المسألة الخطيرة من مسائل عقيدة المؤمن .

والكلمة في هذا الموضوع تدور حول شيئين :

الأول : إثبات إرادة الله تعالى ومشيتته بالبرهانين النقلي والعقلي .

الثاني : هو أن إساءة فهم كثير من الناس لإرادة الله تعالى هو الذي أوقعهم في ضلال مبين ، وخطأ وشر عظيمين .

أما إثبات إرادة الله تعالى ومشيتته فإنه يكفي في ذلك سرد الأدلة السمعية وهي أخباره تعالى ، وأخبار رسوله صلى الله عليه وسلم . ومنها قوله تعالى من سورة البقرة :

﴿ يَرْيَدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾^(١)

(١) الآية (١٨٥) .

وقوله في سورة النحل :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾^(١) .

هذا في إرادته تعالى ، وأما مشيئته فيقول تعالى من سورة الأنعام :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾^(٢)

ويقول من سورة التكوين

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٣)

ويقول رسول الله ﷺ في إثبات إرادة الله تعالى « مَنْ يَرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ »^(٤) .

ويقول في إثبات إرادة مشيئته تعالى : « إِنْ خَرَضَ عَلَى مَا يُنْفَعُكَ ، وَاسْتَعْنَى بِاللَّهِ ، وَلَا تَعْجِزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنْ لَوْ تَفْتَحْ عَمَلَ الشَّيْطَانِ »^(٥) .

إن فيما ذكرنا من أخباره تعالى ، وأقوال رسوله ﷺ وهو قليل من كثيرة لدليلاً كافياً في إثبات إرادة الله تعالى ومشيئته سبحانه وتعالى ، ولنشفع هذا الدليل السمعي بالدليل العقلي فنقول : إن الله تعالى بكونه خالق كل شيء ، وربّه ، ومليكه مستلزم لإرادته تعالى ومشيئته ، إذ لو

(١) الآية (٤٠) .

(٢) الآية (١١٢) .

(٣) الآية (٢٩) .

(٤) رواه البخاري (١٠٣ / ٤ ، ١٢٥ / ٩) ومسلم (٩٥ / ٣ ، ٥٣ / ٦ ، ٥٤) والذُّلُزُ والمرجان

(١ / ٢١٨ ، ٢١٩) .

(٥) رواه مسلم (٥٦ / ٨) ، وقوله في آخر الحديث ، ولكن قل : قدر الله روي بلفظ قدر بالدال المهملة المفتوحة بدون شدة ، وروي بتشديد الدال .

لم يكن مريداً لكان مكرها ، ولو كان مكرها لما تأتى له إيجاد العوالم ،
والتصرف فيها ، والتدبير لها بمقتضى المصلحة والحكمة ، كما أن كون
الإنسان مريداً شائياً بقنص لإرادة الله تعالى ومشيتته ، إذ من غير
المعقول أن يكون المخلوق مريداً شائياً ، ويكون خالقه لا إرادة له ولا
مشيئة ، بل إن العقل يقضي بإثبات إرادة للخالق ، ومشية أعظم من
إرادة الإنسان ومشيتته المخلوقتين منه . فلذا ما أراد المخلوق شيئاً ولا
شاء إلا وقد أراده الخالق وشاء ذلك وإلا لزم أن يكون المخلوق أقوى
من الخالق ، مستقلاً بالأمر عنه وهو محال عقلاً وشرعاً قال تعالى :
﴿أَمَّنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾^(١)

وقال تعالى :

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)

هذا في إثبات إرادة الله تعالى ومشيتته . وأما عن إساءة فهم كثير
من الناس لهما ، وما ترتب على ذلك من ضلال ، وشر ، وفساد ، فإننا
نقول :

إنه من غير المجازفة في الكلام إن قلنا : إنه ليس هنا في
المؤمنين من ينفي إرادة الله تعالى ومشيتته ، وإنما هناك سوء فهم لهما
ترتب عليه ضلال لا يقل خطورة عن ضلال أهل الجبر ، ونفاة القدر .

وهذه المسألة أيضاً الناس فيها طرفان ووسط ، فهي نظير مسألة
القضاء والقدر ، وقد تقدم بيانها بما فيه كفاية لمن أخذ الله بيده فحماء
من زيغ القلوب !

(١) سورة النحل الآية (١٧) .

(٢) سورة التكويد الآية (٢٩) .

فالموسط نجا هنا كما نجا هناك ، والطرفان ضلاً هنا كما ضلاً هناك ، والله المستعان .

وهذا بيان ضلال القوم : إن الطرفين منهما مفرط ، ومنهما مفرط ، فالطرف المفرط هو من زعم أن لا إرادة يخضع لها ، ولا مشيئة إلا إرادته هو ومشيئته ، فجميع أفعاله في زعمه لا تخضع إلا لإرادته وحده . فما يشاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا يستثنى من ذلك إلا ما أكره على قوله ، أو فعله ، بقوة سلطان قاهر له ، ألجأه بالقوة المادية إلى قول ما لا يريد ، أو فعله ، وما عدا ذلك من تصرفاته فهو لا يخضع فيها إلا لإرادته ومشيئته فقط . وهذا الضلال في هذه المسألة هو ضلال الملاحدة الذين لا يؤمنون بوجود الله تبارك وتعالى ، ولا بسلطانه على خلقه ، وحكمه فيهم .

بيد أنه شاركهم فيه طائفتان من المؤمنين ! إحداهما تقول : إن الله تعالى منزّه عن أن يريد ضلال ضال . أو كفر كافر ، أو يشاء فعل الفواحش ، أو ارتكاب القبائح . فنفوا بهذا إرادة الله تعالى ، ومشيئته في أكثر حوادث العالم الجارية فيه ، ولازم هذا المعتقد أن الله تعالى قد يقع في ملكه ما لا يريد ، وأن هناك مشاركاً له في خلق الحوادث ، وإيجادها بإرادة مستقلة عن إرادة الله تعالى . وهذا قطعاً ضلال ، وشرك يتبرأ منهما ، ويستعاذ من مثلهما .

وقالت الأخرى وهي ممن لا رأي لهم في هذا الموضوع ولا علم ، وإنما هي مجموعة جهلة المسلمين ومقلداتهم ، وأكثرهم من مثقفة المستغربين ، قالوا :

إنه لا دخل لمشيئة الله تعالى في أفعالنا ، وإنما مرد أفعالنا إلى إرادتنا الخاصة ، ومشيتنا ، فما شئنا فعله فعلناه ، وما لم نشأ فعله لم نفعله . ولهذا تراهم ينكرون بشدة على من يقول سأفعل كذا غداً إن

شاء الله تعالى ، ويردون عليه في غضب وزمجرة : لا تقل إن شاء الله
قل سأفعل فقط . لا تقل لنا إن شاء الله ، هذه الكلمة خلها جانباً ،
وقل سأفعل كذا وكفى !!! .

ومن مظاهر ضلالهم هذا أن أحدهم يتكلم بأخبار مستقبله خالصة
للاستقبال ، ولا يقيد خبراً واحداً منها بمشيئة الله تعالى ، فيخبر أنه
سيسافر ، أو يبيع ، أو يشتري ، أو يني ، أو يهدم ، أو يأخذ ، أو
يعطي ، ولا يقيد من ذلك بمشيئة الله تعالى شيئاً أبداً ، بل يطلق أقواله
إطلاق من لا يؤمن بغير إرادته ومشيئته . ولا أدل على ذلك من أن
مذيعي النشرات الجوية في أغلب الإذاعات ، والتلفزات الإسلامية من
عربية وعجمية يطلقون أقوالهم جازمين بوقوع مدلولاتها كان الأمر لهم
وحدهم ، وليس لهم فيه مشارك . فيقول أحدهم ستهب الرياح غداً
شرقية ، أو غربية ، وستنزل أمطار غزيرة أو ضعيفة في منطقة كذا ،
وستراكم السحب على كذا ، أو تنزل ضخات مطر خفيفة على كذا إلى
آخر ما ينبؤون به ، ويقولون في نشراتهم الجوية اليومية ، ولم يقيدوا
منها بمشيئة الله تعالى ولا إرادته ، ولا إذنه شيئاً ، فدل ذلك على عدم
إيمانهم بمشيئة الله تعالى ، ولا إرادته ، ولا أنه ما شاء كان ، وما لم
يشأ لم يكن ومن كان بينهم يؤمن بإرادة الله ، ومشيئته فإنه يترك
الإستثناء بمشيئة الله تعالى خوفاً من الملاحظة حوله ، أو مجاملة لهم .
فيصبح قريناً لهم في الشرك والضلال .

هذه حال الطرف المفرط . وأما الطرف المفرط وهو لا يقل
ضلالاً وباطلاً عن مقابله ، فإنه يهدر ما منح الله تعالى عباده من إرادة ،
وما وهبهم من مشيئة تليق بآدميتهم ، وتتفق مع ما هيأهم الله له من
التكاليف التي يتقرر بها مصير العبد في الحياتين . كما سبق بيانه عند
الكلام على القضاء والقدر . فقالوا :

إنه لا إرادة للعبد ولا مشيئة البتة وإنما الإرادة والمشيئة لله تعالى

وحده ، وأنكروا أن يكون للعبد إرادة أو مشيئة ، فساقهم هذا المعتقد الفاسد إلى ضلال لا حد له ، ولا حصر ، حتى أصبحوا به معطلة أسوأ حالاً من الملاحدة الذين لا يؤمنون بالله تعالى ، ولا بشرعه ، ولا بخلقائه .

وانعكست عندهم الأمور ، واختلطت الأشياء ، فأصبح القبيح عندهم حسناً والحسن قبيحاً ، والكفر كالإيمان ، والفسق والفجور ، كالطاعة والبرور ! فكل عامل عندهم هو مطيع لله سواء عمل بطاعته ، أو عمل بمعصيته ؛ فالعامل بالمعصية مبرأ من تبعة عمله ، وجريرة فعله فلا ذنب ولا وزر ، وبالتالي فلا عذاب ولا عقاب ، وذلك لأن كل عامل في نظرهم هو يعمل بإرادة الله تعالى ومشيئته لا بإرادة نفسه ومشيئته ، إذ العبد عندهم لا إرادة له ولا مشيئة !

ولنستمع لأحدهم وهو يترجم هذا المذهب الفاسد القبيح في بيت واحد من الشعر فيقول :

أصبحت منفعلاً لما يختاره منى ففعلي كله طاعات .
ومبنى هذا المذهب الباطل الذي أهدر ما وهب الله تعالى عبده من إرادة ومشيئة ، وأهدر بالتالي كل القيم والشرائع مبناه على قاعدة تقول : العبد مطيع للإرادة موافق للمراد ، يريدون . إرادة الله تعالى ومراده . وعليه فلم يبق ذنب ولا مذنب على وجه الأرض إذ الناحر للإنسان مطيع للديان ، والصائم الظمان موافق لمрад الرحمن ، فهما إذاً في هذا المذهب سيان .

ودون هذه الطائفة طائفة أخرى أخذت كذلك مبدأً إلا إرادة للإنسان ، ولا مشيئة ، ولكن ما قالوا هذا عن علم لهم ، وفهم لديهم ، وإنما قالوه اتباعاً للهوى ، وجرياً وراء الشهوات .

إذ أن أحدهم يأتي ما يأتي من الباطل ، ويرتكب ما يرتكب من

المنكر والذنوب وإن قيل له في ذلك قال هذه إرادة الله حكمت بهذا ، ومشيتته اقتضته ، ولو شاء الله ما فعلت ، وإنما أنا عبد لا أخرج عن إرادة الله ومشيتته ، وهذه حال كثير من المسلمين اليوم ، وقبل اليوم ، منذ أن فشا الفساد في عقائد الأمة ، وانتشر الزيغ في صفوفها نتيجة عمل يد الهدم والتخريب التي ما برحت تطعن في جسم أمة الإسلام حقناً عليها ، وحسداً لها .

ولو كان هذا التول منهم نابعاً من اعتقاد صحيح ، وهو أنهم خاضعون لمشيئة الله تعالى وأقداره فيهم لكان حسناً منهم ، وصح لهم ولكنه لا صلة لله بقلوبهم البتة ، وإنما هو مجرد قول يلوكونه بألسنتهم لدفع المذمة عنهم ، والملامة عليهم ، فكان شأنهم شأن المشركين الذين حكى القرآن قولهم :

﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ﴾^(١)

فإنهم لما دعوا إلى عبادة الله وحده ، وإلى ترك التحريم لما أحل الله تعالى من بحائر الإبل وسوائبها^(٢) ، احتجوا ببررين شركهم وافتراءهم على الله بمشيئة الله تعالى ، وأنه لو شاء الله عدم شركهم ما أشركوا ؛ ولو شاء عدم تحريمهم لما حرموا ما حرموه ، ولم يكن هذا منهم إلا دفاعاً عن باطلهم وضلالهم ؛ ولم يكن أبداً عن اعتقاد صحيح بأنهم خاضعون حقيقة لأقدار الله تعالى ، عاملين بمراده ، طالين لرضاه ، نازلين عن مشيئتهم لمشيئته ، إذ لو كان هذا هو المراد من قولهم لكانوا به مؤمنين صادقين ، وكان من السهل إقناعهم بترك الشرك بالله ، والافتراء عليه ، لأن الله تعالى حرم ذلك ، ونهى عنه ، ولو كان مراداً له

(١) سورة الأنعام الآية (١٤٨) .

(٢) البحائر جمع بحيرة : وهي الناقة تنتج وتلد خمسة أبطن أو سبعة فتشق أذنفاً ويخلى سيلها فلا يركب ظهرها ، ولا يجز وريها ، ولا يشرب لبنها ، ولا يؤكل لحمها ، والسوائب جمع سائبة : وهي الناقة التي يحرمها صاحبها ويتركها تقرأ للالهة وأحكامها كأحكام الحيرة عدهم !!! .

محبوباً لديه لما نهى عنه ، وحرمه في كتابه ، وعلى لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

وهنا يحسن التذكير بقاعدة جليلة ، وحكمة ثمينة وضعها الهداة المهتدون من فرقة الوسط الناجون وهي : أنه لا يحتج بإرادة الله وقدره على المعائب ؛ ولكن يحتج بهما على المصائب . فالمعائب وهي الذنوب والمعاصي ما دام الله تعالى قد حرّمها على عباده ، وكرهها لهم ، ومنهم ، وأنزل بذلك كتبه ، وبعث رسله ، فإن العبد إذا غشيها مريداً لها ؛ وتلبس بها مختاراً غير مكره عليها . لا يصح عقلاً أن يحتج بالقدر الذي هو علم الله ، وتقديره لأحداث الكون خيرها وشرها ؛ وكتابه لها في كتاب المقادير (اللوح المحفوظ) بخلاف المصائب التي تصيب المرء ولم يكن قد تسبب فيها بترك طاعة ؛ أو مخالفة سنة من سنن الله تعالى الشرعية أو الكونية ، فإنه إن قيل له في ذلك صح منه الاحتجاج بالقدر بل بالإرادة الكونية ، إذ لم يكن بإرادة منه ولا اختيار ، كالرجل يسقط عليه جدار ، أو تلسعه حية ، أو تنقلب به سيارة ولم يكن قد علم بتصدع الجدار وجلس تحته ، ولا بوجود الحية ونام عليها ، ولا تجاوز حد السرعة المعتادة لسيره .

أما إن تسبب في هذا فلا حق له في الاحتجاج بالقدر ، بل عليه أن يتحمل نتائج معصيته ، ومعاقبة ربه تعالى له لمخالفته سنته ، وإهماله الأسباب المشرعة لسلامته .

وبالمناسبة يُذكر هنا احتجاج آدم وموسى عليهما السلام قال موسى عليه السلام لآدم لا ثماً له : « أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ، فرد عليه آدم غلبه السلام محتجاً على المصيبة التي شكّاها موسى ، وهي الخروج من الجنة قائلاً : « أتلومني على أمر قدّره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة ، فحج آدم موسى » وغلبه في الحجة ، لأن المصائب يحتج فيها بالقدر ، بخلاف المعائب ، لأن المصيبة لم يردّها

الإنسان ، ولم يأتها مختاراً لها مؤثراً إياها ، وإنما تقع عليه بدون علم منه ، ولا إرادة ولا اختيار ، فيحسن الاحتجاج عليها بالقدر تخفيفاً من آلامها ؛ وثقل وطأتها على النفس المصابة .

أما المعائب أي الذنوب فإن العبد يأتيتها مريداً لها ، وهو يعلم أن الله تعالى قد حرّمها وكرهها ، فإذا فعلها لم يصح منه عقلاً ولا شرعاً أن يحتج عليها بإرادة الله تعالى ، وقدره بحال من الأحوال .

وقد يكون من اللائق هنا رواية حديث احتجاج آدم وموسى عليهم السلام لسماع نصه كاملاً كما رواه الشيخان إذ جاء فيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قوله : قال رسول الله ﷺ : « إحتج آدم وموسى ، فقال موسى : يا آدم أنت أبونا خيبتنا ، وأخرجتنا من الجنة ! فقال آدم : أنت موسى ، اصطفاك الله بكلامه ، وكتب لك التوراة بيده . أتلومني على أمرٍ قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة » فقال النبي ﷺ : « فحج آدم موسى »^(١) . وقد روي هذا الحديث بالفاظ أخرى نكتفي بهذا اللفظ منها . والله المستعان .

(١) متفق عليه اللؤلؤ والمرجان (٣ / ٢١١) ، والبخاري (٨ / ١٥٧) ومسلم (٨ / ٤٩ - ٥١)

سوء فهم كثير من الناس لإرادة الله تعالى أوقعهم في الحيرة والخطأ

لقد نبت بالتحيرة والملاحظة أن خللاً بسيطاً يقع في جهاز صحم كطائرة (الكونكورد) المرسية البريطانية ، أو كبنية كبرى كطائرات السحاب الأمريكية قد يفسده ويدمره فيحمله إلى حراب ودمار . وكذلك الحال بالنسبة إلى عقيدة القضاء والقدر ، والإرادة والمشيئة إذا وقع فيها أدنى انحراف ، وبأي وجه ، أو صورة أوقع صاحبه في ضلال وخطأ لا حد لهما .

إن أكثر الذين تلبلت أفكارهم ، واصطرت نفوسهم في عقيدة الإرادة والمشيئة من المسامحين كانوا ممن غفلوا عن كون القدر هو نظام الحياة الذي يحكمها من نواتها إلى نهايتها ، وأنه يجب أن يمضي كما عُلم وكتب ، وأن تعبير شيء منه معناه حراب الحياة بكاملها

ولذا تحتم على العبد التسليم به ، وله ، وحرم عليه إنكاره ، والاعتراض عليه ، كما لا يجوز بحال الاحتجاج به ، أو الاتكال عليه . هذا هو الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟؟

أو كانوا ممن جهلوا أن إرادة الله تعالى - ومشئته منها - تنقسم إلى إرادة كونية قدرية ، وهي تلك التي لا يناط بها تكليف الإنسان ، ولا إثابته ولا معاقبته ، وهي الإرادة التي كان بها القدر ونظامه . والتي لا حق للإنسان أن ينظر إليها بغير عين الرضا والتسليم ، وإلا أصبح محارباً لله ، معارضاً لنظامه ، يدعي السمو إليه ، والتعالي عليه ، وهو

مخلوقه الذي لا غنى به عنه^(١) حتى في أنفاسه التي يرددها ، والهواء الذي يتنفس فيه ، والضوء الذي يبصر به ، والظلام الذي بهجع فيه . وإلى إرادة شرعية دينية وهي التي أناظ الله تعالى بها تكليف الإنسان ، وثوابه وأوعذابه ، وهي التي يجب على العبد أن ينزل عليها ، ويطيع ربه فيها ، كما يحرم عليه التمرد عليها ، والخروج عنها ، وهي التي قد نزلت ببيانها وتفصيلها كتب الله تعالى ، وبعثت للدعوة إليها ، وتعليمها رسل الله عليهم السلام . وهي جميع ما شرع الله تعالى لعباده من عقائد وعبادات ، وأحكام ، وحدود ، وآداب ، ومحاسن ، وأخلاق ، وهي التي من أجلها منح الله تعالى العبد ما منحه من قدرة ، وإرادة ، ومشئته ، واختيار ، لئليته مختبراً له أيتجيب لما أراده ربه منه ، وشاء له من عبادته وطاعته ؟ أم يرفض الاستجابة ، فلا طاعة ولا عبادة !!! ؟ قال تعالى :

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ جَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ٢٣ ﴾

وهي الإرادة التي قد يتخلف فيها مراد الله تعالى ومحبوبه ، فيأمر بها عباده ، وينهاهم ، ومنهم من يمثل ، ومنهم من لا يمثل . فقد أمر تعالى عباده بالإيمان به ، وبرسله ، ويطاعته ، وطاعة رسله ، وأحب لهم الطاعة ، وكره لهم الكفر ، والفسوق ، والعصيان^(٢) .

وبما منحهم من القدرة ، والإرادة ، والمشئته أمكنهم من أن يمثلوا أو يرفضوا بمحض إرادتهم وكامل اختيارهم ، ليرتب على ذلك

(١) الضمير في مخلوقه كالضمير في عنه كلاهما يعود إلى الله عز وجل .

(٢) سورة الإنسان الآيتان (٢ ، ٣) .

(٣) قال الله عز وجل : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانُ وَزِينَةٌ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ ، وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ سورة الحشرات الآية (٧) .

جزاءهم بإثابة المحسنين وعقوبة المسيئين .

هذه هي الإرادة الدينية الشرعية كما ينبغي أن تعلم .

وأما الإرادة الكونية القدريّة والتي سبق بيانها فإن الله تعالى لم يجعل للعبد قدرة على الخروج عنها ، والتمرد عليها بحال من الأحوال ، لأنها لا تتعلق بأفعال العباد الإرادية الاختيارية التي هي التكليف والجزاء إلا من حيث أنه تعالى شاءها أن تكون أزلاً كذلك ، فكانت طرداً لعموم إرادته حتى لا يخرج الكون عنها .

وزيادة في الايضاح للإرادة الكونية والتي لا سبيل للإنسان إلى الخروج عنها نقول : فهل يمكن للإنسان أن يرفض أن يكون ذكراً إذا كان أنثى ؛ أو العكس ؛ أو يرفض أن يكون أسود إذا كان هو أبيض ، أو يرفض أن يكون قصيراً إذا كان هو طويلاً ، أو يرفض أن يولد في بلد كذا أو تاريخ كذا إذا كان هو في بلد وزمان غير ما كان فيه ؟؟؟ والجواب في كل هذا ، لا ، ولم ؟ والجواب : هو أن إرادة الله تعالى الكونية لا يعصى فيها ، ولا تتخلف بحال من الأحوال ، لأنها مناط نظام الكون ، وآية الربوبية ، وموجب الألوهية لله سبحانه وتعالى ، وبخلافها الإرادة الشرعية التكليفية المتعلقة بأفعال العباد الإرادية الاختيارية ، فإن الله تعالى أقدر العبد على امتثالها ، ورفضها لبيئته ثم يجزيه .

وأخيراً إنه لا يسع العبد أمام هذه العظمة الإلهية إلا أن يسجد لله هية وإجلالاً . وأن يذكره ويشكره اعترافاً وتقديراً ، وبذلك تتم كرامته ، وتكتمل إنسانيته ويستقيم في حياته استجابة لما أراد الله تعالى منه كوناً وتقديراً ، وشرعاً ودينياً .

الهداية والإضلال

ومثل الخطأ في فهم الإرادة والمشيئة ، الخطأ في فهم الهداية والإضلال ، فقد أساء كثيرون فهم مثل قول الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(١) وقوله :

﴿ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٢) وقوله :

﴿ أَقْمَنَ زَيْنًا لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾^(٣)

فقالوا كيف يضل الله العبد ثم يعذبه ؟ وكيف يزين له سوء عمله ثم يعاقبه عليه ؟ وقالوا : أين العدل والرحمة في ذلك ؟ فنصبوا أنفسهم بجهلهم خصوماً لربهم ، فهلكوا بجهلهم ، وشقوا بسوء فهمهم . ولو وفقوا لسلموا لله تعالى في حكمه . ولم يعترضوا عليه في تدبيره لأمر خلقه ، إذ له الخلق وله الأمر ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لا

(١) سورة إبراهيم الآية (٤) .

(٢) سورة الأنعام . الآية (١٠٨) .

(٣) سورة فاطر الآية (٨) .

يُسأل عما يفعل ، وهو العزيز الحكيم ، ولكن القوم لما لم يوفقوا سلكوا مسلك إبليس في الاعتراض على الله عز وجل فأصابهم بذلك إبلاس وخذلان . ولو وفقوا - وقد عرفوا أن الله تعالى يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء للجأوا إليه تعالى راغبين خائفين ، يسألونه الهداية ، ويستعيذونه من الضلال ، إذ هو مالك الملك ، القادر على كل شيء . لو وفقوا لأتوا بابه سائلين ، وللاذوا بجنابه محتمين ، حيث لاح طريق الهدى

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾^(١)

ولكن ما وفقوا فاتبعوا خطوات الشيطان ، فباءوا بالحرمان ، والذي قادم لهذا الخسران والهوان جهلهم بربوبية الله تعالى ، وسوء ظنهم في الرحمن . فجهلهم بالربوبية التي من مقتضياتها التربية والإصلاح ، ومن مستلزماتها الهداية والاضلال هو الذي جعلهم يسألون كيف؟؟ وليس من حقهم أن يسألوا ، وسوء ظنهم بربهم في تقديره ، وحسن تدبيره جعلهم يعترضون على حكمه ، ويستخفون حكمته ، فهلكوا بجهلهم ، وسوء ظنهم بربهم .

فما أسوأ حالهم ؟!!! وما أخسر مآلهم ؟!!!

والحقيقة التي قد خفيت عليهم فضلوا هي أنهم لم يعلموا أن الله تعالى إنما يضل من يضل بعد أن يُعذَر إليه بتبيين سبل الهدى واضحة ، ويمنحه القدرة الكافية على السير فيها ، فإذا أثر العبد - بعد العلم - بالضلal على الهدى ، ولاه الله ما تولى ، فكان ذلك عدلاً منه تعالى ، لا ظلم معه . قال تعالى من سورة التوبة :

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾^(٢)

(١) سورة الكهف الآية (١٧) .

(٢) الآية (١١٥) .

إنهم لم يعلموا أن الهداية كالإضلال كل منهما يتم حسب سنن الله تعالى في خلقه ، والسنة في الإضلال كالسنة في الهداية وهي الإيثار ، والرغبة ، والطلب ، والعمل .

فمن أثر الهداية ورغب فيها ، وطلبها وعمل بأسبابها تمت له ، ووجد من الله تعالى عوناً له على تحصيلها وتحقيقها . وهذا من رحمة الله تعالى بعباده ، وفضله عليهم . ومن أثر الضلالة ، ورغب فيها وطلبها ، وعمل بأسبابها تمت له . ولم يجد من الله تعالى صارفاً عنها وهذا من عدل الله تعالى في عباده ، وحسن تديبه فيهم . وجهلوا سنة الله تعالى في تزوين الأعمال لأصحابها ، فأنكروا على الله تعالى ذلك ، وقالوا كيف يزين الباطل الشر لعبد حتى إذا فعله عاقبه عليه؟؟ .

وما علموا أن هذا التزوين إنما حسب سنة إلهية لا تتخلف وهي أن المرء إذا أثر العمل باختياره ، وأحبه من نفسه ، ولازمه غير منفك عنه زمناً طويلاً أصبح ذلك العمل زيناً له ، حسناً عنده ، وإن كان شيئاً قبيحاً عند غيره . والعمل الفاسد كالعمل الصالح في هذه السنة كلاهما يُزِين لفاعله بهذه الطريقة .

غير أنه من رحمة الله تعالى بعباده ، وعظيم إحسانه إليهم أن حذرهم في كتبه ، وعلى السنة رسله عليهم السلام ، حذرهم من استدامة العمل الفاسد ، والإصرار عليه ، ودعاهم إلى تركه ، والتوبة منه ، قبل أن يبلغ من نفوسهم حد التزوين ، ويصل إلى مستواه ، فيزين لهم حسب سنة الله تعالى ، ويومها يتعذر عليهم تركه ، والإقلاع عنه .

وفي هذا يقول تعالى في سورة فاطر :

﴿ أَفَنَزَّيْنَهُ لَمْ يَسْؤُهُ عَمَلِهِ ۖ فَرَّاهُ حَسَنًا ۖ ﴾^(١)

(١) الآية (٨) .

ويقول :

﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾^(١)

فمن استجاب لتحذير الله تعالى ، وترك فاسد الأعمال ، وسيئها نجا ، ومن تجاهل التحذير ، وواصل في سبيل الغي السير هلك ، ومن نجا فقد نجا برحمة الله وفضيله ، حيث هيا له أسباب النجاة ، وأعاناه على الأخذ بها ، ومن هلك فبقد هلك بعدل الله تعالى حيث نهاه عن الغي ، فأثره على الرشد ، ودعاه إلى التوبة ، فرفضها ، وأصر على خلافها حتى وصل في عمله جد التزيين فزين له قرآه حسناً ، وبذلك فقد الاسمداد لقول دعوة الخير والهدى ، ومضت فيه سنة الله في التزيين ، فهلك مع الهالكين ، ولا عدوان إلا على الظالمين :

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٢)

(١) - سورة الأنعام الآية (١٠٨)

(٢) - سورة النحل الآية (٣٣)

الجزاء من ثواب وعقاب قائم على أساس الرحمة والعدل

ومن غفلة بعض المؤمنين عن كيفية إجراء الثواب والعقاب على العباد في الدنيا والآخرة تورطوا في جدل وخصومات لا معنى لها ، ولا داعي إليها في مسألة العدل والظلم .

حتى ضل منهم خلق كثير . وفتنتهم جاءت من غفلتهم عن نظام السنن الذي هو نظام القدر ، ونابع منه ، وداخل فيه ، وليس خارجاً عنه ، ولا متنافياً معه .

وهذا بيان ذلك : إن الله تعالى جعل للأعمال الإرادية لاختيارية التي يقوم بها الإنسان أثراً في نفسه ، وبحسب ذلك الأثر يكون الجزاء من ثواب وعقاب .

ومن هنا كان العمل الإرادي كعمل إنسي . والمبغض ، والمكره ، والمجنون لا تأثير له على النفس أعني أن النفس الشريفة لا تتأثر بذلك العمل حسب سنة الله تعالى في ذلك . وعليه فلا يرب ولا عقاب .

أما ما كان من العمل إرادياً اختيارياً ، فإنه لا محالة من تأثر النفس به ، فإن كان العمل صالحاً أي من الأعمال التي شرعها الله تعالى لعباده لتزكية أرواحهم وتطهيرها ، لتأهل بذلك لمجاورته سبحانه وتعالى في المنكوت . الأعني كان التأثير والانطباع وصعاً حسناً للنفس ، ويسمى ذلك الانطباع حسنة ، وقد يطلق لفظ الحسنة على نفس العمل

المسبب لذلك على سبيل المجاز الذي علاقته السببية .

وإن كان العمل سيئاً أي مما جعله الله تعالى حسب سنته مؤثراً في النفس بالظلمة والتدسية ليكون مؤهلاً للإنسان لمجاورة الشياطين في جهنم من عالم الشقاء كان الانطباع أو الأثر وصفاً سيئاً للنفس ، ويسمى ذلك الانطباع سيئة ، وجمعها سيئات . كما قد يطلق لفظ السيئة على العمل المكسب لها إطلاقاً مجازياً علاقته السببية أيضاً ، وقد جاء في هذا عدة آيات قرآنية منها قوله تعالى من سورة الشمس :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝ ﴾^(١)

وقوله من سورة الانفطار :

﴿ إِنَّا أَلْبَرَأَرْنَا نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝ ﴾^(٢)

فالوصف مشعر بعلّة الحكم ، فالبرور والفجور هما سبب دخول النعيم والجحيم ، وقوله تعالى من سورة البروج :

﴿ إِنَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ۝ ﴾^(٣)

وقوله من سورة الزخرف :

﴿ إِنَّا الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُتَسَاوِينَ ۝ أُولَٰئِكَ يَخْلُدُونَ فِيهِ ۝ لَا يَقْرَءُ عَنْهُمْ ۝ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُوْنَ ۝ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ۝ ﴾^(٤)

فالإيمان والعمل الصالح سبب في تطهير النفس ، والإجرام بالشرك

(١) الآيتان (٩ ، ١٠) .

(٢) الآيتان (١٣ ، ١٤) .

(٣) الآية (١١) .

(٤) الآيات (٧٤ - ٧٦) .

والمعاصي سبب في تدينها ، وبحسب ذلك الأثر الطيب أو الخيث
يكون الجزاء بالثواب والعقاب . ومصادق هذا وارد في كتاب الله تعالى
من سورة الأنعام ، إذ قال تعالى

﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾^(١)

إنه وإن كان للآية الكريمة معنى غير الذي أوردنا وهو أنه تعالى
سيجزى المشركين بوصفهم الكذب بما حرّموا من الأنعام والحرم افتراء
على الله تعالى فإن المعنى الذي أوردناه قائم بالآية أيضاً ، وهو أن
الجزاء على الأعمال الصالحة والسيئة يكون بحسب الوصف المكتسب
منها للنفس البشرية التي اقتضت سنة الله تعالى انطباعها بأفعال العبد
الإرادية الاختيارية . مما جعله الله تبارك وتعالى مؤثراً في النفس ،
وذلك من كل ما شرع من الأعمال الصالحة ، وما حرم ومنع من
الأعمال الضارة الفاسدة مما يقوم به ، ويعمله قلب الإنسان ، وجوارحه
على حد سواء .

وبناء على هذا فإن الجزاء جار على أساس من الرحمة الإلهية
والعدل : فالعبد يكسب عمله بمحض إرادته واختياره ، فإن كان الكسب
مما يحب الله تعالى حيث شرعه لعباده ، وأمرهم به ، ورغبهم فيه ،
وأعانهم عليه ، بعد ما وفقهم للقيام به ، ثم أثابهم عليه الحسنة بعشر
أمثالها ، فكان جزاء تغلب عليه الرحمة والإحسان ، وإن كان الكسب
مما كره الله تعالى لعباده ، ونهاهم عنه ، وحظره عليهم تخلى الله تعالى
عن فاعله خذلاناً له ، لأنه آثر معصيته على طاعته ، وسخطه على
رضاه ، ثم هو إن لم يغفره له بموجب من موجبات المغفرة كالنوبة ، أو
العفو الإلهي ، وعاقبه عليه كان العقاب بمحض العدل ، السيئة بمثلها

(١) الآية (١٣٩) .

فلا خيف ولا ظلم .

وهكذا فقد تقرر ما توخيناه من إثبات هذه الحقيقة ، وتقريرها وهي أن الجزاء ، والثواب ، والعقاب على كسب المرء قائم على أساس الرحمة ، والعدل الإلهيين ، خال من كل معنى للإساءة أو الظلم . وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

(١) سورة النساء الآية (٤٠) .

الحسنة والسيئة من الله تعالى أو من النفس

بين يدي الحديث عن الحسنة والسيئة ، وهل هما من عند الله تعالى ؟ أو الحسنة من الله ، والسيئة من النفس ، نظراً إلى قوله تعالى من سورة النساء :

﴿ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۝ ^(١)

مع قوله عز وجل من نفس السورة ، وذات النفاق :

﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝ ^(٢)

أقول بين يدي تحقيق هذه المسألة ، والتي هي جزء هام من مسائل عقيدة المؤمن ، وذات صلة وثيقة بموضوع القضاء والقدر ، والجبر والاختيار ، والإرادة والمشيئة ، والجزاء بالرحمة ، والعدل ، وهما ما سبق لنا القول فيه بالتفصيل ، وبالقدر الذي فتح الله علينا به ، ورأينا أنه كاف والحمد لله في تحقيق المعتقد الذي يُرضي الله تعالى ،

(١) الآية (٧٨) .

(٢) الآية ٥ (٧٩) .

ويرضاه من عبده ، وَيَرْضَى بِهِ عَنْهُ . أقول : إن الحسنة وهي ما يحسن لدى الإنسان مما يلائم مزاجه فيورث باطنه صفاء وطهرأ ، أو جسمه نعمة ونضرة ، وهي بهذا المعنى قسمان :

الأول : حسنة سببها الإيمان والعمل الصالح ، أو هي حسنة الطاعة لله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

الثاني : حسنة سببها الإنعام الإلهي على العبد بما يريح جسمه من الوصب ، ونفسه من الغم والهم ، وذلك بما يؤتاه من مال ، وسلامة بدن ، ونصر ، وعز ، ومجد .

والسيئة ضد الحسنة وهي ما لا يحسن لدى الإنسان مما لا يتلاءم مع مزاجه وطبعه ، أو هي ما يسوءه في باطنه ، ويضره في ظاهره ، وهي بهذا المعنى قسمان أيضاً :

الأول : سيئة سببها الشرك والمعاصي إذ هما حسب سنة الله تعالى يورثان النفس ظلمة وخبثاً ، فتمرض لذلك وتشقى .

الثاني : سيئة سببها الانتقام الإلهي ، وذلك كأضرار الجسم وعقله ، وضياع المال ، والهزيمة في الحروب ، وفقد الشرف ، وذهاب الكرامة .

وبناء على هذا الذي تقدم فالحسنة التي هي بمعنى الطاعة لله . ورسوله صلى الله عليه وسلم يوفق العبد لفعلها ، والأتیان بها على الوجه الذي شرع الله تعالى لعباده ، هذه الحسنة لا تُنسب إلا إلى الله تعالى ، إذ هو الذي شرعها للعبد ، وعلمه إياها ، وأمره بفعلها ، وأعانها عليها ، ووعد بحسن المثوبة عليها ترغيباً له في فعلها ، كما أنه كتبها له أزلاً وقضى بها له قدرأ . فهذه الحسنة نسبتها إلى غير الله تعالى خطأ فاحش لا يُقر عليه أبداً .

والسيئة التي هي بمعنى معصية الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ومخالفتها في أمرهما ونهيها ، هذه السيئة إذا فعلها العبد بإرادته واختياره مؤثراً المعصية على الطاعة ، والمخالفة على الامتثال ، فهذه السيئة لا تُنسب إلا إلى العبد فاعلمها ، ولا تصح نسبتها إلى الله تعالى أبداً ، لأن الله تعالى لم يشرعها ، ولم يأمر بها ، ولم يرغب فيها ، بل حرّمها ، وتوعد عليها منفراً منها فكيف تصح نسبتها إلى الله تعالى ؟ اللهم لا ، وكيف والله تعالى يقول :

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾^(١)

وأما إن كانت الحسنة بمعنى النعمة والبلاء بالخير كالمال والولد ، والصحة والعافية في ذلك ، وكالنصر والظفر ، والعز والجاه ، وكانت السيئة بمعنى النقمة والابتلاء بالشر وذلك كالنقص في المال والنفس والهزائم في الحروب ، وما إلى ذلك من الشدائد والكروب فكلاهما - أي الحسنة والسيئة - من هذا النوع - كلاهما من عند الله تعالى ، لأنه عز وجل هو الذي يبلو عباده امتحاناً ، وانتقاماً حسب مقتضيات رحمته في تربية عباده ، وتديير شأنهم . قال تعالى :

﴿ وَنَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾^(٢)

وقال عز من قائل :

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ
وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ۝ كَلَّا
بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ﴾^(٣)

(٢) سورة الأنبياء الآية (٣٥) .

(١) سورة النساء الآية (٧٩) .

(٣) سورة الفجر الآيات (١٥ - ١٧) .

ومن هنا لما كان المنافقون بالمدينة ينسبون الحسنة بمعنى النعمة إلى الله تعالى ، وينسبون السيئة بمعنى النقمة ، والبلاء ، والشر ينسبونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رد الله تعالى عليهم قولهم هذا ، وعابه عليهم ، ونسبهم إلى سوء الفهم ، وقلة الإدراك ، وأخبر مقرأ أن كلاً من هذين النوعين من الحسنة والسيئة هما من عند الله تعالى . قال عز وجل :

﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ قَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ ^(١)

وبهذا زال والحمد لله الإشكال الذي كان يقف عنده كثير من المؤمنين حيارى يكادون أن يقولوا : إن بين الآيتين تناقضاً أو تعارضاً في حين أنه لا تناقض بينهما ولا تعارض وحاشا كتاب الله تعالى أن يضرب بعضه بعضاً تناقضاً أو تعارضاً ، وكيف يكون ذلك والله منزله وهو العزيز الحكيم يقول :

﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ ^(٢)

ويحسن التنبيه هنا إلى أن العبد وإن نسبت إليه السيئة التي هي المعصية لله ولرسوله ﷺ ، والتي يترتب عليها تدسية النفس وتاوينها ليس معنى ذلك أن العبد قد فعل ما لم يكن قد كتب عليه أزلاً ، وقضى به عليه قدراً ، لا والله ، بل ما فعل العبد إلا ما كتب عليه أن يفعله ، كما أن كون العبد أبى المعصية باختياره وفعله بنفسه مريداً لها ، لا يدل

(١) سورة النساء (٧٨) .

(٢) سورة فصلت الآيتان (٤٣ - ٤٤) .

على أنه خلق فعله فيها ، بل الخالق هو الله الذي خلقه وخلق إرادته واختياره .

وإنما لم تنسب السيئة التي هي المعصية لله ورسوله ﷺ لم تنسب إلى الله تعالى ، لأن الله تعالى قد حرّمها ، ونهى عن فعلها ، وتوعد عليها ، ولم يرضها لعبده كما رضي له الطاعة ، إذ قال تعالى من سورة الزمر :

﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾^(١)

مع العلم والتسليم بأن الله تعالى لو شاء أن يحول بين العبد وبين فعله المعصية أو الطاعة لفعل ، وهو على ذلك لو شاء قدير ، لكنه لم يفعل ، لأنه خلق هذا المخلوق ليتليه في هذه الحياة قال تعالى :

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾^(٢)

فلذا مُنح العبد إرادة واختياراً يتأتى لكل امرئ بهما أن يسلك أي سبيل من سبل الهدى أو الضلال ، الغي أو الرشاد ، ويسلوكة الذي أراده واختاره يصل إلى الغاية التي جعل السبيل مؤدياً إليها - سنة الله

﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(٣)

(١) الآية (٧) .

(٢) سورة الملك الآيتان (٢، ١) .

(٣) سورة فاطر الآية (٤٣) .

بحث مهم في المشيئة

وأخيراً إنه قد يظن البعض أن مشيئة العبد كافية في إيجاد ما يريده ، ويرغب في حصوله ، وهو ظن باطل خاطيء قطعاً . وذلك : -

أولاً : - أنه قد ثبت بالمشاهدة والحس أن العبد كثيراً ما يريد الشيء ، ويرغب في تحصيله ، ويبدل كل وسيلة من شأنها أن تحقق الشيء المطلوب ، ثم يخيب العبد في سعيه ، ولا يفوز بمراده .

وثانياً : - أن القدر قد سبق في كل ما هو كائن إلى يوم القيامة فلم يكن في الكون إلا ما كتب أزلاً ، وقدر أن يكون . وبهذا يعلم أن مشيئة العبد التي يتحقق بها المراد هي نفسها مكتوبة أزلاً ، ومحكوم بوجودها في إبانها ليتحقق بها ذلك الفعل الذي أراد العبد أن يفعله ، وأثر فعله واختاره على غيره وفي هذا يُقرأ قوله تعالى :

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)

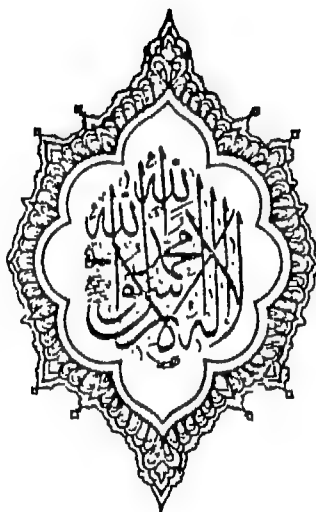
وتوضيح ذلك أن العبد ليس له أن يشاء إلا ما سبق به الكتاب فإذا سبق كتاب المقادير بشيء يقع على يد العبد أوجد الله تعالى للعبد مشيئة تدفعه إلى إتيان العمل . وخلق له اختياراً في نفسه يرجع به الفعل على التبرك فيكون ذلك المقدور .

(١) سورة التكوين الآية (٢٩) .

وبهذا تتأكد الحقيقة العظمى وهي أن الرب غير العبد ، وأن العبد
غير الرب سبحانه وتعالى ، ويتبع ذلك أن لا تكون للعبد مشيئة مستقلة
عن مشيئة الرب ، وساقطة لها . وأن لا يكون للعبد من حق أن يسأل
الرب تبارك وتعالى : لم فعل كذا ؟ أو لم لم يفعل كذا ؟ قال تعالى :

﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾^(١)

(١) سورة الأنبياء الآية (٢٣)



الخاتمة

وأخيراً إن الإيمان بجميع أركانه وإن كان مطلوباً لذاته كما هو ظاهر نصوص الكتاب والسنة المطالبة بذلك كقوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَ وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(١)

وكقول الرسول صلى الله عليه وسلم في جواب من سأله عن الإيمان : «الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكُتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره»^(٢).

فإنه بالنظر إلى ما يترتب عليه من حب الله تعالى ، وتعظيمه ، وخشيته ، والإنابة إليه ، وطاعته بفعل محابه ، وترك مكارهه ، وحب رسوله ، وتعظيمه وطاعته والائتساء به ، ومتابعته ، هو وسيلة لإغاية ، ذلك أن الباعث النفسي على طاعة الله تعالى بالاستقامة على شريعته هو الإيمان بالله تعالى بصادق وعده ووعيده ، إذ لولا ذلك ما تمت الاستقامة لأحد على طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه

(١) سورة النساء الآية (١٣٦) .

(٢) رواه مسلم (١ / ٣١)

وسلم . لهذا صح أن ينظر إلى الإيمان على أنه وسيلة لا بد من تحقيقها ، وذلك لتوقف الاستقامة عليه .

وهذا بيان ذلك : -

١ - الإيمان بالله تعالى وسيلة لطلب معرفته بأسمائه وصفاته ، ولحبه وتعظيمه ، وطاعته وخشيته ، والتقرب إليه بفعل محابه ، واجتناب محارمه ، يشهد لهذا ، ويدل عليه قوله تعالى :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾^(١)

إذ علق تعالى حصول ما طلبه منهم على إيمانهم .

٢ - الإيمان بالملائكة وسيلة إلى الاعتبار بطاعتهم لأنهم :

﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾^(٢)

ووسيلة إلى الاستحياء منهم ، والاستئناس بهم لعلم المرء بأن الكرام انكاتبين عن يمينه وشماله لا يفارقونه ، كما أنه وسيلة إلى معرفة عظمة الله تعالى فيهم^(٣) ، وقدرته عليهم إذ يقول تعالى :

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾^(٤)

٣ - الإيمان بالكتب وسيلة إلى الإيمان بالله تعالى ، ومعرفة علمه ، وأسمائه ، ووعدته ووعيده ، كما هو وسيلة إلى تصديق الرسل الذين أرسلوا بها ، وأنزلت عليهم ، ووسيلة أيضاً إلى معرفة شرائع الله

(١) سورة الأنفال الآية (١) .

(٢) سورة التحريم الآية (٦) .

(٣) جاء في الصحيحين : أن الرسول ﷺ رأى جبريل وله ستمائة جناح . اللؤلؤ والمرجان (١) /

(٤١) ، والبخاري (٤ / ١٤٠) ومسلم (١ / ١٠٩) .

(٤) سورة النحل الآية (٥٠) .

تعالى ، وجميع ما يحبه الله ، ويرضاه ، أو يكرهه ويسخطه من المعتقدات ، والأقوال ، والأفعال ، وإلى معرفة الغيب وأحوال الدار الآخرة .

٤ - الإيمان بالرسول وسيلة إلى معرفة تطبيق شرائع الله تعالى ، وبيان كيفية أداء عباداته ، ووسيلة إلى محبة الرسول الباعثة على طاعتهم ، واتباعهم والتزام شرائعهم .

٥ - الإيمان باليوم الآخر وسيلة إلى فعل الخيرات ، وترك المنكرات بما يوجد في النفس من الرغبة فيما عند الله من خير في الدنيا والآخرة ، وبما يوجد لها من الخوف من عذاب الله ، والرهبة من عقابه .

٦ - الإيمان بالقدر وسيلة إلى ترك الحزن على ما فات من متاع الحياة ، وترك الفرح الحامل على البطر والأشر بما يُؤتي الإنسان من حطام الدنيا ، ومتاعها الزائل . كما هو وسيلة إلى الصبر والتحمل ، والطمأنينة والسكون^(١) .

وبناء على كل الذي سبق فإنه يتبين بوضوح أن كل ركن من أركان الإيمان الستة المكونة لعقيدة المؤمن يشمر للمؤمن ثمرة خاصة ، فالإيمان بالله تعالى يشمر محبة الله ، وتعظيمه ، وطاعته ، وخشيته . والإيمان بالملائكة يشمر الاعتبار بطاعتهم ، والاستحياء منهم ، والاستئناس بهم ، والإيمان بالكتب والرسول يشمر قوة الإيمان بالله تعالى ، ويشمر معرفة ، شرائعه ، وكيفية أدائها . والإيمان باليوم الآخر يشمر الرغبة في فعل الخيرات ، والنفرة من الشرور ، والمفاسد ،

(١) قال الله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ، لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَتَكُمْ ، وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ . سورة الحديد الآيتان (٢٢ ، ٢٣) .

والمنكرات . والإيمان بالقدر يثمر سكون النفس ، ورضاها ، وطمأنينة القلب ، وهدوءه ، وهدايته ، وذلك بتخليص النفس من الفرح بالحياة الدنيا ، والغم على ما فات منها ، ومن الهم على ما قد يفوت المرء منها .

وبالنظر في هذا والتأمل فيه نجد أن الإيمان وسيلة للحصول على تلك الثمرات التي يثمرها كل جزء من أجزائه ، كما نجد أن تلك الثمرات هي وسيلة إلى غاية من أشرف الغايات وهي كمال الإنسان الذاتي والروحي ، وسعادته في الدنيا والآخرة ، إذ كل كمال للإنسان ، وسعادة له مردهما إلى طاعة الله ورسوله تلك الطاعة المزكية للنفس ، والمؤهلة للانسان لدخول دار السلام .

قال الله تعالى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۖ ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ۖ ﴾ (٢)

تم تحرير هذا الكتاب في الفاتح من رمضان سنة ١٣٩٦ هـ
والحمد لله أولاً وآخراً ، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان
على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

(١) سورة الشمس الآيتان (٩ ، ١٠) .

(٢) سورة النساء الآيتان (٦٩ ، ٧٠) .

المراجع

- ١ - في التفسير :
 - ١ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - محمد الأمين الشنقيطي المتوفى ١٣٩٣هـ الطبعة الأولى بمطبعة المدني .
 - ٢ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم - لأبي السعود - طبعة دار العصور للطباعة والنشر .
 - ٣ - التسهيل لعلوم التنزيل - لابن جزي المتوفى (٧٤١هـ) - الطبعة الثانية (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م) الناشر دار الكتاب العربي - بيروت .
 - ٤ - تفسير القرآن العظيم - لابن كثير المتوفى (٧٧٤هـ) مطبعة عيسى البابي وشركاه .
 - ٥ - جامع البيان في تفسير القرآن - لابن جرير الطبري المتوفى (٣٠١هـ) الطبعة الثانية (١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م) دار المعرفة للطباعة والنشر .
 - ٦ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي المتوفى (٦٧١هـ) الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتب المصرية .
 - ٧ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - للألوسي المتوفى (١٢٧٠) الطبعة الثانية المطبعة المنيرية .

٨ - غرائب القرآن و رغائب الفرقان لنظام الدين النيسابوري المعروف بالقمي مطبوع مع تفسير ابن جرير .

٩ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني المتوفى (١٢٨١ هـ) مطبعة الحلبي وأولاده .

١٠ - الفتحاح الإلهية على الجلالين لسليمان الجمل المتوفى (١٢٠٤ هـ) مطبعة الحلبي وشركاه .

١١ - في ظلال القرآن لسيد قطب - الطبعة الثانية - مطبعة الحلبي وشركاه .

١٢ - المنار للإمامين محمد عبده ورشيد رضا المتوفى (١٣٥٤ هـ) - الطبعة الرابعة أصدرتها دار المنار بسمر ١٣٧٣ هـ ، ١٩٥٤ م .

ب - كتب الحديث :

١ - تحفة الأحوذى على جامع الترمذى - للمباركفوري المتوفى (١٣٧٣ هـ ، ١٩٥٤ م) مطبعة الحلبي .

٢ - الترغيب والترهيب للمنزري المتوفى (٦٥٦ هـ) الطبعة الثانية . (١٣٧٣ هـ ، ١٩٥٤ م) مطبعة الحلبي .

٣ - تنوير الحوالك شرح موطأ مالك للسيوطي المتوفى (٩١١ هـ) مطبعة الحلبي .

٤ - جامع الأصول لابن الأثير الجزري المتوفى (٦٠٦ هـ) تحقيق عبد القادر الأرناؤوط الطبعة الأولى (١٣٨٩ هـ ، ١٩٦٩ م) مطبعة الملاح .

٥ - جمع الوسائل في شرح الشمائل - لعلي القاري المتوفى (١٠١٤ هـ) - الطبعة الثانية بمطبعة دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت .

- ٦ - سبل السلام على بلوغ المرام للصنعاني المتوفى (١١٨٢هـ)
الطبعة الرابعة (١٣٧٩هـ ، ١٩٦٠م) مطبعة الحلبي .
- ٧ - السندي على سنن ابن ماجه القزويني - السندي المتوفى (١١٣٨هـ) للطبعة الأولى بالمطبعة النازية بمصر .
- ٨ - سنن أبي داود - الطبعة الأولى (١٣٧١هـ - ١٩٥٢م) مطبعة الحلبي .
- ٩ - سنن الترمذي - للترمذي المتوفى (٢٧٩هـ) المطبعة الوطنية بحمص - (١٣٨٥هـ ، ١٩٦٥م) .
- ١٠ - سنن الدارمي - لعبد الله الدارمي المتوفى (٢٥٥هـ) بتحقيق عبد الله هاشم يمانى - شركة الطاعة الفنية المتحدة .
- ١١ - السيوطي على النسائي ومعه حاشية السندي (١١٦٣) - المطبعة المصرية بالأزهر .
- ١٢ - شرح الموطأ للزرقاني - مطبعة مصطفى محمد (١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م) .
- ١٣ - شرح النووي على صحيح مسلم - للنووي المتوفى (٦٧٦هـ) المطبعة المصرية ومكتبتها .
- ١٤ - صحيح البخاري - للبخاري - مطبعة محمد علي صبيح وأولاده - تسعة أجزاء ، صحيح مسلم - لمسلم المتوفى (٢٦١هـ) منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع بيروت .
- ١٥ - عمدة القاري شرح صحيح البخاري - للبدر العيني المتوفى (٨٥٥هـ) المطبعة المنيرية .

١٦ - عون المعبود شرح سنن أبي داود . الطبعة الثانية (١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م) .

١٧ - فتح الباري شرح صحيح البخاري - لابن حجر العسقلاني المتوفى (٨٥٢ هـ) طبعة الحلبي (١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م) .

١٨ - الفتح الرباني لترتيب مسند الامام أحمد الشيباني - للساعاتي - الطبعة الأولى - مطبعة الفتح الرباني .

١٩ - اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - لمحمد فؤاد عبد الباقي - الطبعة الأولى - مطبعة الحلبي .

٢٠ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - لنور الدين الهيثمي المتوفى (٨٠٧ هـ) الطبعة الثانية (١٩٦٧ م) .

٢١ - مستدرك الحاكم على الصحيحين - للحاكم المتوفى (٤٠٥ هـ) - نشر مكتبة مطابع النصر الحديثة بالرياض .

٢٢ - مسند الامام أحمد - لأحمد بن حنبل المتوفى (٢٤١ هـ) الطبعة الأولى (١٣٨٩ هـ ، ١٩٦٩ م) المكتب الإسلامي دار صادر .

ج - كتب العقيدة :

١ - آكام اللؤلؤ والمرجان في أخيار الجان للشبلي الحنفي المتوفى (٧٦٩ هـ) طبعة محمد علي صبيح (١٣٧٦ هـ) .

٢ - الإسلام في عصر العلم للغمراوي - الطبعة الأولى (١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م) مطبعة السعادة .

٣ - الإسلام يتحدى - لوحيدين الدين خان - الطبعة الأولى (١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م) .

٤ - إلى التي سألت : أين الله ؟ للامتاز أحمد بهجت .

٥ - الإيمان - لابن تيمية المتوفى (٧٢٨هـ) المكتب الإسلامي بدمشق (١٣٨١هـ ، ١٩٦١م) .

٦ - التوسل ، أنواعه ، وأحكامه - للألباني - الطبعة الأولى .

٧ - تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب المتوفى (١٢٣٣هـ) الطبعة الثانية (١٣٩٠هـ) طبعة المكتب الإسلامي .

٨ - شرح الطحاوية بتحقيق الألباني - الطبعة الرابعة (١٣٩١هـ) المكتب الإسلامي بيروت .

٩ - الشرك ومظاهره - للميلي الجزائري - الطبعة الثانية (١٩٦٦م) .

١٠ - العقيدة الإسلامية وأسسها - عبد الرحمن حسن جبكة .

١١ - قصة الإيمان - للنحس - الطبعة الثالثة (١٣٨٩هـ) - (١٩٦٩م) المكتب الإسلامي .

١٢ - الكواشف الحية عن معاني الواسطية - لعبد العزيز السلمان - الطبعة الرابعة بمؤسسة مكة للطباعة والنشر دار الاعلام .

١٣ - لوامح الأنوار البهية - للسفاريني - المتوفى (١١٨٨) الطبعة الأولى .

د - كتب السيرة :

١ - البداية والنهاية - لابن كثير المتوفى (٧٧٤هـ) الطبعة الأولى (١٩٦٦م) دار النصر للطباعة .

٣ - سيرة ابن هشام - لابن هشام المتوفى (٢١٨هـ) بتعليق الهراس ، نشر مكتبة الجمهورية لصاحبها عبد الفتاح مراد .

- ٤ - محمد المثل الكامل - لمحمد أحمد جاد المولى - الطبعة الرابعة (١٣٧١هـ ، ١٩٥١م) مطبعة الاستقامة .
- ٥ - مختصر سيرة الرسول . لعبد الله بن محمد بن عبد الوهاب المتوفى (١٢٤٤هـ) مطابع الحكومة بمكة .
- هـ - كتب اللغة :
- ١ - دائرة معارف القرن العشرين - لفريد وجدي المتوفى (١٣٧٣هـ) - الطبعة الثالثة (١٩٧١م) دار المعرفة للطباعة والنشر .
- ٢ - القاموس المحيط - للفيروزابادي المتوفى (٨١٧هـ) المطبعة الحسينية المصرية .
- ٣ - لسان العرب لابن منظور - دار بيروت للطباعة والنشر .
- ٤ - مختار الصحاح - للرازي المتوفى (٦٦٦هـ) الطبعة الأولى (١٩٧٦م) .
- ٥ - منجد الطلاب - لمعلوف - الطبعة السابعة عشرة .

الفهرست

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
حاجة الإنسان إلى العقيدة وضروته له	١١
الإنسان - تعريفه - بدأ خلق الإنسان - حقوقه - الآيات القرآنية في خلق آدم وذريته . الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتأب بها عليه - مادة خلق كل من الملائكة ، والجان وآدم عليه السلام : إتيان الناس آدم يوم القيامة ليشفع لهم عند الله تعالى واعتذاره إليهم - احتجاج موسى على آدم عليهما السلام ، وغلبة آدم في الحجة - فضل يوم الجمعة على سائر الأيام خلق ذرية آدم كان بالخلق التدريجي وخلق آدم عليه السلام كان بالخلق المباشر الإنسان في معتقد بعض الملاحدة وكونه متحولاً عن خلية هبطت من بعض الكواكب ، ثم ارتقى إلى حيوان رديء ثم إلى حيوان أرقى ثم إلى إنسان - نظرية النشوء والارتقاء والتطور - عامل الوراثة - بم يكون الشبه في الولد . السنن الكونية هي من خلق الله تعالى ، فلذا هو إن شاء أوقفها وإن شاء أمضاها . سنة التدرج في خلق بني آدم - سنن الله تعالى في الكون سماها الملاحدة بالقوانين الطبيعية تضليلاً وتغريراً - الاعتراضات على النظرية الداروينية - نقض النظرية الداروينية في خلق الإنسان وإثبات أن آدم عليه السلام خلق بالخلق المباشر - قول أحد العلماء	

- الغريبين في النظرية الداروينية : أنها أبوها الكفر وأمها القذارة !!
 ٢٣ العقيدة - تعريفها بأدق معنى وأوضحه
 حاجة الانسان إلى العقيدة - إبطال فرية الماركسية في أن الإنسان هو
 الذي خلق الإله - إبطال مزاعم الملاحدة في أن الانسان اليوم قد
 ٢٤ استغنى عن الإيمان بالله تعالى وعن التدين - سرانكار الملاحدة للدين .
 ٢٨ بيان وجه ضرورة الدين - "سان - إبطال دعوى أن العقل في إمكانه
 الاستقلال بهداية الإنسان دون الدين - بيان المراد من الدين
 الضروري لإكمال الإنسان والسعادة وأنه الدين الإسلامي لا غير -
 دعوة عقلاء العالم إلى الدين الإسلامي ، إذ هو الدين الوحيد الكفيل
 بإسعاد الإنسان ، لأنه لم يحرف ولم يبدل بخلاف غيره من الأديان فنها
 فسدت بالتحريف والتبديل والنقصان والزيادة التي وقعت فيها . . .
 ٣٣ الإيمان بالله رب العالمين - وبيان المسلك الصحيح في إثبات وجود الله
 تعالى - مثل من أنكر وجود الله وكفر به لمجرد أن عرف بعض ظواهر
 الطبيعة - مناقشة لكلمات الطبيعة ، والضرورة ، والصدفة وتعريف
 كل منها - لم يكفر الملاحدة بالله تعالى إلا فرارا من الطاعة والنظام -
 بيان معنى الصدفة - أمثلة لبطلان الصدفة بيان معنى الضرورة التي
 يقول بها الملاحدة
 ٤٣ معرفة الله جل جلاله ، ومراتب المؤمنين فيها
 ٤٥ الطريقة الأولى من طرق الهداية العقلية
 ٤٦ قانون العلة وبيانه ، قانون الوجوب وبيانه - قانون الحدوث وبيانه -
 قانون النظام وبيانه - قانون العناية بالانسان وبيانه .
 ٥٢ مظاهر العناية بالانسان في الكون
 ٥٦ الهداية الدينية وبيان كونها تجمع بين الهدايتين العقلية والشرعية . . .
 ٧٦ مقارنة بين الايمان بالله تعالى والايمان بالطبيعة العمياء

الموضوع	الصفحة
أسماء الله تعالى وصفاته - ذكر مبدأين هامين في باب الاسماء	
والصفات	٧٨
خلاصة بحث الأسماء والصفات - براءة واعتذار	٨٢
التوحيد	٨٥
توحيد الربوبية	٨٩
فطرية الإقرار بالربوبية	٩٠
الإلحاد الشيوعي - عوامل الإلحاد في العالم	٩١
أوروبا الضحية الأولى للإلحاد الشيوعي	٩٤
شرك الربوبية ومظاهره في الأمة الإسلامية	٩٨
توحيد الألوهية - الإيمان بالله تعالى والكفر بالطاغوت هو مدلول لا إله إلا الله - لا تكون العبادة قرينة إلا إذا توافر لها العلم بها ، ومعرفة كيفية أدائها وإفراد الله تعالى بها	١٠٢
الشرك في الألوهية ، ومظاهره في الأمة الإسلامية ، وتعريف الشرك	١٠٧
الذات المقدسة - صفات الله تعالى وأسمائه	١٠٩
بيان ما يرتكبه المؤول لصفات الله تعالى من جهل وخطأ وكفر ...	١١١
عبادات الله تعالى وبيانها بالتفصيل ، وبيان كيف يوحد الله بها ...	١١٢
أعمال القلوب - المحبة وبيانها	١١٣
الخوف والخشية وبيان الفرق بينهما - الرجاء والرغبة	١١٥
الإنابة وبيان كل منها	١١٦
التوكل وبيان أعمال الجوارح - الدعاء	١١٧
الاستغاثة وبيانها - النذر وبيانها - ذبح القربان وبيانها - الركوع والسجود - الطواف بالبيت وتقيل الحجر الأسود - سائر أنواع العبادات - ترك طاعة الله ورسوله للرغبة أو الرهبة - تعظيم الله تعالى بالحلف به - الوسيلة - تعريف الوسيلة لغة وشرعا - مبنى الوسيلة	١١٩

	الشرعية على ثلاثة أمور - شروط الوسيلة النافعة ثلاثة وبيانها - بيان ما يجوز من الوسيلة وما لا يجوز منها مع أمثلة للوسائل المحرمة - التوسل في الأمور الإلهية
١٣٢	الوسائل المشروعة - التوسل بالإيمان وبيان أنه من أشرف الوسائل ..
١٣٣	الصلوة والصيام من أشرف الوسائل وأنفعها
١٣٤	التوسل بالصدقات من طيب المال ويطيب النفس الحج والاعتماد من الوسائل المفيدة في الحصول على الرغائب
١٣٥	الجهد والرباط وكونهما من أعظم الوسائل للقرى بالقرب من الله تعالى تلاوة لقرآن الكريم ، والذكر والتسبيح من الوسائل النافعة
١٣٦	الصلوة على النبي صلى الله عليه وسلم من الوسائل النافعة
١٣٧	الاستغفار من الوسائل المشروعة النافعة
١٣٨	الدعاء - دعاء المؤمن من الوسائل المجدية النافعة
١٣٩	التوسل بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا
١٤١	فعل الخيرات وترك المحرمات من الوسائل النافعة جداً
١٤٢	الوسائل المحرمة - دعاء الصالحين
١٤٤	النذرهم - الذبائح على قبورهم
١٤٥	العكوف حولها - سؤال الله تعالى بجاء فلان
١٤٦	سؤال الله تعالى بحق فلان
١٤٧	تنبيه هام في ثلاث شبه وردت في أربعة أحاديث : حديث الضيرر وحديث استسقاء عمر بالعباس رضي الله عنهما وحديث اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك - وحديث فاطمة بنت أسد رضي الله عنها
١٤٩	الاستشفاع والشفع والشفاعة
١٥٢	قياس خاطيء في مسألة الشفاعة

الموضوع	الصفحة
الشفاعة في الآخرة وهي قسمان ثابتة ومنفية - شفاعات الرسول صلى الله عليه وسلم ومنها الشفاعة العظمى في فصل القضاء	١٥٩
شروط الشفاعة المثبتة	١٦٦
التبرك وبيان حقيقته	١٦٧
بم يكون التبرك ؟	١٦٨
كيف يكون ؟ وبيان حقائق هامة في باب التبرك	١٦٩
الولاية والكرامة - بيان أصل الولاية وشرطها	١٧١
الفرق بين ولاية الرب للعبد وولاية العبد للرب تبارك وتعالى	١٧٤
الولي - معنى موالاة الله تعالى للعبد	١٧٥
الكرامة وهي خاصة وعامة - وبيان أحوال أهلها	١٧٧
مراتب الأولياء	١٨٠
تقارير هامة تتعلق بالأولياء والكرامات	١٨٢
أولياء الشيطان ومهاناتهم	١٨٤
الإيمان بالملائكة وهو الركن الثاني من أركان عقيدة المؤمن - مقدمات هامة في هذا الشأن تجعل الإيمان بالملائكة يقيناً في نفس المؤمن	١٨٦
الأخبار	١٩٠
الأثار	١٩٣
الإيمان بالملائكة أحد أركان العقيدة الإسلامية	١٩٤
خلق الملائكة - مادة الخلق	١٩٦
تفاضل الملائكة - أعمال الملائكة	١٩٧
بعض صفات الملائكة	٢٠٤
الجن والشياطين	٢٠٨
أدلة وجود الجن والشياطين	٢١٠
وجوب الإيمان بالجن والشياطين	٢١٨

الصفحة	الموضوع
٢١٨	بعض معلومات هامة عن الجن والشياطين ، وذلك كتوالدهم وتغذيتهم ومادة خلقهم وما إليه من معلومات تتعلق بعلمهم
٢٣١	فائدة عظيمة النفع في دفع الشيطان
	الركن الثالث من أركان عقيدة المؤمن : الإيمان بالكتب - تعريف
٢٣٤	الكتب - حقيقة الإيمان بالكتب
٢٣٥	ما عرف من الكتب الإلهية ، وما لم يعرف
٢٤٠	على أي دليل آمن المؤمن بالكتب
٢٤٥	أدلة وجوب الإيمان بالكتب وكونه ركن الإيمان
٢٤٨	منزلة القرآن الكريم بين كتب الله تعالى
٢٥٢	لوحه مشرقه ببيان ما في القرآن من الهدى والخير
٢٥٦	شروط الانتفاع التام بما في القرآن من الخير والهدى
٢٥٨	تقرير أخير لعقيدة المؤمن في الكتب الأربعة : القرآن ، والتوراة والإنجيل والزبور
٢٦١	الركن الرابع من أركان عقيدة المؤمن : الإيمان بالرسل عليهم السلام
	إمكان الوحي - تعريف الوحي
٢٦٣	الوحي الإلهي وطرقه - تعريفه
٢٦٧	ضرورة الوحي وحاجة الناس إليه
٢٦٨	النبوة - تعريفها
٢٦٩	النبي تعريفه - مؤهلات النبوة
٢٧٠	المثالية - شرف النسب - عامل الزمن
٢٧٢	صفات الأنبياء - الصدق - الأمانة - التبليغ - الفطنة
٢٧٤	الرسل عليهم السلام - الرسل في التاريخ
٢٧٥	عدد الرسل
٢٧٦	زمن وجود كل منهم

الموضوع	الصفحة
ديارهم	٢٧٧
أولو العزم منهم	٢٧٨
وجوب الايمان بالرسول عليهم السلام	٢٨٠
محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - التعريف به - نشأته - زواجه - أولاده	٢٨٣
عناية الله تعالى به	٢٨٥
نبوته وبعثته	٢٨٦
بدء دعوته	٢٨٨
مؤهلاته للنبوّة - كماله الخُلقي - كماله الخُلقي	٢٨٩
رجاحة عقله	٢٩٣
شجاعته	٢٩٥
سياسته	٢٩٦
رحمته	٢٩٨
كرمه - عدله	٣٠٠
عفوه وحلمه	٣٠١
شرف نسبه - طهارة أرومته	٣٠٣
وجوب الايمان بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم - أدلة ذلك - شهادة الكتب السابقة له على نبوته - ما جاء من البشارات بنبوته في التوراة والانجيل	٣٠٤
شهادة علماء أهل الكتابين بنبوته صلى الله عليه وسلم	٣٠٦
شهادة بلّالين المسلمين بنبوته ورسالته وإيمانهم بها - شهادة الله تعالى له بنبوته	٣١٠
شهادته وهي قسمان : شهادة أخبار	٣١١
شهادة معجزات - المعجزات المحمدية وذكر عدد منها	٣١٢

الصفحة

الموضوع

- ٣١٧ ختم النبوات بنبوءة محمد صلى الله عليه وسلم وأدلة ذلك العقلية
والسمعية الشرعية :
- ٣٢١ الركن الخامس من أركان عقيدة المؤمن بالإيمان باليوم الآخر - تعريف
اليوم الآخر - إمكان الفناء وأدلته
- ٣٢٣ إمكان المعاد وأدلته - البعث وأدلته
- ٣٢٩ الحكمة في المعاد
- ٣٣١ وجوب الإيمان باليوم الآخر وأدلة ذلك من سمعية وعقلية
- ٣٣٥ ظواهر الانقلاب الكوني أو أشرط الساعة - الآيات الصغرى ما ظهر
منها وما لم يظهر منها إلى الآن - الآيات الكبرى
- ٣٤٤ آيات قرينة جداً من قيام الساعة
- ٣٤٦ بداية الانقلاب الحقيقي
- ٣٤٩ نشوء الحياة الثانية بعد انتهاء الأولى
- ٣٥٢ الحشر والموقف الصعب في عرصات القيامة - تعريف الحشر
- ٣٥٤ فصل القضاء والشفاعة فيه
- ٣٥٦ الحساب والميزان ، بعد إعطاء الناس كتبهم واختلافهم في تناولها ..
- ٣٦٠ الصراط - مرور الناس عليه - دعوة النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ
اللهم سلم سلم
- ٣٦١ القنطرة بين الجنة والنار
- ٣٦٢ دار السلام - سعتها - طيب ريحها - أبوابها - عند باب الجنة - استقبال
أهل الجنة - قصور دار السلام - وتفاضلها
- ٣٦٨ نظرة على أرض الجنة
- ٣٦٩ جنة عدن
- ٣٧٠ تنبيه في الخلق المباشر كآدم وجنة عدن . والغرض من ذلك
- ٣٧١ الخيام والأسواق في دار السلام

الموضوع	الصفحة
أنهار الجنة وأشجارها	٣٧٤
المطاعم والمشارب في الجنة - الأرائك والسرر - نساء دار السلام وحسنهن وجمالهن - الطرب وركوب الخيل في دار السلام	٣٧٦
أكبر نعيم روحاني لأهل دار السلام وهو النظر إلى وجه الرب تبارك وتعالى وهو آخر دار السلام وما فيها من إنعام	٣٨٢
دار البوار - نجى جهنم للناس في الموقف - أبوابها - كيفية الدخول من تلك الأبواب - عذاب أهلها فيها - تلاومهم - خطبة أبليلس في أهل النار - درجة الحرارة في جهنم	٣٨٤
لون نار جهنم - عمقها وبعد فورها - أوديتها - سلاسلها وأغلالها الحيات والعقارب فيها	٣٩٣
طعام أهل النار - الزقوم - الفلسين - الضريع	٣٩٩
مشارب أهل النار - الحميم - الصديد - المهل - ماء نهر الغوطة ...	٤٠٢
فحش أجسام أهل النار - قبح منظرهم - تفاوتهم في العذاب - بكاء أهل النار وعويلهم	٤٠٥
البرزخ - تقسيم الحياة إلى ثلاث حيوات ، وبيان كل منها	٤٠٩
مراحل جريان النعيم أو العذاب على الروح وهي في البرزخ - عذاب القبر ونيمة - عروج الروح بعد قبضها وردها إلى جسدها قبل الدفن - سؤال الملكين للميت في قبره	٤١٢
نعيم الروح أو عذابه وهو بعيد عن القبر في عليين أو سجين مع اتصال الروح بالقبر اتصالا مباشرا دائما وأبدا إلى يوم يبعثون	٤١٧
الركن السادس من أركان عقيدة المؤمن الايمان بالقضاء والقدر. الكون ومظاهر التنظيم فيه - ثلاث مقدمات مهمة في التمهيد لمعرفة القضاء والقدر	٤٢٢
القضاء والقدر	٤٣٢

الموضوع	الصفحة
ثمرة الرضاء بالقضاء	٤٣٦
الجبر وحقيقته - أول من قال به	٤٤٠
لا جبر ولا نفي للقدر - الانسان فاعل مختار - والله خالق الانسان وخالق أفعاله	٤٤٢
الأبليسية وبيان مذهبه الفاسد	٤٤٥
إرادة الله تعالى ومشيته - عدم جواز الاحتجاج بالقدر على ارتكاب المعاصي ، وجواز الاحتجاج به على المصائب . حجاج آدم وموسى عليهما السلام	٤٥٥
سوء فهم كثير من الناس لإرادة الله تعالى أوقعهم في الحيرة والخطأ ..	٤٦٤
الهداية والاضلال	٤٦٧
الجزاء من ثواب وعقاب قائم على أساس الرحمة والعنل الاخيرين ..	٤٧١
الحسنة والسيئة من الله تعالى « أو من النفس »	٤٧٥
بحث مهم في المشيئة	٤٨٠
الخاتمة في بيان أن مرد أركان الايمان إلى ما يشمره من أعمال القنوب والجوارح تلك الأعمال التي تطهر الروح ، وتزكي النفس ، وتبهيء الانسان للسعادة والكمال في الحال والمآل	٤٨٣
مراجع الكتاب	٤٨٧

